"هذا بلد يعاني فقدان الذاكرة!"

اسمي نور

إلسا أوسوريو

ترجمة: ريم داوود



روايات مترجمة

تليجرام

هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون

محمد خطاب



اسمي نور



60شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Obra editada en el marco del Programa "SUR" de Apoyo a las Traducciones del Ministerio de Relaciones Exteriores y Culto de la República Argentina

هذا العمل نُشر ضمن برنامج "SUR" لدعم الترجمة الذي تقدمه وزارة الخارجية، والشؤون الدينية الأرجنتينية.

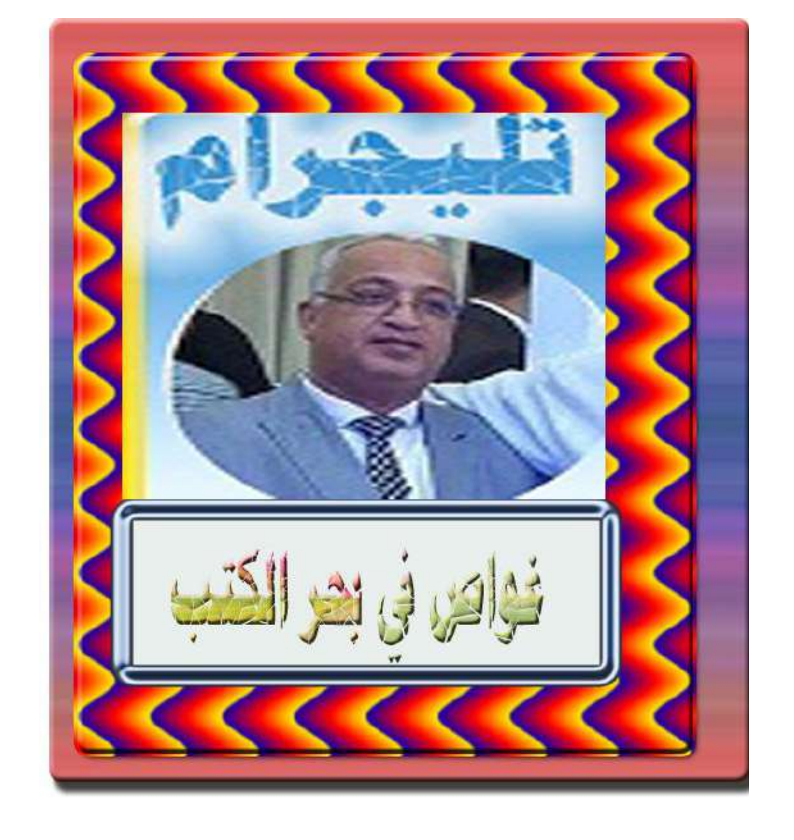
إلسا أوسوريو

اسمي نور

رواية من الأرجنتين

ترجمة: ريم داوود





بطاقة فهرسة

أوسوريو، إلسا

اسمي نور: رواية من الأدب الأرجنتيني/ تأليف: إلسا أوسوريو، ترجمة: ريم داوود.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

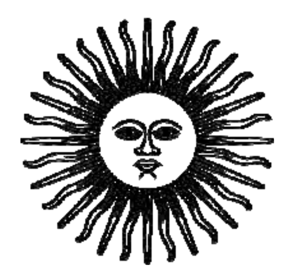
ص؛ سم.

1- القصص الأرجنتينية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 863

1998



هبطت الطائرة بـ"لوث" و"راميرو" وابنهما "خوان" في مطار "باراخاس" بمدريد في تمام الساعة السابعة صباحًا في يوم خميس حارٍ جدًّا. عند مرورهم بميدان "بلازا مايور" في الطريق إلى الفندق، شرحت "لوث" كل ما تعرفه عن تاريخ المكان، ثم استفاضت في الحديث عن الحارات الخلفية الضيِّقة، بباراتها المفتوحة طوال اليوم؛ وصفت لزوجها الطريقة المُتعجرفة التي تُحرِّك بها الراقصات المحترفات أيديهنَّ:

- ستستمتع بمشاهدة رقصة الفلامنكو يا "راميرو"، أما أنت يا "خوان" فسوف نأخذك إلى حديقة "ريتيرو بارك".

أرادت "لوث" - على الأغلب - إقناعهما أو إقناع نفسها بأنهم لم يأتوا لإسبانيا إلا للسياحة والتنزُّه، وليس لدعمها في البحث عن الأمر الذي يشغل بالها منذ ولادة طفلها. بين إرضاعها للصغير، وتغيير حفاضاته، والغناء له بصوتٍ هامس إلى أن يخلد للنوم، ظلت الفكرة تلاحقها وتلحّ على خاطرها، ما دفعها للبحث وإطلاق الأسئلة، والسير في طريقٍ أوصلها في نهاية الأمر إلى هنا.. إلى مدريد.

بعد أن وصلوا إلى الفندق، ونام زوجها وابنها، اتصلت "لوث" بالدليل واستفسرت عن رقم "كارلوس سكويرو". إنه على قيد الحياة إذن.. إنه شخص حقيقي أصلًا! إنه هنا، في مكان ما، في المدينة نفسها.

اتصلت به من التليفون العمومي في مدخل الفندق. تسارعت دقات قلبها. أجابها صوت نسائي مسجّل بأنهم غير موجودين، وبرجاء ترك رسالة عقب سماع الصفارة.

وضعت "لوث" السماعة بسرعة. تساءلت إن كانت المرأة هي زوجة "كارلوس".. تُرى هل أخبرها عن الماضي؟

في نهاية الأمر، قررت أن تُرجئ الاتصال به إلى اليوم التالي. من حق "راميرو" و"خوان" أن يستمتعا بيوم واحد على الأقل مليء بالمرح، كما وعدتهما منذ اللحظة التي قررت فيها السفر إلى هنا. هي نفسها بحاجة إلى الراحة. لكن القلق ظل يُلاحِقُها وهي تضحك وتلاعب "خوان" في طُرقات المدينة.

كيف ستفتحُ الموضوع معه؟ عليها أن تفعل ذلك بشكل مُختصَر، وبعبارات واضحة وصريحة. لن يرفض "كارلوس" لقاءها إن أخبرته بأنها تحمل له رسالة شفهية من "ليليانا". عليها فقط أن تنتقي الكلمات المناسبة. عرض "راميرو" المساعدة، كما فعل عدّة مرات منذ ألحَّت عليها الفكرة.

قال فجأة:

- سنفكر الليلة في عبارات محددة تقولينها له.

لكنها لا تستطيع الانتظار حتى حلول الليل.

- افهمني أرجوك.. أريد أن أنتهي من هذا الأمر، حتى أتخلص من السؤال الذي يُطاردني طوال الوقت.. إن كان هو الشخص الذي أبحثُ عنه أم لا. لا أستطيع إلا أن أُفكِّر فيما سوف يقوله لي، وعن ردّ فعله.

هزّ "راميرو" كتفيه في استسلام. المسألة تخصُّها وحدها. هي فقط التي تملك اتخاذ القرار في كيفية تناول الموضوع.

أجاب "كارلوس" على التليفون.

- آلو..

أمسكت "لوث" بسماعة تليفون الغرفة بكِلْتي يديها، خوفًا من أن تغلق الخط من فرط توترها. راقبها "راميرو" من مسافة قريبة.

- أرغبُ في التحدّث مع "كارلوس سكويرو" من فضلك.

- معك.

كانت لهجته إسبانية تمامًا. أحسّت بالغباء. من الواضح أن الرجل إسباني، ومن ثم فإنه ليس الشخص المقصود. لِمَ كل هذا الخوف؟ مجرد رجل إسباني يحمل الاسم نفسه.. هذا كل شيء.

أتاها صوته ثانيةً:

- من أنتِ؟

الطريقة التي نطق بها سؤاله، أكّدت لها أنه ليس أرجنتينيًّا. لكنها قررت ألا تنهي المكالمة قبل أن تتأكد من الأمر.

- اسمي "لوث".. "لوث إيتورب". أنت لا تعرفني، ولعلّك لستَ "كارلوس سكويرو" الذي أبحثُ عنه. حصلت على رقمك من دليل التليفون هنا في مدريد. ربما كان الشخص الذي أقصده يقيم في مكان آخر.. لستُ متأكدة.

أحسّت بالغباء الشديد عقب أن تفوَّهت بكل هذه العبارات. عليها أن تبدأ ثانية، وأن تكون أكثر وضوحًا. ظَلَّ صامتًا، وهو ما أثار توترها مرة أخرى.

ظل "راميرو" ينتقل بينها وبين الصغير، للاطمئنان عليهما. ارتفع بكاء طفل في الجانب الآخر من الخط.

قال الرجل:

- لحظة واحدة من فضلك.

ثم ارتفع صوته قليلًا:

- "مونستي".. لماذا يبكي الولد؟

قالت "لوث" بسرعة:

- أنا آسفة.. يبدو أنني ارتكبتُ خطأ.

- أأنتِ أيضًا من الأرجنتين؟

"أيضًا"؟! هل حقًّا قال "أيضًا"؟

أجابت بلهفة:

- نعم، أأنت كذلك؟ لأن الشخص الذي أقصده أرجنتيني.

- نعم أنا أرجنتيني، رغم أنني أحاول تناسي ذلك.

أضاف ممازحًا، وهو يضحك:

- حسنًا، أخبريني.. هل الشخص الـذي تبحثـين عنـه وسـيم وموهـوب ولطيـف؟ إن كـان كذلك، فأنا هو بكل تأكيد!

أردف بشيء من الجدية:

- أو ربما هو من ضمن الخمسة أو الستة الذين يحملـون لقـب "سـكويرو" المتنـاثرين في أرجاء أوروبا.

بدا واضحًا أن "كارلوس" مستمتع بالارتباك الذي لم تستطع محدّثته إخفاءه. لقـد تخيلـت عدّة عبارات سيتبادلانها، لم يكن بينها قط ما قاله للتوّ. يبدو لطيفًا وودودًا، لكنهـا لم تـستطع أن تجيب بجملة مفيدة. دون تفكير، وجدت نفسها تقول له:

- أريد أن أتحدّث معك بخصوص "ليليانا".

صمت قليلًا، ثم قال بنبرات قاسية:

- أيّ "ليليانا"؟

- لا أدري.. أقصد أنني لا أعرف اسم عائلتها. هـذا تحديـدًا أحـد الأسـباب التـي تجعلنـي أرغب في التحدث معك. لقد اتصلت بـ"ميريام لوبيز" منذ بضعة أشـهر، وهـي التـي أخبرتنـي عنك. قالت "ميريام"...

قاطعها بحدّة:

- مَن؟

- "ميريام لوبيز".

- لا أعرفها.

- أعلم ذلك. أخبرتني بأنها حاولت التوصُّل إليك عن طريق دليـل التليفـون، لكنهـا ظنـت أن اسمك يبدأ بحرف الألف.. "إسكويرو". أنا التـي اسـتنتجتُ أنـه يبـدأ بالـسين.."سـكويرو".. هكذا توصلتُ إليك.

ما كل هذه السخافات التي تتفوّه بها؟ من الواضح أنه فقد الاهتمام، والمرح الـذي أحـسَّ به منذ لحظات. عليها أن تحاول ثانيةً:

- حسنًا، هل كانت حبيبتك تُدعى "ليليانا"؟

- من أنتِ؟

- أنا.. اسمي "لوث". أحاولُ الحصول على أيّ معلومة تتعلق بهذا الأمر. يصعب شرح ذلك على التليفون. هلّا تكرّمتَ بلقائي؟

ظَلَّ صامتًا.

- أرادت "ليليانا" أن تبلغك شيئًا قبل أن...

استطردت بصوتٍ يائس:

- أرجوك! هل يمكن أن نتقابل؟

- هل تعرفين مقهى "كوميرشال"؟

- كلا، ولكن أخبرني أين يقع بالضبط وستجدني هناك.

- إنه في ميدان "جلورييتا دي بيلباو". أراكِ بعد ساعة واحدة؟

انتابتها مشاعر مختلطة من السعادة والخوف:

- حسنًا، ولكن كيف سيعرف أحدنا الآخـر؟ أنـا لا أعـرف كيـف تبـدو. عـلى أي حـال، أنـا شقراء، وسألبس بلوزة خضراء، و.. لا أدري.. سأحمل كتابًا في يدي.

- حسنًا.. إلى اللقاء.

احتضنها "راميرو" فور أن وضعت السماعة. ابتعدت عنه بعينين دامعتين.

- لقد أفسدتُ الأمر.

أضافت بعد لحظة:

- هل سمعتَ؟ لم يقل إنه كان حبيب "ليليانا"! ولكن إن كان قد وافق على لقائي، فهذا يعني أنه هو. ألا تظنُّ ذلك؟

طمأنها "راميرو"، وأخبرها بأنه سيطعم "خوان" غداءه، وأنه سوف ينتظرها داخل الحجرة.

- اتصلي بي إن احتجتِني.

غادرت "لوث" سيارة التاكسي عند أحد أطراف الساحة، ثم دلّها فتيان مراهقان على موقع المقهى. سارت بخطوات خفيفة وهي تشعر بأن جسدها يسبح في هواء شهر يوليو شديد السخونة. كان سائق التاكسي قد علّق على الجوّ بكلمتين اثنتين:

- موجة حارّة.

وللمرة الأولى تشعر بالمعنى الحقيقي لهذا المصطلح.

خارج المقهى، جلس الكثير من الناس حول الطاولات المتجاورة أمامه. لم تستطع تحديد الشخص الذي جاءت للقائه. بدوا جميعًا متشابهين. وقفت ممسكة بالكتاب في يدها لحظاتٍ. لو كان "كارلوس" موجودًا لبادر باستقبالها وتحيتها. قررت أن تذهب إلى الداخل لتحضر لنفسها شرابًا مثلجًا. إن لم يظهر خلال ذلك، فسوف تعاود البحث عنه في الخارج.

الأجواء الباردة في الداخل، حيث مكيفات الهواء، أشعرتها بانتعاش بالغ. ترى أي واحد من الرجال الجالسين هو؟ أحدهم يبدو في منتصف الأربعينيات، لعله هو. لكنها لا تعرف عُمر "كارلوس" أساسًا. طلبت الكولا مع شريحة ليمون. ظلت تنظر إلى الباب في انتظار دخوله.

جاء "كارلوس" من ورائها، ودار حولها ليجلس في مواجهتها.

- "كارلوس"؟

سألته "لوث" وهي تحاول أن تقرر ما إذا كان ينبغي لها مصافحته أم لا. جلس على الكرسي، فأنزلت يدها بسرعة ووضعتها فوق الترابيزة. لم يُظهر أيٌّ

منهما رغبة في بدء الحديث. وأخيراً، فتح كلاهما فمه في اللحظة نفسها، ثم أغلقاهما على الفور. ابتسما لبعضهما بعضًا عقب هذه الحركة.

قال الرجل:

- في الحقيقة، ليس لديّ أدنى فكرة عن الأمر بأكمله. لا أعرف مَن تكونين، ولا مَن تكون "ميريام"، ولا السبب الذي جعلك تبحثين عني. لا يُعقل أن تكوني على معرفة بـ"ليليانا".. أنتِ أصغر من ذلك بكثير.

جلب الجرسون الكولا، وطلب منه "كارلوس" كأسًا من الويسكي.

أجابته:

- هي من أخبرت "ميريام لوبيز" عن اسمها.

- هل كانت "ميريام" معها في مركز الحجز؟

- ليس بالضبط.

- أين إذن؟

- في بيتها. أعني أن "ليليانا" كانت في منزل "ميريام" حين أخبرتها عمّن تكون.

لاحظتْ أنه قد بدأ يتململ في جلسته، ولم تعرف إن كان ذلك نتيجة إحساسه بالضيق أم بنفاد الصبر. قررت ألا تبدو بلهاء للمرة الثانية أمامه، عقب تلك المكالمة التليفونية الساذجة، فقالت:

- حسنًا يا "كارلوس"، سأخبرك بكل ما أعرف. أنا أحاول جَمْعَ معلومات عن هذا الأمر منذ فترة. المسألة صعبة، وخصوصًا أنني لا أعرف اسم عائلة "ليليانا".. ما اسم عائلتها؟

- أأنتِ صحفية؟ هل أتيتِ لعمل لقاء صحفي معي؟ ما الذي تريدينه بالضبط؟ هل تنوين نشر مقال أم كتاب؟ لقد غادرتُ الأرجنتين منذ سنوات طويلة ولم تعد تعني لي شيئًا، هل تفهمين ذلك؟ لا شيء على الإطلاق.

أضاف وقد ازداد صوته حدّة:

- مَن أعطاكِ اسمي؟ ومَن هذه الـ"ميريام" التي تتحدثين عنها؟ ومتى كانت "ليليانا" في منزلها؟ هذا غير منطقي أصلًا.

شربت "لوث" شيئًا من الكولا، لتمنح نفسها فرصة لترتيب أفكارها قبل أن تجيبه، وأخيرًا قالت:

- أنا لستُ صحفية. جئتُ لأراكَ، لا لأجري حوارًا معك. أردتُ أن ألتقي بك. هناك الكثير من الأمور التي أحتاج لمعرفتها منك. "ميريام لوبيز" هي التي زودتني باسمك، وسوف أخبرك مَن تكون تلك المرأة، إن أعطيتني فرصة للشرح.

وجدت "لوث" نفسها تتحدث بطريقته الساخطة نفسها. أضافت بانزعاج:

- أرجو أن تدعني أتولى الحديث. يمكنك أن تقول ما تشاء بعد أن أنتهي؛ وإن لم تكن راغبًا في التعليق فذلك أمرٌ يخصك. لا مانع لديّ على الإطلاق. أريدك فقط أن تصغي إليّ.

ظهر الجرسون ثانيةً، فسكتت "لوث".

ظل "كارلوس" صامتًا لحظاتٍ، ثم قال:

- أعتذر إن كنتُ فظًّا قبل قليل. شعرتُ بالصدمة. هذا كل ما في الأمر. لعلني أحاول اجتناب الموضوع. ربما كنتُ خائفًا منه. المسألة برمّتها مؤلمة جدًّا بالنسبة لي. أكثر مما تخيلين.

أشاحَ بوجهه، ناظرًا إلى الجهة الأخرى. أدركت "لوث" أنها تقوم بالحركة نفسها بالضبط، حين تلفَّتَتْ بوجهها بعيدًا محاولة إخفاء مشاعرها. تمعنت به قليلًا، فلاحظت مدى وسامته. أحست تجاهه بالارتياح. لم تستطع في تلك اللحظة أن تقرر إن كان لديها الجرأة لتنطق بالجملة الوحيدة التي بإمكانها تفسير المسألة.

نظر إليها أخيرًا، وسألها:

- مَنْ "ميريام"؟

- "ميريام لوبيز" تعرفتْ إلى "ليليانا" في ظروف غريبة، بل مأساوية إن صحّ التعبير، في منتصف نوفمبر من عام 1976.

سكتت "لوث" وهي تفكر في النقطة التي ينبغي لها أن تبدأ منها القصة.. الطفلة التي وُلدت في عيادة بـ"بارانا" في جنوب البرازيل، أم الطفلة التي وُلدت

في المستشفى بـ"بوينس آيـرس"؟ ربمـا مـن الأفـضل أن تبـدأ مـن أول الأحـداث.. مـن العلاقـة الغريبة التي نشأت بين "ميريام" و"ليليانا"، لكنهـا، ودون تفكـير، راحـت تـسرد عليـه كـل مـا تعرفه، وكل ما يخطر ببالها، دون أن تفسِّر له كيف عرفت كل هذه التفاصـيل. الحقيقـة هـي أنه يجهل معظم هذه الأحداث، ولا يعرف شيئًا عن الأيام الأخيرة في حياة "ليليانـا"، والأولى في حياة "لوث". ومع ذلك يبقى "كارلوس" الشخص الوحيد القادر على ملء الثغرات التي تمتلـئُ بها قصتها؛ لكنه، ولإحساسه بالصدمة البالغة، ظَـلَّ ينـصت إليهـا بـصمت تـام، دون سـؤال أو تعليق، نحو ساعة كاملة. سألها بعد ذلك إن كانت ترغب في تناول بعض الطعـام، وهـو يـشير بأصابعه مناديًا الجرسون. أحس كلاهما بحاجة إلى فترة راحة.

- كلا. أريد فقط كوبًا آخر من الكولا.

أضافت بسرعة:

- تبدو إسبانيًّا جدًّا. أعني لهجتك، والمفردات التي تستخدمها.

- أستعيدُ لهجتي الأصلية حين أتحدثُ إلى أي أحد مـن الأرجنتـين، لكننـي لا أقابِـلُ الكثـير منهم، ولله الحمد. أتحاشى لقاءهم. واقع الأمر أنني أكره الأرجنتينيين، والأرجنتين نفسها.

لم يلاحظ الغضب الذي انعكس على عيني "لوث". نظرتْ إلى ساعة يدها وأعلنت:

- عليّ إجراء مكالمة تليفونية. يجب أن أُطمْئِن "راميرو". إنه زوجي.

قال بدهشة:

- أأنتِ متزوجة؟!

تساءلتْ في نفسها عن سرّ استغرابه. إنه لا يعرف شيئًا عنها في الأساس. لكنها أجابته:

- نعم، ولديّ ولد اسمه "خوان". عمره سنة ونصف.

ظل "كارلوس" وحيدًا على الترابيزة، في انتظار انتهاء "لوث" من مكالمتها. أخذ يفكر في العبارات التي استخدمتها منذ قليل، حين علّق على شخصية "ميريام" واصفًا إياها بكلمات حقيرة. اندفعت "لوث" على الفور، قائلة بحدّة:

- تلك الداعرة، كما تقول عنها، عرّضت نفسها للموت في سبيل إنقاذي.

هذا ما قالته.. "إنقاذي". لم تقل "إنقاذ ليليانا"، هل تعمدت قول ذلك؟ ثم مَن الذي أخبرها بكل هذه التفاصيل؟ لمَ لا يستطيع أن يسألها عمّا يلحّ على خاطره، بشكل واضح؟

كلا. لن يسألها. سوف يستمع إليها وهي تقصُّ عليه الحكاية بطريقتها. ماذا لو صدقت ظنونه؟ ربما كان للمسألة بأكملها تفسيرٌ آخر.

حين عادت، سألها "كارلوس" إن كانت ترغب في تناول العشاء في مكان آخر. لكنها أخبرته بأنها ليست جائعة. هو أيضًا لم يكن جائعًا.

كيف يغادران المقهى دون معرفة القصة بأكملها؟

قال لها:

- أكملي الحكاية من فضلك.

ابتلعت "لوث" ريقها، وواصلت السرد، إلى أن صارحته بكل شيء، دون أن تدري هي نفسها كيف فعلت ذلك.

لم يضطر "كارلوس" لسؤالها عن الأمر؛ لكنه حين تناول يديها بين أصابعه وقد ملأت الدموع عينيه، أدركت "لوث" أنه قد عَرَفَها.

عندما غادرا "كافيه كوميرشال"، أحسّ "كارلوس" برغبة قوية في أن يحيط كتفيها بذراعه، لكنه لم يجرؤ على فعل ذلك. ظَلَّت يده ممتدة في المسافة الفاصلة بينهما، ثم سألها بتردد:

- أتسمحين؟

ابتسمت "لوث" بحزن، وأومأت برأسها. سارا معًا على هذا النحو مدة عشر دقائق تقريبًا، في الشوارع المزدحمة بالناس رغم حلول الليل. تحدثا عن مدريد،

وعن الأمور التي فعلتها عقب انتهائها مـن المدرسـة. تجنَّـب كلاهـما ذِكْـرَ أي شيء عـن آلام الماضي. قررا أن يستمتعا بالمشي معًا دون أي منغصات.

أخبرها "كارلوس" أنه درس طب الأطفال في برشلونة، وأنه التقى زوجته "مونتسي" هنـاك، وأنهما استقرا في مدريد منذ ثمانية أعوام. قالت له "لوث" إنهـا لا تـزال تـدرس الهندسـة، وأن أمامها شوطًا طويلًا لتقطعه قبل التخرُّج.

- عطّلتني ولادة "خوان" بعض الشيء، ثم انشغلت بـ .... كل هذا الأمر.

منعه الخجل من أن يحتضنها. شعر بمدى المعاناة التي عاشتها خلال بحثها عنه.

أمام باب الفندق، وقف "كارلوس" في مواجهـة "لـوث"، وتبـادلا نظـرات طويلـة. أشـاحت بوجهها فجأة، وكأنها منشغلة بالنظر إلى الـزوجين الإنجليـزيين اللـذين دخـلا الفنـدق في تلـك اللحظة. تناول "كارلوس" وجهها بين كفيه، ونظر إليها:

- نسيتُ أن أخبركِ أنكِ جميلة جدًّا.

أضاف بعد برهة:

- وشجاعة جدًّا.

لم تستطع أن تتكلم، حاولت مُغالَبة دموعها.

- ما الذي سيحدث الآن؟ هل أناديكِ "لوث" أم "ليلي"؟ لا أعرف بمَ أخاطبكِ.

- "لوث". إنه اسمي، وأنا أحبُّه. عليّ أن أصارحك بأن حياتي لم تكن سـيئة. كـان بهـا أشـياء حلوة.. اسمي مثلًا.. إنه يعني "نور". كان عليّ أن أنير الجوانب المعتمـة والمجهولـة في قـصتي، بحثًا عن الحقيقة. وحين بدأت، لم أستطع التوقف، ولم أهتم بالمخاطر المتعلقة بالموضوع.

قالت بعد لحظات:

- أعلم جيدًا أن كل ما قصصته عليـك في المقهـى لم يكـن سـهلًا عليـك. لقـد كـان شـديد الصعوبة عليّ أنا أيضًا. لم أكن أعرف كيف سيكون ردّ فعلـك. لم أعلـم إن كنـتُ سـأعثرُ عليـك أصلًا أم لا.. لا أدري ما الذي سيحدث لي إن غادرتَ الآن ولم أتمكن من رؤيتك مرة أخرى.

- "أورتيز".

- ماذا؟!

- اسمها. "ليليانا أورتيز". لديّ الكثير لأحكيه لكِ. بالإضافة لذلك، هناك بعض القرارات التي ينبغي لنا أن نتخذها معًا، أليس كذلك؟

أضاف:

- المحاكمات تجري الآن في مدريد، هل تظنين أن "ميريام" ستوافق على الحضور للإدلاء بشهادتها؟

قبل أن تجيبه "لوث"، قبّلها "كارلوس" على خَدِّها، ثم قدّم لها خدّه قائلًا:

- على الطريقة الإسبانية، لا الأرجنتينية.. قبلتان، وليس واحدة.

ودَّعها أخيرًا:

- هيا.. اصعدي إلى غرفتك لترتاحي. سأتصل بكِ غدًا.



1976

1



سأُدخِل "آنيمال" إلى هذه الغرفة مساء اليوم، ليرى بنفسه كيف أصبحت جميلة مع ورق الحائط الجديد، وكل هذه الأشياء اللطيفة التي اشتريتها. هل سيغضب مني لإنفاقي كل هذه النقود على تزيين حجرة الأطفال؟ لا أظن ذلك. رغم ما يوحي به اسمه، الذي يشبّهه بالحيوان، من قوة ووضاعة، فإنه شخص غير سيِّئٍ على الإطلاق. ربما يتعامل بشيء من القسوة أحيانًا، إلا أنه طيب القلب. لو لم يكن طيبًا، لما تفهّم المشاعر التي أمرّ بها هذه الأيام، أليس كذلك؟

إنه الوحيد الذي استطعتُ أن أصارحه بكل ما أحسُّ به، ومع ذلك لم يسخر مني أو يهزأ بي.. بل على العكس، أبدى تفهمه وقال بعينين دامعتين بأنها الفطرة البشرية.

الطيبة والحنان يأسرانني أكثر من أي مبلغ مالي.

قد لا يدركُ مَن يتعامل معه أنه رجلٌ طيب في بادئ الأمر، لكنه كذلك حقًا، وإلا لمَا حَرِصَ على أن ينفذ لي هذا الشيء الذي أرغب فيه بهذه القوة؟

ᘏᘓ

قالت "لوث" لـ"كارلوس":

- كانوا يسمونه "آنيمال" بسبب قوته. حين يخرجون في حملة لمداهمة المشتبه بهم في أي قضية، يأخذونه معهم، لأنه الوحيد القادر على تحطيم الأبواب بدَفعة واحدة من جسده.

ﮊﮋ

أقول له:

- انتبه.. لا تؤلمني..

فيجيب:

- أنتِ تعرفين أنه لا يوجد باب يستطيع الصمود أمامي..

أضحك وأنا أستمتع بجسده، ولمسات أصابعه، وعباراته التي يُدلِّلُني بها.. يظل يردد في أذنيّ:

- أميرتي.. قطتي.. حبيبتي.. زوجتي..

لا يُطلق عليّ لقب "زوجتي" في الفراش فقط، إنه يرغب حقًّا في أن يتزوجني، حتى أننا حين التقينا ذلك الرجل النحيل ذا الشارب، قدّمني إليه بصفتي خطيبته.

قبل أن ألتقي به، كنتُ أظنُّ أنني لن أتزوج أبدًا إلا إن تمكنت من التعرّف إلى شخص واسع الثراء، لديه أموال لا تُعدّ ولا تُحصى.. رجل أعمال كبير، أو رياضي شهير مثلًا، يستطيعُ أن يوفِّر لي منزلًا ضخمًا مليئًا بالخدم، وللبيت حديقة واسعة بها حمَّام سباحة كبير. شخص يُهديني عددًا من السيارات الفارهة.

لكنني راضية بنصيبي. إنه ليس غنيًّا ولا مشهورًا، ولكنه سيجلب لي الشيء الوحيد الذي أتمناه حقًّا. كما أنه يستطيع أن يوفِّر لي حياة كريمة.

على أي حال، إن كان حقًّا سيحضر لي الطفل الذي أحلم به، فمن الأفضل أن نكون متزوجين. إنهم لا يمنحون الأطفال لأيٍ من كان. يجب أن نكون أسرة محترمة. علينا أن نعقد قراننا داخل كنيسة، وما إلى ذلك من الأمور.

الحقيقة أنني لم أهتم مسبقًا بأي شيء له علاقة بالدين أو الكنيسة.

سألته مؤخرًا:

- هل تظن أنه ينبغي لي أن أُمارِسَ طقس الاعتراف في الكنيسة؟

لم أهتم بسماع إجابته، لأنني استغرقت في ضحك طويل وأنا أتخيَّل منظري على كرسي الاعتراف!

سألته وسط قهقهاتي:

- هل يمكنك تخيُّل وجه القسيس حين أخبره بعدد الرجال الذين نمت معهم؟

انزعج بشدّة، لأنه يتحاشى دائمًا التفكير في مهنتي حين التقيته.

كل شيء جاهز.. الحجرة والثياب الصغيرة، بل إنني حرصتُ على شراء شريط لأغاني الأطفال، وأُمضي وقتي الآن في الاستماع إليه وحفظ كلماته، لأنه أخبرني أن موعد حصولنا على الطفل بات وشيكًا. سأغدق الحب على ذلك الصغير. ربما كانت بنتًا. ابنتي. تفزعني الفكرة.. أقول لـ"آنيمال" إنني أتمنى أن تكون أفضل حالًا مني، وألا تصبح عاهرة مثلي.

ضحك قليلًا، ثم قال بجدّية بأنني لستُ كذلك، وإلا لما سعى لأن يتزوجني.

لا يريد لزوجته أن تكون فتاة ليل إلا في الفراش، وبين جدران غرفة النوم فقط.

قال محذرًا وهو يبتسم:

- عليكِ فقط أن تتوقفي عن هزّ مؤخرتكِ بتلك الطريقة حين تمشين! تذكّري أنكِ ستصبحين "السيدة بيتيوتي" عمّا قريب.

قال ذلك بثقة واعتداد بالنفس، كما لو أنني سأصبح إحدى سيدات المجتمع الراقي مثلًا!

أتصنّع الحماسة، لأنني أرغب في إبقائه سعيدًا. على أي حال، أين سأهزّ مؤخرتي أصلًا؟ لم أعد أغادر المنزل على الإطلاق. تركت مهنتي، ولم يعد لي زبائن؛ كما توقفت عن حضور الحفلات والاشتراك في عروض الأزياء.

❦

صاح "كارلوس" بدهشة:

- عاهرة؟! ما كانت "ليليانا" لتثقَ بامرأة رخيصة مثلها أبدًا.

أجابته "لوث" بوجه مُكفَهِرٍ:

- ما الغريب في ذلك؟ على أيّ حال، حين تعرّفت إليها "ليليانا" كانت "ميريام" قد تركت تلك المهنة.

&

منذ أن وعدني بإحضار المولود، أصبحتُ أُمضي أغلب وقتي بين جدران المنزل، وأنا أستمع إلى الموسيقى أو أشاهد التليفزيون، كما أخرجُ أحيانًا لأتسوق. بصراحة، الوضع مملٌّ جدًّا، لكنني أظلُّ أردِّدُ أمامه أن كل شيء رائع، وأنني أنتظر عودته للبيت بشوقٍ بالغ لنتناول عشاءنا معًا. أُخبرُه أنني أحبُّ النزهات التي يأخذني إليها بين الحين والآخر. أقول كل ذلك وأظهر شُكري لأجعله سعيدًا، حتى يحافظ على وعده. يطمئنني أنه يولي الأم الحامل عناية خاصة، حتى لا يتأثر جنينها؛ كما يحرص على أن يجنبها أي ضررٍ أو إزعاج قد يتسبب به زملاؤه.

يقول دائمًا:

- حربنا ليست موجهة ضدّ الأطفال الصغار.

لا أعرف شيئًا عن الجرم الذي ارتكبته تلك الفتاة. يرفض الإفصاح عن الأمر، لكنه يؤكد لي أنها لا تريد الاحتفاظ بمولودها. صارحني أنها لن تستطيع إبقاءه معها في السجن، على أي حال.

قال إن الحمل قد حدث بطريق الخطأ، على الأغلب، ودون تخطيط مسبق، لأنها لا تزال يافعة.

من عينيه اللتين تلمعان فجأة حين يأتي على ذكرها، أخمِّن أنها بنت جذابة. أسأله بارتياب:

- هل تُعاشرُها؟

- كيف أتتكِ هذه الفكرة أصلًا؟! إنها تحمل طفلك في أحشائها.. ما هذا التفكير العجيب؟

لا بدّ أنه مُحقٌّ في استنكاره، فالفتاة في شهرها الثامن. لم يبقَ الكثير على موعد ولادتها. يحرص على أن يوفِّروا لها طعامًا أفضل ممّا تأكله زميلاتها السجينات. أظن أن ما يقدّمونه لهن سيئ جدًّا.

ࢳ

- كانوا يقدّمون لها طعامًا خاصًّا، وحرصوا على ألا تتعرض للتعذيب الذي عانته زميلاتها.

أجاب "كارلوس" بغضبٍ وأسى:

- ألا تظنين أنها شعرت بالعذاب لإدراكها أن تلك المعاملة الحسنة كانت مقابل الاستيلاء على مولودها؟

أضاف:

- بالنسبة لهم، لم تكن سوى أمًّا بديلة تلد لهم الطفل الذي يحلمون به. الأمر رهيب ومرعب.

- نعم.. إنه كذلك فعلًا، لكنهم ـ على الأقل ـ حرصوا على عدم تعريضها للتعذيب البدني والعصي الكهربائية.

ࢳ

منذ بضعة أيام، أعددتُ بعض الطعام ليحمله إلى تلك الفتاة. أُشفقُ عليها حقًّا. حين أفكرُ بوضعها، أشعر بالأسى. تُرى أي جرمٍ فظيع يمكن لبنت في هذا العمر الغض أن ترتكبه أساسًا؟ هل قتلتْ على سبيل المثال؟

أكرّر سؤالي لـ"آنيمال":

- هل قتلتْ أحدًا؟ أنصت إليّ جيدًا، لو أنني أستطيع إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، لقتلتُ البائع الذي اغتصبني وأنا في الرابعة عشرة. أقصد أن أقول إن هناك أمورًا تدفعك لقتل مرتكبيها. هناك أشخاص يستحقون ذلك فعلًا. لو أنني رأيتُ ذلك الرجل ثانية، لما ترددت في إنهاء حياته بأي وسيلة ممكنة. أقسم

بالـلـه يا "آنيمال"، هل تفهمني؟ ما الذي فعلته تلك الصغيرة؟ قتلت الشخص الذي اغتـصبها؟ يستحق ذلك إذن، ولم ترتكب أي خطأ يستوجب عقابها.

قاطعني "آنيمال" قائلًا إن الأمر ليس كما أظنُّ، وأن الموضوع لا علاقة له بانتهاك جسدها. شرح لي أن هناك أفكارًا أجنبية غير مألوفة قد بدأت في التسلُّل إلى المجتمع، تهدف إلى تـدمير البلاد. قال إننا في حالة حرب، وأنه يجبُ عليهم إعادة النظام وتفعيل القـوانين للحفـاظ عـلى أمن الدولة. علـيهم أن يلاحقـوا الخـارجين عـلى القـانون، والـشيوعيين، والقتلـة والإرهـابيين.. جميعهم دون استثناء، وأيًّا كانوا.

أضاف بعصبية بالغة أنهم سيتخلـصون مـن كـل تلـك الشخـصيات العفنـة، لتظـل الـبلاد نظيفة.

استمعتُ إليه، لكنني لم أفهم قط ما الذي فعلتـه تلـك الفتـاة تحديـدًا؟ قـررتُ أن أنتظـر الوقت الملائم لأستخلص منه المعلومات التي أحتاجُهـا. إننـي خبـيرة مـاهرة في هـذا الأمـر. في بعض الأحيان، تفلت منه بعض العبارات المتعلقة بهـا، دون ضـغط منـي، مـثلما حـدث حـين تساءل وهو يحاول مغالبة حيرته عن السبب الـذي يجعـل فتـاة مثلهـا، تنتمـي لعائلـة ثريـة وتتعلم في مدرسة خاصـة، تتـورط في مـسائل كهـذه؟ ورجّـح أن الـسبب يعـود ربمـا إلى ذلـك الشاب...

قاطعتُه بلهفةٍ:

- أيُّ   شابٍ تعني؟ زوجها؟

- أي زوج؟ هل تظنين أن هؤلاء الفتيات يتزوجن؟ إنهـن يعـاشرن أصـدقاءهن كـما تفعـل الحيوانات.

꧁꧂

علّق "كارلوس":

- لم نتزوج قط.. كانت علاقتنا سرية.

منذ أن بدأ الإنصات للأحداث التي تسردها لـه "لـوث"، حتـى أدركَ "كـارلوس" فجـأة أنـه جزء من الحكاية وأنها تدور عنه.

ജ്ജ

لم أجرؤ على لفت نظره إلى أننا – بدورنا - نعيش معًا كالحيوانات؛ ولم أستطع تذكيره أنني، وحتى وقتٍ ليس ببعيد، كنتُ أمنحُ جسدي لأشخاص عديدين، وأنه هو أيضًا كان له عدد لا بأس به من العشيقات. حين يتكلم "آنيمال" عن حياتنا، يشعرك بأننا شخصان محترمان يعيشان حياة زوجية سعيدة ومثالية.. وكأنني لستُ عاهرة محترفة، وكأنه لم يكن في الأساس مجرد عرّيف بائس يحرص على ادّخار كل ما يستطيع من راتبه الضئيل، إلى أن تولّى الجيش الحكم، ونجح في الحصول على موارد دخل إضافية من هنا وهناك. ترقّى الآن وصار رقيبًا، لكن راتبه لا يزال تافهًا. دخله في شهر كامل يقل عمّا كنت أكسبه من وجودي في حفلين اثنين عندما كنتُ... حسنًا.. إنه يعرف.. يعرف جيدًا.. لأنه كان ممن يدفعون مقابل لقائي بهم. اعتادت "آنيت" أن تطلب مبالغ خيالية من زبائني مقابل ليلة يقضونها معي. ما زلتُ لا أعرف كيف استطاع أن يدفع ذلك المبلغ. لعله استعان بمدخراته فعلًا، كما أخبرني لاحقًا.

إن كان لا يزال يتذكر ثمني، وبخاصة في ليلته الأولى معي، فعليه أن يشعر بالتميّز لأني صرت أنام معه كل ليلة. لكنه لا يفكر بتلك الطريقة. يتعامل مع الأمر بشكل طبيعي، لأننا نحب بعضنا البعض. بل يتعمّد أن يشعرني أنني محظوظة جدًّا لحصولي على رجل مثله. واقع الأمر أنه هو الطرف الأكثر حظًّا.. يكفي أنه يعيش في شقتي الفاخرة، وهو أمر لم يكن حتى ليجرؤ على أن يحلم به. الحقيقة أنه، في بداية الأمر، حاول إقناعي بأن أنتقل أنا إلى مسكنه. كان ذلك مستحيلًا.. بيته أشبه بزريبة حيوانات. لم أصارحه بذلك بالطبع، لكنني أقنعته بشكل لطيف بأن بقائي في منزلي هو الوضع الأنسب، فكل حاجاتي هنا.. أسطواناتي الموسيقية، مراياتي، التحف التي أحب، والبلكونة التي أستمتع بأخذ حمَّام شمس فيها. قلتُ له إن انتقالي بكل أشيائي إلى بيته سيكون أمرًا مرهقًا لا طائل منه.

ജ്ജ

استأجرت "ميريام" تلك الشقة في منطقة "ريكوليتا"، في شارع "آيا كوتشو". دفعت لأصحابها مبلغًا يغطي عامًا ونصفًا. من الواضح أنها كانت تكسب الكثير من المال في

تلك الفترة. تتحدث كثيراً عن مسكنها هذا، حتى أنني أشعر أنني أعرف كل ركن فيه. صعدتُ مرة إلى الشقة، ووقفت خارج بابها. لا أدري لماذا فعلت ذلك، ربما لأرى بعينيّ المكان الذي لا تتوقف عن ذِكره.

ﮋﮊ

ألتزمُ التهذيب البالغ على الدوام، وأُجيدُ معاملة الرجال باحترام، لكنني لستُ غبيةً، وأعرفُ جيدًا أن وجوده هنا، في بيتي، في الجانب الشمالي من المدينة، جالسًا بارتياح على مقاعدي الوثيرة، محاطًا بالنوافذ المزينة بستائر فاخرة.. ليس وضعًا طبيعيًّا على الإطلاق.

الحقيقة أنني حين انتقلتُ للعيش هنا، كنتُ أنا نفسي لا أُصدِّق الأمر.

تلك الحقيرة "آنيت" ساعدتني دون أن تقصد، فعندما ذهبتُ لزيارتها في بيتها للمرة الأولى، ولاحظتْ انبهاري، وعدتني بأنها ستعمل على أن أحصل على مسكنٍ لا يقلُّ عنه جمالًا وروعة.

ﮋﮊ

يبدو أن تلك المرأة التي اعتادت أن تنظم الحفلات، وأن تجلب لها الزبائن، كانت تقطن بيتًا أنيقًا تزيّنه بالتحف البديعة واللوحات الفنية الجميلة. ما زالت "ميريام" تتحدث عن ذلك المكان بانبهار حقيقي. أعجبت "ميريام" بتلك المرأة وأرادت أن تقلّدها في كل شيء.

ﮋﮊ

أحببتُ تزيين بيتي. حرصتُ على شراء المجلات المختصة بالديكور، استلهمتُ منها أفكارًا عديدة لتجميل شقتي، وطبّقتُ النصائح التي قرأتها على صفحاتها.

الواقع أنني أتمتعُ بذوق جيد يمكّنني من تنسيق الأشياء المختلفة. أستطيع دومًا إضفاء لمسات جمالية على أيّ مكان أكونُ فيه.

في بعض الأحيان، أشعر برغبة ملحّة في أن أقول كل ذلك وأكثر لـ"آنيمال". لكنني لا أفعل، وأحرص على ألا أتفوّه بكلمة في هذا الشأن. أعامله بمنتهى اللطف.. أحضّر له كأسًا من الويسكي فور دخوله، وأقدّمها له وأنا في كامل زينتي. حتى لو كان هذا المسكين وضيعًا، فإنه ـ بمعاملتي له ـ يشعر بأنه أمير!

شيءٌ ما بداخلي ينبئني بأنني أنا المستفيدة من هذه العلاقة. سوف أنالُ ما أحلمُ به. عليّ فقط أن أبقيه سعيدًا، مترفًا، كأننا ورثنا هذه الأموال والحياة الرغدة من "دادي" و"مامي".. أو كأننا كسبناها نتيجة مجهوداتنا الدؤوبة في أعمالنا المحترمة!

يجلس على المقعد المجاور للـ"أباجورة" الطويلة، ويقول بثقة:

- سوف نمنح هذا الطفل حياة جيدة. سنربّيه بطريقة تُتيح له أن يفكّر مستقبلًا على النحو الصحيح، وسننشئه على احترام النظام والقانون. سيكبر ليحيا بطريقة مثالية.

أتركه يحلم ويخطط ويثرثر.. لا شيء يهم طالما سيحضر لي الطفل. فليحلم كما يشاء، لماذا أُواجِهُهُ بالعقل والمنطق؟ فليعتقد أنه شخص مهم، وأنه سيكون أبًا رائعًا وزوجًا ممتازًا.. فليفعل كل ما يحلو له.. المهم أن يجلب لي ذلك المولود الصغير. لو أن أمه لا تريده حقًّا، وستمضي بقية حياتها قابعة داخل تلك الزنزانة، فلمَ لا آخذه أنا؟ لمَ لا أربّيه أنا و"آنيمال"؟

حين أذكرها عرضًا في حديثي أحيانًا، يقاطعني "آنيمال" على الدوام، ويسارع بالقول بنبرات حادّة:

- ما الذي يجعلكِ تفكرين بها من الأساس؟

ꕥ

لم تكن تعلم حقيقة ما يحدث، ولا ما كانوا يفعلونه بالضبط. كانت تجهل كل شيء. حرص هو، من جانبه، على أن يظل الوضع كذلك، وامتنع عن مناقشة شؤون عمله معها.

يردّد فقط كلمات مثل "الواجب" و"الشرف" و"خدمة الوطن".

قالت "ميريام" إن "آنيمال" كان يظن نفسه القديس "مارتن"، قديس الأرجنتين، ومُحرِّر أمريكا الجنوبية وبطل الاستقلال، والذي، للمفارقة.. قديس الجزارين أيضًا!

ꕥ

أسألُه بحذر:

- ماذا لو جاءت تطالبنا باستعادة ابنها، عقب خروجها من السجن؟

يجيب بنفاد صبر:

- قلتُ لكِ مسبقًا إنها لا تريده.

- ولكن سيأتي اليوم الذي تطلقون فيه سراحها بعد انتهاء مدّة عقوبتها، أليس كذلك؟ كيف سنتصرّف حينها؟

يردّ ضاحكًا:

- كلا. لن يحدث ذلك. لا تقلقي. سوف تخضع للتحقيق بعد ولادتها، ثم سيقومون بنقلها.

لم أفهم حينها أن "النقل" بلغة الجيش يعني قتل السجين بسرّية تامّة؛ ظننتُ أنهم سينقلونها إلى سجن آخر، ولذلك أستفسرُ منه عن موقع سجنها القادم.

دون أن ينطق كلمة واحدة، يتحجّر وجهه فجأة، ويحمل مقعدًا خفيفًا ويضرب به الحائط، تاركًا إياه كومة من الخشب المُفتَّت. أصيحُ بلوعة:

- لمَ فعلتَ ذلك؟ أنتَ حيوان فعلًا، لا اسمًا فقط! هذا الكرسي "أنتيك".. اشتريته بثمن باهظ.

أجابني بغيظ:

- ها قد عرفتِ سبب تسميتي بـ"آنيمال". من الجيد أنني حطمتُ المقعد بدلًا من تحطيم عظامك.

التزمتُ الصمت. كنتُ أخاف منه في بعض الأحيان. لكن نوباته العصبية تلك لم تكن تدوم طويلًا. سرعان ما يعود إلى طبيعته اللطيفة.

انزويتُ في أحد الأركان وأنا أجهشُ بالبكاء.. (ادّعاء الضعف ينجح دائمًا مع جميع الرجال).. اقترب مني واحتضنني من الخلف. مرّر راحته على صدري وهو يهمس في أذني بأنني إن كنتُ لا أزالُ أرغب في الطفل، فعليّ ألا أوجّه له أي أسئلة؛ وأنني إن واصلت استفساراتي الكثيرة، فلن يجلبه لي. قال إنه ينبغي عليّ أن أنفق وقتي في الاستعداد للزفاف وحجز قاعة الكنيسة، وما إلى ذلك، لأنه مشغول ولا يملك الوقت الكافي لفعل ذلك، فلديه الكثير من المسؤوليات حاليًا في عمله.

ثم غاب داخل حجرة النوم قليلًا، وعاد برزمة نقود (لم أسأله عن مصدرها. لا بد من ادّعاء الغباء مع الرجال بين الحين والآخر). ناولني إيَّاها طالبًا مني شراء ثوب زفاف، وكل ما سوف أحتاجه كوني عروسًا.

احتياجاتي كعروس؟! ما هذا الغباء؟ ما الذي سأحتاجه مثلًا؟ قميص نوم محلّى بالدانتيل ألبسه في ليلة الدخلة، كذلك الذي اشترته ابنة خالتي حين تزوجت خطيبها الموظف في مكتب البريد؟!

أتذكر ذلك اليوم جيدًا. حين أرتني إياه، علقت خالتي:

- حان دورِكِ يا "ميريام". سوف يتقدّم لكِ عريس مناسب عمَّا قريب، وستصبحين زوجة.

مستحيل أن أقبل الزواج بشخصٍ نكرة، لأمضي معه بقية عمري في هذا الجزء المجهول من العالم، الذي يحمل اسم "كورونيل برينجلز". كلا.. لديّ خطط أخرى. سوف أصبح عارضة أزياء، وأتمتع بالثراء والشهرة. لن أتزوج الآن. سأتزوج فقط حين أُقرِّر أن أصبح أمًّا.

أن أحمل وألد، هو أقصى ما أتمناه في حياتي، ولكن ليس الآن بطبيعة الحال.

في تلك الفترة نفسها التي تزوجت فيها قريبتي "نايومي"، فزتُ أنا في إحدى مسابقات الجمال. قالوا إنني أجمل فتاة هناك، وتوّجوني "ملكة كورونيل برينجلز". أعقب ذلك مرحلة جلسات التصوير، ثم المسابقة الأكبر في "بايا بلانكا"، حيث فُزت بلقب "أميرة جمال". فكّرت حينها أن نجاحي الكبير لن يتحقق إلا في "بوينس آيرس" نفسها، فقررت الرحيل إليها.

ساعدني "أوسكار" الذي أظهر دعمه لي وإيمانه بي. أحضرني إلى هنا. فور وصولي، التحقتُ بمدرسة لإعداد عارضات أزياء محترفات. وعدني أن يتكفَّل بمصروفات المدرسة كافةً، وأن يعرّفني إلى عائلته. ما الذي حدث بعد ذلك؟ لم أكد أكمل شهرًا هنا، حتى اكتشفت أنني حامل. لم يكن بوسعي الاحتفاظ بالجنين حينها، بطبيعة الحال. كان عليّ أن أؤجل موضوع الحمل والولادة.

دفع "أوسكار" مصاريف عملية الإجهاض، لكنه فرّ هاربًا بعدها، تاركًا إيّاي داخل ذلك الفندق الحقير، وأنا أنزف بغزارة بين جدرانه القذرة.

ظللتُ فترةً طويلة أؤكد لنفسي أنني سأنجبُ طفلي الذي أحلم بـه "في الوقـت المناسـب"، لكن هذا الوقت لم يـأتِ قـط. أعلـن الطبيـب في مستـشفى "فرنانـدز" أننـي لـن أتمكَّـن مـن الإنجاب أبدًا.

كان ذلك بعد عدّة سنوات.

من الصعب أن أتقبّل فكرة أنني لن أحمل وألد أبدًا، ولذلك عليّ أن أتحمّل "آنيمال" بكل عيوبه وسلبياته، لأنه الوحيد الذي يستطيع تحقيق حلمي بطفل صغير.

ﮪ

كلا.. لم تكن تلك عملية الإجهاض الوحيدة. لقد خضعتُ لعدّة عمليات من ذلك النوع.

ﮪ

حين حملتُ للمرة الثانية، قررتُ أيضًا أن الوقت غير مناسب، وأنه يجب عليّ التخلّص من المسألة، وتأجيل الإنجاب قليلًا.

في تلك الفترة، كنتُ أعملُ لدى "هاري". كنت جميلة بشكل لافت. وأرى الاشتهاء في أعـين جميع الرجال حين أقدّمُ رقصات الـ"إستربتيز" العاريـة أمـامهم. كنـتُ أُجيـدُ حركـاتي، وأتعمَّـدُ أداءها دون أي ابتذال، بل بشكل يتسم بالأناقة.

ﮪ

- لا بد أنها كانت مبهرة. إنها لا تزال جذابة جدًّا.. طويلة ورشـيقة وتتمتـع بـشعر أدكـن جميل.

- كم عمرها؟

- ثمانية وأربعون عامًا. أظن أنها كانت في الخامسة والعـشرين، أو الـسادسة والعـشرين، في تلك الفترة.

ﮪ

لم تكن هذه الوظيفة هي ما أطمحُ إليه طبعًا. أردتُ أن أكـون عارضـة أزيـاء. كنتُ أعمل في هذا النادي الليلي لأوفِّر مصاريف المدرسة التي سأتعلم فيها كيـف

أمشي وأتحرك على النحو المطلوب، وكيف أتصرفُ برُقِيٍ ولباقة. سوف أصبح من أهم عارضات الأزياء في "بوينس أيرس" وأوروبا، بل العالم أجمع.

أحتاج للمال لأدفع تكاليف الالتحاق بالمدرسة. مَن سيمنحني إياه؟ ليس خالتي بالتأكيد. كانت تظنُّ أنني أُفكِّر وأتصرف بطريقة تميل إلى الاستعلاء، لا تتناسب وظروفي وواقعي. يجب أن ينحصر تفكيري، في رأيها، في الحصول على عريس مناسب. ازداد غضبها حين علمت برحيلي إلى "بوينس أيرس" بصحبة ذلك الشاب المدعو "أوسكار". اتصلت بي بعدها وسألتني بغيظ:

- هل تظنين أنه سيتزوجك؟ إنه يريد شيئًا واحدًا فقط.. أن يشاركِك الفراش. نعم.. إنه ثري ويمتلك المال، ولكنه يستغلكِ فقط.

قلتُ لنفسي:

- ولِمَ لا؟ صحيح أنني معجبة به، ولكنني لا أفكر في الزواج به. كل ما في الأمر أن كلينا مهووس بالجنس. أنا أيضًا أستغله.. كأنه تذكرة خروج من ذلك المكان البائس.

تساءلت خالتي:

- ألا تدركين أن الشباب أمثاله لا يتزوجون فتياتٍ من نوعك، وبخاصة إن كنتِ قد سلمتِهِ جسدك؟

كررتْ مرة أخرى:

- إنه يستغلك أيتها البلهاء!

أضافت ناصحة:

- عودي يا "ميريام".. ارجعي إلينا يا حبيبتي.

تلك الحمقاء تظن إذن أنني كنتُ عذراء، وأن "أوسكار" هو أول فتى يلمسني. واقع الأمر هو أنه الخامس أو السادس.

لم أخبرها قط بما فعله ذلك الرجل بي. كنتُ صغيرة، وخشيتُ أن تلومني وتؤنِّبني بعبارتها الجارحة المعتادة:

- أنتِ مثل أمك بالضبط!

على أي حال، هم مَن أحضروه للمنزل. استضافه زوجها على العشاء. قال إنه زميل قديم من أيام المدرسة. لم يفعل شيئًا بي تلك الليلة، لكنه رآني في الطريق في اليوم التالي. أقلّني معه. أخذني إلى أرضٍ مهجورة في منطقة هادئة.

يا إلهي! حين أستعيد ذكريات ذلك اليوم، أشعرُ بغضب شديد. لو رأيته الآن لقتلته على الفور. كم كنت ساذجة وغبية! خجلتُ من البوح بما تعرضتُ له.

إن كان الطفل الذي سيحضره لي "آنيمال" بنتًا، فسوف أخبرها فور بلوغها سن الإدراك بأنه إن أمسك بكِ رجلٌ بقوة، وطرحكِ أرضًا، ومزّق ثيابك، فعليك ألا تترددي في ركله ومقاومته والدفاع عن نفسك؛ لكنه إن نجح مع ذلك في انتهاك جسدك، فعليك بإبلاغ السلطات المختصة عنه، وفضحه في كل مكان. إنهم هم الأوغاد المجرمون، ولسنا نحن.

꧁꧂

- التفسير الوحيد الذي امتلكته "ميريام" لسَجن فتاة في مُقتبَل العمر، هو أنها أقدمت على قتل الشخص الذي اغتصبها. كان هذا هو عالمها.. هذه هي قصة حياتها. في تلك الفترة، لم تكن تعلم شيئًا عمّا يحدث حولها. الكثير من الناس غيرها كانوا يجهلون ما يحصل أيضًا، بمن فيهم "إدواردو".

- لأنهم لم يكونوا يرغبون في معرفة ما يحدث.

꧁꧂

كان عليّ أن أدفع مصروفات المدرسة. لم أستطع طلب المساعدة من خالتي "نونسيا"، أما "أوسكار" فقد تخلّى عني وهجرني كما تنبّأت خالتي مسبقًا. ثم أخبرتني إحدى الفتيات المقيمات في الفندق عن الملهى الليلي الذي يحمل اسم "هاري". ذهبتُ إليهم، فقبلوني على الفور. عملتُ فقط لأدّخر مصروفات المدرسة، والدورة الدراسية التي ستبدأ في شهر مارس. قررتُ أن أدفع مصروفات عام كامل، حتى لا أضطرَّ بعدها للعمل ساعاتٍ طويلة. سأكتفي بليالٍ قليلة توفِّر لي ثمن الإقامة في الفندق، والمأكل والملبس.

في تلك الفترة، احتجتُ لإجراء عملية إجهاض جديدة. نـصحتني زميلتـي "جـولي" بالتوجُّـه إلى "لا جوردا"، وقالت إن تلك المرأة البدينة لن تطلب الكثير. ذهبتُ إليها. المكان قـذر جـدًّا، لكن السيدة كانت بالغة اللُّطف، واكتفت بمبلغ زهيد.

أخبرتهم في الملهى أنني مريضة وأنني سأعاود العمـل فـور شـفائي بعـد أيـام قليلـة، لكـن النزيف استمرَّ طويلًا.. أطول بكثير مما ينبغي. أبـدوا ضـيقهم البـالغ مـن تـأخري في العـودة، لكنني حين ذهبـت إلـيهم وافقـوا فـورًا عـلى مواصـلتي تقـديم العـروض الراقـصة. مـا كـانوا يستطيعون الاستغناء عني. كنتُ الدجاجة التي تبيض لهم ذهبًا. أنا وحدي القادرة عـلى مـلء مقاعد المتفرجين بالكامل.

في بعض الأحيان، كنتُ أوافق على قضاء ليلة بصحبة أحد الزبائن، ولكـن في حالـة واحـدة فقط.. هي إعجابي به. لم أكن قد أصبحتُ فتاة ليل محترفة بعد. لم أكـن قـد تعرفـت بعـد إلى تلك الحيوانة الحقيرة "آنيت". كم شعرتُ بالسعادة حـين أخبرتهـا عقـب ذلـك بـسنوات أننـي سأعتزل المهنة، ولتذهب للجحيم هي وأعمالها! أكرهها فعلًا، قدر إعجابي البـالغ بهـا في بدايـة تعارفنا. كم كنتُ ساذجة وغبية! لطالما رددت على مسامعي أنني رائعة، وكل ما ينقصني هـو فقدان بضعة كيلوجرامات محدودة من وزني، ليصبح قوامي الجميل مثاليًّا تمامًا.

أخرجتني من مدرسة العارضات، قبل انتهاء السنة الدراسية.

كانت في زيارة للمكان. راقبتني جيدًا وأنا أتدرب عـلى خطـوات العـرض. جلـستْ أمـامي وهـي تـضع سـاقًا فـوق أخـرى، وقـد ارتـسمت ابتـسامة عريـضة عـلى شـفتيها. بعـد انتهـاء التدريبات، اقتربت مني وتحدثت معي وهي تُحرِّك يديها وأصابعها بشكل بالغ الرقة والأناقة. أمضيتُ أوقاتًا طويلة محاولة تقليد تلك الحركات، لكنني فشلت فشلًا ذريعًا.

قالت لي يومها إنني ممتازة، وأنني جذابة جدًّا.

صدقتُها. كيف لا تُصدِّقُ فتاةٌ مثلي سيدةً أنيقةً وراقيةَ المظهر مثلها؟

ساعدتني على الاشتراك بعـروض عـددٍ مـن دور الأزيـاء المعروفـة. تكفلـتْ بمصروفات الــ"جـيم" الريـاضي، والكـوافيرات وخـبراء المكيـاج.. كـل شيء؛ بـل

استطاعت أن تظهرني في فقرة ضمن أحد البرامج التليفزيونية.. أنا.. "ميريام لوبيز" لا غير!

فكرتُ حينها:

- هأنا يا خالتي أحققُ نجاحًا ملموسًا بعيدًا عنكِ وعن تأنيبك المتواصل لي. افتحي تليفزيونك ظهيرة اليوم وتمعَّني فيّ جيدًا. "ميريام" ضيفة برنامج شهير.

في الواقع، لم أعد "ميريام" بالضبط.. قررت "آنيت" أن تطلق عليّ اسم "باتريشيا". قالت إن للاسم الجديد وَقْعًا أجمل على الأذن، وأن "ميريام"... سكتت قليلًا وهي تنظر إلى الفراغ، وكأنها تبحث عن الكلمة المناسبة.

تدخلت "أينيس" ـ وأشكُّ أنه اسمها الأصلي أساسًا ـ وقالت:

- شعبيّ بعض الشيء..

أحسستُ بغضب شديد، وتمالكتُ أعصابي حتى لا أندفع لخنق رقبتها بين يديّ. لم أشأ أن أبدو منعدمة التهذيب أمام "آنيت". على أيّ حال، إن كان "باتريشيا" هو الاسم الأنسب لي، فلمَ لا؟ فليكن "باتريشيا".

أصبحتُ أجيدُ السير بخطوات مدروسة ورشيقة كعارضة أزياء حقيقية. أنتعلُ أحذيةً بكعوب مرتفعة، وأؤرجح ذراعيّ بحركات خفيفة جدًّا إلى جانبي. تلاحقني أعين الرجال ونظراتهم الجائعة أينما ذهبت. تعلمت كيف أوجّه نظراتي إليهم.. بطريقة أكثر رُقيًّا مما اعتدْتُهُ في الملهى الليلي؛ لكن النتيجة واحدة في الحالتين.. اشتهاء واضح ونظرات قذرة.

أستطيع أن أدير رؤوس الرجال أينما كنت. يشعرني ذلك بالتفوق والتميّز.. كم كنت غبية!

توالت الأعمال عليّ. عروض أزياء لا حصر لها.. ملابس.. جلسات تصوير كثيرة.. عوالم مختلفة؛ ثم دعتني "آنيت" لزيارتها في منزلها عصر أحد الأيام، لتناول الشاي معها. كانت قد أخبرتني هامسة بأنها تودّ مناقشة موضوع مُهمٍ معي. حيّرني الأمر، وأخذتُ أفكّرُ في طبيعة هذا الموضوع. حرتُ في اختيار الثياب الملائمة لزيارتها، ثم ذهبتُ إلى كوافير "جوزيف" لتصفيف شعري قبل التوجُّه إلى منزلها.

يقع مسكنها في "آلفير آفنيو". مدخل العمارة أنيق ومُرتَّب. أرضية المصعد مغطاة بسجاد وثير.

حين دخلتُ الشقة، أُصِبْتُ بالذهول.

يا إلهي! كأنني في قصر فخم. أظنُّ أنني في تلك اللحظة تحديدًا أُصِبْتُ بهوس الأثاث والمفروشات والتحف والأباجورات! قلت لنفسي حينها إنني أريدُ أن أحيا بهذه الطريقة بالضبط، في مسكن أنيقٍ كهذا. لم أستطع أن أتمالك نفسي، وصحتُ:

- كم أودُّ أن أعيش في بيتٍ يُشبِهُ بيتك!

- يمكنكِ ذلك بالطبع يا "باتريشيا". الأمر سيستغرق بضعة أعوام من العمل. كل ما عليك فعله هو التزام السرية التامة. هذا كل ما في الأمر.. والتمتع بالذكاء طبعًا.

أردفتْ بعد لحظة صمت:

- سوف تتمكنين بعدها من العيش على هذا النحو، إن لم يكن أفضل.

أحضرتْ الألبوم الذي صورتُه مؤخرًا لعرض مجموعة من الـ"مايوهات" وملابس البحر. أخذتُ أنظر إلى صوري بإعجاب صادق. أبدو رائعة. فاتنة جدًّا، وشديدة الجاذبية.

كانت مُحقَّة إذن، العمل لصالحها أفضل بكثير من العمل عبر مدرسة العارضات. ها هي تفتح لي جميع الأبواب المغلقة، وتُتيح لي فرصًا عديدة ستُمكِّنُني من الحصول على كل ما أرغب فيه.

شعرتُ ببعض الضيق لأنها دعت "إينيس" معي، ولم تكتفِ بحضوري وحدي.

على أي حال، أخبرتني "آنيت" أنها قد عرضت هذا الألبوم على رجل مُهمٍ جدًّا.. "حوت كبير" كما قالت. أضافت أنني محظوظة لأن اختياره قد وَقَعَ عليّ. أنا و"إينيس".

سألتُها على الفور:

- لأي شيء؟ لنعرض لصالحه ملابس جديدة؟

انطلقت ضحكات طويلة من "إينيس"، وأخيرًا قالت وسط قهقهاتها المرتفعة:

- أي عروض؟ "كريستيان ديور"؟!

لم أفهم سرّ ضحكاتها المزعجة. إن كان الرجل مُهمًّا حقًّا، فلا بد أن العرض أيضًا مهمٌّ وكبير، في مكانٍ سنسافر إليه بالطائرة. الحاضرون أجانب. السيدات الأنيقات يحملن بين أصابعهن الرشيقة سجائر طويلة. أزواجهن من أصحاب المليارات لا شك، وسوف يشترون لهن كل الملابس التي يُرِدْنها.

أخرجتني "آنيت" من تخيلاتي، حين قالت بلهجة حاسمة:

- كلا. ليس عرضًا للأزياء.

علّقت "إينيس" وهي لا تزال تُغالِبُ ضحكاتها:

- خمّني طبيعة الوظيفة..

فكَّرتُ قليلًا، وتخيَّلتُ نفسي في إعلان تليفزيوني. "ميريام"، أو "باتريشيا"، تخرج من الماء مرتدية مايوهًا بيكينيًّا من ماركة عالمية شهيرة، وهي تشرب شرابًا مثلجًا.

أجبتها:

- إعلانات.

- الإجابة بعيدة جدًا جدًا. فكّري مرة أخرى.

أحسستُ بالخوف. هل تعلم "إينيس" بأنني كنت أقدّم رقصات "إستربتيز" عارية؟ هل أخبرت "آنيت" بذلك يا ترى؟ قد تدفعها غيرتها لفعل ذلك.. أنا بدوري أغارُ منها في الحقيقة.

قالت المرأة العجوز إنني أُجيدُ إثارة الرجال، وأنني أتمتع بخبرة جيدة في هذا المجال، ولعلني اكتسبتها من العمل لدى "هاري"..

إنها تعرف إذًا.

واصلتْ حديثها، وقالت إن المهمة الجديدة تتضمن حضوري حفلًا راقيًا، لتسلية الحضور بأساليبي الخاصة.

كدتُ أموتُ كمدًا.

- رقصات عارية تقصدين؟ لكنني توقفت عن هذا الأمر منذ مدّة. كنتُ أفعل ذلك لـدفع رسوم الدراسة لا أكثر.

قالت بنبرات هادئة:

- لا يا عزيزتي. ليس الأمر كذلك. دوركِ يتلخص في حضور الحفـل لا أكـثر. عليـكِ فقـط أن تكوني لطيفة وحبّوبة مع الجميع، وأن تعملي على تسليتهم. هذا كل شيء.

إن تطورت الأمور أكثر قليلًا، فلكل حادث حديث، كما قالـت. المهـم فقـط هـو أن أكـون لبقة ولطيفة، وراقية في أسلوبي وحديثي، وأن ألتزم السرّية والكِتمان.

أضافت أنه يمكنني أن أقدّم رقصات عارية، إن رغبتُ أنا. لا بـأس بـذلك. يمكننـي التعـري وفعل كل ما يحلو لي. إنني أملك الخيال اللازم لهذه الأمور، كما أكّدت لي.

واصلت الحديث بالهـدوء البـالغ نفـسه، بيـنما انـشغلتُ أنـا بـالنظر إلى جوانـب شـقتها الجميلة. تابعتْ عينيّ، ثم أعلنت أنه يمكنني عن طريق هذه الحفـلات كـسب أمـوال أفـضل مما أحصل عليه من خلال عروض الأزياء.

قلتُ مُعترضةً:

- ولكنني أرغبُ في مواصلة العمل في مجال عروض الأزياء. هذا ما حرصتُ على دراسته.

- نعم يا حبيبتي.. وما المانع؟ يمكنكِ مواصلة عملكِ في المجال الذي يعجبك.

فكرتُ قليلًا.. إن كنتُ لا أزال أستطيعُ تقديم عروض الأزياء، والسعي لأصبح إحدى أشـهر العارضات في هذا المجال، مع بعـض الأعـمال الجانبيـة التـي سـتمنحني مبـالغ ماليـة إضـافية جيدة.. فلمَ لا؟

ثم إن "آنيت" تبحث عن مصلحتي على الدوام.

وهكذا ذهبتُ إلى الحفل، واستقبلني الرجل الذي وقع اختياره عليّ. رحّب بي قائلًا:

- أنتِ جميلة حقًّا. رائعة! سوف يحبونكِ جميعًا.

كان الحفل يعجّ بالأشخاص المهمين. الصفوة. مَن كان يدري أننـي سـوف أقابـل "آنيمال" هناك؟ لم يفعل شيئًا. لم يقترب مني. وقف يحدِّق بي فتراتٍ طويلة بعينـين نهمتـين. أحسـستُ أنـه يوشـك عـلى الانقـضاض عـليّ والتهـامي. مـا زال ينظـر إليّ

بهذه الطريقة حتى الآن. في تلك الليلة، اكتفى بملاحقتي بنظراته. كان مجرد ضابط صفّ وسط جمع غفير من كبار الضباط والرُّتَب العسكرية المهمة.

لاحظته منذ البداية.

بدأتُ أفكِّرُ به. رأيتُه في حفلات أخرى. في كل مرة، يحملق فيّ. عرفتُ لقبه الذي يناديه به الجميع. كنتُ أقف مع رجل عجوز في إحدى المناسبات، حين دخل المكان. صاح رفيقي مناديًا إياه:

- "آنيمال"!

وقفا يثرثران معًا. بعد أن ابتعد، سألت الرجل بدهشة:

- لماذا وصفت المسكين بالحيوان، هكذا أمام الجميع؟

أجابني العجوز:

- لا يا عزيزتي، "آنيمال" هو اسمه، أو لقبه بمعنى أصح. اكتسبه بسبب قوته البالغة. إنه شابٌّ طيب، وخدوم جدًّا.

قلتُ لنفسي حينها:

- إن كان قويًّا لهذا الحدّ، فلماذا لم تنشأ بيننا علاقة حتى الآن.. بدلًا من علاقتي بهذا البدين الأبله؟

رغم ابتعاده عنا، فإننا ظللنا نختلس النظر إلى أحدنا الآخر.

عقب ذلك الحفل بالتحديد، اتخذت الأمور مسارًا جديدًا. ارتفع سعري جدًّا. بتُّ أكسبُ الكثير. واظبتْ "آنيت" على دعمي وتشجيعي، واهتمت بإرسالي إلى أفضل الكوافيرات وأشهرهنَّ، وصارت تختار لي ثيابًا أحضرُ بها حفلاتها تلك، تسمّيها "فساتين سواريه".. والحقيقة أنها لم تكن أكثر من ملابس فاضحة جدًّا، تُظهِرُ جميع مفاتني، ولا تكاد تُغطي شيئًا على الإطلاق. واقع الأمر أنني أنا نفسي كنتُ أجدُني فاتنة جدًّا بهذه الملابس.. بدأتُ أصبحُ مهووسة بجمالي وقوامي. حرصتُ على تركيب عدد من المرايا المتواجهة في غرفتي لأشاهد نفسي من جميع الزوايا. أتحسس جسمي. ناعم ودافئ تحت تلك الغلالات الرقيقة. صرتُ أشعرُ بالإثارة حين أفعل ذلك. أستمتع بلمسات أصابعي على جسدي،

أكثر بكثير من لمسات الرجال عليه. لعل هذا هو ما جعلني مشهورة بينهم وجعلهم يتهافتون عليّ.. الوقت الطويل الذي أمضيه في إثارة نفسي أمامهم، قبل أن أسمح لهم بالاقتراب مني.

لا أدري حقًّا كيف ومتى تحديدًا تحوّل الأمر من كوني مجرد وجه جميل يزيّن الحفلات إلى فتاة ليل محترفة؟ بدؤوا يطلبونني بالاسم من "آنيت"، لمقابلتهم في بعض "اللقاءات الخاصة". قالت "آنيت" إنها مجرد "لقاءات غرامية" عادية، أو "راندفوو" كما نطقتها بالفرنسية. حين أسرّت إليّ بالمبالغ التي أبدى كُلٌّ منهم استعداده لدفعها، لم أستطع الرفض؛ لكنني في الوقت ذاته لم أستطع التخلّي عن عروض الأزياء. كنتُ أُلحُّ عليها لتشركني في بعضها، فتستجيب لي بين الحين والآخر.

كان هناك دائمًا حفلٌ ما.. أو شخص ما رآني ويرغب في التعرّف إليّ. جميعهم أناس مهمون، وكلهم يتمتعون باللطف والكياسة. في كثير من الأحيان، لم أكن أعرف أسماءهم. "آنيت" نفسها كانت تجهل أسماءهم على الأرجح.

꧁꧂

- في بعض الأحيان، كان "آنيمال" هو الذي يدبّر اللقاءات ويتفق عليها لصالح رؤسائه الكبار. جميعهم يثقون به. اعتاد أن يدفع الأتعاب مقدمًا.

ضحكت "لوث" وقالت:

- أظنُّ أنها تُدعى "أتعابًا"، أليس كذلك؟

واصلتْ حديثها:

- هكذا دخل "آنيمال" إلى عالمها. حجزها مرة عبر "آنيت" وقال إن اللقاء للكولونيل، وطلب منها التزام أعلى درجات السرّية. كان "آنيمال" يكاد يُجنُّ من فرط اشتياقه إلى "ميريام".

علّق "كارلوس":

- ليس اشتياقًا.. بل اشتهاء ربما.

- لا.. أظنُّ أنه كان مغرمًا بها.

✤

بدأ اشتراكي في عروض الأزياء يقلُّ تدريجيًّا، إلى أن تلاشى تمامًا. تزايدت حفـلات الكوكتيـل، وازداد معها عدد زبائني. بدأتُ أتساءل عمّا حدث لكل ما خططت له؟ لم تعد "عارضة أزيـاء" مهنتي فعلًا، بل مجرد لقب يجذب الزبـائن الكبـار، ويـشعرهم أنهـم لم يـذهبوا للفـراش مـع عاهرة رخيصة، وإنما عارضة أزياء معروفة.

ولكن، ما داموا يدفعون لي مالًا مقابل مشاركتي الفراش، فالأكيـد أننـي لـست ـ في نهايـة الأمر ـ سوى عاهرة. لا أكثر ولا أقل.

قررتُ أن أناقش الأمر مع "آنيت". دعوتها لتناول الشاي في منزلي. كنتُ قد اشتريتُ هـذه الستائر والأرائك والسجاد واللوحات، والسرير المزدان بالأعمدة على جوانبـه الأربعـة. أنفقـتُ أموالًا طائلة على جميع هذه الأغراض، لأستمتع بها وحدي. لا يدخل الشقة غـيري. حـين زارني "آنيمال" للمرة الأولى، قلت له إنه أولُ الرِّجال وآخـرهـم يـدخلها، لأننـي لا أصـطحب الزبـائن لمسكني قط. هذا بيتي. مكاني الخاص والسحري.

عندما دلفت "آنيت" من بابها، صاحت بإعجاب:

- كم هي جميلة! ذوقكِ رائع!

أظن أنها شعرت بالدهشة لأن فتاة فقيرة مثلي، قادمة من مجاهـل "كورونيـل برينجلـز"، وتحمل اسمًا شعبيًّا، استطاعت أن تؤثث مسكنها على هذا النحو الأنيق المتناسق.

أعلنت لها على الفور بأنني لست سعيدة بابتعـادي عـن عـالم عـروض الأزيـاء، وانـشغالي بالأعمال الأخرى.

علقت باستغراب:

- يا لها من مصادفةٍ عجيبة!

أخبرتني أنها تحمل مفاجأة لي، وأنها متأكدة أنني سـأحبُّها. هنـاك عـرض أزيـاء ضـخم في الأوروجواي، في "بونتا دل إستي" تحديدًا، خلال الفترة القادمة. يمكنني الاشتراك به. نبّهتني أن كبار الأسماء في هذا المجال سيحضرونه، ما يعني إمكانية توقيعهم عقودًا معي، واصطحابي إلى أوروبا.

أحسستُ بسعادة حقيقية. بدأتُ أستعدُّ للسفر.

في كثير من الأحيان، كنتُ أرفضُ حتى الاعتراف لنفسي بأنني فتاة ليل محترفة.

عندما سألت زبونًا عابرًا في إحدى المرات إن كان يدرك أنني لستُ سوى عاهرة تمارس ألاعيبها على زبائنها، كاد الأمر ينتهي بكارثة.

قال بحماسة:

- حسنًا، لَنَلْهُ معًا إذن حتى أستمتع بألاعيبك تلك!

لم أكن أعرف إنه ساديّ مجنون.

أخرج حبلًا كان قد جلبه معه، وقيّدني به إلى السرير. كنت مستغرقة في الضحك، إلى أن أخرج مسدسه. تجمّد الدم في عروقي. قلتُ له بحدّة:

- هذا يكفي..

لكنه راح يمرّر المسدس على ساقيّ وهو يردّد كلامًا بذيئًا.

- توقَّف أرجوك..

تملكني الرعب حين أدخله فيّ. ظننت أنه قد يضغط الزناد في أيّ لحظة، ويفجّر أحشائي. أظن أن الأمور قد اختلطت على ذلك الوغد المجنون، وأنه ظنني شخصًا آخر، إذ راح يُهدِّدُني:

- سأنتقم منكِ ومن جماعتكِ المسلحة التي تقتل الأبرياء.. أنا مَن سيجعلكِ تفهمين كيف شعروا حين فجرت بهم قنبلتك..

قلت وأنا أحاول الحفاظ على هدوئي:

- لستُ سوى عاهرة.. أنا هنا لتسليتك وقضاء وقت ممتع معك. أنا لا أفجِّر القنابل..

رحتُ أردد بيأس:

- أنا عاهرة.. مجرد عاهرة..

لكن الملعون لم يخرج سلاحه من جسدي.

قلت له:

- أخبرتني "آنيت" أنك سيّد محترم، وأنك عاشق متميز سيمتعني بفنونه الغرامية.. لن نستطيع البدء في ذلك إن ظل المسدس بداخلي هكذا، يا سيدي.

لا أدري كم بقينا على ذلك الوضع، لكنني نجحت في نهاية الأمر في تشتيت انتباهه، ودفعه إلى فكّ الحبل من حولي. أزلت المسدس بنفسي. لم أعلّق على ما حدث، لأن الرعب أخرسني تمامًا. تصرفت كما يجب عليّ، ومارست معه ما جاء من أجله.

بعدها، أنّبتُ "آنيت" بقسوة على ما فعله زبونها بي. كان عليّ أن أخمّن أنها على علم مسبق بطبيعته وخصاله، إذ سألتني ببرود واستهانة:

- وكيف انتهى الأمر؟ هل آذاكِ؟ على الإطلاق!

أضافت:

- لكل رجل خيالات جامحة، يتحرّق لتحقيقها. هذا كل ما في الأمر. استخدمي ذكاءكِ لإيهامهم بأنهم يحققون أحلامهم معكِ.

رغم برودها المتعمّد، أدركت "آنيت" أنني أشعر برعب حقيقي، فقالت بصوت هادئ:

- حسنًا.. لا تقلقي يا حبيبتي، لن أمنحه موعدًا معكِ مرة أخرى. أعدكِ بذلك. والآن ابتهجي وفكري فقط في عرض الأزياء القادم في "بونتا دل إستي".

تحدثتْ بإسهاب عن العرض، وعن الفرص العظيمة التي تنتظرني بعد انتهائه، إلى أن نسيت غضبي ورعبي.

كان من المفترض أن أنطلق بسرعة الصاروخ في عالم الموضة، عقب هذا العرض، وأن أوقِّع عقودًا مع دور أزياء مهمة مثل "إيف سان لوران" و"كريستيان ديور"، وغيرهما. قررتُ أنني سأتفرَّغ لهذه الوظيفة، وعقدتُ العزم على توديع مهنتي الحالية إلى الأبد. إن سارت الأمور على ما يُرام، فسوف أتزوج بعد أعوام قليلة، وأُنجِبُ الطفل الذي أحلمُ به.

ولكن.. انهارت أحلامي فجأة. تأخرت دورتي الشهرية عن موعدها.. ثم لم تأتِ على الإطلاق. كدتُ أُجَنُّ. قمتُ بعمل تحليل الحمل، وجاءت النتيجة إيجابية. كيف

أتصرف؟ موعد إجرائي لـ"بروفات" العرض بات وشيكًا. عليّ أن أقيس الملابس التي سأرتديها خلاله. كما أن لديّ موعدًا مع أحد زبائني الليلة.

أبلغت "آنيت" أنني مريضة ولستُ على ما يُرام. لم أستطع مصارحتها. الحمل دون تخطيط غباء. الفتيات الذكيات لا يحملن على هذا النحو.

كان عليّ أن أتخلّص من الجنين بأسرع ما يمكن. لمن ألجأ؟ زميلاتي العارضات؟ تعلمت ألا أثق بهن، لأنهن أول مَن يستغللن أسرارك في الإضرار بك.

زبوني في تلك الليلة لم يكن يتبع الجيش. مصرفيّ ظريف يتميز بطبيعة مرحة. لا أستطيع طلب مساعدته في موضوع الإجهاض.

أعرف أعدادًا هائلة من الناس، ولكن لا تربطني صلة حقيقية بأي منهم تمكّنني من الاعتماد عليهم، أو البوح لهم بسرّي. غمرني إحساس رهيب بالوحدة.

فكَّرتُ في الاستعانة بـ"فرانك"، موظف فندق "كلاريدج". كنتُ قد خرجتُ معه قبل ذلك، وتبادلنا أحاديث ودودة بضع مرات.. لكنني، مع ذلك، لا أعرفه جيدًا وقد يسيء فهمي.

لم أستطع النوم تلك الليلة. فتشت في كل مكان عن عنوان "لا جوردا". عثرتُ عليه، وتوجهتُ إليها في ساعات الصباح الأولى. خلال إجرائها العملية، شعرتُ أنها تمزِّق أحشائي فعليًّا.

لم أذهب إليها توفيرًا للمال، وإنما لعجزي عن التفكير في حَلٍ آخر. لم يبقَ على عرض الأزياء سوى عشرين يومًا. عليّ أن أظهر بقوام ممشوق.

أبلغتُ "آنيت" أنني لن أستطيع الذهاب إلى "بروفات" العرض، ولا حضور حفل ذلك المساء.

كنتُ أنزفُ بشدّة.

أخبرتُها أن دورتي الشهرية قد بدأت، وأنها غزيرة جدًّا هذه المرة. أردفتُ:

- أنا مُتعبة حقًّا.

- أرجو ألا تكوني قد ارتكبتِ إحدى تلك الحماقات المعروفة.

- ماذا تعنين؟ أي حماقات؟

- تعرفين ما أعني، عملية إجهاض.

أقسمتُ لها بحرارة أنني لم أفعل، لكنني تساءلت عمّا سأقوله لها إن استمرَّ النـزف عـشرة أيام مثلًا؟ لا يمكن أن تدوم الدورة الشهرية كل تلك الفترة.

في تلك الليلة، اتجهتُ إلى مستشفى "فيرناندز" دون تفكير. لم أهتم بأن عمليات الإجهاض غير قانونية، وأن الموضـوع قـد يعرّضـني للمـساءلة والـسجن؛ ولم أهـتم بـأن يـصل الخـبر إلى "آنيت". كل ما شغل تفكيري حينها هو إيقاف الدم المتدفق من جسدي بكميات هائلة.

أمضيتُ في المستشفى يومين. كـان الطبيـب جيـدًا. تعامـل مـع حـالتي بمهـارة، ونجـح في إيقاف النزيف، والأهم أنه لم يبلّغ السلطات، واكتفى بالقول:

- أنا آسف. لا يمكنكِ الإنجاب أبدًا بعد الآن.

شعرتُ بصدمة بالغة، تبعها أسى لا يمكن وصفه.

لقد كنتُ أؤجل الحمل المرة تلو الأخرى، دون اهتمام بالعواقب. أما وقد عرفت الآن أنني لن أتمكَّن من تحقيق حلم الأمومة أبدًا، فقد أصبحتُ ـ في لحظات ـ مهووسة بالمسألة.

حين أخبرت "آنيـت" بعـد بـضعة أيـام أن الـدورة لا تـزال مـستمرة، وأننـي لـن أسـتطيع الذهاب إلى الـ"بروفات" خوفًا من أن أبقع الملابس التي يجـب عـليّ تجربتهـا، راحـت تـصرخ بعصبية وأنهت كلامها معي بأوامر تجبرني على حضور حفل الخمـيس القـادم. عـليّ أن أقابـل زبون الخميس، تحت أي ظرف، لأن أصحاب الحفل أكّدوا لها أنني أنا، وليس أي فتـاة أخـرى، المطلوبة تلك الليلة. أضافت في نهاية المكالمة أنه عليّ أن أبدو في أبهـى صـورة، فـالزبون مُهـمٌّ جدًّا.

بحلول يوم الخميس، بدأتُ أشعرُ بتحسّن في صحتي. كميات الـدم أصـبحت أقـل، لكننـي كنتُ أشعر بحـزن عظـيم وبـؤس حقيقـي. لم أعـرف كيـف سـأنجح في ادّعـاء المـرح والبهجـة المطلوبين.

مَن الذي كان بانتظاري في "كلاريدج"؟

"آنيمال" لا غير!

كان قد توجّه إلى "آنيت" ليحجزني ويدفع الثمن مقدمًا، مخبرًا إياها أن الزبون هو أحد قادة الجيش الكبار، وأنه غير مسموح له بذكر اسمه. قال لها أنني إن لم أكن متوفرة تلك الليلة، فعليها أن تحدّد موعدًا آخر. التعليمات واضحة.. الكولونيل لا يريد سواي.

كان التصرّف على هذا النحو مخاطرة كبيرة.. يحجزني لنفسه مدّعيًا أنه يفعل ذلك لأحد رؤسائه المهمين. مغامرة قد تكلفه حياته، التي يمكن أن تنتهي بحبل المشنقة، بكل بساطة.

حين دخلتُ الفندق، وجدته في انتظاري. بدلة زرقاء، كرافتة قبيحة، وشعر مصفف بعناية فائقة. نظر إليّ بمزيج من الإعجاب والارتباك.. بدا كمراهق يلتقي حبيبته للمرة الأولى. ضحكتُ بارتياح:

- حمدًا لله أنك أنت الزبون يا "آنيمالَ"!

أبدى دهشته لأنني أعرف اسمه. قلت له إنني أراه كثيرًا في مختلف الحفلات، وأنني أتذكره جيدًا. أضفتُ بصدقٍ أنني في منتهى السعادة لرؤيته.

فور أن نطقت بهذه الجملة، انسابت دموعي دون أن أنجح في إيقافها. سرعان ما انخرطت في بكاء مرير. أخيرًا، رجوته بصوت متقطع:

- لا تخبر "آنيت" عن بكائي، من فضلك.

اقترب مني واحتضنني بحنان، وطلب مني ألا أخبرها أنا أيضًا بأنه هو الزبون وليس أحد القادة الكبار، حتى لا يتعرّض لعقاب قد يكلفه حياته.

شعر كلانا أننا معًا في الخندق نفسه. سرعان ما كنتُ أقصُّ عليه كل ما حدث.. الإجهاض، والمستشفى وكلام الطبيب، وإحساسي بالعجز التام لعدم قدرتي على أن أصبح أمًّا.

قلت له إنه لن يفهم، على الأغلب، رغبتي الحارقة في الإنجاب.. لكنه قاطعني بأن الأمر طبيعي، وأن كل امرأة تحب الأطفال بالفطرة.

أضاف بأنه يحبني. لا يشتهيني فقط، بل يحبني بجنون، وأن مشاعره تجاهي صادقة. أخبرني أنني أميرته. أجمل أميرة في العالم بأسره.

لم أكن في عينيه فتاة ليل حقيرة، وإنما أميرة محاطة بأهم رجال الدولة.

في تلك الليلة، ذهبنا إلى البيت معًا. أمضينا معًا أسبوعًا كاملًا.

حين أبلغت تلك العجوز اللعينة أنني سأتوقف عن العمل نهائيًّا، وأنني سأعتزل لأنني وقعتُ في الحب، سألتني عمّن يكون فارس الأحلام. رفضت إخبارها، حتى لا أُعرِّض "آنيمال" لأي مشكلة.

أغضبتني حين قالت إنني كنت على وشك تحقيق نجاح باهر في عالم الأزياء، وإن إصراري على التخلي عن مستقبلي المهني من أجل رجل ليس سوى خطأ فادح. من فرط غيظي، نسيت وعدي لـ"آنيمال" فأعلنتُ لها بنظرات متحدية:

- سوف أتزوج "بيتيوتّي".

اشتعل الغضب في عينيها، وصاحت باستنكار:

- ذلك الضابط التافه؟!

أضافت:

- كيف تجرؤان على التصرف معي بهذه الطريقة؟ لقد خدعني!

ثم راحت تهدّدني بإبلاغ رؤسائه عن تصرفاته، وأنها سوف تريني أين سينتهي الحال بفارسي الشجاع.

في تلك اللحظة، نسيت كل ما علمتني إياه عن ضرورة التحدث بصوت هادئ، وكلمات مهذبة؛ وجدت رأسي يقترب من رأسها، وقلت لها بصوت يقترب من الفحيح:

- أنصتي إليّ جيدًا.. إن تفوّهتِ بكلمة واحدة، فسوف يقوم "آنيمال" بتحطيم بيتكِ هذا وتكسير عظامك دون رحمة. تذكري أنه لا يحمل لقب "آنيمال" من فراغ..

أكملتُ:

- نصيحة أخيرة.. انسِي أمري تمامًا. دعينا وشأننا.

قالت بصوتٍ جاهدت ليكون هادئًا ولطيفًا:

- كل ما في الأمر هو أنني حزينة من أجلك. ينتظركِ مستقبل رائع.

أضافت باستسلام:

- ما الذي يمكنني فعله؟ نحاول إخراجكم من الوحل، لكنكم تصممون على التمرّغ فيه مدى الحياة.

تجاهلت تعليقها، وبدأت أستعدُّ للمغادرة، حين سمعتها تقول باحتقار:

- ضابط صف؟!! يا له مِن أمرٍ مُقزِّز!

التفتُّ نحوها بكل الغضب المتراكم بداخلي منذ أعوام، عدتُ "ميريام لوبيز" القروية الشرسة، وقلت لها:

- وما العيب في ذلك؟ هل لضباطك الكبار أعضاء تناسلية مصنوعة من الذهب؟! اسمعي أيتها العاهرة الغبية.. احذري مما يمكنني فعله. أنا أعرف الكثير. أكثر مما تتخيلين.. فضائح ستقضي عليكِ وعلى ضباطك ذوي الأعضاء الذهبية.. فالتزمي الصمت.

خرجت من بيتها تملؤني الثقة بأنها لن تجرؤ على فتح فمها، لأن أكثر ما تخشاه هو الفضائح.

هذه الليلة، سأدخل "آنيمال" إلى الغرفة الإضافية، التي زينتها وجهزتها لتصبح حجرة أطفال تناسب المولود القادم. اشتريتُ كل ما قد يحتاجه الصغير، من النقود التي أعطاني إياها "آنيمال" للاستعداد للزفاف.

تُرى هل سيغضب حين يعلم أنني أنفقتُ المال على شراء ورق حائط عليه دببة حلوة؟ لا أظن.. وبخاصة حين يرى سرير الطفل الجميل واللحاف الصغير والمُلاءات الرقيقة. أراهن أنه سيعجب بالغرفة ومظهرها الجديد، قدر إعجابي بها.

ꕤ

كان "آنيمال" عطوفًا معها، لدرجة أشعرتها بأنها هي القائدة والمتحكمة في الأمور.

ꕤ

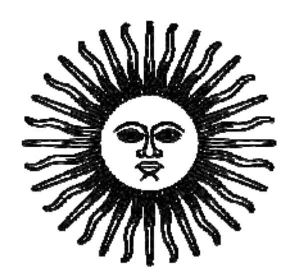
أظن أنه يحب فكرة أن يكون لنا صغير، نشترك في تربيته معًا. إنه لا يفعل ذلك من أجل إرضائي فقط، ولا من أجل المتعة التي يشعر بها في علاقتنا الجسدية.

صحيح أنه قادر على بَثِّ الرعب في نفوس الآخرين، لكنه حين يكون معي يصبح طوع أمري.. خاتمٌ أديره حول إصبعي كيفما شئتُ.

على أيّ حال، البيت بيتي.. وأنا صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة فيه.



2



الوضع ليس كما تخيله "إدواردو" قط. لم يتصور أن تُحدِثَ "آميليا" كل هذه الجلبة، بصوتها المزعج ذلك، كما أنه لم يتوقع أن يسير "آلفونسو" في المكان، جيئة وذهابًا، بخطواته العصبية. كان قد اتفق مع "ماريانا"، في دروس الاستعداد للولادة، على أن يكونا بمفردهما في هذا اليوم. تخيَّل الأمر على النحو التالي: هي تعاني آلام المخاض، وهو يحاول مساعدتها وتشجيعها، بينما تأتي "الداية" للاطمئنان عليها بين الحين والآخر.

لماذا حضر والداها؟ هو نفسه لا يعرف سبب توتره البالغ.. هل هي آلام الولادة التي تعذّب "ماريانا"، أم وجود أبويها وتدخلاتهما في كل صغيرة وكبيرة، ومحاولاتهما لإبعاده والانفراد بها؟ حتى أنه حين ذهب ليحضر لزوجته كوب ماء، استولت أمها على مقعده المجاور لفراشها، وجلست مكانه!

صاح "آلفونسو" فجأة:

- لِمَ لا يعطونها إبرة منوّمة؟ ما الفكرة في تركها تتعذب بهذه الطريقة؟

يحاول "إدواردو" أن يمدّ ذراعه فوق كتف "آميليا"، ليربّت على "ماريانا"، لكن أصابعه لا تصل إليها. يقول لها:

- اهدئي يا حبيبتي. تنفسي. خذي شهيقًا عميقًا.. نعم هكذا، والآن أطلقي زفيرًا طويلًا..

تحدجه "آميليا" بنظرات منزعجة، وكأنها تتساءل: "ما الذي يفعله هذا الشخص هنا؟ وما هذا الهراء الذي يتفوّه به؟".

يتمنى "إدواردو" لو كان باستطاعته أن يطلب منهما مغادرة المكان، وتركه وزوجته بمفردهما. لكن ما إن شعرت "ماريانا" بأول علامات المخاض، حتى اتصلت بوالديها، قبل حتى أن تتصل بـ"الداية".

كيف له أن يرفض الآن وجودهما في العيادة؟

ﮪ

يعيش "آلفونسو" و"آميليا" في "بوينس أيرس". ذهبا إلى "إنتري ريوس" ليكونا مع "ماريانا" عند ولادتها. أقاما في منزلها وزوجها، وهو ما تسبَّب في تعقيد الأمور أكثر.

ﮪ

الآلام التي تشعر بها "ماريانا" تكاد تمزقه. يستجمع شجاعته أخيرًا ليطلب من "آميليا" أن تتكرم بترك الكرسي له؛ لكنه يجد نفسه مضطرًّا لشرح السبب، فيخبرها أنهما بحاجة لتطبيق ما تعلّماه في حصص الاستعداد للولادة. تنظر إليه ببرود، وتتجاهله تمامًا، رافضةً ترك المقعد.

تمدّ "ماريانا" يدها نحوه، فيمسك بها بين أصابعه. يودّ أن يردّد على مسامعها كلمات مثل "حبيبتي.. حياتي.. روحي"، لكن وجود أبويها يمنعه من ذلك.

يحاول الاقتراب من زوجته، فيضطر إلى المرور في المساحة الضيقة الفاصلة بين السرير والكرسي الذي تحتله حماته. يتعثر فجأة وينكفئُ على "ماريانا".

يصيح والدها بانزعاج بالغ:

- "إدواردو"!! انتبه بالله عليك! ما دامت أعصابك مشدودة لهذه الدرجة، فلمَ لا تبقى خارج الغرفة؟

يكرر ثانيةً:

- لِمَ لا يعطونها إبرة منوّمة؟! ما الفكرة من تركها تتعذب هكذا؟

تعلّق "آميليا" متأففة:

- لِمَ لا تبقيان خارج الغرفة أنتما الاثنان؟ وجودكما غير مناسب. أنا سأبقى مع "ماريانا".

يقف "إدواردو" في حالة صدمة، منتظرًا أن تطلب زوجته من أبويها أن يسكتا ويتوقفا عن تصرفاتهما المزعجة، لكنها تخاطب والدها:

- مِن الأفضل أن تنتظر خارج الحجرة يا بابا، مع "إدواردو". وجودك هنا سيتلف أعصابك.

عليه أن ينفذ ما تريده، ما دامت تلك رغبتها، ولكن عندما تحين اللحظة الحاسمة فإنه سيرافقها داخل غرفة الولادة، كما خططا معًا.

يصارح والدها بذلك. يصيح الأخير باستنكار:

- ماذا؟! هل جُننتَ؟ ما الذي يستدعي وجودك هناك؟ أنت لستَ طبيبًا.

- صحيح، ولكنني أريد أن أكونَ معها، لأمسك بيدها وأدعمها نفسيًّا، وحتى أرى طفلي لحظة ميلاده.

لكن "آلفونسو" ظل يجادله طويلًا قائلًا إنه أنجب ثلاث بنات، دون أن يحضر مع زوجته مرةً، وأن الأمور سارت بشكل طبيعي.

اختتم حديثه بالقول إن غرفة الولادة ليست مكانًا ملائمًا للرجال.

لكن "إدواردو" يعقد العزم على تنفيذ ما اتفق عليه مع زوجته. في تلك اللحظة، تدخل "الداية" غرفة "ماريانا"، فيلحق بها، صامًّا أذنيه عن أوامر "آلفونسو" بأن يبقى في مكانه.

ليت هذا الكابوس ينتهي بأسرع ما يمكن.

تظل "آميليا" في مكانها داخل الغرفة، ولا تطلب منها ابنتها المغادرة. تفحص "الداية" "ماريانا". تتجهم وتسارع بإحضار الطبيب. يخرجونها باتجاه حجرة الولادة. يرفضون دخول أيٍ من أبويها معها. يسمحون بذلك لزوجها فقط.

يطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

هناك، يقف "إدواردو" وراء "ماريانا" ممسكًا برأسها. إنها تُعاني آلامًا رهيبة غير محتملة. إنه لا يفهم ما الذي يحدث بالضبط. الطبيب و"الداية" يطلبان منها بإلحاح متكرر أن تقوم بدفع الجنين. صراخها يملأ المكان.

التعبيرات على وجه الدكتور "موراي" العابس غير مطمئنة. كل شيء يحدث بسرعة.. الأصوات المتداخلة.. الوجوه المتجهمة.. الصراخ.. وأخيرًا تتعالى أوامر الطبيب بأن يتجهوا بها بسرعة إلى غرفة العمليات الجراحية، يلتفت نحو "إدواردو":

- أنا آسف سيد "إيتورب"، غير مسموح لك بالدخول. الجنين في خطر. سنُجري عملية قيصرية.

ꕥ

كان يمكن للأمر أن يحدث في أي ساعة من ساعات اليوم، ليلًا أو نهارًا. الضابط "بيتيوتي" لا يكون في عمله على مدار الساعة بطبيعة الحال، لكن الحظ - ربما لم يكن الحظ فقط - جعله هناك، حين تمّ اتخاذ القرار بنقل "ليليانا" إلى المستشفى. الواقع أنه هو مَن اتخذ هذا القرار. أرادها أن تكون مُحاطة بالأطباء والممرضات، ليضمن سلامة المولود.

فور وصوله إلى السجن لاستلام ورديته قبيل السابعة صباحًا بقليل، أبلغه الحارس أن السجينة "م-35" قد جاءها المخاض، وأن السجينة "ل-23"، طالبة الطب، تحسب لها المدة الزمنية الفاصلة بين نوبات الطَّلق التي تعانيها.

ꕥ

قال "كارلوس":

- "تيريزا" كانت زميلتي في الجامعة في تلك الفترة. رأت "ليليانا" برفقتي بضع مرات. كنتُ أعرفها منذ سنوات طويلة. عائلتها من "بوسادا"، مثلي. حين خرجتْ، اتصلتْ بوالدي. لقد تمّ اعتقال "تيريزا" مصادفةً. لم يكن لها علاقة بنشاطنا.

- نشاطكم؟! مَن تقصد؟

أشاح "كارلوس" بوجهه بعيدًا وهو يقول:

- أعني أن "تيريزا" لم تكن مهتمة بالسياسة. كانت في منزل جيرانها حين تعرّضوا للاعتقال، وأخذوها معهم. لم تكن تعرف شيئًا على الإطلاق.

ꕥ

اعتاد أن يصل عمله في حوالي الثامنة والنصف، لكنه في ذلك الصباح استيقظ باكرًا عن المعتاد، شاعرًا بتوتر لا يعرف له سببًا، ربما لضيقه من ذلك الفتى القابع في زنزانته، رافضًا أن يُدلي باسم أيٍ من زملائه. توصل إلى الأسلوب الذي سيتعامل به معه اليوم. نظر إلى "ميريام" المستغرقة في نوم عميق. أحسّ بارتياح وهو يتأملها. كم يحبها! قبّلها برفق، وقال هامسًا:

- سأذهب الآن إلى المكتب يا حبيبتي. سأتصل بكِ لاحقًا.

ꕥ

عند الحديث معها، اعتاد أن يشير إلى عمله بـ"المكتب".. كأنه محامٍ أو موظف في بنك!

ꕥ

كان عليه أن يتوجَّه إلى عمله مبكرًا ذاك النهار، علّه يتمكن من إجبار الفتى على الاعتراف وذِكر أسماء رفاقه. لكنه نسيَ كل ما يتعلق بذلك الشاب، حين عَلِمَ أن الفتاة توشك على الولادة. تساءل في نفسه بسعادة: إن كان ما أيقظه في الواقع هو إحساسٌ خفيّ بقرب لقائه بطفله المنتظر؟ تخيّل سعادة "ميريام" حين تضمُّ الصغير إلى صدرها.

توجَّه الضابط "بيتيوتي" إلى زنزانة "ليليانا" الضيقة. ذُعرت "تيريزا"، التي أزالوا عنها العصابة التي تغطي عينيها للمرة الأولى، حين رأته أمامها.

سألها:

- كم بقيَ حتى ولادتها؟

- ليس طويلًا. انقباضات الرحم منتظمة.

ثم سألته بمزيج من الرجاء والخوف:

- هل سأقوم بتوليدها؟

- كلا، سأصطحبها بنفسي إلى المستشفى.

أمر الحارس بأن ينزع الأصفاد عن ساقيّ "ليليانا"، وأن يُبقي يديها مقيدتين، وألا يُزيل الغطاء عن عينيها.

ورغم أن اصطحاب المساجين إلى المستشفى لم يكن جزءًا من واجباته، فإنَّ تصرُّفَه لم يثر دهشة أحد. فالكل يعلم أن الضابط "بيتيوتي" يرتبط بعلاقة مختلفة مع "ليليان أورتيز"، أو السجينة "م-35".

ꕥ

امتلك امتيازات وصلاحيات كثيرة، تتجاوز كونه مجرد ضابط صف، بسبب قدرته الفذة على استخلاص الاعترافات والمعلومات من المحتجزين، ما جعله الذراع اليمنى لـ"دوفاو". "دوفاو" هو المسؤول الأول في مركز الاعتقال.

ꕥ

منذ أن حقق معها أول دخولها المعتقل، منذ عدّة أشهر، بقيت "ليليانا" بمأمن من التعذيب، ولم يُصِبْها أحدٌ بسوء. أصدر أوامره بألا يمسها أيٌّ منهم، وأخبرهم بأنه سيتولى أمرها بنفسه فور أن تضع مولودها، وبرَّر ذلك بالقول:

- حربنا ليست موجهة ضد الأطفال الصغار.

ورغم أن أيًّا من زملائه لم يفهم دوافعه الحقيقية، وبخاصة أنها لم تكن الحامل الوحيدة، فإنهم انصاعوا لأوامره، وباتت تُعرف بـ"سجينة بيتيوتي".

ظن بعضهم أن "آنيمال" معجب بها، أو أنها تذكّره بأمه مثلًا، وقال البعض الآخر بأن تصرفه هذا جزء من خطة محكمة تهدف إلى دفعها للاعتراف، وتزويد السلطات بأسماء شركائها. بقيت المسألة مجرد مجموعة من التخمينات في رؤوس زملائه، ولكن لم يتصور أيٌّ منهم بأن "بيتيوتي" يوليها عناية خاصة لأنها أم طفله.

ولذلك لم يهتم أيٌّ منهم حين رأوه يحملها في سيارته، متجهًا بها إلى المستشفى، ذلك الصباح. استلقت "ليليانا" على الأريكة الخليفة للسيارة.

أزال الغطاء عن عينيها قبيل نزولهما أمام باب المستشفى. كاد النور يعميها بعد أن بقيت في ظلام دامس طيلة أشهر. حين أمرها بألا تتكلم مطلقًا، وأن تدعه يتولى الحديث، نظرت إليه للمرة الأولى. لم تستطع إبقاء عينيها مفتوحتين، وظلت تغمضهما كثيرًا لعدم اعتيادهـا الـضوء؛ ومع ذلك رأى فيهما شيئًا لم يستطع تبيُّنَه على وجه الدقـة.. لعلّـه كراهيـة أو خـوف أو ألم أو اشمئزاز (اختار "آنيمال" أن يسمّيه ألمًا). عيناها جوهرتان خضراوان.

ورغم أنها لم تفتح فمها على الإطلاق، فقد صاح بها:

- قلتُ لكِ لا تتكلمي أبدًا يا حيوانة!

كيف تجرؤ على النظر إليه بهذه الطريقة الوقحة، بعد كل ما فعله من أجلها؟

ليخلّص نفسه من عذاب نظراتها، تعمّد أن يفكر بـ"ميريـام" ومـدى سـعادتها حـين تـرى المولود. فكّر في جسدها الفاتن وتأوهاتها المـستمتعة بلمـساته. فكـر في أشـياء كثـيرة ليـشغل نفسه عن عينيّ "ليليانا" الغاضبتين.

تأبط ذراع الفتاة، ودخل بها المستشفى.

ربما كان تفكيره المتواصل في "ميريام" هاربًا مـن كراهيـة "ليليانـا" الواضـحة، هـو الـسبب الذي جعله يسجلها في الاستقبال باسم "ميريام لوبيز" من "كورونيل برينجلز".

ꕥ

أخبر "ميريام" بعدها أن الأمر حدث دون تخطيط مسبق. لم يكـن في نيتـه تـسجيلها كـأم للمولود.

ꕥ

عليه ألا يلتفت تجاهها. لن يعرّض نفسه لتلك النظرات مرة أخرى.

همس في أذنها محذرًا، وهما متجهان إلى غرفة الولادة:

- إياكِ أن تنطقي كلمة واحدة، وإلا فأنتِ الجانية على نفسك.

لكنها بدلًا مِن أن ترتعب منه ومِن تهديده، سدّدت له نظـرةً قاتلـة. لم يخالطـه الـشَّكُّ في طبيعتها هذه المرة.. إنها كراهية خالصة.

كان عليه أن يعود إلى عمله ليواصل تحقيقاته مع المعتقلين، علّ ذلك يخلصه من التوتر الذي يشعر به، لكن مولود "ميريام" قد اقترب وصوله، ومن واجبات الأب والزوج أن يكون في استقباله.

ꕥ

وجودهما يزيد من توتره وقلقه. ليتهما يسكتان. إنهما لا يتوقفان عن التبرم بصوت مرتفع تجاه كل ما يحدث.. لماذا لم يفحصها الطبيب بنفسه فور دخولها؟ لماذا الإصرار على الولادة الطبيعية من الأساس؟ ها هم يضطرون للجوء إلى العملية القيصرية. يا له من طبيب فاشل! مَن الذي اختاره أصلًا؟

ولأن "ماريانا" و"إدواردو" هما اللذان اختاراه، فإنه يسأل حماته بامتعاض:

- وما العيب في اختيارنا إياه؟

تجيبه بحدّة:

- اسمع! أعرف أنك تشعر بالقلق والانزعاج، لكن هذا لا يمنحك الحق في التحدث معي بهذه الطريقة الفَظَّة.. تذكَّر أنني أمُّها.

ليته يستطيع أن يضربها ليخرسها! يعلم جيدًا أنه لا دخل لها بالمسألة، لكنه يشعر ـ مع ذلك ـ بأن "آميليا" هي السبب في دخول "ماريانا" لغرفة العمليات.. فبسبب تدخلات أمها المتواصلة، لم تستطع زوجته أن تركز في موضوع التنفس بعمق والسيطرة على انقباضات الرحم، ولم تَسِر الأمور كما خططا لها، والمفارقة أن "آميليا" تحديدًا هي التي تعتقد الآن أنه المخطئ لاختياره هذا الطبيب.

لحسن الحظ، يمسك "آلفونسو" بذراعها، ويبتعد بها قائلًا لزوج ابنته:

- سنذهب لتناول القهوة في الكافيتريا في الدور السفلي. إذا خرجت "ماريانا" قبل عودتنا، فتعالَ لتبلغنا.

ما الذي يحدث بالضبط؟ لعلهما مُحقَّان.. ربما كان على الطبيب أن يتدخل فور قدومهما للمستشفى. يشعر بغضب شديد، ولا يعرف تجاه مَن تحديدًا.. "آميليا"؟ أم "آلفونسو" الذي لا يتوقف عن إصدار الأوامر لكل من حوله؟ أم الدكتور "موراي"؟ أم تجاه نفسه لإصراره على الولادة الطبيعية؟ مَن يدري ما

الذي يحدث لـ"ماريانا" في هذه اللحظات؟ يدعو اللـه أن تخرج سالمة مـن غرفـة العمليـات. لن يسامح نفسه أبدًا إن حدث لها أي مكروه. لم تكـن زوجتـه متحمـسة للأمومـة، لكنـه هـو الذي ظَلَّ يُلحُّ عليها بضرورة أن يكون لهما طفل. لطالما قالت معترضة:

- لكنني لن أستطيع السفر إلى "بوينس آيرس" متـى مـا رغبـتُ، حـين يكـون لـديَّ صـغير أهتمُّ به.

حين تزوجا، وافقت على الانتقال إلى "إنتري ريوس"، حيث تقـع أرضـه الزراعيـة. عليـه أن يُباشِرَ مزارعه بصفة دائمة. كثيراً ما وجدها بعد ذلك تبكي اشتياقًا إلى أسرتها، ثم بـدأت تـسافر إليهم في "بوينس آيرس" بصفة منتظمة.

- إنهم عائلتي. أنا أحبك يا "إدواردو"، لكنني أفتقـدهم جـدًّا وأشـتاق إلـيهم. كـن لطيفًـا واسمح لي بالسفر.

هذا هو السبب الرئيسي في رغبته في الحصول عـلى طفـل منهـا. يـدرك أنهـا أنانيـة، لكنـه يرغب في أن تقترب منه أكثر، وأن تبتعد قليلًا عن أبويهـا لتـصبح لهـا شخـصية مـستقلة أكـثر نضجًا.

اقتربتْ خطواتُ حَميه الواثقة من المكان الذي يقف فيه، وعلا صوت حماتـه المـستفز في الممر. لا يدري أيهما يزعجه أكثر.

الدكتور "موراي" يسير باتجاهه. يسارع بالاقتراب منه. يبادر والدا زوجته بملاقاة الطبيـب، لكن الأخير يشير إليهما بيده، طالبًا منهما الابتعاد، ومعلنًا بوجه صارم أنه بحاجة للحديث مع الزوج على انفراد.

لا يصدق ما يسمعه. الطبيب يؤكد أنهم فشلوا في إبقاء الجنين على قيد الحياة. لا شك أن هذا غير صحيح.

- لماذا؟ كيف ذلك؟ كل شيء كان على ما يرام.

- "ماريانا" في حالة خطيرة، لكنها ستنجو. إنها لا تزال تحـت تـأثير التخـدير. أنـا آسـف يـا سيد "إيتورب".

بدا الطبيب على وشك البكاء. إنه يدرك أنه الملوم، ولا شك. قال بصوت متحشرج:

- يمكنك الدخول للاطمئنان عليها. دقيقة واحدة فقط، لا أكثر.

ꕥ

أحسَّ الضابط "بيتيوتي" بفرح عظيم، حين بشروه بالخبر السعيد. اتصل من فوره بـ"ميريام"، قائلًا لها:

- مبارك يا حبيبتي.. لقد أنجبتِ بنتًا حلوة منذ خمس دقائق. وزنها يتجاوز الثلاثة كيلوجرامات وربعًا بقليل..

لم تكن هذه مجرد عبارات تفوَّه بها. إنها الحقيقة، التي تؤيدها شهادة الميلاد، والتي تؤكد أن "ميريام لوبيز" هي أم الطفلة التي ولدت في 1976/11/15 في تمام الساعة الثانية عشرة والربع، والتي تزن ثلاثة كيلوجرامات.

ꕥ

- تنقلت شهادة الميلاد تلك بين أيدٍ عديدة، مسببَة الحيرة للكثيرين.

تساءل "كارلوس" باستغراب:

- المولودة أنثى؟!

أضاف متفكرًا:

- ليست "ليليانا" إذن.. لقد ولدتْ "ليليانا" صبيًّا ميتًا. "تيريزا" أكدت لي ذلك. إنها طالبة الطب التي كانت رفيقتها في السجن، وساعدتها حين أتاها المخاض. أخبرها أحد الحرّاس لاحقًا أن الطفل ولِد ميتًا، وأن "ليليانا" أصيبت بالتهاب تسبب في دخولها غيبوبة كاملة، ثم وفاتها بعد ذلك.

ꕥ

"آميليا" هي صاحبة الفكرة..

ألم يخبرها زوجها "آلفونسو" أن السلطات، في بعض الأحيان، تمنحُ عائلاتٍ محترمةً مواليدَ المحكوم عليهم؟

ليس ذنب هؤلاء الصغار أنهم ولدوا لأشخاص مُدانين. نعم.. صحيح أنه يمكن لـ"ماريانا" أن تنجب طفلاً آخر، لكن الأمر سيكون صعبًا على الأرجح.

على أي حال، لماذا يُحرَمان من فرحة ولادة حفيدهما الأول، وبخاصة بعد أن أعلنا لكل النـاس عن حمل ابنتهما؟

ألم يخبرها زوجها أن العديد من أولئك الأطفال يتمتعون ببشرات فاتحة، وليسوا سودًا؟ في هذه الحالة، لن يعرف أحـد أن الـصغير لـيس ابـن "ماريانـا". علـيهم فقـط أن يتأكـدوا أن أم المولود ليست يهودية أو سمراء.

الأمر سهل جدًّا، ويمكنهم تنفيذه. لمَ لا؟ "آلفونسو" يتمتع بامتيازات عديدة، بعد كل تلـك الأعوام التي أمضاها في الخدمة. لماذا تضطر ابنتها الحبيبة للمرور بحالة حزن واكتئاب وخيبـة أمل؟ لماذا يحوّلون حادثًا عرضيًّا إلى مأساة كبيرة؟ يمكـنهم الاسـتعانة بـأي مـن أولئـك الـصغار الموجودين في كل مكـان. لعلهـا إرادة اللــه. إن الأمـر في جـوهره عمـلٌ خـيريّ لا أكـثر. الأب "خوان"، قسيس الكنسية التي تذهب إليها، سيوافقها الرأي على الأغلب.

حدسها - الذي لا يخيب أبدًا، كما يعرف زوجها جيـدًا - يؤكـد أن الحـل الأنـسب للوضـع الذي وجدوا أنفسهم فيه، هو الحصول على رضيع من أبناء السجينات. يـا للأطفـال المـساكين! ما ذنبهم كي يُولدوا أبناءً لهؤلاء المُجرمات؟

نعم.. يمكنهم تنفيذ هذه الفكرة. "آلفونسو" يملك نفوذا وسُلطة يمكّنانه من فعل كـل مـا يرغب به، أليس كذلك؟

كلمتا الـ"نفوذ" والـ"سُلطة" لهما تأثير السِحر عـلى "آلفونـسو". تواصـل "آميليـا" إلحاحهـا وتبريراتها الكثيرة. لا تتوقف عن الكلام. يفكر قليلًا.. زوجته مُحقَّة.. إنـه يـستطيع تنفيـذ هـذا الأمر بسهولة. إنه ممن عملوا على تطهير البلاد من المخربين خلال الأشـهر الماضـية. سـاهَمَ في التخلُّص من العديد منهم، والقضاء على حيـاتهم. إن كانـت لـه الكلمـة الأخـيرة فـيما يتعلـق بالموت، فكيف لا تكون له كلمة فيما يتعلق بالحياة؟

الابتسامة الكبيرة على شفتيه، حين يعود عقب إجراء مكالمـة تليفونيـة، تثبـت لــ"آميليـا" بأنها مُحقَّة.

أليست مصادفة عجيبة؟! كلا.. تؤكد له زوجته أنها ليست مصادفة أبدًا. إنه الرب الذي يدبّر الأمور على هذا النحو لإسعادهم جميعًا. قبل قليل، دخلت فتاة شابة غرفة الولادة، إنها شقراء جميلة ومتعلمة. طلب من "آنيمال"، ذراعه اليمنى، الذي اصطحبها للمستشفى، أن يوافيه بالتفاصيل لاحقًا ليعرف إن كانت قد أنجبت صبيًّا أم بنتًا.

حدس زوجته وتفكيرها يثبتان جدارتها المعتادة.

- كل ما علينا فعله الآن هو إقناع ذلك الأبله "إدواردو". لقد ظننا أنه الزوج المناسب.. أراضٍ زراعية وأموال وابنتنا تحبّه.. ولكن انظر إليه! ما هذه الشخصية الضعيفة؟!

طلب الكولونيل "آلفونسو دوفاو" من زوجته أن تتركه يتولَّى المسألة منذ هذه اللحظة. عليه أن يتعامل مع "إدواردو" رجلًا لرجل، وعليها هي أن تدّعي عدم معرفتها بأي شيء.

ورغم أنها صاحبة الفكرة، فإنها لم تُمانِع على الإطلاق في الانسحاب من الصورة. تحب أن تدير الأمور بهذه الطريقة، من وراء ستار. إنه مكانها المفضل الذي تستمتع بالبقاء فيه. لطالما خططت ودبّرت لكل شيء، وتركت لزوجها مهمة التنفيذ فقط.

يكمّل أحدهما الآخر، كما يعلّق كل مَن يعرفهما.

لماذا يريد الكولونيل أن يتحدّث إليه؟ هل سيعاقبه لأنه أخذ السجينة إلى المستشفى دون أن يبالي بإنجاز مهامه الأخرى من تحقيقات كثيرة مع المعتقلين؟ هل أساءه الاهتمام الذي يبديه تجاه "ليليانا"، أو السجينة "م-35"؟ ربما عَدَّه ضعفًا غير مبرر من جانب أحد ضباطه. يُفترض أن يكون "آنيمال" أكثر زملائه شراسة.. إنه أكثرهم قدرة على استخلاص المعلومات من المساجين، وعلى ابتكار أساليب جديدة تتسبّب في انهيارهم نفسيًّا. هو مَن يعذبهم بالصدمات الكهربائية دون أدنى إحساس بالشفقة تجاههم.

"دوفاو" هو الذي أصدر أوامره بأن يتصرف "آنيمال" كما يتراءى له. أبدت القيادات الأخرى موافقتها وتأييدها لهذا القرار، إعجابًا بقدرات "بيتيوتي".

في كل الأحوال، "آنيمال" مجبر على طاعة "دوفاو"، ولا يجرؤ على عصيانه.

ꕥ

ما الذي كان يعنيه حين قال: "لا تخبر "ماريانا" بشيء".

ما هذه الألغاز التي يتفوه بها "آلفونسو"؟ ألا يمكنه أن يتركه وشأنه، في هذه اللحظات على الأقل؟ إنه يشعر بأسى بالغ وحزن عظيم. وهو ليس على استعداد أبدًا للإنصات إلى "آلفونسو"، رغم أن الأخير ُيؤكِّد له بأن الأمر ملح ولا يحتمل التأجيل. ألا يمكنه الانتظار حتى الغد على الأقل؟

الرجل يقول كلامًا كثيرًا، و"إدواردو" يعجز عن فهم شيء منه.

تراقبهما "آميليا" من بعيد، وكأنها لا تعرف ما يحدث.

أخيرًا، يقول "آلفونسو":

- سعادة زوجتك على المحك، ولكنني أستطيعُ تحويل الأمر إلى مجرد حادثة بسيطة يمكننا جميعًا تناسيها. الأهم أنه لا داعي لأن تعرف "ماريانا" أي شيء. حين تستفيق من التخدير، لا تخبرها بأن الجنين وُلد ميتًا، ولا تذكر لها بأنه كان صبيًّا، لأننا لا نعرف حتى هذه اللحظة ما الذي سنحصل عليه.

كيف يفكر هذا الرجل؟ كُسِرت دمية ابنته، وسيشتري لها واحدة أخرى؟ هكذا؟! بكل بساطة؟

- اسمعني يا ولد.. لا وقت لدينا. انتظرني هنا. سأخبرك بتفاصيل الخطة خلال خمس دقائق.

ꕥ

لكن المكالمة لم تكن بخصوص العمل والاستجوابات التي لم ينتهِ منها حتى الآن، ولا لتأنيبه على اصطحاب السجينة إلى المستشفى بنفسه، بل العكس تمامًا.. أظهر الكولونيل سعادته لأن "آنيمال"، الرجل الذي يثق به ثقة عمياء، هو الطرف الثاني في المهمة، إذ إنها تستدعي سرية تامة.

أضاف هامسًا، بأسلوبه الممتلئ سطوة:

- المولود لي. إنها مسألة عائلية. أمرٌ شخصي. أنت تفهم ولا شك.

عليه ألا يخبر أحدًا، بتاتًا. إذا سأله أحد زملائه أو قادته عمّا حدث بالضبط، فعليه أن يقول إن المولود صبي، وأنه وُلِد ميتًا. هل هذا مفهوم؟ الكولونيل سيذهب بنفسه لاستلام المولودة. وحتى تلك اللحظة، ستبقى بصحبة أمها، تحت حراسة مشددة. السجينة ممنوعة من الكلام.

كانت تلك أوامر الكولونيل "دوفاو".

سأل مرؤوسه:

- هل الطفلة بحالة جيدة؟ هل لديك فكرة عن وزنها؟

- نعم يا سيدي. ثلاثة كيلوجرامات.

أبدى الكولونيل إعجابه بذاكرة "آنيمال" الممتازة، واهتمامه بالتفاصيل.

- وظيفتي تفرض عليّ ذلك يا سيدي.

- ممتاز.

هل كان بإمكانه القول إنه يتذكَّر لأن الطفلة كانت ستصبح ابنة "ميريام"؟ هل يجرؤ على إخبار الكولونيل بأن الصغيرة التي يريدها لأسباب عائلية خاصة، هي نفسها التي وعد "ميريام" بالحصول عليها؟ وأنها مضطرة الآن لانتظار مولود آخر؟

اللعنة! ما كان عليه أن يَعِدَها بشيء منذ البداية. سيفكر في حَلٍ مناسب. سيجلب لها طفلًا آخر. سيختار إحدى السجينات الحوامل، ويصارح الكولونيل ـ دون مواربة ـ بأنه سيأخذ طفلها. لن يستطيع الرفض.

ﮋﮊ

- "إدواردو".. إذا سمحوا لك برؤية "ماريانا" حين تستفيق، أخبرها أنها ولدت بنتًا. لا تقلق. سنحتفظ بالسِّرِّ، أنا وأنت. لا داعي لأن يعرف أحد غيرنا ما حدث. والآن.. امسح هذه الدموع، لا أريد أن يراك أحد على هذا الحال. هيا.. اذهب إليها وقل لها ما اتفقنا عليه.

ꕥ

- أغلب الظن أن "آلفونسو" كان من النوع الذي يستحيل رفض أوامره. أجبر "إدواردو"، بأسلوبه الخاص، على تنفيذ خطته.

صاح "كارلوس" بغيظ:

- أي نوع من البشر هو، حتى يستجيب لهذا العبث، ويوافق على الاستيلاء على طفلة ناس آخرين؟ لا بد أنه ينتمي للسلك العسكري، ولذلك فإنه كان على الأغلب يبرر تصرفاتهم، ويردد مثلًا أنه غير قادر على عصيانهم!

ꕥ

يتساءل "إدواردو": إن كان "آلفونسو" قد جُنَّ؟ ماذا يعني أن كل شيء على ما يُرام؟ كيف، و"ماريانا" في العناية المركّزة، والجنين قد مات؟

ثم ما هذا الذي يقوله عن تلك الفتاة التي أنجبت لتوّها طفلة لا تريدها؟ إنه يؤكد أنها فتاة مُنحلة، متعددة العلاقات، وأنها حملت عن طريق الخطأ.

ꕥ

- كلا.. لم يكن "إدواردو" ينتمي للجيش، كما أنه لم يحاول قط تبرير تصرفاتهم. أظنُّ أن "آلفونسو" لم يخبره الحقيقة بشأن الطفلة، ولا بد أنه اخترع له قصة ما.. مثل أن الأم لا ترغب في الاحتفاظ بصغيرتها، بل إنني متأكدة أنه تعمَّد إخفاء الحقيقة، حتى حين..

أطرقت "لوث"، وشردت قليلًا، ثم واصلت كلامها:

- لكن ذلك حدث فيما بعد.. عقب مرور عدّة سنوات.

ꕥ

- اسمعني جيدًا.. إنها لك. كل المطلوب منك هو ملء بعض الأوراق الرسمية. ذلك كل شيء. سوف تسجِّل أنها قد وُلدت هنا. سأجلبُ لك المعلومات المطلوبة.. وزنها وطولها وما إلى ذلك. شهادة الميلاد في الطريق إلينا على كل حال. علينا فقط أن نملأ جيب الموظف المختص بمبلغ محترم، ليمنحنا ورقة تؤكد أن الصغيرة وُلِدَت في هذه العيادة.

استطرد "آلفونسو":

- علينا أن نفعل كل شيء بسرعة، قبل أن تلاحظ "ماريانا". سوف نخبرها أنها هي والطفلة بحاجة إلى الراحة التامة، ولذلك فإنها لن تراها إلا في الوقت المناسب. عندها نكون نحن قد جلبنا الطفلة وأنهينا الإجراءات كافة وأعددنا الأوراق المناسبة. يمكنكما حينها اصطحاب البنت إلى المنزل.

- ليست بنتًا. مولودنا ذكر يا "آلفونسو"، وهو ميت.

تلفت "آلفونسو" حوله في قلق واضح، وقال بإصرار غاضب:

- انسَ أمر مولودك يا "إدواردو"، هل تسمعني؟ لقد أنجبت "ماريانا" بنتًا.

أضاف بنبرات أكثر هدوءًا:

- لقد وُلِدت في الوقت نفسه الذي كانت "ماريانا" فيه داخل غرفة الولادة.. أي مصادفة سعيدة هذه؟ لا بدّ أن الربّ يُبارِك ما نفعله الآن.

ꕤ

أسارع بالوقوف أمام المرآة. أضع مكياجي، وأُمشِّطُ شعري. أريد أن أبدو جميلة من أجلها، حتى تحبني فور أن تراني. أفرش الملاءة الصغيرة المطرزة في المهد. إنها بنت! بنت صغيرة جميلة.

ꕤ

- كانت سعيدة جدًّا. لم تعرف أن الكولونيل قد استولى على الطفلة التي تتمناها.

أجاب "كارلوس" باشمئزاز:

- سعيدة؟! الداعرة!

- تلك الـ"داعرة"، كما تدعوها، خاطرت بحياتها من أجل إنقاذي.

- إنقاذك؟ ماذا تعنين؟

تجاهلت "لوث" سؤاله، وواصلت سرد القصة.

ꕤ

لم أكن قد اخترتُ لها اسمًا بعد.. "ماريا بيا"؟ "مونيكا"؟ لا.. إنه اسم يليق بعارضة أزياء مثلًا. كلا، سأختار اسمًا آخر. أشعرُ بالقلق. "آنيمال" لم يخبرني إن كان سيحضرها لي اليوم أم في يوم آخر. غدًا ربما؟

جرس التليفون يرن.

- آلو.. نعم يا حبيبي.. أخبرني أرجوك.. متى ستحضرها لي؟ ليس بإمكانك فعل ذلك؟! ماذا تعني؟ كلا يا "آنيمال".. مستحيل! يمكنني الانتظار حتى الغد.. بعد غدٍ على الأكثر، لن أصبر أكثر من ذلك.

لا يهمني إن غضب من أسلوبي. لن أدعه يتلاعب بي بهذه الطريقة. لماذا يريدها الكولونيل أصلًا؟ بإمكانه الحصول على أي طفلة أخرى عدا صغيرتي. لقد اتصل بي منذ ساعتين بالضبط ليخبرني بوزنها وحجمها، أليس كذلك؟ مَن يظنُّ نفسه حتى يتلاعب بي وبمشاعري بهذه الطريقة؟ أنا في نظره حثالة.. لماذا أتحمَّله وأتحمل وجوده هنا في بيتي؟ ها قد أتى شخص أكثر نفوذًا منه وسلب مني ابنتي.

لا يمكنني تحمُّل ذلك.

ꕥ

خلال الأيام الثلاثة الماضية، استمرَّ "إدواردو" في التفكير أنه قد فَقَدَ عقله، وأنه أصبح أكثر جنونًا من والد زوجته.

من الصعب الجزم كيف تحوّل "إدواردو" من إنسان يمقت تصرفات "آلفونسو"، إلى شخص يضاهيه في الجنون، ويشترك معه في نسج شبكة معقدة من الأكاذيب. السبب، في الأغلب، هو مزيج من أحزانه ويأسه وارتباكه، بالإضافة إلى طباع "آلفونسو" المسيطرة.

ꕥ

كانا معًا حين تمّ إبلاغ "إدواردو" بإمكانية الدخول للاطمئنان على زوجته. قال له والدها:

- من فضلك، افعل كما قلتُ لك بالضبط.

أضاف بصرامة:

- إن أخبرت "ماريانا" بالحقيقة، فسوف تندم مدى الحياة.

ﮓ

ذلك التهديد الذي أتى عقب خسارته طفلَه، جعل "إدواردو" أكثر ارتباكًا.

ﮓ

بادرها بالكذبة الأولى:

- الطفلة بخير. ما أروعها! إنها في وحدة الرعاية الآن، فقد أجهدتها ساعات الولادة الطويلة.

ﮓ

هذه الكذبة جرّت وراءها سلسلة طويلة جدًّا من الأكاذيب المعقدة.. لقد دخل إلى نفقٍ طويل، لا نهاية له.

ظَلَّ خائفًا ومتوترًا طوال الوقت، خشية أن يقول شيئًا خاطئًا، أو أن يتصرف على نحو لا يتفق مع السيناريو الذي رسمه حموه، وعندها سوف يكتشف الجميع أنه شخص كاذب.

المرأة العاملة في العيادة، فعلت ما طلبه منها بالضبط، بعد أن منحها ظرفًا يضم مبلغًا ماليًّا غير كبير في الحقيقة، لكنه ـ مع ذلك ـ يوازي ثلاثة أو أربعة أضعاف ما تحصل عليه سنويًّا. تدخلت "آميليا" وأقنعتها بأن ابنة أحد المزارعين العاملين في أراضي "إدواردو" قد أنجبت طفلة في "بوينس آيرس"، وأنها لا تريدها، وقد قررت عرضها للتبني.

ﮓ

استطعتُ الوصول إلى المرأة التي كانت تعمل حينها في العيادة. كان الأمر بالغ الصعوبة، فقد تقاعدت منذ زمن. ما أخبرتني به جعلني أبحثُ في الأماكن الخاطئة. لقد أهدرتُ وقتًا طويلًا وأنا أُفتِّش عن شخصية غير موجودة أصلًا. قالت إنها تتذكر تزويرها شهادة ميلاد، بنقل بيانات شهادة أخرى ـ صادرة عن أحد مستشفيات "بوينس آيرس" ــ إليها؛ لكنها لم تستطع تذكُّر اسم الأم.

شقيق "إدواردو"، ويُدعى "خافيير"، هو الذي أخبرني عن "ميريام لوبيز". قال إنه مُتيقِّن من أن الأم ليست ابنة أحد المزارعين العاملين لديهم، كما أكدت لي امرأة العيادة.

على أي حال، لولا زوجته "لورا"، لما أخبرني "خافيير" شيئًا.

ജ്ജ

توسلت العاملة إلى "خافيير"، بعينين دامعتين، بألا يخبر أحدًا أنها هي التي قامت بتزوير الشهادة التي تسمح لـ"إدواردو" بتسجيل ابنته واستخراج شهادة ميلاد مُوثَّقة لها. قالت إنها لا تريد أن تخسر عملها، وأن ما فعلته حينها كان في نظرها أمرًا صائبًا، وبخاصة أن الأم لم تكن ترغب في الاحتفاظ بطفلتها.

كان "إدواردو" قد أكد لها أن الأمَّ مراهقة صغيرة، لا تتجاوز السادسة عشرة.

ذلك المساء، وجّه سؤالًا لـ"آلفونسو":

- كم عُمر الأم.. "ميريام لوبيز" هذه؟

أخافه ردّ فعل "آلفونسو" الذي نظر إليه بوجه عابس وعينين غاضبتين.

أدرك حينها أنه قد تورَّط في مسألة ضخمة، بالغة التعقيد، يصعب الخروج منها دون خسائر.

- انسَ هذا الاسم تمامًا. لم يعد له أي قيمة أو معنى. والآن، أعد إليّ شهادة الميلاد تلك. لقد أعطيتك إياها كي تنهي الإجراءات بشكل سريع، لا لتتلصص على المعلومات التي تحملها.

ജ്ജ

لكن "إدواردو" قام بتصوير نسخة عن شهادة الميلاد الأصلية، عثر عليها "خافيير" بعد أعوام.

- أنا لم أفهم هذه النقطة جيدًا.. كيف حصل "إدواردو" عليها في الأساس؟

- يبدو أن "آلفونسو" أراد المعلومات الصحيحة، ولذلك أمر أن تُرسَل شهادة الميلاد إليه في "إنتري ريوس" مباشرَة. لا بد أن "آنيمال" هو الذي تولَّى المسألة. لا أدري تحديدًا لمَ أعطى "آلفونسو" إياها زوج ابنته، يبدو أنه كان

يتعجل إنهاء الإجراءات بأسرع ما يمكن.. لست متأكدة في الحقيقة، لكنني محظوظة جدًّا لأنه اطّلع عليها، وإلا لما توصلنا لاسم "ميريام" أبدًا.

ꕥ

تمّ إبلاغ "إدواردو" في العيادة بأنهم قد قاموا باستخراج شهادة وفاة مولوده، لكنه حين ذهب إلى مكتب تسجيل المواليد، أعطاهم شهادة الميلاد المزورة فقط.

طمأنه "آلفونسو":

- لا تقلق. سأتولى أمر شهادة الوفاة بنفسي.

قرَّر "إدواردو" ألا يستفسر منه عن تفاصيل الموضوع، وبخاصة بعد أن نبّهه إلى أن الوضع سيبدو مريبًا إن هو توجَّه لاستخراج شهادة ميلاد وتوثيق شهادة وفاة، لطفلين اثنين، كلاهما يحمل اسمه. ذكره أيضًا بأنه ينتمي إلى عائلة معروفة، ما سيدفع الناس إلى إطلاق الشائعات والتساؤلات.

ꕥ

سأل "كارلوس" شاعرًا بالحيرة:

- ولكن كيف تورط "إدواردو" لهذه الدرجة، إن كان ضد ما حدث، ولم يكن موافقًا عليه؟

- يقول "خافيير" إن "إدواردو" خشي على سلامة "ماريانا" من جهة، وأنه شعر بالذنب لإصراره على ذلك الطبيب تحديدًا من جهة أخرى؛ إضافة إلى الصدمة التي شعر بها جرّاء فقدانه ابنه. كل تلك الأسباب مجتمعة، جعلته ينصاع لخطط "آلفونسو" وأوامره دون مقاومة.

- أنا حقًّا لا أفهم قدرتكِ على إيجاد أسباب تبرر تصرفات هذا السافل المنحط! لم يكتفِ باختطاف رضيعة بريئة من أمها، بل سجَّلها باسمه ونسبها إلى نفسه أيضًا! لم يتبنّ الطفلة.. الواقع أنه اختطفها.. هذا هو الأمر في حقيقته.

قاطعته "لوث" بشيء من الحدة:

- استمع إليّ حتى النهاية، أرجوك، قبل أن تصدر حُكمك عليه.

أضافت ببعض الحزن:

- لقد دفع "إدواردو" ثمنًا فادحًا لغلطته، بعد ذلك.

ﮨﮩ

تمّ إجراء جميع الترتيبات، والاهتمام بالتفاصيل كافةً. أعلـن "آلفونـسو" أنـه سـيتولى أمـر الدكتور "موراي"، ليضمن سكوته، ثم تساءل باستنكار:

- ما الذي يمكن لذلك الغبي أن يفعله على أي حال؟ ألا تكفيه المشكلة التي تسبّب فيهـا، وورطنا جميعًا بها؟

- لا.. أنا مَن سيتحدّث معه.

ابتسم "آلفونسو" برضا. شعر "إدواردو" ببعض الارتياح.

لم يكن معتادًا الأوامر والصراخ والتوتر. العلاقات في أسرته أكثر بساطة ودفئًا وحميمية.

وضع "آلفونسو" ذراعه حول كتفيّ زوج ابنته، وقال:

- سوف أطلب من الطبيب النفسي، الذي كان يتولَّى علاج "ماريانا"، أن يكتب خطابًا يؤكد فيه لـ"موراي" أهمية إخفاء الحقيقة عنها.

سأله "إدواردو" بدهشة بالغة:

- أيُّ طبيب نفسي؟! لم تخبرني "ماريانا" قط أن لها طبيبًا نفسيًّا!

- اطمئن.. إنه غير موجود أصلًا. سأكتب الخطاب بنفسي.

تعالت ضحكاته في المكان، ثم قال:

- علينا أن نتصرف بسرعة يا "إدواردو"، وأن نهتم بالتفاصيل كافةً.

ﮨﮩ

يتذكر "موراي" ما حدثَ بالضبط، فقد تعرَّض لمشكلات عقب هذا الموضـوع، ثـم انتقـل إلى "بوينس آيرس"، ولم يعد يرى "إدواردو" أو أيًّا من أفراد عائلته. لقـد تقاعَـدَ، ويعـيش في "روزاريو" هذه الأيام. أخبرني أنه انزعج بـشدة حـين طلـب منـه "إدواردو" أن يكـذب عـلى "ماريانا". قال إنه شعر حينها بأن الزوجة بحاجة ماسة إلى علاج نفسي، وأنـه لفـت نظـرهم إلى ذلك.

برر موافقته على أن يشاركهم الكذب بإحساسه بالذنب لفشله في التعامل مع حالتها، وولادتها لطفل ميت. حين ساء وضعها بعد ذلك، أبعده والدها عن علاجها، وجلب طبيبًا آخر من "بوينس آيرس".

ظَلَّ يؤكد لي أنه كان يجهل خطة "إدواردو"، وحين شرحت له ما جرى، أُصيبَ بصدمة بالغة. صارحني بالخطأ الذي ارتكبه، والذي تسبَّب في وفاة الجنين.

ﷺ

يشعر كما لو أنه في كابوس.. يحس بأنه لص فاشل، سيتمكن من حوله في كشف حقيقته، في أي لحظة؛ لكن "آلفونسو" و"آميليا" يطمئنانه ويؤكدان له أن كل شيء سيمضي كما خططا له، وأنهم سيحصلون على الطفلة قبل مغادرة "ماريانا" إلى البيت.

حين يصل "خافيير" إلى العيادة، يجد أخاه يجلس منحنيًا، ممسكًا برأسه بين يديه. يدرك على الفور أن "إدواردو" يعاني مشكلة ما تُعذِّبه.

كان يذهب للاطمئنان عليه، رغم أن "إدواردو" طلب منه أن يتوقف عن زيارته.

- ماذا تفعل هنا؟ لقد طلبتُ منكم جميعًا أن تنتظروا حتى تعود "ماريانا" إلى البيت.

- ما هذا الذي تقول؟ جئتُ لأراك، ولأكون معك. ما الأمر يا "إدواردو"؟

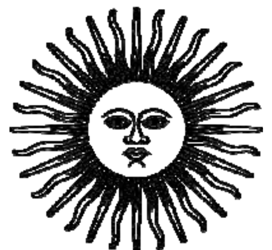
يسأله "خافيير"عن الطفلة وعن "ماريانا". يجيبه "إدواردو"، مرتبكًا، بتفاصيل كثيرة غير مترابطة، ثم يختتم حديثه بالقول إن الصغيرة ليست في قسم الحضّانات، وأنه لن يتمكن من رؤيتها.

يسأله "خافيير" بريبة عمّا يجري بالضبط.

- لا شيء.. أشعر بصداع فظيع.. اذهب الآن من فضلك. أريد أن أبقى بمفردي.

يراقب "إدواردو" شقيقه وهو يسير بتثاقل، مبتعدًا ببطء. إنه يدرك أن الشكوك تعصف بـ"خافيير". لا يستطيع خداعه على الإطلاق. كم يتمنى لو يناديه ليعود، فيصارحه بكل شيء! لكنه يخشى نظرة شقيقه إليه. لقد أصبح مجرمًا ولم يعد بإمكانه التراجع.

3



بدأ الأمر بحمّـى ودرجـة حرارة مرتفعـة، بعـدها ازداد الألم وتفاقم، وأخيرًا أكدت الفحوصات أن "ماريانا" تعاني عدوى التقطتهـا في غرفـة العمليـات، وتطورت الحالة إلى تسمُّم في الدم، انتهى بدخولها في غيبوبة بعد ساعات قليلة من الولادة.

ﰀﰁ

لأسبوعين كاملين، لم يعرفوا إن كانت "ماريانا" سـتنجو أم لا. تعقـدت الأوضـاع بالنـسبة لـ"آلفونسو"، وللآخرين أيضًا بطبيعة الحال. انقلبت حياة "آنيمال" و"ميريام" كذلك وتغيرت جذريًّا. أما "إدواردو" فقد كـان في مـأزق حقيقـي.. لقـد أجـبرَهُ حمـوه عـلى ارتكـاب أفعـال مرفوضة، أدت إلى سلسلة من الأكاذيب، وعمليات تزوير، وانتهت بـضمير معـذّب إلى الأبـد. ما بدأ في تلك الليلة التي أبلِـغ فيهـا بـأن زوجتـه في حالـة غيبوبـة، لم ينتـهِ إلا مـؤخرًا، بعـد سنوات طويلة؛ والواقع أنه انتهى بطريقة سيئة للغاية.

ﰀﰁ

في الليلة الأولى، يفكر "إدواردو" أنه إن فقد "ماريانا"، فسوف يفقد كل معنى للحيـاة. يقـرر أن على والديها أن يقوما برعاية المولودة الصغيرة التي فرضاها على حياتـه؛ ولكـن، كيـف يـتخلى عنها بهذه السهولة، وقد أصبحت ابنته رسميًّا؟ لم يخطر موضوع التبني على باله قط. لماذا يفكـر فيه، بينما ما زال بإمكان "ماريانا" أن تنجب له العديـد مـن الأطفـال؟ لكـن "مـوراي" والطبيـب

الآخر الذي أحضره "آلفونسو" من "بوينس أيرس" أكّدا أنه لم يعد بمقدور "ماريانا" أن تحمل مرة أخرى.

حين سمع "آلفونسو" و"آميليا" كلام الطبيبين، قاما بتهنئة بعضهما بعضًا بسعادة غامرة، على الخطة التي وضعاها معًا.

- أرأيت يا "إدواردو"؟ لو أنك أخبرتها بأن الجنين قد مات، ثم اكتشفتْ بعد ذلك عجزها عن إنجاب طفل آخر، لماتت حسرةً. والآن، حين تستعيد "ماريانا" صحتها...

قاطعها:

- وماذا لو لم تَسْتَعِدْ صِحَّتها؟ ماذا لو ماتت؟ إن "ماريانا" في غيبوبة. كيف يمكنكِ أن تكوني بهذه السعادة والتفاؤل يا "آميليا"؟!

- أخرجني من هنا يا "آلفونسو"، لا أريد البقاء والاستماع إلى كلامه المتشائم. إنه لا يستحق الهدية التي منحها له الرب.

يرتجف جسده حين يفكر بأن موت "ماريانا" بات وشيكًا. يهز رأسه رافضًا، ويؤكد لنفسه بأنها ستتحسن وستستعيد صحتها. كل ما في الأمر أنه في دوامة من الأفكار المخيفة المتلاحقة.

ﮓﮔ

بحلول اليوم الثالث، يبدأ "بيتيوتي" في التساؤل إن كان موضوع الطفلة التي استولى عليها الكولونيل لنفسه بدلًا من أن تأخذها "ميريام" سوف يتسبب له في مشكلات كثيرة على الصعيدين الشخصي والمهني. عليه أن يعترف أنه فشل في إدارة الموضوع كما يجب.

تتقاذفه الحيرة وهو يسأل نفسه إن كان إحضار السجينة ومولودتها إلى بيته هو أمر صائب أصلًا، كما كان يعتقد في البداية، أم إنه خطأ كبير؟

ﮓﮔ

يسألها "كارلوس" بدهشة:

- لماذا اصطحبها إلى المنزل؟! إنه أمر غريب وغير متوقَّع.

لكنه يعود فيقول، قبل أن تجيبه:

- كل ما كان يحدث في تلك الفترة اتسم بالغرابة وانعدام المنطق.

꧁꧂

بين تهديد "ميريام"، ورجاء الكولونيل، وجد "بيتيوتي" نفسه مجبرًا على اصطحاب الفتاة وصغيرتها إلى بيته.

حذرته "ميريام" بغضب، عبر التليفون:

- إذا لم تحضرها لي الليلة، فإنك لن تدخل هذا البيت مرة أخرى، أبدًا.

بعدها بقليل، طلب منه الكولونيل بنبرات مستعطفة بأن يجد مكانًا سِرِّيًّا يحتفظ فيه بالطفلة، إلى أن تستردّ ابنته عافيتها، وتتمكن من رعايتها. أخبره بأنها مريضة جدًّا.

في تلك اللحظة فقط، فهم "آنيمال" أن الكولونيل "دوفاو" يريد المولودة لابنته.

لا يستطيع إبقاء الطفلة أو أمها في المستشفى لأكثر من يومين، و"دوفاو" لا يريد أن يرسل الأم إلى السجن ثانيةً. قال له:

- من أجل مصلحة الطفلة، كما تفهم.

لكن "آنيمال" يدرك أن هناك سببًا آخر.. الكولونيل لا يريد أن يرتبط اسمه، بأي شكل من الأشكال، بهذه القضية، ولذلك ـ وفي إجراء احترازي ـ أمر "آنيمال" بأن تُنشر في السجن إشاعة مفادها أن الفتاة قد وضعت صبيًّا ميتًا، وأنها في حالة صحية حرجة للغاية.

كان العساكر الذين تولوا حراسة غرفة "ليليانا" في المستشفى، يتبعون جهاز الشرطة وليس الجيش؛ أي أنهم لا علاقة لهم بالمعتقل الذي يديره "دوفاو".

꧁꧂

كان الوضع غريبًا. لم يكن باستطاعتهم أخذ الطفلة إلى "إنتري ريوس"، إلى أن تتمكن "ماريانا" من مغادرة العيادة؛ وفي الوقت نفسه، لم يشأ أي منهم تحمّل المسؤولية. ماذا لو ماتت "ماريانا"؟

꧁꧂

فكر "بيتيوتي" بارتياح أن ابنة الكولونيل قد تموت، وعندها يمكن لـ"ميريام" أن تأخذ الطفلة كما كان مقررًا. لكنه لا يجرؤ على سؤال رئيسه عن مدى تدهور صحة ابنته.

بوجود السجينة ومولودتها في بيته، يمكنه تهدئة "ميريام" في الوقت الراهن، وإقناعها بهدوء ـ في الوقت ذاته ـ بأنهما قد يضطران إلى التخلي عن الرضيعة. إن بقاء الأم مع الصغيرة أمرٌ مفيد، فعلى الأقل لن تتعلَّقَ بها "ميريام" أكثر مما يجب.

قال للكولونيل:

- يمكن لزوجتي أن تعتني بالصغيرة يا سيدي. إنها كتومة وتجيد المحافظة على الأسرار. إنها ممتازة من هذه الناحية يا سيدي.

كانت تلك لحظة مثالية، اقتنصها "آنيمال" ليحجز لنفسه هذه الطفلة، إن ساء الوضع الصحي لابنة الكولونيل، أو ليحجز أول مولود سيولد قريبًا لأيٍ من السجينات. كما أنه انتهز الفرصة ليشرح للرجل لماذا لم يتزوج بعد.

أطرق قليلًا، ثم قال بصوت خفيض:

- في الحقيقة.. إننا لم نتزوج بعد..

أكمل حديثه بطريقة مسرحية، قائلًا إن خطيبته تتمنى أن تصبح أمًّا، ولكن لم يعد بمقدورها ذلك، بعد خضوعها لعملية جراحية فاشلة. أضاف أنها إنسانة رائعة ومضحية، حتى أنها ترفض أن تتزوجه كيلا تكون سببًا في حرمانه من الأبوة. أخبر الكولونيل أن عنده فكرة، وأنه يرجوه أن يساعده ـ بما له من نفوذ ـ في تحقيقها. قال إنه يفكر في منحها أحد أولئك المساكين الذين سيولدون قريبًا للسجينات الحوامل.

ꕥ

علّق "كارلوس" بمرارة:

- آه.. استطاع بهذه العبارات أن يزرع في رأس الكولونيل أفكارًا جديدة! إن ماتت ابنته، يمكنه أن يهدي مساعده المفضل تلك الرضيعة المسكينة. لم يكن هؤلاء الصغار، بالنسبة لهم، سوى غنائم حرب يوزعونها على بعضهم البعض..

- نعم، ولكن لا تنسَ أن الطفلة كانت مسجلة في شهادة الميلاد والأوراق الرسمية باسم زوج ابنته. لقد دخلت "ماريانا" في الغيبوبة عقب تسجيلهم للصغيرة كابنة "إدواردو". لا أعرف ما الذي فكر فيه "آلفونسو" خلال مرض "ماريانا"، لكن "آميليا" تؤكد أنها كانت متيقنة من شفائها. لا أظن بأن الكولونيل كان سيمنح المولودة لـ"آنيمال"، حتى لو فارقت ابنته الحياة. لا أعرف.. أعرف فقط أنه واظبَ على الاتصال بـ"آنيمال" للاطمئنان على الطفلة، خلال الأيام التي أمضتها في بيته، وكأنها شيء تابع له حقًّا.

ജ൫

أجابه الكولونيل على الفور:

- بالطبع! المولود التالي من نصيبك، ولكن قل لي: أأنت متأكد من أن خطيبتك لن تمانع في حراسة السجينة؟

- نعم يا سيدي. ستؤدّي ذلك على أكمل وجه.

- حسنًا، ولكن علينا أن نضع حراسة على الباب. ليس من الحكمة الاعتماد على امرأة في أمر كهذا.

ജ൫

- هل كانت تحت حراسة مُشدَّدة خلال وجودها في المستشفى؟

- نعم. ثلاثة من ضباط الشرطة، وكانوا في انتظارها على باب شقة "ميريام".

ജ൫

فكَّر، في بداية الأمر، في إقناع "ميريام" بأهمية تنفيذ أوامر الكولونيل، لأن ذلك يعني ترقية وشيكة، وزيادة في راتبه الشهري. أراد أن يؤكد لها أيضًا أن الطفل القادم سيكون لها، لكنه تراجَعَ عن ذلك خوفًا من ألا يتحقق ذلك لأي سبب من الأسباب، وعندها ستحيل حياته جحيمًا.

المشكلة هي أنها لن تدع الطفلة تفارقها بسهولة. المشكلة الأكبر هي أن وظيفته باتت في خطر. "ميريام" في الحقيقة ليست من النوع الكتوم كما ادّعى، وهو يعرف ذلك جيدًا، وليس من طبعها الاستسلام وطاعة الأوامر؛ فرغم تأكيده لها، وللسجينة كذلك، بألا تتبادلا كلمة واحدة، فإنه متيقن من أنها

تحادثها. أدرك ذلك من طبيعة الأسئلة التي صارت تلاحقه بها.. ما جريمتها تحديدًا؟ ما الذي سيحدث لها الآن؟ ما مصيرها؟ أين رفيقها؟

"رفيق"! هذه هي الكلمة التي استخدمتها! هذا يؤكد له أنها تحدثت مع "ليليان". "ميريام" لا تستعمل هذه المفردة أبدًا. لو لم تسمعها منها، لقالت مثلًا "صديقها" أو "زوجها" أو "حبيبها".

"رفيق" هي إحدى مفردات أولئك الأوغاد الصغار.

لا يهم.. مهما تتحدث تلك الحيوانة مع "ميريام"، فلن يغير ذلك من الأمر شيئًا.. "ميريام" لا تعرف ولا تفهم شيئًا مما يحدث حولها أصلًا. كل ما تسمعه منه هو أن هناك حربًا ضد المخربين، تهدف إلى تطهير البلاد منهم.. دون أن يشركها في أيٍّ تفاصيل أو معلومات.

"ميريام" لا تتمتع بالصفات المطلوبة في زوجة رجل عسكري من سرية وكتمان وطاعة، لكنه سيعمل على تدريبها على هذه الأمور.

في اليوم الثالث، يقرر "آنيمال" أن أفضل أسلوب للتعامل مع "ميريام" هو التهديد. عليه أن يلفت نظرها أولًا إلى أن ما تفعله لن يتسبب في إيذائه هو فقط، بل ستتضرر هي أيضًا.. يكفي أنه لن يتزوجها، ولن يحضر لها مولود السجينة التالية. لكنه حين قال لها ذلك، صُعِق من ردّ فعلها، إذا بدا أنها غير مهتمة على الإطلاق. فأضاف، وهو يحاول مغالبة حيرته إزاء لا مبالاتها:

- إن واصلتِ التصرف بصبيانية وأنانية، فسوف تفسدين كل شيء.. وظيفتي.. طفلنا القادم.. زواجنا القريب.. كل شيء.

نظرت إليه "ميريام" ببرود، واستدارت متجهة إلى حجرة النوم. يقف مشدوهًا لحظاتٍ، ثم يصيح بها:

- لن أتردد في طردكِ وإلقائكِ خارجًا، إن واصلتِ التحدث إلى السجينة.

- أنت؟ تطردني أنا؟ ومِن بيتي؟! لا شك أنكَ جُننت وفقدت عقلك الصغير! أنا التي ستطردك من هنا. هذا بيتي.

دون تفكير، ارتفع ذراعه في الهواء قاصدًا ضربها بقوة. قبل أن تصل يده إليها، أحسَّ بذُعر شديد مما كان يوشك على فعله.. ووجد نفسه يحتضنها بقسوة.

ꕤ

قال "إدواردو":

- أين الطفلة يا "آلفونسو"؟ لا يمكننا تركها في المستشفى أكثر من هذا. ألا يجب علينا أن نأخذها إلى البيت الآن؟

- إنها في مكان آمن.

- أين بالضبط؟

- لا تكن لحوحًا. لا تسأل أكثر مما يجب. الطفلة بخير، وأنا أتابع أحوالها، وهناك مَن يعتني بها ويرعاها إلى أن تتمكن زوجتك من اصطحابها للمنزل عقب شفائها. كل شيء يسير وفق الخطة التي وضعناها.

- إذًا فليس مسموحًا لي بمعرفة مكانها، ولا هوية الناس الذين تعيش معهم، رغم أنها ابنتي رسميًّا؟

- اهدأ. إنها في أفضل مكان ممكن. أمها هي التي تعتني بها، وتُرضعها رضاعة طبيعية. الرضاعة الطبيعية هي الأفضل للمواليد في أيامهم الأولى كما تعلم. بعد أن تتماثل "ماريانا" للشفاء، سأحضر الطفلة إليكما.

- ماذا؟ ولكنني ظننتُ أن الأم لا تريد الصغيرة!

- آه.. نعم. إنها لا تريدها فعلًا، لكنها وافقت على رعايتها بضعة أيام. هذا أقل ما يمكنها فعله، أليس كذلك؟ يكفي أنك وزوجتك ستتحملان مسؤولية ابنتها مدى الحياة، بالنيابة عنها.

ينظر "إدواردو" إلى "آلفونسو" بريبة. كلامه يفتقر إلى المنطق، وغير مقنع بتاتًا.

- حسنًا.. هل يمكنني على الأقل رؤية الصغيرة والتعرف إليها؟

- كلا بالطبع! لا تتصرف بحماقة. توقف عن القلق. كل شيء تحت السيطرة. من الأفضل لجميع الأطراف ألا تلتقي الطفلة الآن.

ꕤ

يا له من حيوان! وجهي متورم ويمتلئ بالكدمات. ما الذي جعلني أنطق بتلك العبارات؟

هذا ما يحدث كل مرة. أقرر التـزام الـصمت، ثـم انفجـر فجـأة في الـتلفظ بعبـارات غـير مدروسة. على أي حال، إن صممت على طرده الآن، فما الذي سيحدث للمسكينتين؟

لقد أكملت "ليلي" أسبوعًا هنا في بيتي. أحبها أكثر مما أحببـت أي أحـد في حيـاتي. أشـعر بغصةٍ كلما لامست بشرتها بالغة النعومـة. إنهـا أجمـل طفلـة رأيتهـا، وأكـثر الـصغار عذوبـة. أناغيها كلما حملتها:

- مَن أحلى من صغيرتي "ليلي"؟

منعني "آنيمال" من التحدث مع الأم، لكنه لا يستطيع منعي من التحدث إلى الطفلة.

أناديها "ليلي". وقع اختياري على هذا الاسم لأنه قريب من اسم أمهـا الـذي سـألتها عنـه حين رأيتها للمرة الأولى؛ وحتى لا يعرف "آنـيمال" أننـي تحـدثت مـع الفتـاة، قلـت لـه إننـي اخترت الاسم لأنه يُذكِّرُني بنشيد كنا نردده صغارًا.

ظل يحذرني من تبادل الكلام معها، لكنني لم أهـتم بـأوامره، إلى أن هـددني ـ بعـد ذلـك ـ بشكل صريح.

واقع الأمر أن الفتاة نفسها لا تريد الكلام. لكنني ظللتُ ألحُّ عليها إلى أن بدأت تـستجيب لي. بدا واضحًا أنها لا ترغب في الـتخلي عـن ابنتهـا، كـما أفهمنـي "آنـيمال" سـابقًا. لم أسـتطع مصارحتها أنني كنتُ أنوي أخذ طفلتها. الموقف رهيب وغير إنساني على الإطلاق. لقد شـعرتُ بشفقةٍ هائلةٍ تجاهها، فـور رؤيتـي إياهـا. كانـت مقيـدة اليـدين، وفي أسـوأ حـالات القـذارة. خصلات شعرها، بلونها الكالح، بعضها ملتصق ببعض من شدة الاتساخ. كان هنـاك مـا يـشبه القناع الأسود فوق عينيها. أخبرتني لاحقًا أنها تضعه منذ عدّة أشهر. حين نزعته عنهـا، غطـت عينيها فورًا، وكأن الضوء قد أوجعها. ولما كانت عاجزة عن الرؤية بذلك الغطاء، فإنهـا أمـضت وقتًا طويلًا وهي تحاول أن تلقم الطفلةَ ثديها التي كانت تبكي من شدة جوعها.

الرضاعة ليست سهلة في الفترة الأولى. "لـيلي" لم تكـن تعـرف كيـف تقـبض عـلى الحلمـة بشفتيها. دنوت منهما، وساعدت الأم على إرضاع طفلتها، وعلّمتها أن تحسب الوقـت قبـل أن تنقلها إلى الثدي الآخر. شعرت كما لو أنني أنا التي أرضع المولودة.

حين انتهتْ، حملتُ الطفلة وربّتُ على ظهرها بخفـة، إلى أن تجـشأت. غنيـت لهـا أغـاني الأطفال التي حفظتها من الشرائط التي اشتريتها بصوت "ماريا إيلينا والش".

في الليلة الأولى، أقنعتُ "آنيمال" أن يزيل القيود عن يدي الفتاة. قلت له:

- لا تظن أنني سأظلُّ أذهبُ إليها لأحمل لها ابنتها، كلما بكت أو جاعت أو بللت نفسها. عليها أن تفعل ذلك بنفسها.

لم يكن تبرمي صادقًا، بطبيعـة الحـال. لا شيء أحـبّ إلى نفـسي مـن حَمـل تلـك الـصغيرة الحلوة، لكنني وجدت منظر الأم وهي ترضع ابنتهـا بيـدين مقيـدتين، مخيفًـا ومؤلمًـا. إنهـا لا تستطيع حتى أن تحتضنها. بعد إلحاحي عليه، وإظهاري لضيقي وتأففي مـن الوضـع، اضـطر "آنيمال" للاستسلام. قلت له:

- أنا أصنع فيك معروفًا، فلا تتعامل معي كما لو كنتُ خادمة لديك. على أي حـال، البـاب مُقفَل بإحكام دائمًا.

وافق على إزالة القيود عنها تلك الليلة، لكنه أخبرني بأن عليّ وضعها لها ثانيةً كلـما أرادت الدخول للحمام. طلب مني أيضًا أن ألازمها خلال ذلك. في اليوم التالي، وفور أن غادر "آنيمال" إلى عمله، اصـطحبتها إلى الحـمام دون قيودهـا. ناولتهـا صـابونة، وزجـاجتيّ شـامبو وبلـسم، وطلبت منها أن تستحم، وألا تخرج قبل أن تنظف نفسها جيدًا.

حين لاحظ "آنيمال" عند عودته ما فعلته، قلت له:

- لا يمكنها التعامل مع الطفلة وهي على تلك الحال من القذارة؛ كـما أن رائحتهـا المنفـرة تملأ البيت وتُصيبني بالغثيان.

أضفتُ كاذبةً أني أجلستُها في البانيو بقيودها، وقمتُ بغسل شعرها بنفسي.

فيما كانت في الحمام، بحثتُ لها عن بعض ملابسي القديمة التي قد تناسبها. أخرجـت لهـا بلوزتين أو ثلاثًا، وشورتًا قطنيًا.

غابت طويلًا. سمعت صوت الماء، لكنني خشيتُ أن تكون قد فعلـت شـيئًا بنفـسها. كـان "آنيمال" قد حذرني من أنها قد تُقدِمُ على ارتكاب حماقة ما، في أي وقت، كونها خطيرة جدًّا.

اقتحمت الحمام عليها. كانت لا تزال تقف تحت ماء الدُّش.

- هذا يكفي.. اخرجي الآن. هاكِ الفوطة، وهذه بعض الملابس النظيفة.

أطلت بوجهها من خلف الستارة البلاستيكية. لم أصدق ما رأيت! يا له من تغيير! ما هذا الشعر الذهبي الجميل؟ وما هذا الوجه الناعم اللطيف؟ بدت أكثر ارتياحًا.

قدّرتُ أنها لم ترَ نفسها في المرآة منذ زمن، فتركتها بمفردها لتلبس الثياب، وتشاهد صورتها في المرآة، دون أن أستعجلها.

قبل أن أخرجها من الحمام، وضعت العصابة على عينيها مرة أخرى.

في البداية، كنت حريصة على تغطية عينيها كلما انتهت من إرضاع الصغيرة، أو كلما انتهت من حمامها، ولكنني صرت بعد ذلك أتركها دون غطاء، فور أن يغادر "آنيمال" البيت.

في البداية، كانت تصوّب نحوي نظرات مليئة بالحقد والكراهية، لكن ذلك تلاشى مع الوقت، وصارت تبتسم لي عندما أقتربُ منها حاملةً الطفلة.

لعلها كانت تخصّ ابنتها بتلك الابتسامة.

في صباحها الأول في بيتي، حين نزعت القناع عنها، تمعنت فيّ طويلًا، ثم استقرت نظراتها على المهد وورق الحائط. خشيتُ أن تفهم أنني جهزتُ الغرفة على هذا النحو، لأنني كنتُ أنوي انتزاع ابنتها منها. لكنها - إن فهمت ذلك ـ لم تعلق على الأمر.

أحسست بتأنيب ضمير شديد البشاعة.. وكان ذلك قبل حتى أن تصارحني بما قالته لاحقًا.

على أي حال، وجدتُ نفسي أُبرِّر لها الأمر. قلت لها بأن أختي حامل، وأنها ستأتي لتعيش معي عقب ولادتها؛ وكي أتغلب على ارتباكي، سألتها:

- هل يعجبكِ ورق الحائط؟ ما رأيك في هذه الدببة الجميلة؟ نحن لا نعلم إن كان مولودها ذكرًا أم أنثى.

استجمعتْ شجاعتها بعد قليل لتسألني:

- من أنتِ؟ ما السبب في وجودي هنا؟ لماذا أحضروني إليكِ؟

أخبرتُها أن خطيبي قد كلّفني برعايتها وصغيرتها بضعة أيام، إلى أن تتم إعادتها إلى السجن، وأنه فعل ذلك ـ على الأغلب ـ لمعرفته مدى حبي للأطفال.

أضفت:

- وطفلتكِ جميلة جدًّا. انظري إليها! ما أحلاها! هاتان القدمان الصغيرتان، وتلك الأصابع الدقيقة الرقيقة! و...

قاطعتني بصوت هادئ قائلة إنني أدرك ولا شك بأنهم لن يعيدوها إلى السجن، وأنهم سيقتلونها كما فعلوا مع غيرها من النساء والفتيات، ويأخذون ابنتها.

نظرت إليّ مطوّلًا بعينيها الخضراوين، الممتلئتين كراهية، وقالت أخيرًا:

- ستحتفظين بصغيرتي لنفسك، أليس كذلك؟

- كلا، صدقيني.

جعلتني أشعر بمدى حقارتي. إنها مُحقَّة. كنت أنوي انتزاع ابنتها منها بالفعل.

ﮉﮊ

في ذلك الوقت، كانت "ميريام" قد فقدتْ أيّ رغبة لها في الحصول على هذه المولودة، أو غيرها من الأطفال.

أخبرتني بأنها في اللحظة التي شاهدت فيها "ليليانا" بصحبة ابنتها للمرة الأولى، أدركتْ على الفور البشاعة التي كانت سترتكبها.

ﮉﮊ

قالت "ليليانا" بأنها تعجز عن فهم سبب احتجازها داخل شقتي، وسبب نقلها إلى المستشفى قبل ذلك.

سألتها:

- وأين كنتِ ستلدين إذًا؟

- في أي مكان.. مثل تلك الفتاة التي ظلت تصرخ ساعاتٍ، دون أن يهتم أحد؛ وأخيرًا جعلوها تستلقي على طاولة المطبخ الكبيرة، ووقف بجوارها مُمرِّضٌ راح يصرخ عليها بدلًا من أن يقدّم لها المساعدة، وأحاط بهما عددٌ من

الحرّاس أخذوا يمطرونها بتعليقاتهم الجارحة، المخجلة. هكذا ولدت طفلها. ثم أخذوه منها ولم تره مرة أخرى. بعد يومين، أخذوها هي أيضًا.

في اليوم الثالث، ظلت الفتاة تنتحب، مرددة بأنهم سيقتلونها وأنها لا تدري ما الذي سيحدث لابنتها. وعدْتُها أنني لن أدعهم يمسون طفلتها بأي سوء. دنوتُ منها، واحتضنتُها. كانت تبكي بكاءً مريرًا. وجدتُ نفسي مدفوعة لضمّها إلى صدري. في البداية، انكمش جسدُها قليلًا، وكأنها تحاول أن تحمي نفسها مني، لكنها سرعان ما استسلمتْ وتشبثت بي بقوة. سألتني بصوت هامس: إن كنت أعرف مصير رفيقها؟ وإن كانوا قد قاموا بقتله أم لا؟

ﮐ

كلا.. لم تذكر اسمك في البداية. كانت تشير إليك بكلمة "رفيق" فقط. لكنها صرّحت به في يومها الأخير في الشقة.

ﮐ

حين سألت "آنيمال" عنه، غضب بشدة، وتصرَّف بعصبية مرعبة.. هشم الأطباق وهو يسبّني بألفاظ نابية. تعمّد فعل ذلك ليخيفني، حتى أتوقَّف عن استفساراتي. لا بد أنه عنّفها وهدّدها هي أيضًا، إذ توقفت بعدها عن الحديث معي. اكتفينا بعد ذلك بتبادل النظرات الصامتة، أو متابعة "ليلي" ومداعبتها.

بالأمس، حين أزلت الغطاء عن عينيها، أشرت لها بأن "ليلي" باتت تُحسِنُ الرضاعة الآن. فتحت فمها لتقول شيئًا، لكنها عادت فأغلقته بسرعة. بدا واضحًا أنها في شغفٍ لسؤالي عن شيء، لكنها تشعر بالرعب. اقتربت منها. لم يكن في البيت غيرنا، ومع ذلك سألتُها بصوت هامس:

- ما الأمر؟ أنا أيضًا ممنوعة من الكلام معك، لكنه لن يعرف. أخبريني.

سألتني للمرة الثانية عن رفيقها. أرادت أن تعرف إن كان قد تعرَّض للقتل. قالت إنه غير موجود معهم في المعتقل نفسه الذي هم فيه. خمنتْ بأنهم ألقوا القبض عليه، ثم تخلصوا منه. أضافت بأنها لا تفهم لمَ ما زالت على قيد الحياة، فقد تمت تصفية كل مَن كانوا معها؟ أخبرتني أنه لم يكن بصحبتها حين اعتقلوها،

وأنها لم تسمع عنه شيئًا منذ ذلك الوقت. فهمت منها أنه على الرغم من أن الكلام ممنوع في السجن، لكن أحدهم ينجح دائمًا في تمرير خبر يطمئن الآخرين.

- حذرني أحد الجيران. اعترض طريقي قبل وصولي للمنزل بمسافة قصيرة. طبقًا لما قاله "رامون" فإن أفرادًا مدججين بالأسلحة الثقيلة قاموا باعتقال "ليليانا"، وأنهم في انتظاري.

استسلم "كارلوس" للصمت. أرادت "لوث" أن تُوجِّه إليه عددًا كبيرًا من الأسئلة.. كيف تصرّف في تلك اللحظة؟ كيف استطاع أن ينجو بنفسه؟ كيف استطاع أن يتخلى عن "ليليانا" بمنتهى البساطة؟

لكنها قررت في النهاية ألا تثقل عليه باستفساراتها. ستدعه يعلق متى ما أراد، وستكتفي بقصّ الأحداث عليه، كما تعرفها.

تحدثت بصوت خفيض، وبسرعة بالغة، حتى أنني وجدت صعوبة بالغة في متابعة الكلمات المتلاحقة التي تخرج من فمها.

فهمتُ أخيرًا أنها ترغبُ في إبلاغه بأنها وضعتْ طفلتهما.

- حسنًا، ولكن أأنتِ متأكدة أنه في السجن؟

في تلك اللحظة، سمعت صوت المفتاح وهو يدور في باب الشقة. ألبستها القناع بسرعة، ورفعت صوتي بالغناء للطفلة.

يجب أن أتحدث مع "آنيمال" بجدّية. هل يقومون بقتل أولئك الفتية والفتيات فعلًا؟! يا لهم من خنازير! لماذا يفعلون ذلك؟ ما ذنب هؤلاء الشباب؟ لماذا يحتجزونهم أساسًا؟

لكنني لم أعرف كيف أفاتحه في الموضوع، فمنذ أن غضب مني في الليلة السابقة، لم أعد أجرؤ على الحديث معه. الواقع أنني بتّ أخشاه أكثر فأكثر. خِفتُ حتى أن أسأله عن تطورات موضوع الكولونيل. لقد قال إنه سيأتي

لاستلام المولودة فور تحسّن صحة ابنته، ولكن ها قد مضى أسبوع كامل على وجود "ليلي" هنا، ولم نسمع منه شيئًا.

في الليلة الماضية، تعمّدت أن أتصرّف بشكل طبيعي. حين عاد من عمله، قدّمتُ له العشاء والنبيذ، لكنني لم أستطع أن أصارحه بشيء مما يشغل تفكيري.

بعد العشاء، مارس معي الجنس، كما اعتاد دائمًا. وللمرة الأولى، أشعر بأنني أفعل ذلك معه وأنا مجبرة ومكرهة، ما تركني في أقصى حالات التقزُّز والاشمئزاز.

ﮰﮱ

بدأتْ تشعرُ أنها مُهدَّدة من قِبَل "آنيمال"، واستحال رفضها لتصرفاته إلى كراهية. السبب الوحيد الذي منعها من طرده من بيتها، هو أملها في أن يمنع ـ بشكل أو بآخر ـ الكولونيل من أخذ المولودة، وأن يعمل على إنقاذ "ليليانا". لم تكن تصدّق، حتى تلك اللحظة، بأنهم ينوون قتل الفتاة.

ﮰﮱ

رغم ما كان يعتمل في داخلي، أؤدّي دوري على أكمل وجه. أدّعي أنني مستمتعة للغاية، وأهمس في أذنه.. أخبره بمدى روعته وقوته. أنتظرُ قليلًا قبل أن أقول له بحذر:

- لا تغضبْ مني أرجوك، ولكنني أريدُ أن أسألك سؤالًا. أعلمُ أنه ليس من شأني، ولكنني معها طوال الوقت وأريد أن أعرف. هل ستقتلونها حقًّا؟

انعكس الضيق البالغ على ملامحه، لكنه طلب مني ألا أقلق، وأخبرني بأنهم سيعيدونها إلى السجن. لكنني لم أستطع أن أحافظ على هدوئي، وانفعالاتي المحسوبة، أكثر من ذلك، فاندفعت أقول بعصبية:

- ولماذا إذن لا تسمحون لها بالاحتفاظ بابنتها؟ ستكون الطفلة أفضل حالًا مع أمها داخل السجن، بدلًا من إعطائها ذلك الكولونيل المعتوه.

ما إن قلتُ ذلك، حتى عاجلني بضربةٍ قوية. خلّفت أصابعه كدمات غامقة في وجهي. سأذهب إلى "ليليانا" بعد استيقاظ الطفلة، لأُريها ما فعله بي. كلا.. قبل استيقاظها، حتى لا تنزعج حبيبتي الصغيرة من منظري.

ꕥ

لم يكن "خافيير" و"إدواردو" مجرّد أخوين، بل صديقان مُتقاربان. تفهّم "خافيير" مشاعر شقيقه، وأرجع إحساسه بالحزن إلى الوضع الصحي لزوجته "ماريانا"، لكنه لم يفهم رفض أخيه لرؤيته، ورد فعله غير المألوف كلما سأله عن مولودته. يجهل السبب الذي يجعل "إدواردو" يطلب منه أن يدعه وشأنه.

ꕥ

- كلا.. لن أغادر هذه المرة يا "إدواردو". ليس قبل أن تصارحني بحقيقة ما يجري. لماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟ ما الأمر؟ هل له علاقة بالطفلة؟ لماذا لا تخبرني؟ لماذا تمنعني من رؤيتها؟ هل هي مريضة؟ ثق بي يا "إدواردو"، أرجوك. أنا هنا لأساعدك.

أجاب "إدواردو" بأسى:

- أنا آسف يا "خافيير". أعلم أنني أتصرف بغرابة، ربما بسبب حالة "ماريانا"، والتدخلات المستمرة من أبويها.. إنهما مولعان بالسيطرة، والتعامل معهما صعب للغاية. إنهما يدفعانني لفعل أشياء أنا غير راضٍ عنها.

أردف بغيظ:

- ولأنني أبله، وضعيف الشخصية، أجد نفسي منساقًا لأوامرهما الغريبة وغير المألوفة التي لا تنتهي. أكاد أُجنُّ. صدقني.. أكاد أجن..

لم يفهم "خافيير" شيئًا من كلام شقيقه المتوتر، وتساءل في نفسه عن طبيعة تلك الأوامر الغريبة وغير المألوفة. حين يسأل شقيقه عن ذلك، يبدي الأخير ضيقه البالغ.

ꕥ

يعلم "خافيير" أن والدَيْ "ماريانا" يضغطان على شقيقه بأساليبهما المستفزة، لكنه يجهل تمامًا ما فعله الثلاثة. لم يعرف إلا بعد أعوام كثيرة.

ꕥ

يتوسل إليه "إدواردو" أن يصمت، وألا يوجه له المزيد من الأسئلة. نعم.. هناك مشكلة، لكنه لا يستطيع الحديث عنها، ولا يرغب ـ في الوقت ذاته ـ في أن يكذب عليه؛ ثم ينهار باكيًا بحُرقة. يضع "خافيير" ذراعه حول شقيقه، محاولًا تهدئته، كما اعتادا طوال حياتهما. تقوم علاقتهما على الاحترام المتبادل، منذ أن كانا طفلين صغيرين، ولذلك يحترم "خافيير" رغبة "إدواردو" في عدم التطرُّق لمشكلته، ويقرر التزام الصمت.

ꕥ

- "ليليانا".. استيقظي.. هل ترين هذه الكدمات؟ هذا ما حصلت عليه نتيجة سؤالي له عنك. تخيَّلي ما كان سيفعله بي إن أنا سألته عن رفيقك. كان سيتركني جثة هامدة بالطبع. السبب الوحيد الذي يجعلني أمتنع عن طرده هو "ليلي" وأنتِ. إنه بيتي، وهذا الأفَّاق الفاشل يعيش معي فيه. سأجاريه وأتحمله خلال الفترة القادمة، ولكن بمجرد مغادرتكما فإنني سأطرده شر طردة.

- نغادر؟ ماذا تعنين؟ إلى أين؟ متى؟ ماذا عن ابنتي؟ ماذا سيفعلون بطفلتي؟ أخبريني الحقيقة.. أنتِ ستأخذينها، أليس كذلك؟ لهذا أعددتِ الغرفة وجهزتِها بهذه الصورة!

- ولكنني قلتُ لك قبل الآن إن هذا غير صحيح. لقد أعددتُ الغرفة لاستقبال أختي ومولودها.

لم يكن بمقدوري قط مصارحتها بخطة الكولونيل.

أقول لها إنني أجهلُ السبب الذي دفعهم لإحضارها إلى بيتي، وأؤكد لها أن "آنيمال" لا يخبرني بشيءٍ. حين تبدأ بالبكاء، أقول لها إنهم ربما أحضروها إلى هنا لتستريح قليلًا عقب الولادة.

لا أدري إن كانت تضحك أم تبكي.

إنها تضحك وتبكي في آنٍ واحد! كأنما فَقَدَتْ عقلها. لا أدري ماذا أقول. عيناها الخضراوان خنجران يمزقانني بلا رحمة.

تصيح بي:

- أنتِ تكذبين! سوف تأخذين ابنتي مني. لقد جهزتِ هذه الغرفة لها. ماذا عن الثياب التي ألبستِها إيَّاها؟ هل هي لابن أختك أيضًا؟ لماذا تلبسينها لـ"ليلي" إذًا؟

راحت تبكي بكاءً مريرًا انخلع له قلبي. أشعرُ بالغضب. تملؤني الشفقة ناحيتها. سرعان ما يتحول صياحها إلى توسلات:

- عِديني بأن تخبريها عني. قولي لها إنني أنا أمها.. قولي لها إنهم قتلوني لأن...

أُقاطِعُها:

- كفِّي يا "ليليانا".. قلتُ لك إنني لن آخذها.. الكولونيل "دوفاو" سيعطي ابنته إياها.

- لم تكن "ميريام" تنوي مصارحتها بحقيقة الوضع، كما يبدو، ولكن حين توسلت إليها "ليليانا" أن تخبرني...

سكتت "لوث" قليلًا، ثم مسحت دموعها بأصابع مرتجفة، وقالت:

- آسفة.. الأمر مؤلم جدًّا بالنسبة لي.

يزداد بكاء "ليليانا"، وتظل تردد اسم الكولونيل، كأسطوانة مشروخة:

- "دوفاو".. "دوفاو".. "دوفاو"..

- توقَّفي عن البكاء يا "ليليانا"، أرجوكِ. ليتني أستطيع فعل شيء من أجلك. سأطلب من "آنيمال"، مرة أخرى، ألا يعطيها إياه، لكن المشكلة أنه ضعيف الشخصية، ويطيعه في كل شيء. لا أدري إن كان بمقدوري مساعدتك.. لا أظنُّ أنني أستطيع.. صدقيني. لا تبكي.. سوف آتي لزيارتك في السجن، وسأحضر لكِ الطعام.

- دعيني أذهب. من فضلك.. دعيني أهرب.

- هل جننتِ؟ سوف يقتلونني، ثم.. كيف ستتمكنين من الهروب؟ هل نسيتِ رجال الشرطة الذين يتناوبون على حراسة باب الشقة، طوال الوقت؟

في نهاية الأمر، أنصحها بالتوقف عن البكاء، حتى لا يجف لبنها. أقـول لهـا إنـه إن حـدث ذلك فلن تتمكن من إرضاع "ليلي". يجب أن تظل هادئة من أجل صغيرتها.

لكن الحقيقة هي أنني أنا التي لم أعد أتحمَّل منظرها وهي تبكي بتلـك الطريقـة المؤلمـة. أشعر بغصة في قلبي.

أُعيد وضع العصابة فـوق عينيهـا، حتـى لا تـرى الـدموع التـي تنـساب عـلى خـديّ دون توقف. أربّت على ظهر "ليلي"، وألصق وجهي برأسـها الـصغير. حـين أهـدأُ قلـيلًا، أدنـدن لهـا بأغاني الأطفال التي أحفظها.

تقول فجأة:

- أحبُّ الطريقة التي تغنين بها. ما اسمكِ؟

- "ميريام".

- غنِّ لي يا "ميريام".. عـلى فكـرة.. أريـد أن أخـبركِ شـيئًا.. أنـا لا أدري لمـاذا تعيـشين مـع "آنيمال".. ولكن...

- لا أعرف.. كنتُ معجبة به جدًّا. كان لطيفًا وطيب القلب.

أعاود الدندنة.

تتساءل بدهشة وعدم تصديق:

- كان لطيفًا طيب القلب؟!

يخجلني استغرابها. من الأفضل ألا أجيبها. أتشاغل بالغناء للطفلة بصوت هادئ.

تقول:

- لكنكِ لستِ مثلهم، وإلا لما قمتِ برعاية ابنتي بكل هذه المحبة. دعيني أهرب. أرجـوكِ. كلنـا كنـا نعلـم منـذ البدايـة أننـا مُعرَّضـون للقتـل، ولكـن الآن وقـد جـاءت "لـيلي"، لم يعـد باستطاعتي تركها لهم. أنتِ تحبين "ليلي".. أنتِ مَن منحها اسمها.. هل تظنين أن مِن حقِّ مَـن قتل أبويها أن يربيها؟

كررت مرة أخرى:

- دعيني أهرب. أتوسل إليكِ.

أضافت:

- "دوفاو" هو الأسوأ بينهم جميعًا. إنه المسؤول عنا. لم أره ولا مرة، عيناي مغطاتان على الدوام، لكنه يخرجنا من الزنازين حين يأتيه زوّار مهمون، ويتحدث معنا أمامهم. سألني عن أبويّ وعمّن يكونان، وأين أدرس، وقال لي: "كيف يمكن لبنت طيبة مثلك أن تخالط هؤلاء الأوغاد؟ أنتِ جميلة جدًّا وتتلقين تعليمًا جيدًا.. وكأنكِ إحدى بناتي بالضبط!"، وها هو الآن ينتزع مني طفلتي ليمنح ابنتَه إياها!

تواصِلُ البكاء فترةً طويلة، بينما أترنَّم بأناشيد الأطفال لـ"ليلي". أضعها في مهدها، ثم أخرج وأغلق الباب خلفي، وأدير فيه المفتاح مرتين.

لا أريدُ أن يأخذها هؤلاء المجرمون. جميعهم سفلة، وأنا مثلهم.. لكنني كنتُ أجهل الظروف الحقيقية المحيطة بالأمر. هل صحيح ما سمعته من "ليليانا"؟ هل سيقومون بقتلها فعلًا؟ هل حقًّا يقتلونهم؟ هل يتركون الفتيات الشابات يلدن داخل الزنازين في ظروف غير آدمية؟

لا أريدُ الاستماع إلى المزيد. لن أتحدَّث معها مرة أخرى. سأمنعها من الكلام معي. "آنيمال" يقول إنهم جميعًا قتلة. نعم.. لا بد أنهم ارتكبوا جرائم يستحقون عليها الحبس.. ولكن الأمر صعب التصديق في الحقيقة.. ثم إن "ليليانا" تحب ابنتها. لا يهمني ذنبها أو جريمتها. المهم أنها أم تعشق طفلتها، فلماذا تحرَم منها؟

ꕤ

أبلغ الضابط "بيتيوتي" رئيسه الكولونيل أن كل شيء على ما يُرام. المولودة بصحة ممتازة، وزوجته تدير الأمور كما يجب، وكل شيء تحت السيطرة. زارهم طبيب الأطفال، وقام بالكشف على الصغيرة، وأكد أنها بخير وقد اكتسبت وزنًا إضافيًّا كما ينبغي لها.

لكن "آنيمال" تعمّد أن يخفي عن الكولونيل حقيقة أن الأمور تجري بسلاسة ونظام، لسبب واحد فقط، هو تعدّيه بالضرب المبرح على "ميريام".

لم يُلمِّح "دوفاو" بشيء حول الوقت الذي ستنتهي فيه هذه المهمة. تمنى "بيتيوتي" أن يتم ذلك بأسرع ما يمكن.. إمَّا بوفاة ابنة الكولونيل، أو بشفائها شفاءً

تامًّا، ليعود الوفاق بينه و"ميريام". لم يعد يتحمّل التوتر الذي يشوب علاقـتهما، ولا نظراتهـا له. يدرك جيدًا أن مشاعرها تجاهه قد تبدلت. يشعر أنها تحب الطفلة أكثر مما تحبه. تلـك الطفلة الملعونة! ليتهم يستعيدونها في أقرب فرصة، ليتخلص منها إلى الأبد. بعدها، سـيتمكن من فتح صفحة جديدة في علاقتـه بــ"ميريـام". يـستطيع أن يكـسب حبهـا واحترامهـا، مـرة أخرى. أكد لنفسه أنه سيفعل ذلك. لا يريد أن يخسرها.

ꕥ

كنتُ قد قررتُ بألا أتحدَّث إليها ثانيةً، ولن أدعها تتكلم معي. أفضّل أن أسـتمر في جهـلي بما يجري حولي. لا أريدُ أن أتورط مع "آنيمال". رغم قراراتي الحاسمة هـذه، فـإنني لم أسـتطع الالتزام بها. وقفت أساعدها في تغيير ثياب "ليلي"، حين وقـع حبلهـا الـسُّرّي فجـأة. أحسـست بسعادة غامرة، فتوجهت إلى المطبخ، وفتحت زجاجة نبيذ أبيض، احتفالًا بالمناسبة المبهجة.

أتحسَّس بطن الطفلة الناعم، وبشرتها الوردية. "ليلي" تسكن قلبي. في كل يوم، هناك أمـر جديد يتعلق بها.. تعبيرات وجههـا اللطيفـة.. ابتـسامتها الحلـوة.. وعيناهـا الخـضراوان وهـي تحدّق إلينا بهما، يبدو أنها صارت تستطيع الرؤية بوضوح الآن. أظن أنهـا تُمـيِّـزُني حـين تـراني. أفرح لمجرد رؤيتها..

نسيتُ قراراتي المتعلقة بعدم مبادلتها الحديث بعد أن شربنا قليلًا.. إذ رحنـا نـضحك دون سبب واضح ونحن نتغزل في عيني الطفلة وقدميها بالغتي الصِّغر وابتـسامتها العذبـة. شربنـا المزيد من الكؤوس، لسعادتنا المشتركة بهذا الكائن الجميل.

ꕥ

- لا أدري.. ولكنني لا أستطيع تصوّر "ليليانا" وهي تشرب النبيذ، كأسًا تلو الأخـرى، مـع حبيبة "آنيمال"! لا أظن ذلك صحيحًا. من الذي أخبرك بذلك؟ "ميريام"؟

- نعم. لماذا أنت غير مقتنع؟ امرأتان تشعران بالأسى والوحدة والخوف، وتحاولان تبديد تلك المشاعر بلحظات خاطفة من المرح. أخبرتني "ميريام" بأن الطفلـة كانـت تجـسّد معنـى الحياة لكُلٍ منهما.

أضافت "لوث" بعد برهة:

- أظن أن تلك الدقائق، تحديدًا، ساعدت في توثيق صلتهما ببعضهما بعضًا.

ꕥ

لا أتحمل رؤية الآلام المنعكسة على عيني "ليليانا"، وأعجزُ عن تقديم أي عونٍ حقيقي لها، ويعذبني التفكير في أنهم سيأخذون "ليلي" مني ويحرمونني رؤيتها، ويُرهِقُني تصوّر ما سيحدث لـ"ليليانا".

الكؤوس التي شربناها حينها، ساعدتنا على عَيش لحظاتٍ سعيدة، رغم كل العذاب الذي نعانيه.

تستلقي "ليليانا" على السرير وهي تضحك بصوت مرتفع، بعد أن ثملت. أشير لها بيدي أن تسكت، حتى لا يسمعها أولئك الخنازير الذين يحرسون باب الشقة.

تناولني كأسها لأملأه لها، وتقول:

- لنشرب نخبكِ الآن.

- ونخبكِ أنتِ أيضًا.

تتوقف عن الضحك فجأة. يخبو النور في عينيها، وتقول بحزن:

- "ميريام".. دعيني أهرب.

أَضَعُ القناع على عينيها. كانت تلك طريقتي لأُفهِمَها أن الموقف بأكمله يجبُ أن ينتهي الآن. لم أرغب أيضًا في أن ترى كيف أن كلامها وتوسلاتها يدفعانني للجنون. تبدأ الطفلة في البكاء. أحملها وأغني لها إحدى الأغنيات التي اعتادت خالتي ترديدها.

قالت "ليليانا":

- استمري يا "ميريام". لا تتوقفي أرجوكِ..

تبدأ في الحديث عن وضعها.. أرفع صوتي بالغناء حتى لا أضطر لسماعها.

- انظري إلى كاحليّ.. هل ترين؟ هذا بسبب القيود الدائمة التي يكبلونني بها منذ أشهر طويلة.

أذكر نفسي بما سبق وأخبرني به "آنيمال". نحن في حالة حرب ضدهم. تواصل "ليليانا" الشكوى من عينيها المغطاتين طوال الوقت، وانعدام النظافة، والروائح الكريهة؛ ثم تحكي لي كل شيء.. ما يفعلونه معهم في المكان الذي

يطلقون عليه اسم "غرفة العمليات" حيث يعذبونهم. تخبرني بأن "آنيمال" هو الذي يتولى تعذيب المعتقلين بنفسه، وتُؤكِّد لي أنها الوحيدة التي لم تدخل هذه الغرفة. لم يعرضها للتعذيب قط. تقول إنها لا تفهم سبب ذلك. لا أخبرها بأنه فعل ذلك حفاظًا على سلامة "ليلي".. كان يريدها سالمة ومعافاة من أجلي.

أغني بصوت أعلى، وأعلى.. لا أريد أن تسمع "ليلي" ما حدث لأمها، ولا أرغب في الوقت نفسه في أن أطلب منها السكوت. قاموا بالقبض عليها، ألقوا بها على أرضية الزنزانة، وبدؤوا في ركلها بقوة. تضع يديها على بطنها، كي تحمي جنينها.. لا.. لا أريد أن أسمع أكثر.. يا إلهي! غير صحيح.. كانت عارية تمامًا.. "آنيمال" يتحسس جسدها.

- أنتِ حامل، أليس كذلك أيتها العاهرة؟

تقصُّ عليّ كل ما فعله بها. أحمي نفسي بالاختباء خلف كلمات أغنية الأطفال.. علّها تمنع عباراتها من الوصول إليّ. لكنني لا أريدها أن تسكت.. أريدها أن تتخلص من كل الهموم التي تضيق بها نفسها. يجب أن تشعر بتحسن، بأي طريقة.

أهمسُ في أذن "ليلي":

- استمعي إليّ، وليس لها.

لكن الدوامات تدور داخل رأسي.. لماذا؟ لماذا يفعلون بهم ذلك؟ إنهم يرفعون أصوات الراديو حتى لا يسمع أحدٌ صرخات المعتقلين المرعبة، المتواصلة.

تجيبُ عن سؤالي، دون أن أخاطبها، تقول:

- "يفعلون بنا ذلك لمجرد أننا نطالب بالعدالة الاجتماعية".

أنسى كلمات الأغنية. لا أتذكرها بتاتًا.. لكنني أواصل الغناء كيفما اتفق، وأنا أُغالِبُ البكاء، وبخاصة حين أسمعها تقول:

- لا أتحمل التفكير في أنهم سيقتلونني، ثم يأخذون ابنتي.. ابنتنا يا "ميريام".. أنتِ تحبينها مثلي. سوف يستولون على طفلتي ويسلبون هويتها الأصلية، ولن يتسنى لها معرفة أبويها الحقيقيين.

أُعيدُ وضع الصغيرة، النائمة بعمق، في فِراشها.

تسكت "ليليانا" أخيرًا.

أخرج من الغرفة بسرعة، وأُحْكِمُ قفل الباب بالمفتاح، ثم أدخلُ حجرتي وأستلقي على سريري وأبكي طويلًا.. كم أكره "آنيمال"! أكرهه وأكره نفسي لأنانيتي.. أنا لا أقِلُّ عنه حقارة.

عليّ أن أفعل شيئًا. يجب أن أنقذ "ليلي" و"ليليانا".

ꕥ

عندما رأى "خافيير" شقيقه سعيدًا، لأن زوجته قد استفاقت من غيبوبتها، وبدأت تتماثَلُ للشفاء، قرَّر أن يواجهه ـ أخيرًا ـ ليفهم حقيقة الوضع. سأله عن السِّرِّ في إخفاء المولودة عنه حتى هذا الوقت؟ وما الشيء الذي فعله حموه وحماته وجعله حزينًا ومتوترًا طوال الفترة الماضية؟ وما الدور الذي قام به في المسألة التي يتكتمون عليها جميعًا؟

لكنه سرعان ما تمنى لو لم يقل شيئًا، إذ فقد "إدواردو" كل مرحه فجأة.

ꕥ

غامت عينا "إدواردو"، وظَلَّ يُحملق إلى الحائط. قال أخيرًا:

- الطفلة بخير، وتتلقى أفضل رعاية ممكنة. سوف تراها قريبًا يا "خافيير" عندما نصطحبها للبيت.

أضاف:

- سنفعل ذلك خلال أيام قليلة. يومين أو ثلاثة على الأكثر.

ꕥ

لا أدري كيف أواجهها أو أتعامل معها، بعد كل ما سمعته منها البارحة. لكنني لا أستطيع ـ في الوقت ذاته ـ أن أتجاهل ما سمعته. أؤكد لها أنني كنتُ أجهلُ ما يحدث..

- صدقيني أرجوكِ. لا دخل لي بالأمر. لقد حطَّمني ما سمعتُه منك. لقد كان مُحبًّا وعطوفًا معي دائمًا.

أضيفُ بعد برهة:

- إنه يردد طوال الوقت أنهم يعملون على تحرير البلاد من الأيديولوجيا الغربيـة. لم أكـن أفهم..

- فلنهرب يا "ميريام". أعرف أين يمكننا أن نختبئ.

أخاطبها بحدّة:

- أنصتي إليّ جيدًا.. إن واصلتِ الحديث بهذه الطريقـة، فـسوف أضـطر إلى وضـع القنـاع على عينيك. لا تتكلمي معي، إلا إن كان الأمر يتعلق بـ"ليلي" فقط، هل تفهمـين؟ لا أسـتطيع مساعدتك. سوف يقتلني. أنتِ تسعين للعدالة الاجتماعية، كما قلتِ بالأمس، وورطتِ نفـسك في هذا الوضع المعقد.. ولديك اسـتعداد للتـضحية بنفـسك في سـبيل تحقيـق أفكـارك، ألـيس كذلك؟ ما شأنك بي؟ أنا لا أعرف هذه الأمور، ولا أفهمها، ولا أؤمن بها أساسًا.

أجابت بهدوء:

- أنتِ محقة يا "ميريام".

أضعُ الصغيرة على جسد أمِّها. أراقبهما وهما تستـسلمان للنـوم. كلتـاهما تتمتـع بعذوبـة فائقة. من المؤسف أن يحرموها من ابنتها بهذه الطريقة الوحشية. كيف أُسـامِحُ نفـسي عـلى نيتي بالاستيلاء على ابنتهـا؟ لكننـي كنـتُ أظـن أنهـا لا تريـدها. لا أعـرف.. الموضـوع بأكملـه مُربِكٌ. ذلك الحقير "آنيمال" جعلني أشعر أن الوضع طبيعي، ولا بأس به. ذلـك اللقـيط! هـل حقًّا يعذبون المعتقلين بتلك الوحشية؟ أم أن الأمر مجرد تهويل ومبالغات من "ليليانا"؟!

من واجبي إنقاذ "ليلي" و"ليليانا". كيف؟ لا أدري.

المهم ألا أجعل "آنيمال" يشعر أنني أعـرف حقيقتـه وطبيعـة عملـه. عـليّ أن أفـتش عـن معلومات تفيدني فيما سأقدم عليه.

عندما توجَّه "بيتيوتي" إلى محل الأزهار ليشتري دستة من الورود، لم يفعـل ذلـك لمجـرد أن يـصالح "ميريـام" ويتجنـب غـضبها فقـط، صـحيح أنهـا حـين

تغضب تُقْدِمُ ـ في أغلب الأوقات ـ على ارتكاب حماقات، وهو ما يهدد نجاح مهمته الحالية مع الكولونيل، فإنه يريد مصالحتها لأنه يُحبُّها فعلًا كما لم يحب امرأة في حياته. لطالما حلم بامرأة مثلها.. مفرطة الجاذبية والأنوثة، وشهية كثمرة فاكهة، وطيبة القلب فوق ذلك كله.

خطته بشأن إهدائها طفلًا، تسير بشكل جيد ودون تعقيد. لقد وقع اختياره على إحدى السجينات الحوامل. ما إن تضع حملها، حتى يأخذ الصغير ويضعه بين يديّ "ميريام"، رغم أنها لم تعد تَذْكُرُ هذه المسألة قط.. تلك الطفلة اللعينة أنستها كل شيء.

قدّم لها الورد معتذرًا. إنه يتعرض لضغوط هائلة في العمل، وما تردده على مسامعه يزيد من توتره وعصبيته. صارحها أنه يعذرها، ويتفهم موقفها وتعاطفها معهم.

- أنتِ طيبة لدرجة السذاجة. طيبة إلى الحد الذي يمنعك من تصور الجرائم التي يمكن لهذه الإنسانة الخطيرة ارتكابها. صحيح أنها تبدو هادئة الطباع وبريئة، لكنها في الواقع عكس ذلك.

ꕥ

ذكَّرت "ميريام" نفسها بأن عليها أن تحافظ على هدوئها، وأن تسيطر على انفعالاتها. أرادت استغلال إحساسه بالندم لاستخلاص أي معلومة قيّمة منه.

ꕥ

- أشكرُك لحرصك على الاعتذار لي يا "آنيمال". أشعر بالسوء لما حدث بيننا مؤخرًا، كل ما في الأمر هو أنني أُلازِمُ الطفلة طوال اليوم، إلى أن تعلقت بها جدًّا، وبدأتُ أشعرُ بصعوبة فِراقها. ربما كان من الأفضل أن ترحل هي ووالدتها بأسرع ما يمكن. متى سيأتون لأخذهما؟

- ليلة غد، أو بعد غد على الأكثر. سوف يأتي الكولونيل بنفسه، فقد تحسَّنت صحة ابنته. سأنتهز الفرصة لأعرفكِ إليه. لقد وعدني بالحصول على المولود القادم في السجن. ستلد إحدى المعتقلات في الأسبوع القادم تقريبًا.

ꕥ

"ليلة غد، أو بعد غد".. ظلت هذه الجملة ترنُّ في أذني "ليليانا" طوال الوقت.

ﮋﮊ

إنه سعيد طبعًا لشفاء "ماريانا"، لكنها تسأله بمجرد أن تراه:

- لماذا هذا العبوس؟

كيف يمكنه أن يخبرها؟ إنه يخشى أن تسأله عن المولود. خداع الآخرين ـ رغم صعوبته ـ أسهل من خداعها هي تحديدًا. عليه أن يقول لها إن المولودة أنثى وأنها جميلة، وأنها بانتظارهما في البيت، في رعاية "آميليا".

كيف تكون الطفلة في البيت وأمها هنا في المستشفى؟ ماذا لو طلبت منه "ماريانا" أن يحضر الصغيرة لها لتراها؟ ماذا يقول لها؟

لكن "ماريانا" تصدّق أي شيء يقوله لها "آلفونسو". بعد أن يتحدث معها أبوها لبعض الوقت، على انفراد، لا تستفسر "ماريانا" عن أي شيء.

يشعر "إدواردو" بأنه نصّاب محترف.

ﮋﮊ

بعد يوم، أو اثنين على الأكثر، سيأخذون "ليلي" مني، ولن أراها مرة أخرى. سأفتقد ملمس بشرتها الناعمة، وغمّازتيها، ويديها الصغيرتين، وأصابعها الرقيقة وهي تقبض على إصبعي؛ كما أنني لن أرى "ليليانا" ثانيةً. عليّ أن أفعل شيئًا من أجلهما. لا أدري كيف. هل أضع السُّمَّ في طعام "آنيمال"؟ حتى لو فعلت، كيف سأنجو بنفسي، وأفراد الشرطة يقفون على بابي ليل نهار؟

عليّ أن أستشير "ليليانا". تستطيع أن تساعدني في التفكير. إنها من الثوّار، وتعرف كيف تتصرف في هذه المواقف.

أضع اللحم في الفرن، وأتوجَّه إلى غرفتها.

يسألني "آنيمال" باستياء:

- ماذا تفعلين؟

- سأذهب لأناولها الصغيرة، حان موعد إرضاعها.

- يمكنها تدبّر الأمر بمفردها، لم تعد مقيدة.

أبتسمُ له وأُقبّله، وأنا أشعر في داخلي بتقزُّزٍ بالغ، وأقول:

- لن أتأخر. لحظة واحدة فقط يا حبيبي. سأذهب للاطمئنان على الطفلة، ثم أعودُ إليك يا حياتي. لمَ لا تستلقي، وترتاح قليلًا إلى أن يجهز الطعام؟

- عودي بسرعة..

يُضيف بفجاجة:

- أريد أن أمارس معكِ الجنس حالًا.

ﮰﮱ

يتجه إلى حجرة النوم. حمدًا لله. لن يستطيع سماعي من هناك.

أدخل غرفتها، وأقفل الباب بالمفتاح. لا أزيل الغطاء عن عينيها. أقتربُ منها، وأهمسُ في أذنها:

- سيأتون من أجلكما غدًا، أو بعد غد. لا تردّي. لا تقولي شيئًا الآن. "آنيمال" هنا. سوف أقوم بإلهائه، فيما تفكرين في شيء. عقلي عاجز عن التفكير..

يتعالى بكاء "ليلي"، وكأنها تعرف أن دورها هو التغطية على صوتي، حين أقول لأمِّها:

- شيء يسمح بهروبنا نحن الثلاث..

ﮰﮱ

كانت خائفة جدًّا، ليس من "آنيمال"، بل من نفسها ومما قالته للتوّ، ومن مصيرها المجهول، ومن مجريات الأمور التي لم تتخيل حدوثها قط، والتي لم تعد تريد لها أن تتوقف، بل أن تستمر.

تخيّل الحياة التي عاشتها "ميريام" بكل أحداثها وتجاربها، وأنها ـ حتى بضعة أيام مضت ـ كانت تنوي أخذ هذه الطفلة لنفسها.

في تلك اللحظة، تذكرت "ميريام" ـ كما أخبرتني لاحقًا ـ تحذير "آنيمال" بأن "ليليانا" في الحقيقة مجرمة وقاتلة. فكَّرت برعب..

- ماذا لو أقدمت على قتلي بدم بارد، بعد أن أعينها على الهروب؟

وبينما هي مستغرقة في التفكير على هذا النحو، تسللت أصابع "ليليانا" إلى يدها، ففزعت وكادت تفلت منها صرخة.. أَدْنَت الفتاة اليد من شفتيها ولثمتها بامتنان. أحست "ميريام" بدموع "ليليانا" الغزيرة وهي تبلل يدها.

ﮜﮛ

كيف ادّعى أن هذه الفتاة مجرمة؟

على أي حال، إن لم تقم بقتلي، فسوف يتولى هو هذه المسألة.

أهمسُ في أذنها مرة أخرى:

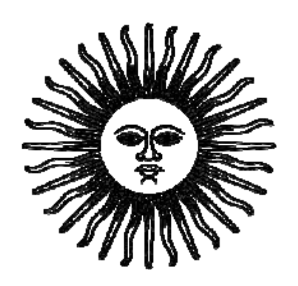
- فكري في مكان نختبئ فيه. فكري قبل ذلك في كيفية خروجنا من هنا بسلام.

تجيبني بهمهمة سريعة:

- أحتاج إلى معلومات. أين نحن بالضبط؟ مَن الذي يعيش في الشقة السفلية؟ تصميم الشقة ومداخلها ومخارجها. كل ما تعرفينه بهذا الشأن.

أخرج بسرعة، وأقفل الباب ورائي بالمفتاح.

4



حين استيقظ "آنيمال"، تظاهرتُ بأنني لا أزال نائمة، رغم أنني ـ في الحقيقة ـ لم يُغمض لي جفنٌ طوال الليل. استيقظت "ليلي" مرات عديدة، وكأنها تعرف ما يجري. ذهبتُ إليهما مرة واحدة على أطراف أصابعي، لأن "آنيمال" يكره دخولي الـ"زنزانة"، كما يسمي غرفة "ليليانا"، خلال ساعات الليل. انتهزت فرصة بكاء الطفلة بصوت مرتفع، لأقول لأمِّها على عجالة كل المعلومات التي تحتاجها.. المنطقة التي يقع فيها بيتي، وأن كل طابق يضمُّ شقتين، يتوسطهما باب يؤدي إلى السُّلم الخارجي. نبّهتها إلى أن هناك حارس يقف في الأسفل، أمام البناية، يتم تغييره بزميل آخر له، كل ثماني ساعات. قلت لها إنه يأتي إلى الشقة حين أضطرُّ إلى الخروج، أو حين يرغب في تناول فنجان قهوة، أو استخدام الحمام. أخبرتُها عن الحارس الإضافي الذي يأتي ليلًا، عندما يكون "آنيمال" موجودًا في البيت.

قالت بسرعة:

- لن نفعل شيئًا في وجوده.

إنها ترتعبُ من مجرد ذِكْرِ اسمه. أنا أيضًا أصبحتُ أخافه. كان بالغ الطيبة معي، لدرجة أنني لا أصدق أنه قد يُقْدِمُ على قتلي. لم تعد الفكرة مستحيلة على أي حال، وأعرف أنه لن يتردد في إيذائي، بل التلذذ بذلك أيضًا.

أغادرُ غرفتها بسرعة، لا لخوفي من "آنيمال" فقط، وإنما لأنني لا أريد أن أسمع منها شيئًا قد يُخيفني ويمنعني من تنفيذ قراري. لا أستطيع أن أمنع نفسي من تصوّر ما قد يفعله إن أمسك بي.. سوف يُلقيني في المعتقل، ولن يتردد في تعذيبي بكل الطرق التي أخبرتني بها "ليليانا". أغطي عَيْنَيّ بيديّ ـ وقد انتابني الفزع لهذه المشاهد المرعبة ـ دون فائدة. الصور محفورة داخل رأسي.. الأسلاك الكهربائية المثبّتة على حلمتيّ ولثتي وداخل أعضائي الحسّاسة.. يا إلهي! أرتجفُ من شدة الخوف.. لا يمكنني تخيل مدى الألم والبشاعة.

أدخل إلى غرفتهما صباحًا. كانتا تغطان في نوم عميق. أتأمّل جمالهما وبراءتهما. أشعر بالسوء لاضطراري لإيقاظهما. عليّ أن أفعل ذلك. لا أستطيع أن أكتفي بمشاهدة ما يحدث، والاستسلام له، ثم أراني ملقاة داخل زنزانة، و"آنيمال" يعذبني بأجهزته وأسلاكه الكهربائية..

لِمَ لا أستطيع نزع هذه الصورة من رأسي؟

تفتح "ليلي" عينيها. حبيبة قلبي الجميلة.. وجودها سيجلب لنا الحظ السعيد. أنا مُتيقِّنة من ذلك. يجب ألا أفكر بمصيري. عليّ فقط أن أنفذ ما أنوي القيام به.

❧❧

دخلت "ميريام" غرفة "ليليانا" عدّة مرات ذلك النهار. خلال تلك الساعات القليلة، اقتربتا من بعضهما بعضًا، وتعرفت كل منهما إلى الأخرى، ووثقت بها.. وهي الأمور التي قد تستغرق أعوامًا طويلة لتتحقق بين الناس.

❧❧

"ليليانا" لا تفهم إصراري على الهروب معها. تعتقد بأنها مخاطرة عديمة الجدوى، وأن وجودي معها سيجعل "آنيمال" أكثر إصرارًا على البحث عنها والعثور عليها. أخبرتني بأنها فكرت في الأمر طول الليل، وتوصّلت إلى أنها ستقوم بوضع القيود حول يديّ، وربطي في السرير، ليظن "آنيمال" بأنها هي التي أجبرتني على إطلاق سراحها.

- صحيح؟! وهل تظنين أنه سيصدّق ذلك؟ "آنيمال" ليس غبيًّا. أنا لستُ ضعيفة، وأنتِ أصغر مني حجمًا، فكيف يفترض بك أن تتمكني من تقييدي؟

أضحكُ بصوتٍ مرتفع، من فرط إحساسي بالتوتر. تقطع ضحكتي بسؤالها:

- هل لديكِ سكين كبير في المطبخ؟

- نعم، لماذا؟

- سوف يتصل بكِ "آنيمال" من عمله، كما يفعل كل يوم، عندها تعمّدي أن تذكري له أنكِ كنتِ في المطبخ، وأنكِ أتيتِ مُتعجلةً للردّ على التليفون حاملة السكين أو شيئًا من هذا القبيل يوضح له صورة أنكِ تحملين سكينًا. متى يتصل بكِ تحديدًا؟

- ليس في وقت معين.. يتصل بي عدّة مرات في اليوم. ما علاقة السكين بالموضوع؟

- حتى تُخبريه بعد ذلك بأن الطفلة كانت تبكي، وأنك دخلتِ مسرعة للاطمئنان عليها، دون أن تضعي السكين من يدك. حين أغلقتِ الباب وراءكِ، غافلتُكِ وأخذتُها منكِ عنوة، ووضعتها على رقبتك لأجبرك على تنفيذ ما أريد.

مجرد تخيّل الأمر يُصيبني بالذعر. لا أبدي موافقتي. أريد أن أهرب معهما. لا يمكنني البقاء بمفردي معه.. فحتى لو صدّق "آنيمال" بأنني تعرضت للتهديد، وأنها هربت بابنتها دون مساعدة مني، فإنه قد لا يقتلني، لكنه لن يتوانى عن ضربي بقسوة. وحتى لو اكتفى بضربي، هل يمكنني أن أعيش معه بسلامٍ بعدها؟ مستحيل.. لقد بتّ أكرهه وأمقتُ الحياة معه. يملؤني تجاهه إحساس بالنفور والاشمئزاز.

حين أفكِّر في إعجابي به، وعرفاني لكل ما يبديه نحوي من محبة وعطف.. أتقزَّز من نفسي. عليّ أن أتخلص من سذاجتي وغبائي.

أقول ذلك لـ"ليليانا"، فتضحك وتجيبني:

- أنتِ لستِ ساذجة ولا غبية. كل ما في الأمر هو أنكِ ارتكبتِ خطأ بارتباطك به. مجرد غلطة.

وجدتُ نفسي أخبرها عن الكيفية التي تعرفت بها إليه. صارحتها بمهنتي القديمة. قصصتُ عليها كيف أنه بذل مجهودًا مضنيًا، وعرّض نفسه للخطر، من أجل أن يمارس الجنس معي، وكيف أنني شعرتُ بعدها بأنه لطيف جدًّا.

لحسن الحظ، تنبّهتُ إلى أنني يجب ألا أنساق إلى قصّ كل شيء عليها، فتوقفت فورًا، قبل أن آتي على ذكر عمليات الإجهاض، حتى لا تفهم بأنني كنتُ أنوي فعلًا الاستيلاء على ابنتها، نتيجة عجزي عن الإنجاب.

كان كشفي لها عن ماضيّ، غريبًا جدًّا، إذ إنني لم أعْتَدْ فعل ذلك؛ وفي المرات القليلة التي صارحتُ فيها أحدًا بما كنته وما مرّ بي من مشكلات ومصاعب، انتهى الأمر بتعرضي للإذلال من هؤلاء الأشخاص. كان الأمر مختلفًا مع "ليليانا"، أحسستُ نحوها بارتياح وثقة، كما لو كانت أختي أو صديقتي المقربة. ربما كنت أرغب فقط في البوح بقصتي لأي شخص، لإحساسي بأنني قد أُقتَل عمّا قريب.

خلال حديثي أحسست بالغرابة، فقد ظلتَّ تُتابعني بعينيها بصمت، ولأتخطى ذلك الشعور طلبتُ منها أن تقصّ عليّ شيئًا عن حياتها، كأنني أردتُ أن نكون متساويتين، بشكلٍ أو بآخر، ولكن قبل أن تفتح فمها، خشيت أن تتكلم عن المعتقل والتعذيب وكل تلك الأشياء المخيفة، فأردفت بسرعة:

- شريطة أن يكون شيئًا لطيفًا، من فضلك، لا مثل تلك الأمور المزعجة التي أخبرتِني بها منذ بضعة أيام. حدثيني عن حبيبك.. أعني رفيقك.. لأي درجة تحبان بعضكما البعض؟

أضاءت وجهها ابتسامة سعيدة، فزادته بهاءً. تصبح فائقة الجمال حين تبتسم أو تضحك. لا أدري كيف يمكنها فعل ذلك في ظِلِّ الظروف التي تمرّ بها، لكنها ضحكت كثيرًا هذا الصباح. كانت في مزاج حسن. وكأنها تقرأ أفكاري، قالت:

- أنا في غاية السعادة، لأنني سأهربُ بابنتي.

انتقلت حماستُها وفرحُها إليّ، كالعدوى. أخبرتني بعدها أن "كارلوس سكويرّو" هو اسم حبيبها، وأوصتني بأن أحاول البحث عنه ومعرفة مصيره، إذا تم قتلها. إن وجدته على قيد الحياة، فعليّ أن أبلغه أن له ابنة تُدعى "ليلي"، وأن أخبره عمّن أخذها.

ﮪ

أعطتها "ليليانا" اسم أحد الأشخاص ورقم تليفونه، لكي تستفسر منه عن "كارلوس".

- ما اسمه؟

- أتذكره جيدًا.. "فرانكو".

طافت ابتسامة تنضح بالمرارة على شفتيه، وحرّك أصابعه بضيق، كأنما يهشُّ ذبابة.

- هل تعرفه؟

- نعم، ولكنني أفضّل تناسي الأمر. سرعان ما انهار واعترف على الجميع، ثم جنَّدوه لحسابهم، وتعاون معهم ضد زملائه ورفاقه. حين بلغني الأمر، كنتُ قد وصلتُ إسبانيا. كانت تلك لحظة فارقة في حياتي بأكملها. خلقت فجوة هائلة بيني وبين كل ما كنت أؤمن به حتى ذلك الوقت. لم يكن فقط أحد أهم أعضاء المنظمة، بل كان صديقًا شخصيًّا أيضًا. لقد كان أول مَن رأيتُ عقب اعتقال "ليليانا". كنتُ في حالة يرثى لها تلك الليلة.

سكت "كارلوس"، مُستغرَقًا في أفكاره وذكرياته، التي بدا واضحًا أنه لا يريد إشراك "لوث" فيها. استعاد تماسكه بعد قليل، وسألها:

- حسنًا، وما الذي حدث بعد ذلك؟ هل اتصلتْ "ميريام" بذلك الرقم؟

- كلا. أبدًا. حين همّت بتدوينه، منعتها "ليليانا" من ذلك، وطلبت منها أن تحفظه غيبًا. نبّهتها إلى أن أسماء الأشخاص وأرقام التليفونات لا تُكتَب أبدًا، تحت أيّ ظرف، لأنها تشكّل خطرًا كبيرًا عليهم جميعًا.

واقع الأمر أن "ميريام"، لكونها فوضوية بطبيعتها، لم تفهم هذا النظام، لكنها أدركت ضرورة الالتزام به حتى تحمي "ليليانا" من المخاطر. على أيّ حال، تذكرت الاسم ـ بعد ذلك ـ لكنها نسيت الرقم تمامًا؛ والحقيقة أنها لم تتذكر اسمك أنت أيضًا على النحو الصحيح. لم تكن متأكدة من أنها سمعته جيدًا.

❧

- طلبتُ منكِ أن تقصي عليّ شيئًا مرحًا، ظريفًا.. وهأنتِ تتحدثين عن قتلهم المحتمل لكِ! على أي حال، سنكون سويًا.. ما يعني أنهم إن أقدموا على ارتكاب جريمتهم ضدك، فسوف يتخلصون منا نحن الاثنتين.

- من يدري؟ "آنيمال" مغرم بكِ، ومع أساليبك وألاعيبكِ وخبرتكِ...

قاطعتُها بانزعاج حقيقي، وطلبت منها ألا تستغل مصارحتي لها بماضيّ، في الاستهزاء بي والسخرية مني. اعتذرت على الفور، وقالت إنها تجد صعوبة بالغة في التزام الجدّية حين تكون قلقة ومضطربة، فتلجأ للمزاح والسخرية. أخبرتني عن إحدى الليالي في المعتقل، حيث ارتفع صراخ إحدى السجينات، التي كانت تتعرض للتعذيب في "غرفة العمليات". ظَلَّ الصُّراخ يعلو أكثر فأكثر، وأوشك أن يصمّ أذنيها هي وزميلتها التي كانت تشاركها الزنزانة في تلك الفترة، وحتى تتشاغل عن الخوف الذي بدأ يتسرب إلى نفسها، راحت تتبادل النكات والمزاح مع الفتاة الأخرى.. سرعان ما تحول ضحكهما إلى قهقهات متواصلة، سمعها أحد الحراس، فاقتحم عليهما الزنزانة وأخذ يسبّهما ويضربهما بعنف..

- طرحنا أرضًا، ثم راح يركل "صوفي" بأقصى قوته. لم يفعل ذلك معي، في الحقيقة، وإنما مع "صوفي" فقط. صرختْ من شدة الألم و..

- "ليليانا"! أتوسل إليكِ! كُفِّي عن هذا الكلام. ألم تمرّ بكِ أيامٌ حلوة في حياتك؟!

- بلى. الكثير. حين كنتُ صغيرة. كنتُ أركبُ دراجتي وأخرجُ بها مع بابا في الصباح الباكر. كان ذلك مسليًا وممتعًا للغاية.

ابتسمتْ بشرود، وأضافت:

- مسكين بابا! لم أقصد أن أجرحه. لم يفهم قط ولعي بالسياسة، وإصراري على الانخراط فيها. لم يستطع قط أن... لقد مات في العام الماضي، بسكتة قلبية، بعد أن غادرتُ البيت وبدأتُ أعيشُ بشكلٍ مُستقلٍ.

- كل ما أردته هو سماع شيء لطيف، على فكرة!

- حسنًا.. حين قابلت "كارلوس" إذًا. آه.. وحين مارسنا الحب للمرة الأولى. كان ذلك رائعًا.

"كارلوس" كان الأول والوحيد في حياتها. وجدتُ صعوبة في تصديق ذلك! أعني أن فتاة بكل ذلك الجمال، لا بد أن حولها العديد من المعجبين..

ﮮ

أمضتا ساعات طويلة وهما تتحدثان معًا. إحدى عشرة ساعة كاملة، كما أكدت "ميريام". لم تقوما فقط بمناقشة خطة الهروب، وإنما بالكلام في شتى الموضوعات المختلفة. أظنُّ أن تلك الساعات، غيّرت حياة "ميريام" للأبد. رغم اختلافاتهما الواضحة، جمعتهما رابطة واحدة هي حُبُّهما العميق والمشترك لـ"ليلي".

ﮮ

قالت وهي تُغالِبُ دموعها:

- ما زلت في الثانية والعشرين. لقد أحببنا بعضنا جدًّا.

كانت متأكدة أنهم قتلوا حبيبها حين ألقوا القبض عليه.

قالت:

- ذلك أفضل، ففي السجن يتفننون في قتلك ببطء.. يهينونك ويحطّون من شأنك، ويتعبونك ويرهقونك ويشعرونك بالقذارة. يغتالونك معنويًّا، مرة تلو أخرى. أما إن كانت السجينة حاملًا.. أقصد أن أقول إنني لو لم أكن حاملًا، لكنتُ ميتة الآن. فهمتُ مؤخرًا فقط سِرَّ المعاملة الحسنة طوال تلك الشهور. لم يعذبوني كالأخريات. اكتفوا بضربي على ساقيّ فقط. أرادوا أن يتيقنوا من سلامة الجنين لأنهم ينوون إعطاءه ابنة "دوفاو". لقد اختارني أنا تحديدًا.. ذلك الكولونيل ابن الحرام! ومَن الذي نفذ خطته؟ "آنيمال" الذي...

قاطعتها:

- كفى يا "ليليانا".

لم أعرف ماذا أقول. ماذا لو عرفت أن طفلتها كانت محجوزة لي وليس للمرأة الأخرى؟

عليّ أن أخرجهما من هنا سالمتين. هذا أقل ما ينبغي عليّ فعله، حتى لو تطلّب ذلك المخاطرة بحياتي.

ما زلنا لا ندري إن كان "دوفاو" سيأتي اليوم أم غدًا. في انتظار مكالمة من "آنيمال" يبلغني فيها ذلك.

عادت لوضع خطة الهروب. أخبرتُها بالمواعيد التي يغير فيها أفراد الأمن مناوبة الحراسة على باب بيتي، كما قصصتُ عليها القليل الذي أعرفه عن كل منهم. إنهم الحرس أنفسهم دائمًا. الشاب الذي يأتي في الفترة الممتدة بين الثانية عشرة ظهرًا والثامنة مساءً، ظريف للغاية، ومعجب بي جدًّا. اسمه "بيلون".. العرِّيف "بيلون". منذ بضعة أيام، كان في المطبخ يصنع لنفسه كوبًا من الشاي. دخلت، وانحنيت أمام الفرن لأخرج قالب الكيك الذي كنتُ أعدّه. حين رفعت رأسي، وجدته يصب الماء الساخن خارج الكوب. كنت ألبس تنورة قصيرة جدًّا.. "ميني جيب".. لا شك أنه رأى كل شيء، لكنني لم أدرك ذلك إلا بعد أن رأيت تعبيرات وجهه.

تناولتُ إبريق الشاي من يده، وقلتُ له:

- ما الأمر يا حضرة العرِّيف؟ سوف تتسبب لنا بفيضان في المطبخ، على ما يبدو!

احمرّ وجهه خجلًا، وقال:

- أنا آسف، سيدتي.

أكرههم جميعًا، لكنني ـ في تلك اللحظة تحديدًا ـ وجدته لطيفًا ومضحكًا. على أي حال، هكذا أنا، وهذا طبعي دائمًا.. أعشق نظرات الإعجاب في أعين الرجال. وجدتُ نفسي منجذبة لفكرة إغوائه. لن يجرؤ على قول شيء لـ"آنيمال"، بسبب خوفه منه. وحتى لو أخبره، ما المشكلة في ذلك؟ فليذهب "آنيمال" للجحيم!

أقتربُ منه جدًّا، فيبدأ في اللهاث كالكلاب. حين لا يفصلني عنه سوى سنتيمترات معدودة، أتعمَّد أن أضيف لصوتي تلك البحة المُحبَّبة، التي علمتني إياها "آنيت"، وأقول له:

- عليك أن تنتبه وأنت تصبُّ الماء الساخن يا حضرة العرِّيف، بدلًا من التركيز على أشياء أخرى.. مهما تكن تلك الأشياء حلوة ومغرية.. أم.. لعلك تريدني أن أخبر زوجي بالمسألة؟

خرجت من المطبخ، تسبقني ضحكتي.

بعد ذلك بساعات قليلة، دَقَّ الباب طالبًا استخدام الحمام، فسمحتُ له بالدخول. كنت قد غيّرت ثيابي. اقتربت منه وأنا أقول:

- ها قد استبدلتُ ملابس تُشبِهُ ثياب الراهبات بملابسي، حتى لا أُشتِّت انتباهك. ما رأيك؟

- لم أقصد مضايقتك. لكِ كل الاحترام، سيدتي. كنتُ أنظر فقط. أرجوكِ.. لا تخبري حضرة الضابط "بيتيوتي" بشيء.

- لا تقلق يا سُكّر..

تعلمت استخدام كلمة "سكّر" من "إينيس". الرجال يعشقون مناداتهم بذلك، لا أدري لماذا!

أضفتُ:

- كنتُ أمزحُ معك فحسب. لن أخبره شيئًا بالطبع.

استندتُ إلى باب الحمام، وهو يوشك على دخوله، وقلتُ له بدلال:

- ولكن إياك أن تنظر إليّ بتلك الطريقة ثانيةً، فذلك يُتعِبُ أعصابي.

نظرتُ إليه بطريقة موحية، وأنا ألعق شفتيّ بطرف لساني. كاد يهجم عليّ، لكنني ابتعدتُ بهدوء، وتوقَّف هو قبل أن يصل إليّ، وكأنه أحس بالذعر فجأة.. عندما أدرك ما كان سيفعله. حين خرج من الحمام، تعمّدت ألا يجدني. منذ ذلك الحين، نتبادل نظرات مليئة بالإيحاءات، وكلامًا ذا معانٍ متعددة؛ لكنه لا يجرؤ على تجاوز تلك الحدود معي.

حين اختليتُ بنفسي بعد ذلك، بدأتُ أتساءل عن السبب الذي جعلني أتصرف بتلك الطريقة.. ربما لأنني صرتُ أكره "آنيمال". أريدُهم جميعًا أن يرددوا - وأن يفكروا أيضًا - بأن له حبيبة رائعة وجذابة ومغرية، لكنه لا يستطيع إرضاءها، ويفشل في إشباعها، وإلا ما كانت ستنظر إلى رجال غيره وتشاغلهم.

هذه الفكرة، في حَدِّ ذاتها، تبهجني.

وبعد كل ما سمعته من "ليليانا" عنهم وعن حقارتهم ووضاعتهم مع السجينات، أُقرِّرُ أنه لا بأس بإزعاج "بيلون" والتسبُّب في إحساسه بالاضطراب على هذا النحو.

لكن الحقيقة، التي أدركها جيدًا، هي أنه بالإضافة لما سبق، فإن السبب الرئيسي هو حبي لإشعال الإثارة في قلوب الرجال، والتلذُّذ بذلك. لم أعد أعمل، ولم أعد أحتكُّ بأحدٍ، أو أُقابِلُ أيًّا مِن المعجبين القدامى. أمكثُ في البيت منذ أشهر، يكاد يقتلني الضجر. لا بأس ببعض التسلية مع "بيلون"، بأن ألبس ثيابًا ضيقة وقصيرة جدًّا. لكنني أقوم بتغييرها بالطبع، قبل عودة "آنيمال".

لو تناهى إلى سمع "آنيمال" شيئًا مما أفعله، فسوف أقسم بأغلظ الأيمان بأنه لم يحدث شيء من ذلك على الإطلاق (هذه هي الطريقة المثلى للتعامل مع الرجال).. بل لقد تخيلت الحوار الذي قد يدور بيننا عقب هذا الموقف:

- وماذا في ذلك أصلًا؟ ألم تشعر أنت، كشابٍ صغير، بالإعجاب نحو امرأة رئيسك في العمل؟ فلماذا إذن تعاقب هذا الفتى المسكين على مشاعر لا يد له فيها؟ على أي حال، لم أنتبه لا لأحاسيسه ولا لوجوده من الأساس.. بل إنني لن أستطيع تمييزه إذا رأيته الآن، لأنني لا أعرف شكله أصلًا!

لكن شيئًا من هذا لم يحدث. أنا أستمتع فقط بالتفكير في "آنيمال" وهو يشعر بالعذاب. صرتُ أتمنى، في بعض الأحيان، لو أتمادى قليلًا فأمارس الجنس مع أيٍ من أولئك الفتية. مدام "بيتيوتي"، كما يحب "آنيمال" أن يناديني، تمارس الجنس مع عرِّيف تافه. لكنني لا أفعل. أكتفي فقط بلعبة النظرات والإيحاءات، إلى جانب عرض مفاتني، بين الحين والآخر.

"بيلون" مولعٌ بي، سوف يقتله الوَلَهُ. لقد أصبح خاتمًا في إصبعي.

واتتني فكرة عظيمة. أراقب "ليليانا" وهي تعتصر مُخَّها بحثًا عن حَلٍ للمسألة، بينما الحل سهل وبسيط وأمام أعيننا. سوف أخبرها به.

- ولكن لِمَ لا؟ لماذا تصرين على الرفض يا "ليليانا"؟ الخطة ممتازة وتنفيذها أسهل بكثير من قصة السكِّين تلك. كما أوضحتُ لكِ.. سوف أصطحب "بيلون" إلى حجرة نومي، وأقرع شيئًا أو أوقعه أرضًا وأنا في طريقي، وليكن

المزهرية مثلًا، وبذلك تعرفين أنني قد دخلت الغرفة بالفعل. لن أقفل بابك بالمفتاح. انتظري نحو عشر دقائق، ثم احملي ابنتك وارحلي. بعد ربع ساعة سأخبره أني ذاهبة للحمام، وأطلب منه أن ينتظرني. سأعمل على ألا ينال مراده خلال تلك الفترة، لأن الرجل إن حصل على مبتغاه فإنه يصبح باردًا وغير مبالٍ. المهم.. سأتركه عاريًا تمامًا في فراشي، وهو ينتظر عودتي على نار.. لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ ما هذه التقطيبة؟ تبدين مثل خالتي في القرية.. الوجه العابس نفسه والاتهام الصامت بأنني منحلة وعديمة الأخلاق. الرجال هكذا يا "ليليانا"، صدقيني. أنا مارستُ تلك المهنة سنواتٍ، وأعلمُ ما أقول. ما داموا يتحرقون لنَيْلِكِ، فإنهم على استعداد لفعل أي شيء، ولكن ما إن يحصلوا عليكِ... المهم، سأتركه بانتظاري، وأدخل الحمام لأرتدي ملابسي، وأتسلل خارجه لملاقاتك عند تقاطع شارعيّ "آياكوتشو" و"بوساداس". وعلى فكرة، سوف أقفل عليه الباب بالمفتاح، حتى ينشغل بمحاولة فتحه. إنه ليس في قوة "آنيمال" ليحطم الباب بسهولة. توقفي عن هَزِّ رأسك بالرفض! إنها خطة ممتازة ولا ثغرة فيها. ما الذي لا يعجبك فيها؟

- لا تُقدِّمي جسدك لذلك القذر الحقير، ولا تسمحي له بأن يلمسكِ أصلًا. كيف تفكرين؟! إنه مجرم.. قاتل.. هل تفهمين؟ أنا أعرفه. رأيته في المستشفى. قابلتُ الكثير من الـ"بيلونات" في الفترة الأخيرة.. منهم مَن تفنن في تعذيبنا، ومنهم مَن ضَرَبَنا ومَن أهاننا.. إنهم وحوش. جميعهم مرضى وساديّون. لا يمكنكِ يا "ميريام" التقليل من شأن نفسك لهذه الدرجة.

- يا إلهي! ماذا بكِ يا "ليليانا"؟ لن أفعل ذلك لأنني أحبه مثلًا، وإنما لنتمكن من الهرب. إنها الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بها الانتصار على العدو. هيا.. لا تكوني حمقاء.

- إذًا يجب أن تعرفي أنني لا أحب وسيلتك هذه. لديّ خطة أخرى، ترفضين الاستماع إليها لاقتناعك التام بفكرتك.

- أنتِ غير معقولة يا "ليليانا"! ما الذي يضايقكِ تحديدًا؟ ذهابي للفراش مع ذلك الفتى؟ الأمر بالنسبة لي لا يعني شيئًا على الإطلاق. لقد فعلتُ ذلك آلاف المرات من أجل المال، لكننا الآن نتكلم عن إنقاذ أرواح يا "ليليانا".. عن حياة

طفلتك "ليلي"، وحياتنا أنا وأنتِ. ما هذه المثاليات التي تتمسكين بها الآن؟! توقَّفي عن النظر إليّ بهذه الطريقة! إنها تُزعِجُني. على أي حال، لقد قلتُ لك إنها لن تكون عملية جنسية كاملة، سأتركه وأذهب إلى الحمام قبل أن يحدث بيننا اتصال جسدي.. هل تفهمين ما أعني؟ سننفذ الخطة كما شرحتُها لك. المهم أن تكون حساباتنا للوقت دقيقة.

- لا أفهم لماذا رفضت "ليليانا" هذه الخطة بإصرار؟ أعني أنه في مثل تلك الظروف فإن..

سكتت "لوث" وقد غلبتها الحيرةُ. أجابها "كارلوس":

- أنا أفهم جيدًا. كنا جميعًا نتعامل مع هذه الأمور بصرامة بالغة. كنا نمقُتُ أخلاقيات الطبقة البرجوازية، ومعاييرها المزدوجة، ونسعى للمثالية.

أجابته "لوث" بحدّة:

- ما دُمْتُم بهذه المثالية والنقاء، والكمال الأخلاقي، فربما كان عليكم أن تدركوا أن ولادة طفل في تلك الظروف لم يكن أمرًا عقلانيًّا قط.

- كنا نحلم بطفل..

- بما أنكم كنتم ثوريين وتتمتعون بالصلابة ورجاحة العقل، فكيف لم تتساءلوا: إن كان لكم الحق في ولادة طفل وتعريضه للمخاطر والاختطاف وطمس الهوية، أم لا؟ خاطرتم بأنفسكم من أجل مبادئكم، فما ذنب أطفالكم؟ لماذا أجبرتموهم على السير في طريق لم يختاروه؟ لماذا فرضتم أفكاركم على أبنائكم؟

امتزج الرفض بشيء من الكراهية والألم في عيني "لوث". أضافت:

- هل أنجبتم أولئك الأطفال من باب الحفاظ على مبادئكم الثورية، أم لمجرد إشباع رغباتكم الأنانية؟

- حين استخدمتُ كلمة "مثالية" يا "لوث"، فإنني كنتُ أقصد...

سكتَ قليلًا.. شاعرًا بالالتباس، ثم قال:

- لم نكن ندري.. كيف كان بمقدورنا أن نتخيل...؟

قاطعته "لوث":

- بوسع أيٍ من أولئك الصغار أن يقول الآن "قام النظام العسكري بإيذائي، لكن أبويّ هما اللذان عرّضاني لتلك المخاطر، وأجبراني على خوض معركة البقاء، وحيدًا".

ꙮ

- بعيدًا عن أن خطتك غير أخلاقية يا "ميريام" فإنها مليئة بالثغرات! فأولًا، ماذا لو رفض الرجل أن يدخل معك إلى حجرة النوم؟ إنه يرتعب من "آنيمال"، ومن ثم سيُصاب بالذعر من فكرة النوم في فراشه ومع امرأته.

- "ليليانا"! بالله عليك! إما إنكِ غبية، أو إنكِ لا تُقدِّرينني حَقَّ قدري. انظري إليّ! هل تعتقدين أن هناك رجلًا يستطيع أن يقاومني؟ لن أكون "ميريام لوبيز"، أو "باتريشيا" كما اعتادوا مناداتي، إن لم أجعله يقفز في فراشي طوعًا. أنا أعرف جيدًا كيف أجعله يستجيب لي. إنه يتحرقُ شوقًا لملامستي. توقفي عن تلك النظرات الكريهة يا "ليليانا". ظننتُ أنكِ ثورية.. لم أعرف أنكِ راهبة!

أضافت "ميريام":

- حسنًا.. تخطينا النقطة الأولى، ما الثغرة الثانية؟

- لو قمتِ بحبسه داخل حجرتك، فسوف يعلم "آنيمال" أنكِ أنتِ التي ساعدتِني على الهروب. بينما لو نفذنا خطتي فإننا..

- إن استطعنا الهروب فعلًا، فلماذا سأهتمُّ بما سوف يفكر به ذلك المتخلف "آنيمال"؟

- لا أريده أن يشكَّ أنكِ قُمتِ بمساعدتي. إن نفذنا فكرة السكين، فلن يملك دليلًا على أن لك دورًا في الموضوع، أما لو وجد الحارس محبوسًا داخل الغرفة، وأنا غير موجودة، وأنتِ وحدكِ التي تملكين مفاتيح الحجرتين، فلن يتردد في قتلك فور العثور عليك. لن أدعك تفعلين ذلك، كما أنني لن أتركك تهينين نفسك بإقامة علاقة مع ذلك المجرم. لا أتحمَّل الفكرة. لا يهمني ما كنتِ عليه في الماضي. يهمني ما أنتِ عليه اليوم، ولا أريدُ سماع كلمة إضافية في هذا الشأن. استمعي إليّ.. كأنك جئتِ إلى غرفتي ومعك السكين، دون أن تدركي عواقب ذلك.

- حسنًا.. لقد فكرتُ في الأمر منذ قليل. حين أردُّ على اتصال "آنيمال" سوف أخبره أنني كنت في المطبخ، أقطّع اللحم. من البديهي أن تكون السكين معي، لتعجلي الرد على التليفون. سأخبره بأن الطفلة تبكي، وأنني ذاهبة لأراها. أرأيتِ؟ أنا أيضًا أجيد التخطيط وأفهمه، رغم أنني لستُ ثورية!

ജ്ഞ

أمضتا ساعات اليوم بأكملها في التفكير بتفاصيل الخطتين. أرادت "ميريام" أن تثبت لـ"ليليانا" أنها تمتلك عقلا ذكيًّا. كانت تسعى لكسب احترامها وثقتها، وحرصت على ألا تعرف الأخيرة أنها كانت تنوي أخذ ابنتها. "ليليانا" من جهتها وضعت ثقتها بـ"ميريام"، ربما لأنها كانت في بيتها ولم يكن لديها خيار آخر. كان الوضع غير منطقي، لكن من الجيد أن علاقة طيبة نشأت بين الاثنتين.

ജ്ഞ

- علينا أولًا أن ننتظر دخول "بيلون" إلى المطبخ أو الحمام. متى يأتي عادة؟ ليت "آنيمال" يتصل خلال وجوده. ذلك صعب التحقيق، أليس كذلك؟

- يمكنني إدخال "بيلون" الشقة، متى ما أردتُ. لا مشكلة. سوف أدعوه للدخول ليشرب فنجانًا من الشاي مثلًا، لكنني لا أجد أهمية لاتصال "آنيمال" في تلك اللحظات..

- حسنًا.. يمكننا الاهتمام بالتفاصيل فيما بعد. ستدخلين غرفتي ومعك السكين، كما اتفقنا. سآخذها منكِ وأضعها على رقبتك. سأجعلك تفتحين باب الشقة، ونخرج إلى الممر الذي يفصل بين شقتكم والشقة الأخرى. أنتِ في المقدمة، وأنا خلفك. نسير ببطء شديد. إذا خرج من المطبخ، أُهدِّدُه بأنني سأنحر رقبتك إذا لم يُلقِ مسدسه. بعدها، سأسحبُ مسدسه تجاهي، باستخدام قدمي، وتقومين أنتِ بالتقاطه.

- ستأخذين مسدسه؟ مستحيل! فكرة سيئة.

- علينا أن نبقيه دون سلاح. نخرج ونقفل باب الشقة من الخارج بالمفتاح. متى تصل مناوبة الحراسة التالية؟

- في الثامنة، أو قبل ذلك بربع ساعة تقريبًا. اسمعي.. أنا لا أحب هذه الخطة. ماذا لو شعرتِ بالتوتر وقمتِ بقطع رقبتي فعلًا؟ وفكرة أخذكِ لمسدسه لا تعجبني

على الإطلاق. ماذا لو قاموا بملاحقتنا؟ هل ستبدئين في تبادل إطلاق النار معهم؟ وفي وجود طفلتك؟! ثم هل تعرفين كيف تستعملين المسدسات أساسًا؟

- نعم، طبعًا.

- حقًّا؟! لم أكن أتخيل ذلك.

سكتت "ميريام" قليلًا، ثم سألت "ليليانا":

- ومَن منا ستحمل "ليلي"؟

- أنتِ. جميعهم يعرفون أنكِ تحبينها جدًا. من المنطقي ألا تتخلَّي عنها.

- فكري بطفلتك الصغيرة، وهي محاطة بكل تلك الأسلحة.. مسدسات وسكاكين!

أردفتْ بانفعالٍ، وعدم تصديق:

- أنا لا أفهمكِ.. تعتقدين أن إغوائي لـ"بيلون" واصطحابه إلى فراشي أمرٌ لا أخلاقي، لكنك في الوقت ذاته لا تجدين في تعريض ابنتك لمعركة بالأسلحة أي عنف أو خطر؟!

أضافتْ برجاء:

- فلننفذ خطتي يا "ليليانا"، حتى لا تتعرض الصغيرة للأذى. هل تعلمين أن هذا الموقف قد يؤثر فيها مُستقبلًا؟ لقد قرأتُ ذلك في أحد الكتب. الأطفال الصغار يفهمون أكثر مما نتصور، حتى في شهورهم الأولى.

يا إلهي! ما هذا الذي قلته للتوّ؟ سوف تتساءل عن سبب قراءتي لكتب عن الأطفال، وستفهم بأنني كنت أنوي أخذ ابنتها. عليّ أن أقول شيئًا..

- آه.. الحقيقة أنني قرأت ذلك في مجلة وليس في كتاب. نعم.. مجلة كانت في عيادة طبيب الأسنان.

لحسن الحظ، لم تكن "ليليانا" تصغي إليّ، بل كانت مستغرقة في التفكير، محاولةً الوصول للخطة الأنسب. أُسارِعُ بالخروج من الغرفة، وأخبرها أن تقرر ما علينا فعله بالضبط، وإنني سأعود إليها بعد قليل. أُنبِّهُها بأن الساعة قد قاربت الثالثة عصرًا، وأن الوقت يمُرُّ بسرعة، وقد يأتي الكولونيل في أي لحظة. لكنني أعود فأفكر بأن الكولونيل لن يأتي اليوم، على الأغلب، وإلا لاتصل بي "آنيمال" ليبلغني.

من الأفضل أن ننفذ خطتنا، أيًّا كانت، غدًا صباحًا أو ظهرًا. سيكون لدينا مزيد من الوقت والمعلومات حتى ذلك الوقت.

عندما أردُّ على اتصال "آنيمال" أحاول أن يبدو صوتي طبيعيًّا، خاليًا من الاضطراب، وأبادره بالسؤال عن موعد قدوم الكولونيل. وقبل أن يسألني عن سر اهتمامي بالأمر، أشرحُ له على الفور أنني أريدُ أن يكون البيت نظيفًا ومرتبًا قبل وصوله، وأن أكون أنا في أتمِّ أناقة وزينة.

- أخبرني قبل قدومه بوقتٍ كافٍ.

- سوف يأتي الليلة، في وقت متأخر على الأرجح، لكنه لم يؤكد ذلك حتى اللحظة.

الليلة؟! لا.. الوقت ضيق حقًّا. أتذكَّر أن عليّ أن أقول شيئًا أذكر فيه السكين..

- لقد اشتريتُ شرائح لحم الستيك مؤخرًا. سوف أقومُ بتقطيعها الآن، وأبدأُ في إعداد العشاء.

تبدو الجملة غريبة، ولا موقع لها، وغير مقنعة. ما كان عليّ أن أقولها الآن، بل قبل دخولي غرفة "ليليانا". أحاولُ شَرْحَ الأمر ليبدو منطقيًّا أكثر:

- ما رأيك في ذلك يا حبيبي؟ أعني أن نطلب من الكولونيل أن يبقى معنا لتناول العشاء..

- سلبي!

اعتاد الأبله، في الجيش، أن يستخدم كلمة "سلبي" بدلًا من "لا"، وفي كل مرة تُثيرُ هذه المفردة حنقي وضيقي.

أجيبه بصبر نافدٍ:

- ما السَّلبي؟

يخبرُني أن الكولونيل لن يبقى إلا دقائق معدودة، يستلم فيها الطفلة، ثم يغادر على الفور. عليّ ألا أُعِدَّ وجبة عشاء لأنه هو أيضًا لن يبقى، فعليه أن يعود إلى عمله مساءً.

أجيبُ بغيظ وتوتر بأنني أريد أن أطبخ لحمًا على العشاء، فمن يكون حتى يمنعني من ذلك؟

أُدركُ أنني سأُفسِدُ الأمـر، وأُثـيرُ دهـشته وشـكوكه بكلامـي وتـصرفاتي، فـأُقرِّر تغيـير دفـة الحديث. أسأله بنعومة متعمدة:

- حسنًا، أخبرني.. ماذا ألبس الليلة؟

يجيب بأنني سأبدو جميلة في أي شيء أرتديه، ولكنه يفضل أن ألبس ثيابًا بسيطة. يخبرني بأنه سيختار لي شيئًا عند عودته للبيت.

أسأله وأنا أرتجف:

- ومتى ذلك؟

أتمنى ألا يأتي مبكرًا.

يبلغني بأنه سيحضر بين الثامنة، والثامنة والنصف.

꧁꧂

يتضاعف إحساس "ميريام" بالقلق. الوقت ضيق جـدًّا. تتوجـه إلى "ليليانـا" لتخبرهـا بأنـه يجب عليهما الإسراع. تقول لها إنه قد فات أوان إبلاغ "آنيمال" بأنها تحمل سـكينًا، مـا يعنـي أنه لم يعد أمامهما إلا استغلال "بيلون" في تنفيذ الخطة الأخرى.

꧁꧂

"ليليانا" تدرس تقسيم الشقة ومداخلها ومخارجهـا، لتحـدد الكيفيـة التـي سـنتحرك بهـا. تمشي في المكان حافية القدمين، حتى لا يسمع الحارس الواقف على الباب صوت خطواتهـا. مـا زالت مُصرَّة على استخدام الـسكين. تفـضّل أن يكـون "بيلـون" داخـل المطـبخ، ولكـن إن أراد استخدام الحمام، فعليّ أن أنتظـره حتـى يخـرج، ثـم أعـرض عليـه أن أعـد لـه بعـض الـشاي، وأُجلِسَه بحيث يكون ظهره لباب الشقة. عليّ أن أفكر في حجـة تـبرر إمـساكي بالـسكين، كـأن أضع قطع اللحم في مكان ظاهر، وكأنني كنت أهمّ بتقطيعهـا قبـل حـضوره. بعـدها سـتعمل "ليليانا" على دفع الطفلة للبكاء.. أو يمكنني أنا أن أعلن بأن الوقت قـد حـان لإعطـاء الطفلـة رضعتها، ثم أسارع بالدخول إلى غرفتها، دون أن أضع السكين من يدي.

أجد الخطة مخيفة ومزعجة. لا أحب فكرة الأسلحة، سواء أكانت سكاكين أم مسدسات.. وماذا لو لم يستسلم "بيلون"؟ ما الذي ستفعله حينها؟ هل ستقطع رقبتي بالسكين؟!

ꕥ

استحال نقاشهما إلى جدال حادّ. أصرّت "ميريام" على موقفها الرافض. لم تكن تريد اتباع خطة "ليليانا". ترعبها فكرة الأسلحة. بدأت "ليليانا" تفقد صبرها.

ꕥ

- تريدين أن يسير كل شيء وفقًا لرغباتك، لكن عليك أن تتذكري أنك لا تستطيعين الهروب دوني، ولذلك يجب عليكِ تنفيذ ما أقوله أنا.

بدأ الوقت يتسرب من بين أيديهما، وتسلل إليهما الشعور بغضب مُتبادَل. حين أعلنت الساعة تمام السابعة، أدركتا ـ أخيرًا ـ أن أهم ما في الأمر هو الهروب نفسه، أما الخطط وتفاصيلها فغير مهمة بتاتًا. سوف تنفذان ما تمليه عليهما الظروف، حسب حدوثها. وافقت كل منهما على تنفيذ خطة الأخرى، إن اضطرتهما الأحداث لذلك.

أرادت "ليليانا" إلقاء نظرة ثانية على الشقة، كي تتأكد من أن الحارس لن يسمع خطوات "ميريام" وهي تخرج من الحمام، عقب تغييرها ملابسها، ولا صوت بكاء "ليلي" ـ إن بكت ـ وهما تسبقان "ميريام" في الخروج من البيت.

- لا يهم يا "ليليانا".. لن يسمع بكاء الصغيرة، سأظلُّ أحادثه وأشاغله، وسأعمل على ألا يفكر في أي شيء خارج حدود الفراش.

لكن "ليليانا" أصرَّت على المرور بجنبات الشقة. في تلك اللحظة، بدأت "ليلي" بالبكاء. أقفلت "ليليانا" باب حجرة نوم "ميريام" على نفسها، وطلبت منها أن تسير بالطفلة قريبًا من باب الشقة لتتأكد بنفسها من قوة الصوت ومدى وضوحه.

ꕥ

فجأةً، دَقَّ جرس الباب. ركضتا باتجاه الصالة بارتباكٍ، وكادتا تصطدمان ببعضهما بعضًا، وتعالى صوت بكاء الطفلة. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بعشر دقائق، ولم تتوصلا بعد إلى الخطة المناسبة، وها هو "بيلون" يقف أمام الباب. همست "ليليانا" مذكّرة:

- لا تنسي السكين!

- ولا تنسي أنتِ أنني إن أوقعت المزهرية على الأرض، فعليكِ المغادرة عقب ذلك بخمس دقائق.

فتحتْ الباب للحارس، بابتسامة ساحرة. استأذن منها في دخول الحمام.

- ألم تكن "ميريام" ستستبدل ثيابها في ذلك الحمام؟

- كلا للشقة حمامان. استخدم القريب من غرفة المعيشة.

٭٭٭

- تستخدم الحمام؟ نعم.. نعم. بالطبع. تفضل.

في غمرة الأحداث والجدل المتواصل، نسيتُ أن أغيّر ملابسي لاستقباله. كنت أنوي ارتداء تنورتي السوداء الـ"ميني جيب"، مع البلوزة الضيقة ذات اللون الوردي الفاقع. الاختيار الصحيح للملابس، يساعد في مثل هذه المواقف. للأسف، لا أملك الوقت الكافي الآن. ليس أمامي سوى فتح الأزرار العلوية لبلوزتي. سأخرج قطع اللحم من الفريزر وأضعها في مكان بارز في المطبخ. السكين! اللعنة! أين وضعتها؟ غير مهم.. سننفذ الخطة الأخرى، على كل حال. سوف تغضب "ليليانا" لعدم عثوري على السكين.. آه.. ها هو.. حسنًا.. ما الذي يبرر حملي لسكينة وأنا أصطحبه إلى فراشي؟! سوف آخذها معي قبل مغادرتي للشقة. سأتركها داخل الحمام الآخر، وسأترك ملابسي هناك أيضًا. نعم.. فحين أترك "بيلون" في الحجرة، سأكون عارية تمامًا، ولن أستطيع حمل الثياب أمامه، وإلا ارتاب فيّ. ليته يطيل البقاء في الحمَّام قليلًا.. عليّ أن أفكر فيما سأرتديه.. ما هذا؟ فيمَ أفكر؟! ما أهمية مظهري؟ بنطلون جينز وبلوزة.. هذا كل ما في الأمر، ونقودًا طبعًا. اللعنة! إنه يفتح باب الحمام. ليس لديَّ وقت للبحث عن شنطة يدي. والمفاتيح! أين هي؟

أُهرع للقائه. إنه في طريقه للخارج. أنظر إلى الساعة. السابعة والثلث.

أبتسمُ له بالطريقة التي تُذيب قلوب الرجال جميعهم:

- هل أعدّ لك بسرعة كأس خمرٍ يا "بيلون"؟

- شكرًا يا سيدتي، ولكنني لا أشرب الخمر خلال ساعات الخدمة.

- بعض الشاي إذًا؟ لتسليني قليلًا. أشعر بالوحدة.

يجلس في المكان الذي حددته "ليليانا". ما فائدة ذلك؟ لا أفهم. عليّ أن أخرجه من هنا، بطريقة ما. يا إلهي! أشعر بقلق هائل. أرجو ألا يلاحظ ارتباكي. لا أتذكر تفاصيل الخطة. يسقط برّاد الشاي من يدي. لا بأس.. سيظن بأني متوترة لأني أرغب في ممارسة الجنس معه. أنحني لألتقطه، فأتعثر وأسقط. يقترب مني لمساعدتي على النهوض. جيد. هذا يُوفِّر علينا بعض الوقت. يمدّ يده ويميل نحوي، واضعًا ذراعه حول خصري. "بيلون" يلهث ويتصبب عرقًا، لشدة ارتباكه. عليّ أن أستغل حالته هذه، ولكنني لم أعد قادرة على التفكير. لا وقت للتفكير أصلًا. أستند بجسدي عليه، بشفتين رطبتين ومفتوحتين قليلًا. لم يعد قادرًا على المقاومة. يدفعني تجاه السطح الرخامي للمطبخ، ويعض شفتيّ بقوة. إنه عنيف. الأمر مؤلم جدًّا. يضغط ظهري على حواف الرخام البارد، بجسده الساخن الصلب. يفتح بنطلوني الجينز، يمد أصابعه الضخمة داخلي. شفتاه على رقبتي. يُقبِّلُني بشغف.. من كان يتخيل أن هذا الفتى بهذه القوة والعنف والشغف؟

الأمر بأكمله مشوّق للغاية.. يتضارب بداخلي خوفي من الهروب الوشيك، واستمتاعي بيديه اللتين تمزقان ثيابي بسرعة، وترقُّبي لعودة "آنيمال" القريبة.. ماذا لو دخل علينا الآن؟ أريده أن يرانا في هذه اللحظة، وأنا شبه عارية بين أحضان هذا الفتى الذي يلثم جسدي بجنون. بدأتُ أشعرُ بالإثارة.. هذا غير ممكن! الوقت غير مناسب على الإطلاق.. "ليليانا" المسكينة تنتظر الخطوة التالية. إنها لا تدرك ما يحدث هنا. أتمنى ألا تغادر غرفتها الآن. لماذا لم أقفل بابها بالمفتاح؟ لا.. اتفقنا على أن تنتظر إشارة مني. هل ستتذكر بأني سألقي بالمزهرية على الأرض؟

يخلع عني ملابسي الداخلية.. أمُدُّ يدي إلى جسده..

لم أتوقع أن أستمتع بالأمر لهذه الدرجة! لديّ قدرة غريبة على إفشال كل شيء! كيف أجد الأمر ممتعًا، بينما يُفترض بي أن أهرب خلال دقائق؟! لعلها أعصابي المشدودة.

أسعد بلمسات أصابعه، وملمس لسانه وهو يطوف على جسدي. أتذكر، فجأة، بأنه واحد منهم.. مجرم مثلهم.. وأستعيدُ كل ما قالته "ليليانا" عنهم وعن أساليبهم الوحشية. أُبعِدُ يـدي عنه، وأنا أشعرُ بتقزُّز بالغ. أحسُّ بالمهانة.

أقبض على خصلات شعره، تملؤني الرغبةُ في أن أبـصق عليـه، لكننـي أتمالـك نفـسي وأقـول بدلال:

- هيا.. لنذهب إلى الفراش.

أُمسكُ بيده.. تلك اليد التي لا تتـوانى عـن ضرب المعتقلـين وتعـذيبهم. أنظـر إلى قدميـه. أتذكر قدميّ زميلة "ليليانا" المتورمتين من شدة الضرب، والمغطاتين بالحروق نتيجـة اسـتخدام العصي الكهربائية عليهما.

الأمر لا يتعلق بـ"آنيمال" وحده. امتدت كراهيتي لتشملهم جميعًا.. الآن فقط أفهم رفض "ليليانا" لإغوائي له. الأمر مهين فعلًا. لم يبـقَ الكثـير. إنهـا الوسـيلة الوحيـدة التـي تمكننـا مـن الهروب. سأهرب مع "ليلي" و"ليليانا".. إلى أين؟ لا أدري، ولكنه مكان أفـضل بالتأكيـد. بعيـدًا عن هنا، وعن "آنيت" والملهى الليلي وتلك الأرض المهجورة التي تعرَّضتُ فيها للاغتصاب.

"بيلون" يوقفني في الصالة، ويدفعني إلى الجدار ليكمل ما بدأه معي. يا إلهي! كلا.. يجب أن يتم ذلك داخل حجرة النوم. عليّ أن أجرّه ورائي إلى هناك. كيف سـتعرف "ليليانـا" الوقـت المناسب لمغادرتها الشقة، إن لم أوقع المزهرية؟ متى ينبغي عليها الخروج؟ بعـد عـشر دقـائق أم بعد خمس؟ لقد نسيتُ!

يخلع "بيلون" ما تبقَّى من ملابسي وملابسه. أُدخِلُه الفراش. ينتفض فجأة ويسألني:

- ماذا عن زوجك؟ متى سيعود؟

إن توقَّف الآن، فلن أتمكَّن من تنفيذ بقية الخطة.

- ليس الآن. ليس قبل ساعة كاملة على الأقل. انتظرني هنا. سأذهبُ لإقفـال بـاب الـشقة بالمفتاح، وسوف أتركُه في ثقب الباب حتى يضطر إلى رَنِّ الجـرس إن أتى فجـأةً. سـنتمكَّن مـن ارتداء ثيابنا قبل دخوله. لا تقلق.

ينظر إليّ بطريقة لا أحبُّها. لقد بـدأ يـشعر بـالفتور. أسـتطيع ملاحظـة ذلـك. لكنني لن أدعه يستسلم لذلك الشعور. أبدأُ بمداعبـة جـسده. أوصـله إلى مرحلـة

الإثارة ثانية. عليّ أن أبقيه على هذا الوضع. أتناول المفاتيح، التي لمحتها على الـ"كومودينو" المجاور للسرير، وأخرجُ على عجالة:

- سأقفل الباب وأعودُ إليك بسرعة.. ثانية واحدة فقط. انتظرني هنا.

أنظر إليه بإغراء، قبل خروجي.

يا له من كائن قذر! يملؤني الاشمئزاز والغثيان. أذهبُ إلى الممر الذي تقع فيه غرفة "ليليانا"، وأوقع المزهرية. أضع المفتاح في الباب، ليكون بمتناول يدي عند خروجي.

أعودُ إلى حجرة النوم، وأُغلِقُ الباب ورائي. إنه عارٍ تمامًا. يستقبلني بابتسامة عريضة تُنير وجهه الأسمر. إنه يتحرَّق شوقًا إليّ، لدرجة تكاد تجعلني أشفق عليه! لا.. عليّ أن أتذكر أنه وغدٌ مُجرم. إنه واحد منهم. لا بد أن "ليليانا" تخرج من غرفتها الآن. أرتمي إلى جواره وأنا أقول:

- كم أريدك!.. شوقي إليك غير مُحتمَل..

وأقول كلامًا لا معنى له، لمجرد أن أغطي على صوت خطوات "ليليانا" المُتسلِّلة إلى الخارج. تبدأ لمساته في التحول إلى حركات عنيفة، موجعة. يتملكني الخوف. ماذا لو بدأ في تعذيبي؟

أصيحُ فجأةً:

- أوه! نسيت وضع جهاز الـ"دايافرام" لمنع الحمل داخل جسدي. يجب أن أفعل ذلك حالًا. كم أنا غبية!

ينظر إليّ بحنق، وقد تجهَّم وجهه. لن يتردد في قتلي من شدة غيظه. أقول معتذرة:

- أنا آسفة، ولكنني لو حملت... أقصد أن أقول.. يعني.. ذلك مستحيل.. لأن "آنيمال"...

أُرخي إصبعي، وأُشيرُ به نحو الأرض، ليفهم أن "آنيمال" مصاب بالعجز.

يا لها من فكرة رائعة! سوف ينشر "بيلون" بين زملائه وأصدقائه أن "آنيمال" عنين.

أعاود ملامسته ثانية، حتى أضمن بقاءه في انتظاري.

أُهرولُ إلى الحمام. لا بد أن "ليليانا" قد غادرت حاملة ابنتها. أرتدي ثيابي على عجلٍ. ليتني وجدتُ شنطة يدي. مضطرة للمغادرة دونها.

اعتمادي الوحيد في نجاح الخطة هو أن تجلب لنا "ليلي" الحظ السعيد.

أين أضعُ السكين وأنا لا أحمل حقيبة يدي؟ أخبّئها داخل بنطلوني، وأُغطيها ببلوزتي الطويلة. لا أدري لماذا تُصمِّم "ليليانا" على وجود السكين معنا، لكنها ألحَّت عليّ بخصوصها عدة مرات، ثم نبّهتني كيلا أنساها.

المفتاح في الباب. أتسحَّب بخطوات حذرة، وأخرجُ بهدوء. أُغلقُ الباب ورائي بخفةٍ، وأقفلُه بالمفتاح.

لقد نجحتُ. أنزلُ طابقين على السُّلم، ثم أركبُ المصعد من الدور الخامس. "ليليانا" تملك خططًا معقدة، غير مفهومة!

ألمح جارتي، التي تقطن الشقة المجاورة، في طريقي. لم نفكر كيف سأتصرف إن حدث ذلك.. كلا.. لقد ناقشنا الأمر في الحقيقة، لكنني لا أتذكر بتاتًا ما اتفقنا عليه! أتمنى أن تنسى المرأة لاحقًا أنها التقتني. هل سيسأل "آنيمال" جميع الجيران عني عقب اختفائي؟ لا أظنُّ. لن يظهرني أمامهم كإنسانة غبية.

ما أهمية الأمر أساسًا؟ لن أرى أيًّا منهم مرة ثانية.

طلبت مني "ليليانا" أن أسير بشكل طبيعي وخطوات مُتمهِّلة. سأفعل ذلك.

ماذا عن "بيلون"؟ هل سيخبره بأنه كان معي في الفراش؟ لا أظنُّ. أتمنى أن يجده "آنيمال" في السرير، حين يدخل البيت، حتى يُجرِّبَ طعم الذُّل والمهانة.

أقتربُ من تقاطع الشارعين، حيث اتفقنا على اللقاء. معدتي تؤلمني من شدة التوتر. أرتجفُ من الخوف. ماذا لو حضر "آنيمال" في هذه اللحظة؟ ماذا لو لم تكن "ليليانا" في المكان الذي اتفقنا عليه؟ لعلها لم تسمع صوت ارتطام المزهرية بالأرض، ومن ثم لم تغادر البيت أصلًا. تتسارع نبضات قلبي.. هل تركتُ الفتاة المسكينة محبوسة داخل الشقة مع ذلك الشاب العاري؟

ها قد وصلتُ. لا أثر لها.

آه.. إنها هناك، في الجهة المقابلة. حمدًا لله. أناديها وألوّح لها بيدي. تنظر إليّ بغضب، وتومئُ برأسها. ماذا تقصد؟ ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

توليني ظهرها، وتُواجِهُ الحائط الذي تقف بمحاذاته. لماذا تتجاهلني؟ أتوجَّهُ إليها.

- السكين.

تعطيني طفلتها، وتنظر إليّ مطوّلًا.

ماذا تريد الآن؟ آه.. فهمت! سأحمل عنها طفلتها وأناولها السكين في اللحظة نفسها، حتى لا نثير انتباه أيٍ من المارة.

تأخذها مني وتدسها داخل كُمِّها بسرعة. تسير خلفي. تفصل بيننا مسافة ضئيلة للغاية.

- ماذا تفعلين يا "ليليانا"؟ هل جننتِ؟!

- لا تلتفتي وراءك.

ﻜﻚ

لم تفهم "ميريام"، على الإطلاق، ما تفعله "ليليانا".

ﻜﻚ

- ولكن لا أحد هنا. ما هذا الجنون؟ توقفي عن هذه التصرفات البلهاء يا "ليليانا"! هل تنوين تهديدي بالسكين هنا؟ تذكري أنني أحمل طفلتك.. ثم إن منظرنا سيكون لافتًا للغاية.

نمشي لبعض الوقت في شارع "بوساداس". للمرة الأولى أشعر بأنه بهذا الطول. أقول لـ"ليليانا" إننا لن نستطيع ركوب تاكسي، لأنني لا أحمل معي أي نقود. لا تجيبني. نواصل السير. تقول فجأة:

- لنعبُر الطريق.

لا أدري لماذا تريدنا أن نتجه إلى الميدان.. لعلها ترغب في الابتعاد عن هذا الشارع، حتى لا يعثر علينا أحد فيه. لا بد أن "بيلون" قد أدرك بحلول هذا الوقت أننا قد هربنا. أسألها:

- أين سنذهب الآن؟

لكنها لا تجيب. ربما كان من الأفضل أن أسكت. يبدو أنها تعرف وجهتنا، ويمكنها أن تأخذنا إلى هناك دون أن نضطر لركوب تاكسي، أو دفع أي نقود.

ربما سيعيرها الشخص الذي سنذهب إليه مبلغًا من المال. نـصل إلى وسـط الميـدان. نعـبره إلى الجهة الأخرى.. "آنيمال"! يا إلهي! قلبي سيتوقَّف..

ﮓﮔ

حين رأته "ميريام" وهو يصوّب مسدسه تجاههما، كان كل ما أمكنها فعله هو أن تصرخ:

- لا تطلق النار!

في تلك اللحظة نفسها، أحسّت ببرودة نصل السكين على رقبتها.

ﮓﮔ

ما الذي جـاء بـه إلى هنـا؟ الآن فقـط أفهـمُ سِرَّ تمـسكها بإحـضارنا الـسكين.. حتـى أبـدو كضحية، لا كشريكة لها؛ لكن احتكاك النصل برقبتي يُخيفني. أرجو ألا تتوتر، فتجرحني بها.

- ارمي السكين وإلا أطلقتُ النار عليكِ.

كان هذا صوت حارس الساعة الثامنة. كانا يقفان معًا أمامنا، هو و"آنيمال".

أصيحُ بهلع:

- لا تفعل.. سوف تصيبني أنا..

ألصق ظهري في جسد "ليليانا"، ليدركا أنهما إن أطلقا الرصـاص عليهـا، فـإنهما سـيقتلانني أنا، لا هي.

أتوسَّل إلى "آنيمال":

- فلتأمُرْه بألا يطلق الرصاص.. أرجوك..

ينظر إليّ بعينين تمتلئان بالجنون والغضب، وشيء لم أره من قبل.. كراهية خالصة. لم يكـن ينظر إلى "ليليانا".. بل إليّ.

ﮓﮔ

- أخبرتني بأنها ما زالت تجهـلُ مَـن مـنهما فَعَـلَ ذلـك. الـصورة غائمـة في ذهنهـا، والأحداث متداخلة. كل ما تتذكره هو أن أحدهما دفعها، فتعثرت وسقطت. في لحظة

سقوطها نفسها، انطلقت رصاصة، ووقعت بعدها "ليليانا" على الأرض. دون تفكير، ألقت "ميريام" نفسها فوق الفتاة، ظنًّا منها أن ذلك سيجعلهم يتوقفون عن ضرب النار عليها وطفلتها. قامت بحمايتهما بجسدها.

استطردت "لوث" بصوت مرتعش، وقد استبد بها الاضطراب:

- منحتني "ليليانا" قبلة، وقالت لـ"ميريام": "أنقذيها، وأخبريها عني وعن.." وذكرت لها اسمك. لا بد أنها كانت تعرف...

جاهدت "لوث"، لبعض الوقت، حتى لا تتساقط دموعها أمام روّاد مقهى "كوميرشال"، وقالت:

- ثم أمسك "آنيمال" ذراع "ميريام"، وجرّها بجواره.

꧁꧂

أحاول المقاومة، لكن "آنيمال" يستمرُّ في جذبي من ذراعي بقوة. "ليلي" تبكي فوق كتفي. لا شكَّ أنها تفهم ما حدث.

꧁꧂

ثم سمعت "ميريام" صوت طلقات متوالية، و"آنيمال" يصيح بها:

- لا تنظري.

لكنها نظرتْ، ورأت "ليليانا" جثة هامدة.

على الطاولة المجاورة في المقهى، اختلس الزوجان الجالسان إليها نظرات متلصصة إلى الفتاة الشابة التي تبكي بدموع غزيرة. أحسَّا بحزن صادق، وغمرتهما الشفقة تجاهها. الرجل الذي يجلس في مواجهتها، لعله والدها أو صديقها أو ربما كان حبيبها السابق، يضع يده على يدها مواسيًا، وينظر إليها بحنان وأسى. هو أيضًا يبدو موشكًا على البكاء.

جلسا صامتين وقتًا طويلًا، وقد أحنت "لوث" رأسها. حين رفعته أخيرًا، وجدت "كارلوس" ينظر إليها بعينين دامعتين. أدركت أنه فهم أنها الطفلة الرضيعة في الحكاية، وأنها ابنته.

꧁꧂

- لقد قتلوها. قتلها أولاد الحرام.. لم تكن سوى طفلة!

يجذبني نحوه:

- "ميريام".. عزيزتي.. ما كل هذا النُبل والطيبة؟ كانت تهددكِ بالسكين منذ قليل، وهأنتِ تتعاطفين معها بكل هذه المحبة! غير معقول! لا تقلقي يا حبيبتي، لقد انتهى الأمر.

هل حقًّا يصدقني؟ لا أظن. إنه يكذب، وأنا أعلمُ ذلك جيدًا. عباراته مُغلَّفة بالسخرية، ذلك أمر واضح. لكني لا أستطيعُ الرَّدَّ عليه، لأنني أبكي بحرارة. لقد طلبتْ مني إنقاذ ابنتها. لن أدعهم يأخذونها. كيف أتصرَّفُ؟ لا أستطيعُ الهروب. إنه ينوي عمل شيء، وإلا لظَلَّ معهم، ولما توجَّه معي إلى البيت.

- ماذا سيفعلون بـ"ليليانا" الآن؟

- سيهتمون بالأمر. لا عليكِ. لقد انتهى كل شيء.

تبكي "ليلي" بصوت حادٍ، ومرتفع جدًّا..

يقول بغضب:

- أخرسيها!

- لا بد أنها جائعة. علينا أن نشتري علبة حليب للأطفال الرضع.. لقد ماتت أمها..

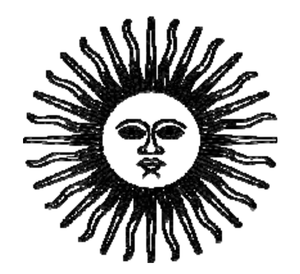
أعاودُ البكاء ثانيةً. أشعرُ أنني سأموتُ من فرط الحزن الذي يعتصر قلبي. أقول له:

- اذهب واشترِ لها شيئًا مناسبًا..

- أحضرتُ لها النوع الذي أوصى به الطبيب في زيارته الأخيرة. إنه في البيت. والآن.. كُفِّي عن البكاء. انتهى الأمر كما قلتُ لكِ يا "ميريام".

"ليلي".. حبيبتي "ليلي".. الوحش لا يزال موجودًا بيننا، لكننا سنحاول التخلُّص منه. أعِدُكِ بذلك. لن أدعهم يأخذونك. سأُنقذكِ منهم، كما أوصتني أمُّك.

5



راقب "إدواردو" الدكتور "هاوريهي" وهو يتحدث إلى "ماريانا"، في غرفتها بالمستشفى.

- لا داعي للقلق. صحتك جيدة، ويمكنكِ الخروج والذهاب إلى البيت غدًا. نامي جيدًا واحرصي على أن تنالي أكبر قسطٍ ممكن من الراحة الليلة، لأنكِ ستلازمين السهر رُبع قرنٍ على الأقل!

انطلقت ضحكاته مُدوِّية في المكان، ثم أضاف:

- نظلُّ في حالة قلق دائمة على أولادنا، مهما يكبروا.

الدكتور "هاوريهي" يعرف قصة مولود "ماريانا" المُتوفَّى. يتابعه "إدواردو" وهو يمزح ويضحك، ويحسده على قدرته الفذة على التمثيل والادّعاء بأن كل شيء طبيعي.. إنه يفتقر لهذه الموهبة، ويخشى أن يزل لسانه بكلمة تكشف كذبه.

إنه لا يطيق هذا الطبيب، لكنه لم يجرؤ على الاعتراض حين تمسّك "آلفونسو" به، مقتنعًا أنه هو الذي سيشفي ابنته. يُدرِكُ "إدواردو" أن "موراي" ارتكب خطأ جسيمًا حين لم يتدخل جراحيًّا في الوقت المناسب، لكنه متأكد أيضًا بأنه ليس له أدنى ذنبٍ في العدوى التي أُصيبتْ بها "ماريانا" داخل غرفة العمليات.

أعلن حموه وحماته، بشكل صارم لا يقبل الجدال، أنه بعد خطئه في اختيار الدكتور "موراي"، فإنه لم يعد له الحق في اتخاذ أيّ قرار يخصّ ابنتهما،

وأنهما سيتوليان هذه المسؤولية من الآن فصاعدًا؛ وكان أول قراراتهما المشتركة هو استبدال الطبيب بآخر يثقان به، وجلب طفلة ثانية مكان مولودهما.

إذا مات طفلك، استبدله بآخر على الفور. الأمر بهذه البساطة!

يحمرّ وجه "إدواردو" من شدّة الغيظ، وهو ينصت إلى حوار الطبيب مع "ماريانا"، ويطمئنها على الطفلة، ويتحدّث بشكل طبيعي دون ارتباك أو اضطراب:

- نعم، بالطبع.. لقد رأيتُها بنفسي، وتحدثت إلى طبيب الأطفال الخاص بها، وطمأنني عليها. كل شيء على ما يُرام، إنها جميلة جدًّا.. ولكن هذا طبيعي مع أبوين مثلكما.

ما شكل الطفلة؟ ماذا لو كانت ملامحها مختلفة عنهما تمامًا؟ ألن ترتاب "ماريانا" في الأمر؟ ألن تشكَّ أنه خدعها؟ لن تسامحه أبدًا بطبيعة الحال. هل كان هو سيسامحها لو أنها غشته بنسب طفل رجل آخر إليه؟ كلا.. ما كان سيقدر على ذلك. ربما عليه أن يصارحها بحقيقة الأمر خلال الأيام القادمة.

يقترب منه الطبيب، يمُدُّ يدَه مُصافحًا ومهنئًا بسلامة الأم والمولودة.

كيف يمتلك القُدرة على التصرُّف بكل هذا المرح؟

***

يُناولني "آنيمال" علب الحليب المجفف، وزجاجتيّ رضاعة، ويُخبرُني كيفية إعداد الرضعة للصغيرة.

حين جاء طبيب الأطفال للكشف على "ليلي"، لم يُزوِّدني بالإرشادات اللازمة لتحضير الحليب، بل أعطاها لـ"آنيمال". لا بدّ أنه لم يملك الشجاعة الكافية ليقول لي: "هذا ما سوف تفعلينه لإطعام الطفلة، خلال الأيام القادمة، بعد أن يقتلوا أمها".

كان كل شيء قد خُطِّط له مسبقًا.

حين واجهت "آنيمال" بهذه الحقيقة، أجابني ببرود:

- لكن هروبكِ معها لم يكن في الحسبان.

يحدّق إليَّ في غضبٍ. إنه يعرف جيدًا أنني شاركتُ "ليليانا" وضع خطة الهروب. لن يسامحني أبدًا على ذلك. يستطرد قائلًا:

- لم يكن في الحسبان أيضًا أن تهددك بالذبح بالسكين، في وسط الميدان. لم يكن أمامنا سوى قتلها.

أضاف:

- الخطة الرئيسية، على كل حال، هي تسليم الطفلة للكولونيل "دوفاو" اليوم، وهذا ما سنفعله.

مِن نظراته، ومِن عصبيته الزائدة، والطريقة التي يضرب بها الترابيزة بقبضته كل قليل، أُدْرِكُ أن "آنيمال" لا يُصدِّقُني، وأنه يجد أن كل ما حدث هو نتيجة تدخلاتي وأخطائي. يستمرُّ في توجيه النظرات الغاضبة إليّ وأشعر بأنها تهديد لي بألا أحاول فِعْلَ شيء آخر، وإلا فإنه لن يتردد في القضاء عليّ.

يهزّ زجاجة الرضاعة أمام وجهي:

- هل فهمتِ يا "ميريام"؟

أُجيبُه بإيماءةٍ سريعة من رأسي.

أستشعرُ كراهيته لي، رغم محاولته السيطرة على انفعالاته حتى لا يصرخ بوجهي وينهال ضربًا عليّ. يتصبَّبُ عرقًا غزيرًا، فيصيح متأففًا:

- ما هذا الحرّ؟!

يتركني، ويدخل غرفة النوم.

لماذا يكتم مشاعره الغاضبة، يا ترى؟ كي يتجنَّب حدوث مشكلات قبيل وصول ذلك الكولونيل المعتوه، ولا شك. لا يريده أن يعرف أن لخطيبته يدًا في إفساد الأمر، فذلك كفيل بإفشال مستقبله الوظيفي.

حين كُنَّا نسير عائدين إلى البيت، حاول أن يُخادِعَني وأن يُخفي عني مشاعره الحقيقية ونياته، فظَلَّ يُردِّدُ أنني أنا الضحية الفعلية، وأنه أحسَّ بخوفٍ ووجلٍ حين أبلغه "بيلون" بأن السجينة قد فرّت وأخذتني معها رهينةً. قال إنه وجدني بتلك السرعة لحرصه على ألا أُصابَ بمكروهٍ.

رغم كل هذا الكلام، أدركتُ فورًا أنه يعلم جيدًا أنني أنا التي هربتُ بإرادتي مع "ليليانا". هل يعرف موضوع "بيلون"؟ لا أدري، وإن كنتُ لا أستبعدُ ذلك.

ربما عثر عليه عاريًا في الفراش. إن كـان ينـوي عقـابي وتعـذيبي، فـسوف يفعـل ذلـك بتمهُّـلٍ شديد.. وبمنتهى الساديّة؛ وسيختار توقيتًا لا أتوقعه، بعد أن يشعرني بالأمان التام.

يستمرُّ بكاء "ليلي" وأنا أحاول إرضاعها بزجاجة الحليب. ترفضها عدّة مرات، وتدير رأسـها بحثًا عن صدر أمها.

ஐ

لقد بدأت رحلة بحثي الحقيقية، حين لامس فمي الحلمة البلاستيكية لزجاجـة الرضـاعة التي استخدمتها "ماريانا" لإطعامي، عقب ولادة "خوان". غريب، ألـيس كـذلك؟ لكـن ذلـك اليوم ترك بصمته عليّ وعلى ذاكرتي، وعلى جسدي أيضًا.

ஐ

أضمُّها إليَّ بقوة أكبر، حتى تستشعر دفء جسدي، كما كان يحدث حين ترضعها "ليليانـا". تستسلم في نهاية الأمر، وتتناول الحليب. يبدو أنها كانت جائعة جدًّا.

- لا بأس يا صغيرتي.. هذا ليس في لذة لبن أمك، لكنها لم تعد بيننا يا نور عيني.. هـذا هـو المتاح منذ اليوم يا حبيبتي.

يرتجف جسدي من شدة الانفعال. تترك "ليلي" زجاجتها، وتبدأ في البكاء. أضـعها في فمهـا مرة أخرى، فتُواصِلُ الرضاعة. أحملُها وأسيرُ بها في المطبخ وأنا أترنَّم بالأغاني التي كانـت تحـبُّ "ليليانا" سماعها مني، حين أُغنِّيها لابنتها. لو لم أصرّ عـلى الهـروب معهـا، لكانـت المـسكينة لا تزال على قيد الحيـاة.. ولكـن إلى متـى كـانوا سـيتركونها تعـيش؟ كـانوا ينـوون قتلهـا، في كـل الأحوال. كانوا سيفعلون ذلك ببطء، بإهاناتهم وتعذيبهم لها داخل السجن، كـما يفعلـون مـع زملائها. من الأفضل أنها ماتت دون تعذيب.

"آنيمال" هو الذي قتلها، حتى لو لم تنطلق الرصاصة من سلاحه. أوامره هي التـي قـضت عليها. بعد أن يرحل الكولونيل حاملًا الصغيرة معه، لن يتردد "آنيمال" في قـتلي أنـا أيـضًا، وإن كان سيفعل ذلك بأسلوب مختلف لا أعرفه.

أطلُّ برأسي من باب المطبخ. "آنيمال" في غرفة النوم وبابها مقفل. ربما عليّ أن أتسلل إلى الخارج الآن. الطفلة ترضع بهدوء، دون بكاء. إمَّا أن أهرب بها الآن، وإمَّا أن أظلَّ حبيسة هذه الجدران للأبد.

ألتصقُ بالجدار، وأتسحَّب بهدوء بالغ. أشعر بتوتُّر فظيع..

- لا تتوقفي عن الرضاعة الآن يا حبيبتي.. هيا.. استمري.. لا تصدري صوتًا.

تفصلني بضع خطوات عن الباب. يأتيني صوتُ المصعد. لا أريدُ أن تراني الجارة. أنتظرُ إلى أن أسمعها تدخل شقتها. هذه هي اللحظة المناسبة. كلا! رنَّ جرس الباب. أذهبُ لأفتحه بسرعة وأنا أحاول أن أبدو متماسكة وطبيعية. إنه "بيلون" لا غير!

يبدو خائفًا. يسألني:

- هل زوجكِ هنا؟

ينظر إليّ ويهزُّ رأسه عدّة مرّات. إنه يحاول أن يُخبرني شيئًا، لكنني أعجزُ عن فهمه. هل يُحذِّرُني من الاعتراف لـ"آنيمال" بما حدث بيننا؟

خطوات "آنيمال" تقترب. يقف بجواري:

- اذهبي يا "ميريام".

أدخلُ غرفة "ليليانا". أحاولُ أن أُخمِّنُ ما يقولانه. أحملُ "ليلي" على كتفي، وأحتضِنهُا وأنا أبكي. تُبلِّلُ دموعي رأسها، فتحركه بقوة لم ألحظها فيها قبلًا.

من الجيد أن بداخلكِ هذه القوة لتعينكِ على تحمّل هؤلاء الوحوش.. يبدو أنني سأفشل في إنقاذكِ منهم.

ᘓᘐ

- ما الأمر؟ تبدو منزعجًا.

- لا شيء. أنا بخير.

هل لديه الحق ليغضب من الآخرين، وينزعج منهم ومِن تصرفاتهم، عقب كل ما قام به؟

- أنت لا تحب هذا الطبيب، أليس كذلك؟ أراكَ تتعامل معه بنوع من الجفاء.

- على العكس تمامًا.

ها هو يُضيفُ كذبةً جديدةً إلى قائمة الأكاذيب المُتواليـة. لم يعـد بإمكانـه التوقُّـف. ليتـه يستطيع مصارحة "ماريانا" بكل شيء، وأن يطلب منها أن تسامحه! هل تريـد "ماريانـا" هـذه المولودة التي أحضرها والدُها؟ هل توافـق عـلى تربيـة طفلـة أشـخاص آخـرين، كأنهـا ابنتهـا بالضبط؟ ولكن حتى لو لم ترغب في ذلك، فقد فات أوان الـرفض. لقـد بـدأ في الـتحكم بمـصير تلك الطفلة، منذ أن ذهب وسـجّلها باسـم "لـوث إيتـورب"، ابنـة "ماريانـا دوفـاو" و"إدواردو إيتورب". لقد سافر "آلفونسو" إلى "بوينس أيرس" ليحضرها. كلهم يرددون أنهم يفعلون ذلـك من أجل "ماريانا" وسعادتها. لا يدري ماذا يفعل..

يدنو منها ويضمّها إلى صدره، يقول لها إنه يحبها جدًّا، وأن مرضها أخافه جدًّا.

- لقد انتهى الأمر بسلام يا "إدواردو". ابتهج. سوف نعود إلى بيتنا غدًا ومعنا ابنتنـا. لا بـد أنها جميلة ولطيفة. هل تُشبِهُك؟

تضيف ممازحة:

- هل فرشتَ السجادة الحمراء في استقبالها، قبل وصولها البيت؟

في إحدى الأمسيات التي أمضياها معًـا، طلبـت منـه "ماريانـا" أن يفـرش سـجادة حمـراء لاستقبالها حين تعود إلى المنزل بصحبة مولودها الأول. "ماريانا" ما زالت تحب أجواء القـصص الخيالية. قرَّر حينها أنه سيفاجئها بتنفيذ أمنيتها حين يأتي ذلك اليوم.

قال لنفسه إنها ستنـسى الأمـر حـتمًا، ولهـذا سـيكون إحـساسها بالـسعادة مـضاعفًا حـين تكتشف أنه اشترى بالفعل بضعة أمتار من السجاد بذلك اللـون، وطلـب مـن "ويـلي"، الـذي يُدير محلًّا لأسطوانات الموسيقية، أن يساعده في اختيار موسيقى تُناسِبُ الموقف. قال لـه إنـه يريد مقطوعة تقترب من تلك التي يعزفونها في أفلام "رومي شنايدر"، بطلة زوجتـه المفـضلة. اختار له "ويلي" معزوفة بآلة الـ"ترومبيت".

سوف يستقبل زوجته وطفله بطريقةٍ رسمية.. سجادة طويلة، وموسيقى ملكية.

كم مرّ على ذلك النهار الذي اشترى فيه هـذه الأشـياء؟ يبـدو بعيـدًا جـدًّا، لكنـه بحـسبة سريعة يكتشف أنه لم يمر سوى ثلاثة أسابيع فقط.

كم تغيَّرت حياتُه خلال تلك الأسابيع الثلاثة! بـين الثرثـرة والـضحك المُتبـادَل مـع "ويـلي"، وإخفائه للسجادة الحمراء في الجراج بعيدًا عن عيني "ماريانا"، شاعرًا بالخفة والحماسة.. ومـا يعانيه الآن مِن ضمير مُعذَّب ونفسٍ مُثقلة بالهموم.

يدسّ رأسه في المسافة الفاصلة بين كتفها ورقبتها.. يريـد أن يـشمّ رائحتهـا المألوفـة، علَّهـا تجلب له نوعًا من الراحة، وتذكّره ببراءة حبهما.

لن يكون هناك استقبال ملكي، كما خَطَّـط سـابقًا. "آلفونـسو" سيتـسلل إلى البيـت حـاملًا الطفلة، في منتصف الليل، حيث تنتظره زوجته لتستلمها منه.

كيف يقدر على احتضان زوجته وترديد كلمات الحب لهـا، بيـنما يُخبـئ عنهـا أمـرًا بهـذه الأهمية؟

- ماما تقول إن عينـا "لـوث" يميـل لـونهما إلى الأزرق أو الأخـضر. مـا لـونهما تحديـدًا يـا "إدواردو"؟

- لستُ متأكدًا..

كيف يخبرها بأنه لم يرَ الصغيرة حتى الآن؟ وأن "آميليا" أيضًا لا تعرف، لأنها هي نفسها لم تشاهدها حتى هذه اللحظة؟ كيف تستطيع حماته أن تكذب بهـذه الـسهولة؟ وكيـف يقـدر على مواصلة الكذب واختلاق الأعذار؟

أضاف بعد قليل:

- عيون الأطفال تحتاج لبعض الوقت إلى أن تثبت على لونٍ معين كما تعرفين..

إنه يتصرف كخارج على القانون يحاول تغطية جريمته.. هل سيستمرُّ في العيش على هـذا النحو؟ كذبة وراء أخرى، وسلسلة لا تنتهي من الحجج والمبررات؟

ℵ

لازمتْ "إدواردو" رغبةٌ دائمةٌ في مصارحة "ماريانا" بالحقيقة، لكنه ظَلَّ يخـشى ردّ فعلها. المشكلة مع الكذب أنك لا تستطيع أن تتوقف متى مـا بـدأتَ. تُعـالِجُ الكذبـة

بأخرى جديدة، لتجعلها مُقنعةً.. تُتبِعُها أخرى.. وغيرها.. وغيرها، وينتهي بك الأمر أسير شبكة معقدة من الأكاذيب المتداخلة التي لا تستطيع الفكاك منها.

بعض الناس يكذبون طوال حياتهم، بشكل طبيعي وتلقائي؛ "إدواردو" لم يكن منهم.

ﮫﮪ

لا تستطيع الكلام كثيرًا. إنها بحاجة للراحة، وأمامها يوم طويل في الغد، وتريد أن تكون بكامل لياقتها حين تقابل طفلتها للمرة الأولى.

- أنت حبيبي، وأنا أعرف أنك تحبني. أريدُك أن تحتضنني وتربّت عليّ إلى أن أنام بعمق..

تقبّل "ماريانا" شَفَتَي زوجها وتغمض عينيها.

ﮫﮪ

يبّلغه العرِّيف "بيلون" بأن أوامره قد تمّ تنفيذها بالحرف، وأن كل شيء قد سار بسلاسةٍ. أوقفوا السيارة في المكان الذي حدّده لهم. أبعدوا المارة الفضوليين من الميدان، بأن صوّبوا نحوهم الأسلحة. وضعوا الجثة في مؤخرة السيارة الـ"فورد فالكون".

في البداية، فكّر الضابط "بيتيوتي" في إصدار بيان صحفي حول الحادث، يوضح فيه أنه تم إطلاق النار، في قلب الميدان، على سجينة هاربة، حتى لا يُثير ريبة الناس الذين شهدوا الواقعة؛ لكنه سرعان ما تخلَّى عن هذه الفكرة، حتى لا يظهر أهلها مُطالبين بتشريح جثة ابنتهم، وما إلى ذلك. لم يكن هناك مشكلة حقيقية في موضوع التشريح، إذ كان قد أصدر أوامره قبل الحادث بأن يتعمَّدوا إطلاق الرصاص على بطنها حتى يتهتك، فلا يعود بمقدرة أحد أن يعرف أنها ولدتْ مؤخرًا. كما أصدر أوامره بألا تؤخذ الجثة إلى المعتقل، حتى لا تُثير شكوك مَنْ قد يراها.

كانت أوامر الكولونيل واضحة وصارمة.. يجب أن يتم التعامل مع كل ما يتعلق بهذه السجينة بأكبر قدر ممكن من السِّرّية. عمل الكولونيل على ألا يعرف بالتفاصيل إلا "آنيمال" ورجال الأمن الثلاثة الذين تناوبوا على حراستها. لم يكن يريد أن يعرف أحدٌ أن السجينة "م-35" قد ولدت بنتًا،

صارت حفيدته، ولذلك تعمّد أن يردّد أمام كل من في السجن بأن الفتاة ماتت عقب دخولها في غيبوبة.

يحرص "بيتيوتي" على أن يكرر كذباته طوال الوقت، حتى تنتشر ويصدّقها الآخرون.

ﮋﮊ

- ولذلك صُعقت حين أخبرتني عن قصة ولادة "ليليانا" لصبيٍ ميت، ودخولها في غيبوبة.. لأنها في الواقع حكاية "ماريانا"، لكنهم تعمدوا نشرها في السجن.

- نعم.. القِلة التي كُتب لها الخروج من المعتقل، ردَّدت هذه القصة أيضًا عن "ليليانا".

قالت "لوث" باستنكار:

- ألم يفكر أحدكم في مراجعة المستشفى بعد ذلك؟ هل تأكدتُم أساسًا من اسم المستشفى الذي يُفترض أن تكون هذه الأحداث قد دارت فيه؟

نظر إليها "كارلوس مصدومًا:

- "تيريزا" هي التي أبلغتنا بذلك، حين خرجت في فبراير 1977. قابلتْ والدي وقصّت عليه ما حدث. لقد صدَّقتُ الحكاية حين سمعتُها. كُتِب عليّ أن أعيش في مشاعر متضاربة، بين الألم لفقدانها، والارتياح لأنها ماتت على فراش المرض، وليس نتيجة التعذيب في المعتقل.

ﮋﮊ

لم يشأ "بيتيوتي" أن ينفذ بقية خطته قبل تلقي الأوامر من الكولونيل، ولذلك أمر الحارسين اللذين قتلا الفتاة الهاربة أن يتركا السيارة التي تضمُّ جثتها، في مكان هادئ، وقرَّر أن ينفذ باقي الإجراءات بنفسه، عقب موافقة الكولونيل. كان شبه متأكد أن "دوفاو" سيسعد بتفاصيل خطته، لكن كان عليه أن يتأكَّد له ذلك أولًا.

ﮋﮊ

بعد أن أبلغ العرِّيف "بيلون" رئيسه بآخر المستجدات المتعلقة بالجثة، استأذنه في الرحيل. أحسَّ الضابط "بيتيوتي" أن مرؤوسه يخفي عنه شيئًا، ربما بسبب الطريقة التي يتحاشى بها النظر إليه. هذا ما شعر به أيضًا حين وجده في الشقة، ولكنه لم يكن يملك الوقت الكافي حينها للتحقُّق من الأمر. كانت رؤيته للوضع لا تزال مشوشة، والتفاصيل غير واضحة.

ﮋﮊ

حين همّ "آنيمال" بفتح باب الشقة، وجده مُقفلًا بالمفتاح مرتين. ضرب الجرس بنفاد صبر. تطلَّب الأمر بضع دقائق إلى أن فتح الباب بمفتاحه ودخل البيت، استغلها "بيلون" في الانتهاء من ارتداء ملابسه على عجلٍ، والخروج إلى غرفة المعيشة.

في طريقهما للمنزل، قال "آنيمال" لـ"ميريام" إن "بيلون" أخبره فور دخوله أن السجينة قد فرَّت، حين كان في الحمام، وأن زوجته غير موجودة أيضًا. قال له إن كل شيء قد تمَّ بسرعة ودون صوتٍ على الإطلاق. لم يفهم الأمر إلا حين حاول فتح الباب ووجد نفسه محبوسًا داخل الشقة والباب مقفول بالمفتاح من الخارج. قال إنه أخذَ يُفتِّش عن المرأتين في كل مكان. قال ذلك على الأرجح ليبرر وصوله إلى غرفة المعيشة من الرُّدهة المؤدية إلى حجرة النوم، في اللحظة التي رآه فيها "آنيمال". تتذكر "ميريام" بأن "آنيمال" ردَّد عدة مرات، حينها، بأن "بيلون" كان يرتعد خوفًا. علقت في نفسها: "من الجيد أنه لم يصب بسكتة قلبية!".

ﮋﮊ

هل ارتاب "بيلون"، كما يرتاب هو نفسه، في حين أن "ميريام" ذهبت مع "ليليانا" بكامل إرادتها، وليس لأنها تعرضت للتهديد بالسكين؟ عليه أن يمنعه من مجرد التفكير في هذا الأمر، وأن يتأكد من أنه لن يُردِّد هذا الكلام أمام أحد.

في بادئ الأمر، أراد أن يطلب منه سرد الأحداث كما حصلت منذ لحظاتها الأولى، لكنه خشيَ أن يبدأ "بيلون" في قصّ أمور متناقضة وغير منطقية، وعندها سيجد نفسه مضطرًّا للتحقق منها. الحل الوحيد هو جعله يقسم على السِّرية التامة.

قال له مُؤنِّبًا، قبل أن يسمح له بالمغادرة:

- يجب الإشارة يا عرِّيف "بيلون" بأن سلوكك وتصرفاتك لا يتماشيان مع الأحداث التي ذكرتَها. كما أنك تتعامل مع المسألة كأنها مجرد حادث.. واقعُ الأمر أنك تتحمل المسؤولية كاملة، فقد هربت السجينة بينما كنت تتولى حراسة الشقة. ليس ذلك فحسب، بل قمتَ بتعريض حياة زوجتي للخطر. هل تدرك فداحة هذا الخطأ؟

قبل أن يتمكن "بيلون" من الرد، رفع "آنيمال" يده ليسكته. من الأفضل ألا يقول الشابُّ شيئًا، وإلا وجد نفسه مضطرًّا لمعاقبته أشد العقاب.

يعي "بيلون" أن "آنيمال" يستطيع التنكيل به، ولذلك عليه أن يلتزم الصمت تمامًا.

أمره "آنيمال" أن ينتظر منه مكالمة تليفونية، في الليلة نفسها، لأنه قد يحتاجه في مهمة سِرِّية، لا يستطيع الإفصاح عنها حاليًا.

أدّى العرِّيف "بيلون" التحية العسكرية، وغادر المكان على الفور.

ﮆﮅ

أضعُ "ليلي" على طاولة تغيير الحفاضات. أنزعُ عنها ثيابها، وأنظفها جيدًا بمنشفةٍ قُطنيةٍ ناعمة. أشعر بغصة وأحاول حبس دموعي. أنظر إليها. أحبُّها لدرجة غير معقولة! تبتسم لي. لا تدوم ابتسامتها أكثر من ثوانٍ معدودة، لكنها تشعرني بفرحة عظيمة. تحرّك ساقيها باستمتاع. إنها سعيدة لأنني خلعتُ الحفَّاض عنها، ولأنها تشعر بالنظافة، ولأنها معي. إنها تحبني، قدر حبي لها، أنا متأكدة من ذلك. أشعر بذلك أصلًا. تنظر إليّ بعينيها الخضراوين المسالمتين.

- أنتِ لطيفة يا حبيبة قلبي، لدرجة تجعلني أنسى هؤلاء الرجال الأشرار.

تبتسم لي ثانية، فأشعرُ بحبٍ جارف نحوها، يجعلني أتمنى لو أقفل باب الحجرة علينا للأبد، لنظلَّ معًا أنا وهي، بعيدًا عن شرور العالم الخارجي.

ولكن ما الفائدة من هذه الأمنيات؟ "آنيمال" بانتظارنا في الخارج، ولن يتردد في كسر الباب واقتحام الغرفة إن تأخرنا عليه. مجرد التفكير به أشعرني بتعاسة لا نهاية لها.

- هيا يا جميلة.. ارفعي قليلًا هذه المؤخرة الحلوة.. نعم.. هكذا.

ألبسُها الحفَّاض، وألثمُ ذراعيها الممتلئين ويديها الصغيرتين وخديها.. يفتح "آنـيمال" البـاب فجأة ويقول بعصبية:

- هيا.. أسرعي. "دوفاو" في الطريق إلينا.

ينظر إليّ بضيق، ويتفحصني بتمعُّن. أسأله بخوف:

- ما الأمر؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- لا شيء. ظننتُ أنكِ قلتِ إنك ترغبين في ارتداء ملابس أنيقة لاستقبال الكولونيـل. دعيهـا هنا، واذهبي لاستبدال ثيابك.

أتلكَّأ وأنا أُلبسُ "ليلي" ثيابها. يصيحُ:

- هيا! تحركي!

- لا أريد أن أغيّر ملابسي، ولا أن أضع أيَّ مكياج. كل ما أريدُه هو البقاء مع "ليلي".

يقترُب مني، ويلف أصابعه حول ذراعي بقوةٍ بالغة:

- افعلي ما آمرُك به يا "ميريام".

أسحبُ ذراعي، وأقول:

- اتركني! سأضعها في فِراشها أولًا.

تبدأ الصغيرة في البكاء. يتجهَّمُ "آنيمال". أقول:

- من الأفضل أن أنوّم الطفلة قبل قدومه.

- اذهبي وافعلي كما قلتُ لكِ، وأنا سأبقى معها هنا.

لن أتركها مع هذا القاتل. لم يعد بإمكاني أن أقبّله وأتدلَّلُ عليه، وأقول شيئًا مثل: "أرجـوك يا حبيبي.. دعني أبقى معها يا روحي".

لا أستطيع فعل ذلك. بتُّ أكرهُهُ كما لم أكْرَهْ شخصًا في حياتي.

- سوف آخذها معي، حتى لا تزعجك ببكائها.

دون أن أنتظر موافقته، أحملها بين ذراعيّ وأُغادِرُ الغرفة.

في طريقـي إلى حجـرتي، أفكـر أنـه ربمـا مـا زال بإمكـاني مغافلـة "آنـيمال" والهـرب بهـذه الصغيرة.

ഇഗ

ظلت "ميريام" تحاول أن تهرب بي، حتى اللحظة الأخـيرة، لكـن "آنـيمال" لم يكـن غبيًّـا، واستمرَّ في مراقبتها عن كثبٍ.

ഇഗ

بمجرد أن وضعتُ الطفلة على سريري، دخل "آنيمال" وجلـسَ بجوارهـا. بـدأت "لـيلي" في البكاء. إنها مُتقزِّزة منه.. أنا متأكدة. الصغار يفهمون أكثر مما نتصور. أنحني لأحملَهـا، فيقـف بيني وبينها، ويقول بصرامة:

- اذهبي يا "ميريام" واستبدلي ثيابك الآن.

لم يكن مجرد طلب، بل أمر واجب التنفيذ. أقول له بانزعاج:

- ماذا تفعل هنا؟ وجودك بهذه الطريقة يشعرني بالتوتر، ويسبب لها أيـضًا التـوتر. انظـر كيف تبكي!

- ظننتُ أنكِ تُريدين مني أن أختار لـكِ الملابـس المناسـبة لاسـتقبال الكولونيـل؟ هـذا مـا أخبرتني به على التليفون.

أفتح الدولاب، وأنا أتحاشى النظر إليه، لأنني كنتُ أتحرَّق، في تلك اللحظة، لضربه وركلـه. ذلك الساديّ المجنون! إنه مصرّ على حرماني من الاستمتاع بلحظاتي الأخيرة مع الطفلة.

أُخرِجُ بلوزة وبنطلونًا، وأقف حائرة. لا أريد أن أخلع ثيابي أمامه، مع نظراتـه الوقحـة، ولا أستطيع ترك تلك المسكينة بمفردها مع قاتل أمها. أستدير وأوليه ظهـري، وأنتهـي مـن ارتـداء ملابسي بسرعة فائقة. يبتسم ابتسامته الكريهة، حين أذهب لحمل الطفلة، ويقول:

- شكلكِ جميل، ولكن ضعي بعض المكياج حتى تخفي آثار البكاء.

- وماذا في ذلك؟ هل يفترض بي أن أكون سعيدة والابتسامة تملأ وجهي، بعد كل ما مررت به من أحداث اليوم؟

يتهربّ بعينيه مني، لثوانٍ معدودة، فأستغلُّ الفرصة وأضيفُ:

- لقد تمَّ تهديدي بالسكين، ورأيتُ "ليليانا" وهي تقتل بالرصاص أمامي، وهأنا سأحرَم من رؤية "ليلي" إلى الأبد.

ينتزع الطفلة من بين يديّ، بعنف. لا أجرؤ على استعادتها منه، حتى لا يؤذيها. يلقيها على السرير ويلتفت نحوي. لحظةً، ظننتُ أنه سوف يضربني. يمدّ ذراعه باتجاهي ويجرّني إليه. يحيط جسدي بذراعيه القويَّتين، لدرجة جعلتني أشعرُ بالاختناق. أشعر بانتصابه، يهمس في أذني متحسرًا:

- لو لم تكوني بكل هذا الجمال يا "ميريام"!

يعتصر صدري بين أصابعه. أشعر بالألم والغثيان.

- دعني! اتركني أذهبْ لأضَعَ مكياجي.

أحاولُ دفعه بعيدًا عني، لكنه يظلُّ ممسكًا بي.

- استمعي إليّ.. التزمي العقل والهدوء، ولا تقدمي على أي تصرفاتٍ حمقاء. أنتِ جميلة جدًّا، ومن المؤسف أن تنتهي حياتك على نحوٍ مأساوي.

أهمُّ بالمغادرة إلى الحمام، لكنه يقبض على يدي:

- أريد أن أفتخر بكِ أمام الكولونيل. هل تفهمين؟

يتركني أخيرًا، فأدخل الحمام. أضع المكياج وأنا أفكر فيما ينوي "آنيمال" فعله.. هل سيقتلُني عقب مغادرة الكولونيل؟ أم هل سيعذبني مطولًا قبل أن يفعل ذلك؟ "ليليانا" هي التي كانت تفهمه وتتوقع تصرفاته.

عندما يصل "آلفونسو دوفاو" إلى المدخل الرئيسي للعمارة السكنية الواقعة في شارع "آياكوتشو"، ويضغط على الجرس الخارجي للبناية، يُفكِّر بدهشة أنه لم يكن يتوقَّع أن يكون "آنيمال" وزوجته من سكّان هذا المكان الراقي. كان قد سجّل العنوان لديه منذ بضعة أيام، لكنه لم ينتبه إلى أن المنطقة تتميز بالفخامة إلا الآن. لا بدّ أن الشقة ملكٌ لها هي. لقد نجح "آنيمال" في إلقاء شِباكه على امرأة ثرية، ولا شك. الحقيقة أنه رجل ذكي، لذلك يثق به ويمنحه الكثير من الصلاحيات والمسؤوليات.

ولكن، مع ذلك.. مَنْ يُصدِّق أن ضابطًا كهذا يقطُنُ هنا؟!

أثنى الكولونيل على نفسه لاختياره لهذا المكان لإقامة الطفلة خلال الفترة الماضية. لم يكن يريد لها أن تعيش في بيت أقرب للزريبة مثلًا؛ ولكن من هذه المرأة؟ وكيف استطاع "آنيمال" أن يُقنعها بالارتباط به؟ لعله كذب عليها وأخبرها أنه يشغل منصبًا مُهمًّا. إنه مولع بالمناصب، ولديه طموح كبير، و"دوفاو" يحترم فيه ذلك. سوف يعمل على ترشيحه للترقية، في أقرب فرصة.

يتوقَّف المصعد في الطابق السابع.

يذكّر الكولونيل نفسه بأن عليه مجاملة زوجة "آنيمال" بعبارات لطيفة، وأن يكيل لها المديح لجمالها ورِقَّتها، حتى لو كانت قبيحة وفي دمامة قرد!

حين رأى "ميريام" تضاعفت دهشته، ولم يصدق عينيه. هل هذه المخلوقة الفاتنة، باهرة الجمال، امرأة "آنيمال"؟!

ﮊ

- ألم تخشَ أن يتعرَّف إليها؟ كانت موجودة في الحفلات التي يحضرها الكولونيل، أليس كذلك؟

- "آنيمال" كان متيقنًا من أنه لم يسبق لـ"دوفاو" رؤيتها؛ لأن الكولونيل لم يكن يهوى ارتياد الحفلات، ولم يلجأ قط للداعرات. إن كنتَ تذكر يا "كارلوس"، أنه حين ادّعى "آنيمال" بأنه يريد موعدًا مع "ميريام" من أجل الكولونيل، فإنه كان يكذب، وهو الذي قابلها في بهو الفندق بعد ذلك.

ﮊ

توقعتُ أن تكون زوجته سيدة ثرية، متقدمة في العُمر على الأغلب، يشق من خلالها طريقه في الحياة؛ لكن أن تكون امرأته هذه الفاتنة الخمرية! يا للعجب!

من نظرة واحدة، أحسَّ "دوفاو" باشتهاء ملحّ لهذه الشابة. مشاعر نسيها تمامًا منذ زمن. بصعوبةٍ بالغة، استطاع أن يتمالَكَ نفسه ليقول لها:

- تشرفت بمعرفتك، سيدتي.

طلب منها "بيتيوتي"، بلهجة آمرة، أن تتركه مع الكولونيل، لأنه يحتاج لأن يتحدث معه على انفراد. تسبَّبت طريقته في الكلام معها في إثارة المزيد من

الدهشة في نفس "دوفاو".. كيف يُخاطب رجلًا عاديًّا مثله، امرأة خارقة مثلها، على هذا النحو؟!

قصّ عليه الضابط أحداث ظهيرة ذلك اليوم باختصار. قام بتحوير بعض التفاصيل، لتبدو "ميريام" في صورة أفضل أمام الكولونيل (أخبره أنها هي مَن دفعت السجينة وأوقعتها أرضًا، ليتمكنوا من إطلاق الرصاص عليها، وإبعاد حفيدته عن ذلك الموقف بالغ الخطورة). أوضح أنه تصرَّف بسرعة وذكاء، وقام بالاهتمام بكل شيء، وأضاف بأنه رغم وجود عدد من الشهود، لكنه يقترح عدم إصدار بيان صحفي بالحدث، وتجاهله تمامًا، حتى يبقى طيّ الكتمان. أسرّ له أن الجثة لا تزال في صندوق السيارة، في انتظار أوامره؛ ثم صرّح بأن لديه فكرة عن كيفية التخلُّص منها، لكنه فضل استشارة الكولونيل أولًا.

أعلن "دوفاو" رضاه التام عن جميع الخطوات التي قام بها "بيتيوتي"، عليه فقط أن يتأكد من أن رجال الأمن سيلتزمون السرية. عليه أن يتخلص من الجثة بأسرع ما يمكن، دون إثارة أي شكوك أو شبهات.

يجب ألا يعرف أحد أن حفيدته هي ابنة إحدى تلك السجينات. صحيح أنه لا ذنب للصغار في ماضي أمهاتهم، لكن السِّرية أفضل. أوضحَ متبسِّطًا أن ذلك ليس أمرًا، بقدر ما هو رجاء.

كرَّر الكولونيل طَلَبَه أن يتمَّ التخلص من الجثة بسرية، بعيدًا عن الأنظار.

قال "بيتيوتي" إنه يفكر في استخدام العرِّيف، الذي كان موجودًا في نوبة الحراسة حينها، لتنفيذ المهمة. أضاف:

- لن ينبس بحرفٍ. تيقَّنَ من ذلك يا سيدي.

هزّ الكولونيل رأسَه رافضًا، وقال:

- أُفضّلُ أن تكون أنت وحدك المسؤول عن هذا الأمر، دون تدخل شخص آخر. هل هذا ممكن يا حضرة الضابط؟

- نعم، بالطبع يا سيدي.

لم تكن هذه خطة "آنيمال" الأصلية. لم يكن ينوي مغادرة المنزل الليلة، ولكن ليس أمامه خيار آخر. على أي حال، لن تستطيع "ميريام" فعل شيء،

فقد حَذَّرها من ارتكاب أي حماقة، وتعمّد أن يقول لها مهددًا بأنها جميلة ومـن المؤسـف أن تنتهي حياتها على نحو مأساوي. لقد فهمتْ ما يعني، ولا شك.

ဆဏ

يغادر "إدواردو" فِراشه، مُتوجِّهًا إلى الصالة، ويشعل لنفسه سيجارة. كان قـد توقـف عـن التدخين منذ أربعة أعوام، ولكن عندما طلب واحدة من تلك الموظفة التـي زوَّرت لـه شـهادة الميلاد في العيادة، فإنه لم يعد يستطيع مفارقة هذه العادة بعدها. يستشعر نوعًـا مـن المُتعـة حين يملأ صدره ورئتيه بكل ذلك النيكوتين والقطـران. أي شيء في الحيـاة، أرحـم مـن أكاذيبـه وخِداعه. المشكلة أنه لا يخادع "ماريانا" فحسب، بل يغش معها هذه الـصغيرة البريئـة.. مـاذا سيقول لها حين تكبر؟ سيضطر للكذب عليها هي أيضًا.

حين بدأ هذا الأمر، أحسَّ بتخوُّفٍ من ملاقاة الطفلة، لكنه صار الآن يشعر بالخزي والعار، والخجل من نفسه لارتكابه هذا الجُرم. وكما لم يـستطع أن يـصارح "ماريانـا" بالحقيقـة، يجـد نفسه مضطرًّا لفعل ذلك مع "لوث" أيضًا.

أيُّ نوعٍ من الآباء هو، وهو يُخادِع مولودة صغيرة منذ يومها الأول معه؟

يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة، فيشعر بالقذارة.

يُقرِّر أنه يجب عليه، على الأقل، أن يساعدها في يوم مـن الأيـام عـلى معرفـة هويـة أمِّهـا الحقيقية. لا يعلم متى تحديدًا، لكنه يأمل أن تكون "ماريانا" على دراية بـالأمر حينهـا، وأنهـا ستعاونه في مهمته.

ဆဏ

رغم أنه حاول جاهدًا معرفة من تكون أمي، لكنه لم يخبرني. إطلاقًا.

أشاحت "لوث" بوجهها بعيدًا عن "كارلوس"، كأنها لا ترغـب في مناقـشة تفاصـيل هـذه النقطة معه.

قالت أخيراً بصوتٍ هامسٍ، سمعه بصعوبةٍ:

- لم نجد السجّلات المطلوبة.. حتى في "بنك الجينات الوطني".

يسألها بدهشة:

- بنك ماذا؟!

- أُسِّسَ رسميًّا عام 1987، لكن الناس كانوا يعملون على جمع المعلومات المسجلة به، قبل ذلك بأعوام عديدة.

أعادت المعلومة ببطء متعمد:

- في 1987 يا "كارلوس".

أضافت بمرارة:

- قام المئات من أقارب الأطفال الذين تعرضوا للاختفاء في تلك الفترة بتقديم عينات من الدم للحفظ في ذلك البنك، لتتم مُضاهاتها بدماء أبنائهم، وتحديد هوياتهم. قدمت عينة من دمي، وراجعتهم في البنك.. دون نتيجة.. لأن أحدًا لم يكلف نفسه عناء البحث عني.

ما هذه المشاعر المنعكسة على العينين الخضراوين؟ كراهية؟ لا.. أكد "كارلوس" لنفسه أنها ليست كذلك، لكنه شعور قوي، لا يقل عن الكراهية. لم يستطع "كارلوس" أن يحوّل تلك النظرات عنه، تمامًا كما فشل "آنيمال" قبل اثنتين وعشرين سنة في الابتعاد عن عينيّ "ليليانا" اللتين ظلتا تحملقان إليه، من مكانها في مؤخرة السيارة الـ"فورد فالكون".

بادلها "كارلوس" النظر، لكن النيران في عينيها استمرت في الاشتعال.

وقف فجأة، وضرب سطح الترابيزة بقبضته، بغضب شديد. ارتعدت "لوث" ووقفت مثله. فتحت فمها لتقول شيئًا، لكن صوتها احتبس. ربما كانت ستطلب منه ألا يغضب، وأن يتفهم مشاعرها ومرارتها. جلس "كارلوس" ووضع يده على ذراعها، وجذبها نحو الكرسي لتجلس عليه. أومأ برأسه كأنه يطمئنها بأنه باقٍ ولن يرحل ويتركها.

أخيرًا قال:

- لقد أخبروني أنه صبي، وأنه وُلِد ميتًا. لقد سبق وقلت لكِ ذلك. ما آلمني حقًّا حينها هو أنهم حرموني من "ليليانا". لن أشعر بدفء بشرتها الناعمة ثانيةً، ولن أسمع ضحكاتها، ولن أُشاهِدَ حماستها وسعادتها حين تنجح في إنجاز شيء، ولن أتابع محاولاتها المستمرة الساعية لتغيير العالم. لقد صدقت ما سمعته بشأن مولودنا،

ولم أتشكك في المسألة. كان ذلك أمرًا مؤلمًا بالطبع، ولكن لا يمكن مقارنته بحزني على فقدان "ليليانا" وموتها المفجع.

ظَهَرَ التأثُّر على وجه "لوث"، ولانت ملامحها المُتجهمة، قليلًا. لكن ذلك لم يستمر أكثر من لحظاتٍ قليلة، إذ سرعان ما هتفت:

- ولكنني لم أمُت يا "كارلوس"! كنتُ، ولا زِلتُ، على قيد الحياة.

ℵℵ

"ليلي".. حبيبتي.. أعرفُ أنك لن تسامحيني أبدًا لإعطائكِ هؤلاء الكلاب، ولكن كيف ينبغي لي أن أتصرّف؟ "آنيمال" يُهدِّدُني بوضوح تام. إن بقيتُ على قيد الحياة، فسوف أبحثُ عنكِ يا صغيرتي، وآتي لنجدتك. أما إن متُّ، فالأمر خارج عن إرادتي.

حبيبتي.. يجب أن تعرفي أنني أحبُّك حقًّا، وفوق ما يمكنكِ تخيله. لم ألقَ منكِ، ومن أمك العزيزة، إلا كل الحب. لم يمنحني أحد في الدنيا هذا القدر من المحبة الخالصة، النقية. دعيني أخبرك أن أمك تُدعى "ليليانا"، وأنها كانت إنسانة رائعة حقًّا. أبوكِ يُدعى "كارلوس". تعرضا للقتل لأنهما كانا يحلمان بمجتمع يسوده العدل. تذكريني أنا أيضًا يا حبيبتي.. أنا التي أغني لكِ طوال الوقت، وأنا التي تقول لكِ دومًا:

ℵℵ

- مَن أحلى مِن حبيبتي "ليلي"؟

أضافت "لوث" بصوتٍ متحشرج، وهي تُغالِبُ البكاء:

- كان هذا آخر ما قالته "ميريام" لي يومها.

ثم ناداها "آنيمال". قامت بمسح دموعها، لكن كان من الواضح أنها حزينة ومنزعجة. لم تشأ أن تبكي أمام "آلفونسو". كانت قد بدأت في وضع سلسلة من الخطط، تهدف كلها لإنقاذي، ولذلك لم تكن تريده أن يتذكر ملامحها. حين ذهبت إلى غرفة المعيشة، نظر إليها بطريقة وصفتها "ميريام" بأنها:

- الطريقة المُقزِّزة التي ينظر بها إليك الرجال، حين يفشلون في إخفاء اشتهاءهم الواضح لك.

أحسَّت "ميريام" نحوه بالكراهية والخوف، فانسابت دموعها رغمًا عنها. ارتعش جسدها من شدّة الانفعال. قالت معتذرة بأنها تعرضت لضغوط كثيرة على مدار اليوم.

- لا داعي للاعتذار. نتفهم إرهاقك وانزعاجك بالطبع، بعد كل ما حدث هذا النهار.

أجلسُ أمامه وأنا أحمل "ليلي" بين ذراعيّ، لكن قلبي لا يُطاوعني على تسليمه إياها.

أضاف الكولونيل:

- اسمحي لي أن أهنئكِ على شجاعتك ورباطة جأشك.

يمدّ "آنيمال" يده، ليتناول مني الطفلة، إذ يُدركُ أنني لا أقوى على إعطائهما إياها. أتشبَّث بها قليلًا، فيقول وهو يأخذها عنوة:

- تعلقت بها "ميريام" جدًّا في الفترة الماضية يا سيدي.

أنهارُ، وأبدأُ في البكاء بصوت مرتفع. يصوّب لي "آنيمال" نظرات قاتلة، أما "دوفاو" ـ المجرم الآخر ـ فبدلًا من أن يحمل الطفلة، يمدّ أصابعه ليتحسس كتفي قائلًا بلزوجة:

- لا بأس.. لا بأس.. ستحصلين على مولود آخر، أقرب مما تتصورين.

أحاوُل جاهدةً إيقاف دموعي، حتى يُزيل يده القذرة عني. أطرقُ برأسي وأنا لا أقوى على مشاهدته يتناول الصغيرة من بين يدي "آنيمال". إنها نائمة، لحسن الحظ. يقترب مني "آنيمال" ويقول بلهجة آمرة، مغلفة بلطف مصطنع:

- هيا يا عزيزتي.. سلمي على الكولونيل. سأعود حالًا.

أقف وأنا أشعر بالدوار.. هل أنا في كابوس؟

ذلك الوحش الآدمي يحمل الملاك الصغير وينظر إليها بتمعُّن. حين ينتبه لوقوفي، يتفحصُني بعينين نهمتين، ويقول:

- أشكرُكِ على كل شيء.

لا أستطيعُ الرَّدَ. الأسى يملأ روحي بقوة، لدرجة تمنعني من البكاء. أقِفُ ذاهلة في مكاني.

يقول "آنيمال" قبل أن يغلق باب الشقة:

- لن أغيب.

يرافق الضابط "بيتيوتي" الكولونيل "دوفاو" إلى الأسفل، ويساعده على إدخال المهد القماشي، الذي تنام فيه الطفلة بعمق، للسيارة. يضع بجوارها حقيبتها الصغيرة التي تحتوي على بعض الملابس الإضافية وزجاجتي الرضاعة، وبعض احتياجاتها.

يقول الكولونيل ناظرًا باتجاه الميدان القريب، حيث لقيت السجينة مصرعها:

- خطيبتك شجاعة جدًّا. عليك الإسراع بالزواج منها؛ وهذا أمرٌ مني يا حضرة الضابط!

يضحكان معًا، ثم يعلقان على جمال الطفلة الأخَّاذ، وكم هما محظوظان لأن كل شيء تمّ بسهولةٍ ويُسر!

ﻫ

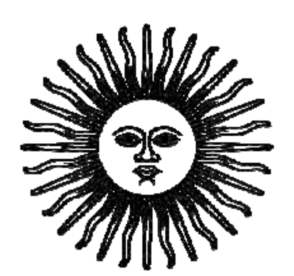
قال لي إنه سيعود بسرعة. ربما سيسير معه حتى سيارته فقط، ثم يصعد ثانيةً. سوف يقتلني. أنا لا أعرف خطته بالضبط، لكنه ينوي قتلي. أنا واثقة بذلك. لا يمكنني المخاطرة بالبقاء هنا. يجب أن أرحل في التوّ. أضع كل المال الذي أملكه داخل شنطة يدي، وكذلك المفاتيح. أنزل ثلاثة طوابق على قدمي، ثم أركب المصعد. يا إلهي! أرجوك.. لا تَدَع "آنيمال" يَرَني وأنا أخرج من باب العمارة. "ليليانا" حبيبتي.. ساعديني يا ملاكي الحارس.

إنه غير موجود. حمدًا لله.

تمرُّ سيارة تاكسي بجواري. أركبها بسرعة، وأقول للسائق:

- امشِ في شارع "ليبرتادور".. إن السَّيرَ به أسرع.

6



حين طلبتُ من سائق التاكسي أن نسيرَ بشارع "ليبرتـادور"، لم أكـن ـ في الحقيقـة ـ أعـرف وجهتي. أين يمكنني أن أذهب؟ إلى فندق "كلاريدج"، لمَ لا؟

هأنا الآن في أحد الأجنحة التـي اعتـدتُ اسـتخدامها مـع زبـائني. كنـتُ أنـوي أن أسـجّل بياناتي، كبقية النزلاء، وأن أدفع مثلهم تمامًا، لكنني لمحتُ "فرانك"، موظف الاستقبال اللطيف، فور دخولي. رحّب بي بحرارة:

- "باتريشيا"! يا لها من مفاجأة! ظننتُ أنكِ تركتِ العمل، وسعدتُ بمعرفة ذلك.

༄༅

- تعرَّفتْ "ميريام" بـ"فرانك" حين كانت لا تـزال تمـارس مهنتهـا القديمـة، إذ دأبـت عـلى مقابلة زبائنها في الـ"كلاريـدج". اعتـادا أن يتبـادلا الحـديث والمجـاملات بـشكلٍ عـابرٍ كلـما صادف أحدهما الآخر، ثم دعاها إلى تناول الغداء في أحد الأيـام، وتكـرَّر الأمـر بـضع مـرات، كما ترددا على الـسينما أيـضًا. "فرانـك" مـن أب أمـريكي وأم أرجنتينيـة. كـان مهـتمًّا بحيـاة "ميريام"، رغم أنه لا يعرف الكثير عنها. تحترمه "ميريام" وتجده لطيفًا.

- هل كانا عشيقين؟

- إطلاقًا! مجرد صديقين. تمنَّت هي أحيانًا أن يطلب منها ممارسة الجنس، لكنه لم يفعـل قط.

༄༅

سألني عن الجناح الذي سأستخدمه، قائلًا إنه ليس هناك حجزًا لي عن طريق وكالة "آنيت". قلتُ بشيء من الحدة، وأنا أبحث عن بطاقتي الشخصية داخل الشنطة:

- لم أعُدْ أعملُ لحساب "آنيت" أو غيرها. لقد اعتزلتُ المهنة من الأساس. أنا هنا كنزيلة عادية، وسوف أسجّل بياناتي الآن. على فكرة يا "فرانك"، اسمي "ميريام" وليس "باتريشيا". اكتب ذلك في دفتر النزلاء.

أومأ برأسه، وخاطبني بشكلٍ رسمي تمامًا:

- كم ليلة تنوي المدام تشريفنا بها؟

دون انتظار ردّي، ناولني مفتاح الجناح وهو يشير إلى الـ"هاندباج" الصغير:

- هل أطلب أحدًا ليحمل عنكِ حقيبتك، أم أن حضرتك تفضلين حملها بنفسك؟

أردف قائلًا:

- جناح رقم 603، وأتمنى أن يعجبكِ.

ابتسمت له في عرفانٍ، واتجهت إلى المصعد بخطوات سريعة، قبل أن يلمحني الموظف المُسن الذي يقف في الاستقبال أحيانًا، الذي تخيفني نظراته عادةً.

منحني "فرانك" إقامة مجانية، وتعمّد عدم تسجيل بياناتي. كان ذلك تصرفًا نبيلًا وذكيًّا، فماذا لو فتش عني "آنيمال" في هذا الفندق تحديدًا، باعتباره المكان الذي بدأت فيه علاقتنا؟

كيف استطاع "آنيمال" أن يُشعرني بكل تلك السعادة، في بداية علاقتنا؟ أفضّل ألا أفكر في الأمر.

التليفون يرنُّ، يا إلهي! هل قام "فرانك" بتسجيلي، في نهاية الأمر؟ لا أظنُّ ذلك، ثم إنني ذكرتُ له اسمي الأول فقط.. إنه لا يعرف بقية بياناتي.

هل يفتش "آنيمال" عن كل نزيلةٍ تُدعى "ميريام" في جميع الفنادق؟

أرفعُ السماعة ولا أقول شيئًا على الإطلاق.

يأتيني صوت "فرانك":

- "باتريشيا"؟ هذا أنا. هل يمكنني الصعود إلى غرفتك الآن؟ أحتاج لأن أخبركِ شيئًا.

- نعم، بالطبع، ولكنني مُتعبة جدًّا.

ماذا يريد يا ترى؟ هل يريد ممارسة الجنس؟ أليس هناك شخص واحد في هذه الدنيا يصنع معروفًا دون طلب مقابل؟!

سألته بشكل صريح، في إحدى المرات، بينما كنا نتناول بعض المشروبات:

- ألا تريد أن تنام معي؟

لم أكن أفهم كيف يمكنك أن تعجب بشخص، ولا تتمنى ممارسة الجنس معه. عاجلني بإحدى ابتساماته الساحرة، وقال:

- أنتِ باهظة الثمن، وأنا لا أملك المال الكافي.

- سأمنحك خصمًا كبيرًا، لا تقلق. سأفعلُ ذلك معك لحسابي، وليس لحساب الوكالة.

كنتُ أمازحه فحسب، لكنه ـ في الحقيقة ـ كان يعجبني جدًّا. شابٌّ مهذب وجذاب. واقع الأمر أنني لم أكن أنوي أن أتقاضى منه أي شيء، وكنتُ سأفعل ذلك لمتعتي الشخصية، لا أكثر. حين هممتُ بمصارحته بذلك، بادر بالقول:

- لن أدفع لكِ أي شيء. لا أدفع مالًا مقابل علاقة مع امرأة. انسي الأمر، فلستُ مهتمًّا.

شعرتُ بالغضب حينها. تألمتُ حين رفضني بتلك الطريقة المهينة، وكأنه لا يجدني جميلة.

عندما يأتي إلى غرفتي، أُذكِّرُه بذلك الموقف وأعاتبه على أسلوبه الجارح وقتها، فيقول:

- لقد أسأتِ فهمي يا "باتريشيا". لم أكن أريدكِ أن تتعاملي معي كمجرد زبون. كنتُ معجبًا بكِ، ومنجذبًا نحوك، وأريدُك جدًّا، لكنني أحببتُ أن يحدث ذلك بيننا لمشاعرنا المتبادلة. لم أسعَ قط للعلاقات العابرة مع النساء المحترفات.

- يا لكَ من أحمق! أنا أيضًا كنتُ مُعجبةً بك جدًّا، وما كنتُ سأتقاضى منك أي نقود. كنتُ أمازحك بشأن الخصم.

يضرب رأسه:

- عليّ أن أتخلى عن سذاجتي، فالحياة قصيرة.

- هذا ما قلته لصديقتي بالأمس.

"صديقتي"؟! نعم.. "ليليانا" صديقتي. كانت صديقتي الوحيدة، وقد ماتت واستولى الكولونيل على طفلتها. لا بد أن "آنيمال" قد عاد للبيت وأُصيبَ بالجنون حين اكتشف هروبي. سوف يفتش عني في كل مكان. لقد بدأ البحث عني على الأرجح. أشعرُ بالهلع:

- أنت لم تدوّن بياناتي يا "فرانك"، أليس كذلك؟ مَن غيرك يعلم بوجودي هنا؟

- نعم، لم أقم بتسجيلك. الرجل العجوز خرج لبعض الوقت. أعطيتكِ هذا الجناح لأن أحد النزلاء ألغى حجزه، ولكن ابتداءً من الغد يجب..

قاطعته بلهفة:

- حمدًا لله. أخشى أن يكون قد بدأ البحث عني.

- ما الأمر يا "باتريشيا"؟ لماذا ترتجفين بهذه الطريقة؟ ومَن هذا الذي يُطارِدُك؟ ممَّ أنتِ خائفة؟

لا أجيبُ عن أيٍ من أسئلته. يقترب مني "فرانك" ويحتضنُني مطَمْئِنًا. أضع رأسي على كتفه وأبكي بحرارة.

- "فرانك".. لقد أخطأتُ.. ارتكبتُ خطأً جسيمًا.

- تبكين وكأن عزيزًا لديكِ مات!

نعم.. لقد ماتت إنسانة عزيزة على قلبي فعلًا. أستمرُّ في البكاء. تُبلِّلُ دموعي كتفه. يربّت على رأسي دون أن يقول شيئًا. كيف له أن يفهم؟ وجوده يمنحني إحساسًا بالارتياح، وهذا كل ما يهم.

أستلقي على السرير. ينظر إليّ بطريقة أعرفُها جيدًا. لا.. غير معقول! يجب أن أوضح المسألة.

- "فرانك"، أنا لا أقصد إغواءك وإثارتك. يجب أن تفهم ذلك.

يرد بغضب:

- ماذا تقولين؟ أنا لا أفكر في الشيء الذي خطر على بالك!

يضيف:

- أنتِ فاتنة، لكنني لن أستغل ضعفك أبدًا. لستُ حيوانًا!

تُذكِّرني كلمة "حيوان" بـ"آنيمال"، فأرتجفُ بقوة أكبر، وأنا أشعر بمزيج من الخوف والاشمئزاز. يسألني "فرانك" باستغراب:

- ما الأمر؟

- لا شيء. كنتُ على علاقة بشخصٍ يُدعى "آنيمال". إنه لقبه وليس اسمه، ولكنه يليق به جدًّا، لأنه حيوان وحقير.. إنه قاتل وساديّ مجنون.

يبدي "فرانك" دهشته لارتباطي بشخص بتلك المواصفات، فأفسر:

- لأنني ظننتُ أنه يحبُّني ويفهمني. اعتقدتُ أنه طيب القلب، ثم اكتشفتُ أنه يقوم بتعذيب المعتقلين بأبشع الوسائل، بقسوة غير مبررة.

- أي ضابط من ضباط الجيش هو؟ نحن نعرفهم جميعًا هنا.

- أنتَ لا تعرفه. لم يأتِ هنا سوى مرة واحدة فقط.

يسألني "فرانك" عمّا حدث. عليّ ألا أخبره، لكنني أفعل. أشرحُ له أنني كنتُ في حالة نفسية سيئة للغاية عقب خضوعي لعملية إجهاض.. لكنني أتوقَّف، ولا أستطيع مصارحته أن "آنيمال" وعد بإهدائي مولود إحدى سجيناته، فأقول:

- كان طيبًا، ولم أدرك أنه مُختلٌّ إلا بعد فوات الأوان.

كيف أتوقَّع أن يفهم ما أقول، وأنا أخبره بأنصاف حقائق؟

الواقع أنني لا أريدُه أن يفهم. أحتاجُ فقط لمن يستمع إليّ. شيءٌ ما في تعبيرات وجه "فرانك" يشجعني على الاستمرار في الكلام، ويمنحني إحساسًا بالأمان؛ لكنني ـ مع ذلك ـ لا أصارحه بالتفاصيل كاملة، وأكتفي بالقول إنني تعبتُ من الحياة مع "آنيمال"، وأنه يبحث عني الآن بعد أن هربت منه.

يضمُّني "فرانك" إليه، مرة أخرى، ويطلب مني ألا أخاف. يؤكد لي أنه سيساعدني.

- هل كان زبونًا لديكِ؟ هل هو ضابط في الجيش حقًّا؟ هل زاركِ في منزلكِ من قبل؟

- زارني؟! إنه يقيم في شقتي منذ زمن.

فجأةً، أتذكَّر أثاثي ومفروشاتي. يجب أن أستعيدها جميعًا. أقول لـ"فرانك":

- هل بإمكانك الذهاب إلى منزلي بسيارة نقل، وأخذ كل شيء مِن هناك؟ لا يمكنني فعل ذلك بنفسي.

- ما دام يعيش في بيتك، يمكنكِ طرده. أخبريه بأن كل شيء بينكما قد انتهى. هذا كل ما في الأمر. يمكنني أن أذهب معكِ وأن أدّعي بأني حبيبك الجديد، حتى يخاف مني ولا يضربك. ما رأيك؟

- لو ذهبنا نحن الاثنان، فلن يتردد في قتلنا معًا. صدقني. لمَ يلقب بـ"آنيمال" إذًا؟ الأمر يتجاوز الحب الذي انتهى بيننا، لقد تسببت له في مشكلات ضخمة في وظيفته، لن يتردد ـ بسببها ـ في القضاء عليّ.

يبقى "فرانك" صامتًا، لكنه يدرك مدى تعقيد وضعي.

أشعرُ بأنني أنجرفُ نحو هُوَّةٍ عميقة.. "ليليانا" ماتت بالرصاص أمام عيني، و"ليلي" لم تعد معي..

أنتبِهُ من شرودي على أصابعه وهي تزيل خصلات شعري من على وجهي. أقول له معتذرة:

- سوف أنام الآن. أنا مُرهَقة جدًّا، حتى أنني أعجز عن التفكير.

يغطيني "فرانك" ويلثم خدي، ثم يطفئُ الأنوار ويغادر.

ﮓﮔ

رغم أن "فرانك" لم يفهم القصة التي سردتها "ميريام"، بأحداثها المبتورة، فقد كان متأكدًا من أنها في خطر حقيقي. إن كان الرجل الذي تتحدَّث عنه يحمل ضدّها كل هذه الضغائن، فليس من الصواب أن تظل داخل الفندق، فهو أحد الأماكن التي

اعتادت ارتيادها. في السابعة من صباح اليوم التالي، يوقظها ويخبرها عنوان شقته، ويعطيها المفتاح، ويطلب منها أن تنتظره هناك وألا تتحرك.

ꕥ

يؤكِّد لي أن أحدًا لن يراني في هذا الوقت من اليوم.

- لماذا لا تكتب لي العنوان في ورقة بدلًا من أن تجعلني أحفظه غيبًا؟ هأنا أُردِّدُه لك منذ دقائق! هل تأكدت الآن بأنني حفظته؟ أنت منظم جدًّا مثل "ليليانا"!

ما هذا الذي قلته للتوّ؟ إنه لا يعرف من تكون "ليليانا"، ولا يفهم عما أتحدث.

ꕥ

رفض "فرانك" أن يدوّن لها عنوان بيته، حتى لا يجده "آنيمال" معها، إن عثر عليها. لم يكن منظمًا كما ظنَّت "ميريام"، وإنما عقلانيًّا.

فيما بعد، صارحها بأن جاره اختفى فجأة، دون أثر، لمجرد أنهم وجدوا اسمه ضمن متعلقات شخص ينتمي لمنظمة "مونتينيرو" اليسارية. لم يرغب في أن تتسبب صديقته "باتريشيا" في مصير مماثل له. الأمر بأكمله مخاطرة كبيرة، وللسبب نفسه، آثر ألا يرافقها عند ذهابها لمنزله، كما غادر الفندق عند انتهاء نوبة عمله مباشرة.

ꕥ

نبّهني "فرانك" إلى عدم التحدُّث مع أي شخص، وأنا أغادر الفندق. يجب ألا يعلم أحد بأنه منحني الجناح. عرفني البوّاب ما إن رآني، إلا أنه لم يتحدث معي، بل اكتفى بابتسامة ودودة، وسألني إن كنتُ بحاجةٍ إلى تاكسي. ابتسمتُ له بدوري، وأجبتُ:

- لا، شكرًا. سوف أمشي على قدميّ.

أتذكَّرُ توجيهات "ليليانا" المتعلقة بالاهتمام بأدق التفاصيل، عند التفكير في أي خطة.

أتعمد عدم النظر تجاه مكتب الاستقبال، في طريقي لباب الخروج. أغلب الظن أن "آنيمال" لن يسأل عني في الـ"كلاريدج" اليوم. في وقت لاحقٍ ربما. لكنني ـ مع ذلك ـ أشعرُ بقلق وخوفٍ عظيمين، انتقلت عدواهما إلى "فرانك" المسكين.

لم يمرّ "فرانك" على والديه في منزلهما، كما كان مقررًا، وتوجَّه إلى شقته مباشرة. اضطر للجلوس على السُّلم في انتظار وصول "ميريام"، التي أعطاها المفتاح الوحيد الذي كان بحوزته.

فور دخولهما، سألته "ميريام" إن كان بإمكانه الذهاب إلى مسكنها والتَّيقن من مغادرة "آنيمال" إلى عمله. أضافت:

- يذهب عادةً في السابعة والنصف، أو الثامنة على أقصى تقدير.

لم يفهم "فرانك" نياتها بالضبط، لكنه أبدى موافقته، شريطة أن تبقى منتظرة في بيته.

سار متمهلًا باتجاه شارع "بوساداس". لم يكن من الصعب التعرف إلى "آنيمال"، الذي وقف أمام العمارة وهو ينظر يمنة ويسرة. أدرك "فرانك" أن ما يرتسم على وجه هذا الرجل الضخم، غليظ التقاطيع، ليس غضبًا كما توقَّعت "ميريام"، بل ألمٌ شديد ومعاناة. راقبه من مسافة بعيدة بعض الشيء، ثم سار وراءه إلى موقف السيارات الخاص بالمجمع السكني المجاور. لم يلتفت "آنيمال" مرة واحدة.

عاد إلى البيت متعبًا. طلب منها أن تقيم في غرفته، وأعلن أنه سيستخدم الحجرة الثانية. قبّلته "ميريام" على خده شاكرةً.

- أنت لطيف جدًّا. أنا آسفة لأنني كنتُ في مزاج سيئ البارحة، ولكن يمكننا فعل أي شيء تريدُه الآن.

- كلا يا "باتريشيا"، أنا حقًّا مرهق وأحتاج لنوم عميق.

حمدًا لله على رفضه، لأنني بصراحة لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بممارسة هذه الأمور. عليّ أن أفكر في الخطوة التالية. لا أُطيقُ فكرة بقاء "آنيمال" في بيتي، مستخدمًا حاجاتي. لكنني، في الوقت ذاته، لا أملك الشجاعة الكافية لطرده. لن يتردَّد في قتلي إن رآني. الحل الوحيد هو مقابلة صاحب العقار لإنهاء العقد، وبذلك سيكون هو مَن يطلب منه المغادرة وإخلاء المسكن، هذا إن لم يرحل "آنيمال" من تلقاء نفسه حتى ذلك الوقت.

لا أظنُّ أن "فرانك" سوف يمانع في نقل أثاثي وأشيائي.

ꕥ

اتصلتُ بصاحب البيت وأخبرتُه أنها ستنتقل إلى إيطاليا، خلال أسبوع أو اثنين على الأكثر، وأنها ترغب في إخلاء الشقة وإعادة مفتاحها إليه. لم يُمانع الرجل، لأنها كانت قد دفعت إيجارها مقدمًا، وقد بقي على انتهاء العقد ثلاثة أشهر على كل حال.

ꕥ

كيف يُمكنني البدء في البحث عن الطفلة، وأنا لا أعرف اسمها الجديد؟ لا بد أنها تحمل الآن اسم عائلة زوج ابنة "دوفاو". عليّ أن أبحث أولًا عن دليل التليفون في هذه الشقة. نعم.. ها هو. أُفتِّشُ عن اسم "دوفاو".

ꕥ

ميزت "ميريام" على الفور لهجة الخادمة، وأدركتُ أنها قروية، ومن منطقة "كورينتيس" تحديدًا. أخبرتُها بأنها صديقة لابنة "دوفاو" منذ أيام الطفولة، وأنها تريد رقم تليفونها.

ꕥ

سألتني الخادمة:

- أي واحدة منهن؟ إنهن ثلاث.

لم أكن أعرف أن لديه أكثر من ابنة. ما هذه الورطة؟ لا أعرف ماذا أقول، فأظلُّ صامتة. لكن المرأة القروية، التي بدا واضحًا أنها ثرثارة، سألتني:

- هل كنتِ صديقة الفتاتين التوأم؟

أجتهدُ ليبدو صوتي طبيعيًّا ومقنعًا وأنا أردُّ بالإيجاب، فتقول:

- ستعودان للمنزل حوالي الساعة السادسة تقريبًا.

أفكر بسرعة.. إن كانتا لا تزالان تقيمان مع أبويهما، فليستا المقصودتين. أنا إذًا أبحث عن الثالثة المتزوجة. لكنني لا أستطيع الآن أن أتراجع في كلامي.

ꕥ

أنهت المكالمة بأن قالت للخادمة إنها ستتصل بهما لاحقًا، أو ربما في يوم آخر. لكنها حين ناقشت الأمر مع "فرانك" ولمست عدم تحمسه للفكرة، توقفت عن البحث. ساعدها على اتخاذ هذا القرار ما حدث لاحقًا في "كورونيل برينجلز". في تلك الفترة، قررتْ أيضًا أن تبدأ بالبحث عنك، لكنها ـ كما أخبرتك سابقًا ـ ظنَّت أن اسمك يبدأ بالألف وليس بالسين.

علق "كارلوس" بضيق وببعض الاستعلاء:

- لم تبذل الجهد الكافي.. هذه هي حقيقة الأمر.

- صحيح، ولكنها ظنت أنك ميت.

﴾﴿

فور أن أستيقظ من نومي، أتوجه إلى "فرانك" وأسأله:

- هل تستطيع أن تُخلي شقتي من الأثاث اليوم أو غدًا؟

- ماذا؟ هل جننتِ؟! ماذا لو رآني "آنيمال"؟

- لو ذهبت في موعد عمله، فلن يراك ولن تراه. صدقني. لا أظن أنه غيّر أقفال الشقة.. ذلك الأحمق لا يزال بانتظار عودتي إليه.

يعدني "فرانك" بالتفكير في المسألة. أظنُّ أنني سأنجحُ في إقناعه.

﴾﴿

فشل الضابط "بيتيوتي" في استخلاص أي معلومة مفيدة من السجين الذي يُحقِّقُ معه، ولم يستطع إجباره على الاعتراف. كان مستغرقًا في التفكير في "ميريام".. هل ستكون في البيت عند عودته؟ اتصل برقم البيت عدة مرات، دون مجيب. لا يمكنها أن ترحل وتهجره بهذه البساطة.. ماذا عن ثيابها؟ لم تأخذ شيئًا منها. سوف تعود. إنه متيقن من ذلك.

﴾﴿

الصغيرة تبكي بشكل متواصل، و"ماريانا" منهكة. يطلب منها "إدواردو" أن ترتاح قليلًا. يطمئنها أنه سيبقى مع "لوث" إلى أن تنام. يأخذ زجاجة الرضاعة ويحمل الطفلة ويُهدهِدُها إلى أن تهدأ قليلًا. يخرج بها إلى الحديقة.

الجو دافئ. يضع الزجاجة في فمها، فتبدأ في الرضاعة، أخيرًا. الهدوء التام يحيط بهما، ويشعره بالراحة. ينظر إلى ابنته.. هل يشعر أنها ابنته؟ نعم، لكنها ليست كذلك فعلًا. يجلس على مقعد خشبي كبير في طرف الحديقة، بعيدًا عن المنزل، ويقول لها:

- والآن.. يمكنني أن أصارحك بكل شيء، فلا أحد يسمعنا. لا أريد أن أستمرَّ في الكذب عليكِ يا حبيبتي.

يخبرها بالحقيقة، ويَعِدُها أن يساعدها في البحث عن جذورها حين تكبر.

أخيرًا، يغمره الارتياح والشعور بالسلام. يطبع قبلة على رأسها، قبل أن يُعيدَها إلى الداخل ويضعها في مهدها.

꧁꧂

لبضعة أيام، يتشبث الضابط "بيتيوتي" بالأمل في عودة "ميريام". ربما ستأتي لتطلب منه مغادرة شقتها، وحينها سيقنعها بالبقاء. لا يُعقَل أن تتخلى عن أثاثها، إنها مهووسة به وبسجادها ومزهرياتها.. هوس لم يفهمه قط. سوف تعود عمّا قريب، وسوف تسامحه ما إن يناولها مولود السجينة التالية. لقد نسي أمر تلك السجينة الحامل تمامًا، منذ أن غادرت "ميريام" قبل ثلاثة أيام.

يلتقي "تيريزا"، طالبة الطِّبِّ التي أشرفت على الساعات الأولى من ولادة "ليليانا"، ويسألها عن الوقت المتبقي لقدوم الطفل التالي. تجيبه:

- لا أعلم بالضبط، ولكن يمكنني أن أفحص الأم.

لم تؤدِ "تيريزا" امتحان مادة "أمراض النساء والولادة" حتى تلك اللحظة، لكنها رأت أنه من الأفضل أن تتولى هي الكشف على السجينة، بدلًا من ذلك الممرض المتوحش. أدخلت "تيريزا" أصابعها داخل رحم المرأة، وتظاهرت بالانهماك في حساب شيء لم تفصح عنه، ثم تفحصت بطن المرأة وأعلنت بثقة:

- أظن أن أمامها ما بين عشرة أيام إلى أسبوعين تقريبًا.

حين غادر "آنيمال" الزنزانة، مالت "تيريزا" على أذن السجينة معصوبة العينين، وأخبرتها هامسة بأنها لا تعرف إن كان ذلك صحيحًا أم لا، لكنها قالت ذلك حتى يصطحبوها إلى المستشفى..

- مثلما فعلوا مع "ليليانا". ذلك أفضل وأكثر أمانًا.. ومَن يدري؟ ربما سنحت الفرصة هناك لإبلاغ أهلك عن مكانك ووضعك.

ابتسمت السجينة بضعفٍ، وقالت:

- نعم.. ذلك أفضل.

ﮋﮊ

- أخبرتني "تيريزا" بأنهم في الفترة التي أعقبت وفاة "ليليانا"، أخذوا فتاة أخرى كان "آنيمال" يهتمُّ بصحتها. لكن لم يكن "آنيمال" هو الذي رافقها.

- إلى أين؟ هل تقصدين إلى المستشفى؟ ربما كانت المستشفى نفسه الذي أخذوا "ليليانا" إليها.

- لا أدري. لم تقل "تيريزا" تفاصيل أكثر عن الأمر. لعلها لم تكن تعرف أساسًا. لكنها أخبرتني بأن الفتاة لم تعد قط، وأنهم لم يسمعوا عنها شيئًا بعدها.

- ألم تسعَ لمعرفة المزيد عن هذا الأمر؟ ألم تحاول التأكد من أن أحدًا من الشهود لم يتناول سيرة هذه الفتاة خلال محاكمات 1985؟ ربما كان ذلك سيساعدك على معرفة مصير "ليليانا" والوصول إليّ. لقد فتشتُ عن كل الشهود الذين يحملون اسم "ليليانا" و"كارلوس".

وضع "كارلوس" يده على يدها.

- لقد أخبرتُكِ أنني ظننتُ أن طفلي وُلِد ميتًا، وقد عرفتُ ذلك قبل "محاكمات جونتاس" بزمن.

شردَت "لوث" مطولًا قبل أن يتولى دفة الحديث:

- كنتُ في الباراجواي حينها، أختبئُ في مزرعة تقع على الضفة الأخرى من النهر الذي يمرُّ خلال "بوساداس"، حيث تعيش عائلتي. ساعدني زوج أختي في الهروب. عبرنا النهر ليلًا بمركب صغير. كان بقائي في الأرجنتين يشكل

خطرًا كبيرًا على حياتي، لكنني رفضتُ المغادرة، حتى بعد أن نجحت أختي في إحضار جواز سفر مزور لي. لم يكن لبقائي فائدة، لكنه كان يعني أنني أقربُ ما يمكن لـ"ليليانا". كنتُ لا أزالُ آمُل في ظهورها وعودتها. أبلغتُ "نورا"، والدة "ليليانا"، بأن ابنتها تعرضت للاختطاف من قِبَلِ السلطات. عينتْ محاميًا على الفور، ليرفع قضية أمام المحكمة، حول الاختفاء القسري لابنتها. لكنهم، وكالعادة، ادعوا جهلهم بالأمر...

قاطعته "لوث" بعينين لامعتين:

- لي جدة تُدعى "نورا"؟ هل لا تزال على قيد الحياة؟

- نعم. كان والداي على اتصال بها. كانا يجهلان مكاني، لأنني كنتُ كثير الترحال، لكنني بقيتُ في المنطقة، وظللتُ أتحرَّكُ في إطارها. بقيت في الباراجواي أشهرًا عدة، شاعرًا بالعجز التام. واصلت الاتصال بعائلتي لمعرفة إن كان هناك أخبار عن "ليليانا"، وفي كل مرة تتوسل إليّ شقيقتي وزوجها، ويلحّان علي في السفر والابتعاد قَدْرَ الإمكان. غادرا الأرجنتين، هما ذاتهما، في ديسمبر من ذلك العام. في فبراير 1977 أبلغني أبي بما أخبرته إياه "تيريزا"، وبعدها فقط قررت السفر إلى إسبانيا.

- ماذا عن أبويك؟ هل هما على قيد الحياة؟

- والدي فقط. تُوفيت أمي عام 1980. لم أرَها بعد رحيلي قط.

❀

ساعَدَها "فرانك" على كل شيء، رغم أنها خلال الأسبوع الذي أمضته في بيته، لم تَقُلْ له القصة كاملة، بل مجرد شذرات منها. لم تخبره عن "ليليانا" إلى أن عاد إلى البيت، في اليوم الذي وضع فيه أثاثها داخل مخزن مؤجر، وناولها عددًا من الخطابات التي كتبها لها "آنيمال" وتركها في الشقة.

❀

- كان "فرانك" قد وصل شقتها قبل موعد حضور العمّال الذين سينقلون الأثاث. وجد عددًا من الرسائل والأوراق الصغيرة التي كتبَ عليها "آنيمال" تعليقاته، آملًا أن تأتي إلى مسكنها في غيابه، وتقرؤها.

سألها "كارلوس" بدهشة وحيرة:

- قامت "ميريام" بنقل حاجاتها من المنزل بالفعل؟! لماذا أصرَّت على ذلك؟

- ألحّت على "فرانك" ليوافق على إخلاء شقتها بنفسه، فاستسلم لها في نهاية الأمر، وتولَّى المسألة. قام بتأجير مخزنٍ باسمه، وضع فيه أثاثها ومفروشاتها. في الواقع، لا أدري سِرَّ اعتزازها البالغ بتلك الأشياء، ربما لأنها كانت تجسيدًا لأحلامها بحياة أفضل، وربما أيضًا لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي تؤكد بها لـ"آنيمال" أن علاقتهما قد انتهت بالفعل.

أضافت "لوث":

- أما الغريب حقًّا، فهو أن "آنيمال" لم يتخذ أي إجراء عملي إزاء غيابها، رغم مرور أسبوع كامل.

ﮚﮛ

قرأت "ميريام" أول خطاب بصوت مسموع، وهي تلعن "آنيمال" الذي كتب لها:

- "ميريام".. سيكون طفلنا هنا بحلول الأسبوع القادم. انتظريني. يجب أن أتحدث معكِ. لا ترتكبي أي حماقة. أحبُّك. أعشقك.

في رسالة أخرى، كتب لها عن لقائهما الأول، والخُطط التي وضعاها معًا لمستقبلهما، وذكّرها بسعادتهما التي استمرت طويلًا، إلى أن أفسدتها مولودة الكولونيل..

صاحت "ميريام" بغيظ:

- إنها طفلة "ليليانا" أيها المجرم، وليست مولودة الكولونيل!

أوضحَ لها أيضًا أنه لا يتحمل أي ذنب، وأنه كان يؤدي واجبه فقط. هتفت "ميريام" باستنكار:

- واجبك يا ابن الحرام؟!

عقب انتهائها من الاطلاع على الخطابات، قصّت على "فرانك" الحكاية كاملة، وأخبرته عن هروبها مع "ليليانا" و"ليلي"، وكيف تم قتل الأمِّ وسرقة الابنة، وكيف اضطرت هي إلى الهروب للنجاة بحياتها.

8003

- ألم يبحث "آنيمال" عنها؟

- بلى، اتصل بـ"آنيت" ليرى إن كانت "ميريام" قد عادت لمزاولة عملها القديم. كان ما زال يأمل في العثور عليها وإقناعها بالعودة له، لكنه حين رجع إلى المنزل عقب بضعة أيام، ووجده خاويًا إلا من ملابسه، شعر باليأس.

8003

حين وصل "فرانك" إلى الفندق في اليوم التالي، سأله زملاؤه إن كان قد لمحَ "باتريشيا" في الفندق مؤخرًا. أحسَّ بقلقٍ بالغٍ، وأجاب:

- كلا، لم أرَها هنا منذ زمن بعيد.

لكن البوّاب أكّد رؤيته لها صباح أحد الأيام الماضية.. ربما قبل تسعة أو عشرة أيام. سألوا "فرانك":

- ألم تكن أنت الموظف المناوب في تلك الليلة؟

- لا أدري.. متى رآها البواب تحديدًا؟ لقد أخبرتُكم أنني لم أرَ "باتريشيا" منذ شهور.

كان يرغب في توجيه الأسئلة، ومعرفة أبعاد الموضوع، لكنه خشيَ أن يُثير شكوكهم باهتمامه الزائد، فاضطر لالتزام الصمت.

8003

حين دخل "بيتيوتي" الشقة، ووجدها فارغة، أخذ يركل الجدران بغيظ، إلى أن انهار من التعب، واستلقى على الأرض العارية حتى اليوم التالي. في الصباح الباكر، سأل البواب والجيران إن كانوا قد رأوا سيارة النقل. ردوا بالإيجاب، لكن أحدًا منهم لم يستطع تذكُّر اسم شركة النقل، أو يعرف عنوان المخزن الذي وضعتْ فيه "ميريام" حاجاتها.

أحسّ الضابط "بيتيوتي" بالحرج من مواصلة توجيه الأسئلة لهم، ولم يرغب في أن يظهر أمامهم في صورة العاشق المُعذَّب.

8003

- عرفت "ميريام"، فيما بعد، أنه حين وَصَلَ صاحب العمارة إلى الشقة، وجدها خالية من "آنيمال" وثيابه. لا بد أنه غادر في ذات اليوم. لم يشأ أن يلفت الانتباه إلى الأمر، فلم يَسْعَ لعمل تحقيقات مُوسَّعة بشأن اختفائها.

- كان من الصعب عليه أن يتقبل هَجْرَ حبيبته له، بهذه البساطة. ترى كيف برر الأمر لقائده "دوفاو"؟

ﮰﮱ

مساء ذلك اليوم، أحس "آنيمال" بالإهانة حين سأله الكولونيل بطريقة عابرة عن موعد زفافه المُرتَقب. أراد أن يقول له إنهما متخاصمان حاليًا، لكنه خشيَ أن تتعقَّد الأمور مع الكولونيل. أخرجَ طاقة الغضب التي بداخله في التحقيق مع المساجين، بكفاءته المعهودة. بمجرد وصول السجينة، لَكَمَها بقوةٍ لرفضها خلع ثيابها، ثم أمر العساكر بتقييد أطرافها الأربعة إلى لوح كبير.

رغم أن الضابط "بيتيوتي" خبير لا يُستهان به في عالم التعذيب، وهو الذي ينبّه زملاءه لضرورة البدء بكهربة العضلات الطويلة في الجسم أولًا، حتى تؤلم السجين دون أن تتسبب في إنهاكه وإفقاده القدرة على الكلام، فإنه ـ وفي فورة غضبه المتراكم ـ نسيَ توجيهاته، وبدأ بكهربة السجينة في المنطقة الحساسة.

تذكَّر ما قاله لرئيسه منذ دقائق:

- إنها منزعجة بعض الشيء، وحزينة جدًّا، لما حدث ذلك اليوم يا سيدي، كونها مُرْهَفة المشاعر؛ لكنني واثق بأنها ستتخطى هذه المحنة.

يُقلِّل من قوة التيار الكهربائي، ويصيح في السجينة:

- تكلمي يا عاهرة المعارضة! تكلمي!

الساعات الثلاث الأولى من عملية التعذيب هي الأهم، والأكثر فائدة، ويمكنك خلالها أن ترغمهم على الاعتراف؛ أما إن انتهت دون أن تنجح في استخلاص الكلام منهم، فإن العملية محكوم عليها بالفشل.

أحسَّ "بيتيوتي" برغبةٍ قوية في أداء مهمته بنجاح، وبخاصةٍ بعد أن شعر بإحراج بالغ أمام "دوفاو"، حين اضطر للقول إن خطيبته قد ذهبت لزيارة أهلها، وأنه سيُسافر إليها هناك لمصالحتها والعودة بها.

فيما كان يثبّت الأسلاك الكهربائية على حلمتي السجينة، تساءل: إن كانت "ميريام" قد لجأت إلى عائلتها في "كورونيل برينجلز" فعلًا، أم لا؟

قرَّر أنه سيذهب هناك في يوم إجازته، الأحد القادم. أكد لنفسه أنه يستطيع إقناعها بالعودة.

ഇ൬

حين ذهب "خافيير" وزوجته "لورا" لزيارة "ماريانا" ومولودتها، استقبلتهما "آميليا". قالت فور رؤيتهما:

- أنا هنا لمساعدة "ماريانا". الأيام الأولى شديدة الصعوبة دائمًا، كما تعلمان، والصغيرة لا تتوقف عن البكاء، لكن انظرا إليها.. أليست جميلة؟

أومأ "خافيير" بالإيجاب، وسألها:

- مَنْ تُشبِهُ؟

فكَّرت "لورا" أن كل طرف من العائلتين يتبارى في الادعاء أن المولود الجديد يشبه أفراد أسرته هو، وهو ما حدث حين أنجبت ولدها؛ لكنها أحست بدهشة بالغة حين أجابت "آميليا":

- إنها تشبه "إدواردو" جدًّا، أليس كذلك يا "خافيير"؟

- نعم.. ربما، لكنهم حين يكونون في أسابيعهم الأولى، يصعب حقًّا تمييز ذلك.

قالت أمه:

- أنت مُحقٌّ يا بني، ومع ذلك فإنها تحمل بعض ملامح "إدواردو".

وحتى تلتزم قواعد اللباقة والكياسة، أضافت:

- ولها عينا "ماريانا" أيضًا.

نظرت لها "لورا" بدهشة، وفكرت أن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، فعينا الطفلة لونهما أخضر صريح، بينما لـ"ماريانا" عينان عسليتان.

في طريق عودتهما، قالت "لورا" لزوجها:

- حماة أخيك مجاملة دائمًا.

أضافت:

- ألم تلاحظ أن "آميليا" مرتبكة بعض الشيء، وتتصرف بطريقة غير مألوفة؟ ولماذا ظهر الضيق على وجه "إدواردو" حين أصرت أن حفيدتها تشبهه؟

- حقًّا؟ لا أظنُّ ذلك. "إدواردو" يبدو سعيدًا.

- نعم، ولكنه انزعج حين قالت إن البنت تشبهه.

أكملت بثقة:

- الوضع غير طبيعي. صدقني يا "خافيير".

- غير صحيح! خيالك واسع!

- لا، أنت بنفسك الذي أخبرتني أن تصرفاتهم جميعًا كانت غير طبيعية ومثيرة للريبة، عقب ولادة الطفلة. لماذا لم يسمحا لك برؤيتها؟

- صحيح، لقد قلتُ ذلك حينها، لكن الوضع بات طبيعيًّا الآن، وأخي سعيد.

فكر قليلًا، ثم قال:

- حسنًا، يبدو منزعجًا وقلقًا بعض الشيء، لكن ربما هو مرهق فحسب. المواليد الجُدد يقلبون الحياة رأسًا على عقب.. هكذا شعرنا في الأشهر الأولى لميلاد "فاكوندو"، ألا تتذكرين؟

تتذكر بالطبع، لكن الوضع لم يكن بهذا التوتر الذي لمسته خلال الزيارة. هناك أمر غير طبيعي، لكنها لا تستطيع وضع يدها عليه. عليها أن تسكت، في كل الأحوال، حتى لا ينزعج "خافيير". ربما كان أساس المسألة هو كرهها الشديد لوالديّ "ماريانا" وعدم قدرتها على تحمّل تصرفاتهما المستفزة.

ﮩﮩ

أطلب من "فرانك" ألا ينتقل إلى الغرفة الثانية، وأن يبقى معي في غرفتي.

- لماذا؟ هل أنتِ خائفة؟

- نعم، ولكن حقيقة الأمر هو أنني أرغب في أنام معك. ألا أعجبك؟

يخبرني بأنني أستهويه، لكنه ليس زبونًا، وأنه يحاول أن يكون لي صديقًا مخلصًا.

- وما العيب في أن تظلَّ صديقي، وأن نمارس الجنس في الوقت نفسه؟

يبتسم "فرانك" ولا يقول شيئًا.

- حسنًا، لن أضغط عليكَ بإلحاحي المستمر. تعالَ واستلقِ بجواري. لن ألمسك.. هذا وعد مني.

حين ينام بجانبي، ألتصقُ به وأطلبُ منه أن يحتضنني. شيئًا فشيئًا، نتبادل القبَل بحرارة، ويخلع عني ثيابي. أستشعر حبه، لا رغبته فقط. لمساته الحانية تملأ عيني بالدموع. أشعرُ أنني سعيدة وحزينة في الوقت نفسه. أبكي لأنني لن أرى "فرانك" ثانية، لكنني لن أصارحه بذلك الآن. أحتضنُه إلى أن ينام بعمق.

اتخذتُ هذا القرار حين قصّ عليّ ما حدث في الـ"كلاريدج" اليوم. لا أريدُ أن أعرّضه للخطر. لا بد أن يكتشف أحد، بطريقة أو بأخرى، أنني أُقيمُ لديه، ولن يترددوا في طرده من وظيفته. أنا أيضًا في خطر. حين يغادر "فرانك" إلى عمله صباح الغد، سوف أخرجُ من هنا وأتَّجه إلى "كورونيل برينجلز". لن يخطر ببال "آنيمال" أنني قد أذهب إلى هناك. حصر بحثه عني في نطاق "آنيت"، على الأرجح.

بينما يغطُّ "فرانك" في النوم، أفكر فيما سوف أكتبُه له في رسالتي التي سأتركها له قُبيل مغادرتي شقته.

&&

بعد أن غادرت "ميريام" البيت بيومين، قام موظف الاستقبال العجوز بسؤال "فرانك" عنها. فأجابه، وهو يتفحَّص السجلات، متحاشيًا النظر إليه:

- "باتريشيا"؟ ماذا بها؟

قال الرجل إنه لا يعرف تحديدًا، لكنه تلقَّى اتصالًا من الوكالة يستفسرون فيه إن كان أحد من موظفي الفندق قد رآها. أعقب ذلك زيارةٌ من رجل يبدو

أنه من ضباط الجيش، وإن كان لا يرتدي زيًّا عسكريًّا، وقام هو أيضًا بالسؤال عنها، ثم هـدَّده قائلًا إنه سوف يعرّض نفسه لعقاب شديد، إن تبيَّن له أنه يكذب عليه. قبل أن يغـادر، أخـبره بأنه سوف يعود في اليوم التالي، ويريد معلومات عنهـا.. مثـل مَـن كـان برفقتهـا؟ وأيـن تُقـيم الآن؟

فكَّر "فرانك" أن ذلك الشخص هو "آنيمال" ولا شك. قرَّر أن يُمازِحَ العجـوز، حتـى يُخفـي اضطرابه، فقال:

- لا شك أنه أحد المعجبين القدامى، وقد استبدَّ به الشوق بعد اعتزالها المهنة!

عليه أن يُحذِّر "ميريام" من أن "آنـيمال" يبحـث عنهـا في كـل مكـان، وأنـه لا يـستبعد أن يذهب إليها في "كورونيل برينجلز".

ꕤ

نظرتْ إليّ خالتي "نونسيا" بعدم تصديق، حين رأتني أقف على بابها. أشـارتْ إلى حقيبتـي الضخمة، وسألتني:

- هل أتيتِ للاستقرار هنا، أخيرًا؟

- كلا، جئتُ لأراكم بضعة أيام. إن كان وجودي سيسبب لكم الإزعاج، فسوف أذهـبُ إلى الفندق.

- لا.. ستقيمين معنا بالطبع.

هأنا في حجرتي القديمة، التي كنتُ أشاركُ "نيومي" فيها. أنجبـتْ "نيـومي" مـؤخرًا طفلهـا الثالث. حين رأيته، انسابت دموعي دون توقف.

قالت بدهشة:

- لم أكن أعرف أنكِ تحبين الأطفال لهذه الدرجة؟

تذكرتُ "ليلي"، فقلت بحرارة:

- أحبُّهم جدًّا بالطبع.

أخبرتني أنها سعيدة لنجاحي وثرائي، وأضافت:

- لا ينقصكِ سوى الأطفال. لمَ لا تتزوجين وتتمتعين بالاستقرار وتربية الصغار؟

- نعم، سأفعل يومًا ما. لكنني كثيرة السفر الآن، بسبب عملي في عروض الأزياء.

أخبرتُها أنني سأسافر إلى إيطاليا قريبًا، ثم أذهبُ إلى فرنسا بعد ذلك.

الزواج وإنجاب الأطفال هما النصيحتان نفسهما اللتان وَجَّهَتْهُمَا إليَّ خالتي أيضًا، ونحن نشرب الشاي معًا. سألتني: إن كان لي حبيب؟ فأكدتُ لها ذلك، ووجدت نفسي أصف لها "فرانك".. أشقر الشعر، طيب القلب، مكافح ومجتهد في عمله، وله ابتسامة رائعة.

- أوه.. "ميريام"! أشعر بالفرح لسعادتك.

بعد أن استفسرت عن بعض التفاصيل المتعلقة به، سألتني:

- لمَ لا تتزوجان إذًا؟

- لا أستطيع الزواج الآن. لديّ عدة عقود لأنفذها في أوروبا خلال الفترة القادمة. بعد أن أعود ربما.

꧁꧂

لا أدري ما الخطوة القادمة. لا يمكنني البقاء هنا إلى الأبد، ولا أستطيعُ العودة إلى "بوينس آيرس" التي يفتش عني "آنيمال" فيها بجنون.

ما الذي يمكنني فعله يا "فرانك"؟ لا أستطيع أن أطلب منكَ المساعدة.

أذهبُ إلى البار. لم يتغير فيه شيء. يعرفني "إيلجوردو"، الـ"بارمان" السمين، ما إن يراني، ويهتف بسعادة:

- الملكة "ميريام"!

لقد نسيتُ، أنا نفسي، أنني كنتُ ملكة جمال "كورونيل برينجلز" في يوم من الأيام، لكنهم لم ينسوا. أطلب كأسًا من الويسكي، وأردُّ على أسئلته بالإجابات نفسها التي قلتها لـ"نيومي"، عن عقود دور الأزياء الكبرى في أوروبا، وعن نجاحي في عملي، وأنني جئتُ لتوديع عائلتي قبل سفري.

رغم سعادتي بالمحبة والترحاب اللذين استقبلني بهما الجميع، فإن حزني لم يفارقني. أشعر بالأسى حيال وجود "ليلي" مع هؤلاء القتلة، وموت "ليليانا" البشع، و"فرانك" الذي أخبرته بأن لن يراني مرة أخرى.

سوف أتصلُ به الآن. أستأذنُ "إيلجوردو" في استخدام التليفون.

꧁꧂

من حُسن الحظ أنها اتصلت بـ"فرانك" في تلك اللحظة، إذ ما إن سمع صوتها حتى أمرها بالمغادرة فورًا. حذَّرها من خطورة الوضع، وأخبرها أن أكثر ما يخشاه هو بحث "آنيمال" عنها في البلدة.

أنقذتْها هذه المكالمة. كان "آنيمال" والعريف "بيلون" في طريقهما إليها. بعد ساعات قليلة، كانا في بيت خالتها، يحطمان كل شيء فيه.

꧁꧂

لم يكن الوصول إليها صعبًا، فحين سأل عنها في البار، قال "إيلجوردو" إنها تُقيم لدى خالتها.

لم يصدق "آنيمال" الخالة حين أخبرته بأن "ميريام" رحلت صباح ذلك اليوم. دفعها جانبًا، وفتَّش المنزل بنفسه، محطمًا كل شيء في طريقه، فيما كان "بيلون" يصوّب مسدسه إلى رأسها، ليجبرها على ذِكْرِ عنوان ابنتها.

- ما دخل ابنتي وعنوانها في الأمر؟ قلتُ لكما إن "ميريام" ليست هنا، وأنها سافرت إلى إيطاليا.

حين توجَّها إلى منزل "نيومي"، لم تكن "ميريام" هناك. أصيب "آنيمال" بالجنون عندما دخل غرفة رضيعها، وحطمها تمامًا، ولولا أن تدخل "بيلون" وانتزع الطفل من يده، لألقى به أرضًا بمجرد أن علا صوته بالبكاء. لم يكن لدى المرأة أي معلومات عن ابنة خالتها، ورددت ما قالته أمها لهما، من أنها غادرت في الصباح الباكر دون حتى أن تُودِّعَ أحدًا. أضافت:

- إنها ناكرة للجميل، وهكذا هي طوال حياتها. لم أحبها يومًا..

تشعر "نيومي" بضغينة أكبر تجاهها الآن، بعد أن تهشَّم كل ما في البيت بسببها، واستحال حطامًا.

قال العريف "بيلون" إن "ميريام" ليست في البلدة كما يبدو، والأرجح أنها قد غادرت صباحًا كما يقولون. واصل كلامه لقائده، ناصحًا إياه:

- إن التصرُّف بعنف وبشكل يلفت الأنظار سوف يثير شكوك الناس، ويحرّك ألسنتهم بشتى الإشاعات السخيفة. المشكلة شخصية، ويجب أن تظل سرية. زوجتك ـ في نهاية الأمر ـ ليست سجينة هاربة، أليس كذلك يا سيدي؟

لم يقل "آنيمال" شيئًا، وركب السيارة مع العريف، عائدين إلى "بوينس آيرس".

في الثلاثين ميلًا الأولى من الطريق، قاد "آنيمال" السيارة وهو مستغرق في تفكير عميق.. ترى ماذا قصد "بيلون" حين استخدم وصف "سجينة هاربة"؟ ماذا يعرف عن الأمر بأكمله، بالضبط؟ هل حقًّا كان لـ"ميريام" دور في هروب السجينة؟

فجأة، أوقف السيارة بعنف..

- سوف تخبرني حالًا حقيقة ما حدث يوم السابع من ديسمبر.

لاحظ ارتعاش شفتيّ العريف "بيلون"، وهو ينكر معرفته بأي شيء.

- لماذا إذن قلتَ إن زوجتي ليست "سجينة هاربة"؟

أكّد "بيلون"، للمرة الثانية، جهله بالأمر وقال إنها مجرد كلمات غير مقصودة؛ لكنه تحت تأثير نظرات "آنيمال" الغاضبة، بدأ في الانهيار، فقال:

- تلك المرأة التي تبحث عنها يا سيدي، ليست هاربة كما قلتُ.. لكنها لا تستحقُّك.

- ماذا تعني بالضبط؟

قال العريف إنها كثيرًا ما كانت تحاول إغواءه. سأله الضابط عمَّا يقصد، وهل حدث ذلك داخل البيت؟ ردّ بالإيجاب، وقال إنه كان يدّعي عدم الفهم، احترامًا لسيادة الضابط. اختتم حديثه بالقول:

- كان الوضع غريبًا يا سيدي.

أدار "بيتيوتي" مفتاح السيارة، وانطلق بها صامتًا. لم ينطق كلمة واحدة طوال الطريق. قال لنفسه إنه كان يفضل أن يخبره "بيلون" بأنها أعانت السجينة على الفرار، على أن يقول شيئًا كهذا. كان يرغب في توجيه المزيد من الأسئلة له، لكن الغصة التي شعر بها، منعته من ذلك؛ كما أنه لم يكن يريد إذلال نفسه بسماع تفاصيل مخجلة عن سلوكها الشائن. سوف يعرف كل شيء من "ميريام" نفسها. إنه أكثر إصرارًا الآن على العثور عليها. يجب أن تدفع

ثمن إهانتها إياه. سينتقم منها بكل الوسائل التي يجيدها، وسيفعل ذلك ببطء شديد. سوف يستمتع بتعذيبها، بالقدر نفسه الذي استمتع فيه بالجنس معها.

حين تكلَّم أخيراً، لم يقل سوى:

- لا داعي لتذكيرك بأن كل ما حصل اليوم لم يحدث من الأساس.. وكذلك ما حدث في بيتي.

ﮰﮱ

أنا الآن في الفندق الذي ننزل فيه تحت اسم السيد والسيدة "هاريسون". غادر "فرانك" مسرعًا، لكننا ـ رغم ضيق الوقت ـ مارسنا الحب باستمتاع. طلب مني ألا أترك الغرفة أو أتحدث مع أحد، إلى حين عودته من إنهاء بعض المهام العاجلة. قبل أن يخرج من باب الحجرة قال لي:

- اطمئني.. سأهتمُّ بكل شيء لتتمكني من المغادرة بسلام ودون أدنى خطر.

أفكر في الاتصال بمنزل الكولونيل "دوفاو". يجب أن أحصل على معلومات عن الطفلة، أو أنجح في الحصول على رقم تليفون منزل ابنته، على الأقل. لكنني سرعان ما أتراجع عن هذه الفكرة، خوفًا من أن تجرَّ عليّ مشكلات لا طاقة لي بها، وخشية أن يغضب مني "فرانك" أيضًا.

حين صارحته بأنني أفكر في خطف "ليلي"، غضب واتهمني بالجنون.

أشعر بالجوع. أتصلُ بخدمة الغرف وأطلبُ ساندويتش همبرجر وعصير برتقال. أقول لهم:

- السيدة "هاريسون"، في الحجرة 328.

الـ"سيدة هاريسون"؟! أضحك طويلًا عقب وضعي سماعةَ التليفون. كيف أكون بهذه السعادة، والصديقة الوحيدة لي في هذا العالم ماتت مؤخرًا بطريقة وحشية؟ كيف أضحكُ وابنتها تعيشُ وسط مجموعة من المجرمين؟ و"آنيمال" يفتش عني كالمجنون؟ وضعي خطير جدًّا في الحقيقة. لكنني سعيدة، ولا أستطيع أن أنكر ذلك. لقد اكتشفتُ الآن فقط أن ممارسة الحب مع صديق، أو إنسان يدعمك بكل الوسائل الممكنة، هو من أروع متع الحياة! رغم اختلافه الجذري عني،

ورغم أنه ما زال يصرُّ على مناداتي بـ"باتريشيا"! مع كل ما يمرُّ بي من مصاعب، لا أملك إلا الاعتراف بأني سعيدة بلقب "السيدة هاريسون".

أتصلُ بخالتي، لأعتذرَ لها على رحيلي دون أن أُودِّعَها، واكتفائي بكتابة ورقة أشرح فيها اضطراري للمغادرة. أريدُ أن أخبرها أنني مع حبيبي، وأنني في منتهى السعادة.

تخبرني بانفعال بما فعله "آنيمال" ومرافقه، وتسألني عمّا ارتكبته، ولماذا يبحثان عني؟ لا أعرف بمَ أجيبها.

أقول لها في النهاية:

- لا أدري.

ثم أُقرِّرُ أن أقول لها شيئًا مقنعًا..

- أظن أنهما من رجال ذلك الثريّ الذي يُلاحقني في كل مكان طالبًا الزواج مني. رفضته عدّة مرات لأنني، كما أخبرتكِ يا خالتي، أحبُّ شخصًا آخر.

أجابت بنبرات أكثر هدوءًا:

- صحيح.. لقد قلتِ لي أنكِ تحبين شابًّا جيدًا. ما اسمه؟

أقول، دون تفكير:

- "بوبي". اسمه "بوبي".

أُنهي المكالمة بعد أن أخبرها بأنني سأسافرُ إلى إيطاليا في الغد، وأنني سوف أكتبُ لها خطابات مِن هناك، كما أعِدُها بإرسال مبلغٍ مالي يغطي تكاليف الأشياء التي كسرها "آنيمال" في بيتها وابنتها.

حين أبلغته "ميريام" بما حدث في البلدة، بعد مغادرتها، قال "فرانك" إنه اتفقَ مع صديقه "تشارلي" على أن يعبر بها النهر إلى الأوروجواي، في لَانش خاص به.

ꙮ

- لـ"فرانك" الكثير من الأصدقاء الأثرياء، الذين تعرف إليهم في أثناء دراسته في "لينكون"، بولاية نبراسكا الأمريكية، والتي التحق بها من خلال منحة دراسية حصل

عليها بسهولة أكبر من غيره لأنه نصف أمريكي. لم يعتمد على والديه، لأنهما لا يملكان شيئًا يذكر.

ظَلَّ "فرانك" على اتصال بعدد من أصدقائه، بعد أن تخرج. كان "تشارلي" أحدهم، وقد اعتاد التردد على الأوروجواي بزورقه البخاري. سأله "فرانك" إن كان بإمكانه اصطحاب امرأة من معارفه معه، قائلًا له إنه سوف يلحق بها بعد ذلك، ويقابلها في "مونتيفيديو". لم يسأله الصديق عن التفاصيل، إذ خمّن أن بينهما علاقة خاصة جدًّا.

ضحكت "لوث". سألها "كارلوس" عمّا يضحكها.

- تذكرت ما قالته لي "ميريام" وهي تسرد عليّ هذا الجزء من القصة.

أضافت على لسان "ميريام":

- حين رآني، لم يستطع إخفاء إعجابه الواضح بي، وحاول جاهدًا ألا يلمسني، رغم اقتراب أصابعه مني عدّة مرات. اضطررتُ لتأليف قصة أقولها له، من إنني انفصلتُ عن زوجي عقب تعرفي إلى "فرانك"، الذي أحببتُه على الفور. لكن الطلاق لم يتم بيني وزوجي بعد، وأن الأخير يشكُّ في تصرفاتي، ولهذا أحرصُ و"فرانك" على اللقاء في الأوروجواي كلما سنحت لنا الفرصةُ، حتى لا يعرف زوجي بالأمر، وتتعطل إجراءات الطلاق.

&&&

- لا أريدُ أن أسافر في الغد. أنا خائفة. لن أرحل دونك.

- أنتِ لا تدركين مدى الخطر المحيط بكِ. إن كنتِ مصممة على موقفك، فسوف أضطرُّ لاصطحابك بنفسي، رغم أن ذلك أكثر خطورة علينا نحن الاثنين.

- أنتَ محقٌّ. لا داعي لأن تعرض نفسك للخطر بسببي. لا أريدهم أن يقتلوك.

&&&

اتفقا على أن يلحق بها، لكنها في الواقع كانت تنوي عدم الاتصال به مجددًا، بأي وسيلة، لتحميه من أي مخاطر محتملة.

- ألم تتصل به بعد كل ما فعله من أجلها؟!

- نعم.. فكما أخبرتك، قررتْ أن تحميه بدافع حُبِّها الشديد لـه. لكـن "فرانـك" أسـاء فهـم موقفها، كما يبدو. بعد فـترة مـن هـذه الأحـداث، حـصل عـلى وظيفـة في الولايـات المتحـدة، وانتقلَ للعيش هناك. التقى بها مصادفةً في "بونت دل إيـستي"، التـي كـان يمـضي بهـا إجـازة عائلية مع أسرته. ذلك الشتاء، أخذ إجازة من عمله مدة شهرين، سافر فـيهما إلى الأوروجـواي ليلتقي بها. حدثَ ذلك بعد عدّة سنوات على رحيلها من الأرجنتين، وتحديدًا في شتاء 1983.

- وماذا عن "ليلي"؟

ابتسمت "لوث" وقالت:

- "ليلي"؟ "لوث".. كبرت "لوث" في رعاية أبويها الجديدين، عانت بـين الحـين والآخـر مـما أسمته "ماريانا" بـ"نوبات قلق قهري". لكنها ـ بـشكل عـام ـ كانـت سـعيدة، إلى أن حـلّ عـام 1983.

أضافت بسرعة:

- سوف أطلب الآن كأسًا من الخمر، قبل أن أسردَ عليك جميعَ أحداث ذلك العام.



1983

7



سار حفل عيد ميلاد "لورا" كأفضل ما يكون. انتهى الضيوف من تناول العشاء، ثم توزعوا في مجموعات، واختلطت أصوات ثرثرتهم ونقاشاتهم وضحكهم؛ لكن التوتر بدأ حين ذكرت "كارولا لوتشيني" الاختفاء المفاجئ لاثنين من أصدقائها، وعلَّقت:

- لم يرتكبا جرمًا، ولم يتورطا بالانضمام لأي منظماتٍ أو جماعات، ولم...

قاطعتها "ماريانا" بوقاحة:

- وما أدراكِ؟

- لأنني أعرفهما جيدًا، منذ كانا صغيرين، فأمي صديقة والدتهما. الفتاة معلمة في مدرسة خاصة، وليس لها أدنى علاقة بأي شيء يحدث حولها؛ أما شقيقها.. فأي جريمة سيرتكبها فتى صغير كان لا يزال في السابعة عشرة من عمره حين أخذوه؟

سألتها "ماريانا":

- حين ماذا؟ أنا لا أفهمكِ أصلًا!

لاحظ "إدواردو" أن "آلبيرتو لوتشيني" يحاول أن يُشير لزوجته ليلفت انتباهها.

- حين أخذوه.. أقصد حين قاموا باختطافه. كان الأمر بأكمله غلطة. لم يرَهما أحد مرة أخرى. الأم في حالة سيئة للغاية، أرسلت خطابات للجهات

المختصة، وعينت عددًا من المحامين قدموا التماساتٍ عديدة للمحكمة في محاولة لإثبات أن القبض عليهما تم بطريق الخطأ. التقت الأسرة ضباطًا كثيرين في الجيش والبحرية، وقابلوا عددًا من كبار رجال الدين في الكنيسة. لكن أحدًا لا يعرف شيئًا عنهما. أغلب الظن أنهما تعرضا للقتل.

ردت "ماريانا" بعنف:

- طالما أنهما تعرضا للاعتقال، فقد ارتكبا ذنبًا يستحقان عليه ذلك، هذا أولًا؛ أما ثانيًا، فمعرفتك الوطيدة بهما منذ صغرهما، لا تعني شيئًا. ربما كانا طفلين رائعين يتمتعان بالهدوء والتهذيب، لكنهما تعرضا لغسيل مُخ من الشيوعيين حين كبرا، وانضما لصفوف المعارضة.. وأنا متيقنة من أن أمَّهما من ذلك النوع الساذج الذي لا يعرف شيئًا عن أولاده، وما تفعله الآن لا يعدو كونه بكاء على اللبن المسكوب، لا أكثر. كان عليها أن توليهما اهتمامًا أكبر. هذا رأيي.

حاول الرجال أن يغيروا مسار الحديث، فقال "إدواردو":

- ما رأيكما في بعض المشروبات؟

فيما قال "آلبيرتو":

- والآن.. لِمَ لا نهدأ قليلًا يا بنات؟

لكن كلماتهما ظلت عالقة في الأجواء المشحونة المحيطة بالمرأتين. فقدت "كارولا" أعصابها وتساءلت: كيف لـ"ماريانا" أن تصدر أحكامها بهذه الثقة، وهي التي لم تقابلهما في حياتها مرة؟ أضافت أنهما رائعان على الأصعدة كافةً، ويتميزان بالتدين الشديد؛ أما أمُّهما فقد أولتهما أكبر قدر ممكن من الرعاية والمتابعة والاهتمام. قالت لها صراحة إنه يجب عليها ألا تتحدث بهذه الطريقة، لأنها لن تكتفي بالاستماع إليها في صمت. وأخيرًا سألتها باستنكار واشمئزاز:

- كيف تظنين أن صبيًّا في السابعة عشرة يمكن أن يرتكب جرمًا يستحق عليه هذا العقاب؟

وَضَعَ "إدواردو" يده على ذراع "ماريانا"، ناظرًا إليها برجاء صامت، فقد لاحظ عصبيتها الزائدة وهي تستمع إلى "كارولا". الأمر مُحرجٌ، لا لأنه يكره الجدل والشجار فقط، بل لأنه في بيت أخيه أيضًا، وهو و"ماريانا" مجرد ضيفين.

لكن زوجته تجاهلت توسلاته الصامتة، لأنها كانت توشك على الانفجار من شدّة الغضب.

- صحيح؟ هل هذا كل ما لديكِ؟ لعلكِ نسيتِ إذن تلك المراهقة التي صادقت ابنة رئيس جهاز الشرطة، ثم دخلت بيتهم وزرعتْ فيه قنبلة موقوتة؟ إنها مجرمة وقاتلة، وهي بنت لا تتجاوز الخامسة عشرة. هل تفهمين ما أعني؟ كون صديقك الصغير ذاك مجرد صبي في السابعة عشرة لا يعني أبدًا أنه بريء.

بدا واضحًا أن "كارولا" تحاول جاهدة السيطرة على أعصابها، حتى لا تمد يدها وتضربها. قالت:

- لقد قتلوه دون أن يخبروا أهله السبب. تقولين إنه معتقل.. حسنًا.. أين هو؟ في أي سجن؟ تكلمي! إن عائلته في حالة يرثى لها. ما رأيك لو حدث ذلك لابنتك؟

أجابت "ماريانا" ببرود:

- لن يحدث ذلك أبدًا. مستحيل. سوف أحرص على تربيتها ومتابعتها.

حاول "آلبيرتو" أن يتدخل، لكن زوجته قامت من مقعدها، وأشارت بسبابتها إلى "ماريانا" وهي تصيح:

- أنتِ لا تملكين أدنى فكرة عما تتحدثين عنه يا "ماريانا". الناس تختفي فجأة، منذ سنوات، بلا سبب واضح. والحقيقة أنهم لا يكتفون باختطافهم فقط، ولكنهم يستولون عل ممتلكاتهم أيضًا، ويقومون بـ ...

قاطعتها "ماريانا" بانزعاج:

- وماذا في ذلك؟ هل يُفترض بهم أن يتابعوا ما يحدث دون أن يتدخلوا؟ يبدو أنكِ غير مهتمة بالتفجيرات المتكررة، ولا برجال الأعمال الذين تختطفهم عصابات المعارضة، ولا بالخطر المحيط بنا جميعًا، أليس كذلك؟ عدم اهتمامك يعني شيئًا واحدًا فقط، وهو موافقتك وتشجيعك لكل ما يحدث.

لولا قيام "آلبيرتو" بجرّ زوجته جانبًا، وتهدئتها، لما انتهى الموقف.

قال "إدواردو" لزوجته معاتبًا:

- لماذا تهاجمينها بهذه العصبية؟ إنها تتحدث عن اثنين تعرفهما منذ الطفولة، ومن الواضح أنها تُكنُّ لهما محبةً خاصَّة.

- اخرس يا "إدواردو"! أنت لا تفهم شيئًا. إما أنك لطيف جدًّا لدرجة السذاجة، وإما أنك غبي.

لم يتمكن من الرد، لاقتراب "كارولا" و"آلبيرتو" منهما، حاملين كؤوس مشروبات في أيديهما. كان وجه "كارولا" محمرًا، وعيناها دامعتين. خاطبت "ماريانا" بصوت هادئ، وكأنها تسمّع كلامًا محفوظًا:

- أنا آسفة. أظن أنني اندفعت في نقاشي معكِ أكثر مما يجب. كل ما في الأمر أنني أحبهما جدًّا. تأكدي من أنني لا أوافق أبدًا على التفجيرات، أو القنابل، أو ما شابَهَ.

أومأت برأسها تجاه زوجها، أضافت:

- إننا ضد حرب العصابات، بالطبع. ضدها تمامًا.

ꕥ

بعد سبع سنوات بعيدًا عنها، بدت "بوينس آيرس" عالمًا غريبًا لـ"دولوريس". لم تتغير الشوارع والطرقات والأشجار والأماكن. لكن شيئًا ما في إحساسها تجاههم لم يعد كما كان.

ꕥ

مصادفة "إدواردو" لـ"دولوريس" كان لها تأثير كبير على حياته. حكايتها جعلته يدرك أنه لا يستطيع تجاهُل المسألة أكثر من ذلك. زوجة شقيقها كانت حاملًا حين اختفت.

سألها "كارلوس":

- مِن "دولوريس" يا "لوث"؟

- تجمعها صلة قرابة بأحد جيران عائلة "إيتورب". عاشت مع والديها في "بوينس آيرس"، واعتادت تمضية بعض أشهر الصيف هي وشقيقها "بابلو"، في مزرعة عمهما في "إنتري ريوس". كانت تصغر "إدواردو" بسنوات عدة. حين تكون في مُقتبَل العمر، يكون الفارق كبيراً، حتى لو كان أعوامًا معدودة؛ وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية

لعدم نجاح علاقتهما. أخبرني "خافيير" أن "إدواردو" كان يحب "دولوريس" في بداية شبابه، وأنه كان يمضي ساعاتٍ طويلة في كتابة الرسائل لها.. ثم تغيرت الظروف. لم تعد تذهب إلى مزرعة عمها، والتحق هو بالجامعة في "روزاريو"، وانتهت علاقتهما.. ولعلهما نسيا بعضهما بعضًا أيضًا. بعد اثني عشر عامًا، أي في شتاء 1983، تقابلا مصادفة في "بوينس آيرس". كانت "دولوريس" في زيارتها الأولى للأرجنتين، عقب سبع سنوات أمضتها في المنفى. لم تأتِ للإقامة، إذ كانت حياتها مستقرة في فرنسا، لكنها كانت في زيارة لبلدها للتواصل مع منظمة "جدّات ميدان دي مايو"، وهي المنظمة غير الحكومية التي تهتم بالبحث عن الأطفال والمواليد الذين اختفوا خلال فترة الحرب القذرة، كما تعلم. أخبرته بأنها جاءت بحثًا عن طفل معين.

ﮂﮃ

تمرّ سيارة التاكسي في شارع "ليبرتادور"، تحت زخات المطر. كان الجو ممطرًا أيضًا في اليوم الذي اصطحب فيه "بابلو" شقيقته "دولوريس" لتجربة السيارة الجديدة التي أهداها إليه أبويهما، بمناسبة عيد ميلاده الثامن عشر. قاد السيارة في الشارع ذاته، وهما يتبادلان المزاح والضحك. ما زال صوت تلك الضحكات يرن في أذنيّ "دولوريس" بوضوح شديد.. لكنها تحمل معها صرخات ألمٍ لا يُطاق.. لا تدري إن كانت آتية من العالم المحيط بها، الذي لم يعد "بابلو" جزءًا منه، أم من داخلها.. حيث يحتلُّ العذاب والأسى مساحات ضخمة من كيانها، رغم أنها لم تستمع إلى تلك الصرخات، في الحقيقة، سوى ليلة واحدة.

ﮂﮃ

تحمل "لوث" كراسة الواجب إلى "ماريانا"، لتريها ما انتهت من كتابته. تنظر إليها "ماريانا" بشرود، لحظاتٍ، ثم تغلقها وتعيدها إلى ابنتها:

- ممتاز يا حبيبتي.

- لا يا ماما.. انظري إلى كل ما كتبته. هناك المزيد في الصفحة التالية، وهناك رسمٌ أيضًا.

تصفَّحت الكراسة بسرعة، ثم دقَّت الجرس مناديةً "كارمن". حان موعد استحمام "لوث" ونومها.

- لا.. ليس بعد.. أرجوكِ.

أرادت "لوث" أن تلعب بمكعبات الـ"ليجو" الجديدة، وأن تصنع منها بيوتًا مع أمها.

تنزعج "ماريانا" من طبع "لوث" اللحوح، وتوسلاتها التي لا تنتهي حين ترغب في شيء. كانت تفعل ذلك الآن:

- مِن فضلك يا ماما.. أرجوكِ.. وافقي.. هيا..

تزايد انزعاجها حين لم تأتِ الخادمة على الفور، فوقفت أمام باب الغرفة وصاحت بصوت مرتفع:

- "كارمن"! حمّمي "لوث" وألبسيها البيجامة.

تدرك "ماريانا" أن السبب الرئيسي لانزعاجها، ليس تلكؤ "كارمن" ولا إلحاح "لوث" المتواصل، وإنما الشجار الذي اندلع بينها و"إدواردو"، عقب حفل عيد ميلاد "لورا" البارحة. أحسّت "ماريانا" أن زوجها لم يستوعب ما ترمي إليه "كارولا لوتشيني" بالضبط، وأنه لم يتفهم ردّ فعلها. أرادت أن تستكمل النقاش معه بعدها، لكنه قام بتغيير الموضوع، ثم تعمّد أن يكون بالغ اللُّطف لدرجة أنها اضطرت لتغيير أسلوبها الحادّ والغاضب.

إنه يفعل ذلك على الدوام.. يبالغ في إظهار عواطفه الجياشة، فتتناسى انفعالها، ولا تعبّر عن الضيق الذي يعتمل بداخلها؛ لكنها لن تدعه يفعل ذلك هذه المرة. سوف تواجِهُه حين يعود من "بوينس آيرس"، كما أن "كارولا" تستحق كل كلمة عنيفة وجهتها إليها. إنها على استعداد لتكرار التصرف نفسه مع كل من يدافع عن هؤلاء المجرمين أمامها. إن كان لـ"إدواردو" القدرة على الإنصات لكل الآراء، حتى التي يختلف معها جذريًّا، فهي لا تملك تلك القدرة.. عليها أن تشير إلى آرائهم الخاطئة وتصوّبها لهم. الهدوء والمرونة اللذان يتميز بهما يرهقانها أكثر مما يتخيل. لكنها حين تحاول مواجهته، يبدأ بالمزاح ومحاولة إضحاكها، ويعقب ذلك بالتعبير عن حبه لها، وعواطفه الساخنة تجاهها، وتنتهي المسألة باستسلامها له دائمًا. لكنها لن تسكت هذه المرة. "لوث" صارت تفهم كل ما يجري حولها، ولذلك يجب أن يتفقا على آراء مُوحَّدة فيما يتعلق بالقيم والمبادئ، لتتعلمها على النحو الصحيح. مشكلة "إدواردو" أنه شديد السذاجة، ولا يعرف حقيقة ما يجري في الأرجنتين، وهو ما يفسر

انحيازه إلى "كارولا" في تعاطفها مع أصدقائها المجرمين، بدلًا من أن يتساءل عن سبب دفاعها المُستميت عنهم.. ألم يخطر بباله أنها شيوعية؟

ولذلك، فإنه حين اتصل "إدواردو" بها ليبلغها بأنه سيضطرُّ لتأجيل عودته إلى يوم غدٍ، بسبب اجتماع طارئ، قالت له بلهجةٍ حاسمةٍ أن عليه أن يرجع الليلة، لأنها تحتاج لمناقشة أمرٍ مهم معه.

ﮪ

تنظر "دولوريس" إلى الشارع، عبر زجاج نافذة التاكسي المبلل بالمطر، فيلفت انتباهها اسمٌ مألوف.. "داندي". بعد كل هذه السنوات، وكل ما حدث، ما زال البار في مكانه، باسمه القديم، بلا تغيير. دون تفكير، تطلب من السائق التوقف. تدفع له أجرته، وتسارع بالنزول. تسير بين الطاولات والكراسي التي تعرفها جيدًا. من الجنون أن يظل "داندي" موجودًا كما هو، بينما لم يعد شقيقها موجودًا.

الأعوام التي أمضتها في فرنسا، صنعت قشرة رقيقة فوق جرحها، وأشعرتها بقدر ضئيل من السكينة.. لكن عودتها إلى "بوينس آيرس" نكأت جرحها وجددت آلامها. إنها تتعذب في كل لحظة. لن يشفيها ويعوضها إلا الانتقام، وأول خطوة في هذا الطريق هي البحث عن ابن أو ابنة شقيقها، مهما كلَّفها الأمر.

تجلسُ إلى الطاولة القريبة من الواجهة الزجاجية، وتطلبُ فنجانًا من القهوة بالحليب، وبعض الخبز المُحمَّص. تتأمل المكان حولها، فتهاجمها الذكريات الواحدة تلو الأخرى.. ترى نفسها بالزيّ المدرسي، و"بابلو" وأصدقاءه ينتظرونها أمام المدرسة. تستعيد اليوم الذي صارحت فيه "بابلو" بأنها تحبُّ "إدواردو" بجنون. تتذكر كيف كانا يخرجان مع مجموعة كبيرة من أصدقائهما للذهاب إلى السينما أو الحفلات، ثم يتجهون جميعًا لتناول السندويتشات والبيرة.. أما الصورة التي لا تفارق خيالها قط، فهي لـ"بابلو" الذي تعلو قسماته جدّية غير مألوفة، وهو يسرّ إليها برصانة خبر انضمامه إلى الحزب.

حين بلغت الثالثة عشرة، بدأت في التردد على "داندي" مع شقيقها الذي يكبرها بعامين. يتبادلان أسرارهما هناك، بعيدًا عن أبويهما وتدخلاتهما المستمرة. حين التحق "بابلو" بالجامعة، اختلفت مواعيده عن تلك الخاصة

بمدرستها، وأصبح له أصدقاء جدد، وابتعدا قليلًا عن بعضهما بعضًا، ولذلك شعرت بفرح حقيقي حين اقترح عليها أن يتقابلا في "داندي" مساء السبت.

فور رؤيته، عاتبته "دولوريس" لأنه لم يعد يُحبُّها كالسابق، وصار يجد صُحبتها مُثيرةً للملل. أنكر "بابلو" اتهاماتها بحرارة، وصارحها أن رؤيته للمجتمع بأكمله قد تغيَّرت تمامًا. حدّثها عن الصراعات الطبقية، والنظام البرجوازي الذي يفتقر إلى العدالة. أسرَّ إليها بأنه انضمَّ إلى الحركة الوحيدة الساعية إلى تنظيم الجماهير وقيادتها نحو الاتجاه الصحيح.. "حزب العمّال الثوريين".

تحدَّث بفخر شديد، وأعربَ عن سعادته لإحساسه بأنه عضوٌ مفيد في المجتمع.

كرّر كلمة "ثورة" عدّة مرّات، باستمتاع واضح، وكأنها قطعة حلوى يستحلبها في فمه بتلذُّذ.

أخبرَها بأنه حرص على إبلاغها بالأمر، ليس فقط لأنها أخته الحبيبة، ولكن لأنها صديقته المخلصة في المقام الأول. صارحَها بأن الحزب نصح أعضاءه بتعريف آبائهم بموضوع اشتراكهم فيه، لأن ذلك أكثر أمانًا؛ لكنه لا يملك الجرأة لمصارحة أبويه بذلك، ولذلك اختار وضع ثقته بها. اختتم حديثه برجاء حارٍ:

- لا تخبري ماما وبابا من فضلك.

- أنتَ محقٌّ. لا أظن أنهما سيتقبلان الأمر. هل تتذكر كيف أنهما لم يتفهما إحساسك بالحرج من قيادة السيارة التي اشترياها لك بمناسبة عيد ميلادك؟ حين قلتَ لهما إنك تخجل من امتلاك سيارة في الوقت الذي يعاني فيه العديد من الناس الجوع، أحسَّا بانزعاجٍ بالغ.

سكتت "دولوريس" قليلًا، ثم أضافت بنبرة مُستعطِفة:

- ما كان عليك أن تجرح مشاعرهما على ذلك النحو.

طلب منها "بابلو" أن تفكر في كلامها جيدًا، فليس من المعقول أن تحكم على الأمور من زاوية قناعاتها الشخصية فقط. عليها أن ترى الصورة الأكبر، المحكومة بالصراع الطبقي.

قال شارحًا:

- التفكير في الأمور تبعًا لمعتقداتك الشخصية، يزيدها غموضًا ويجعلك عاجزة عن فهمها؛ لكن رؤيتها من وجهة نظر تاريخية وموضوعية، تجعلك واحدة من الجماهير. تفهمينهم جيدًا، وتشعرين بأفراحهم وأحزانهم، وتحكمين على المسائل من وجهة نظرهم.

كم كانت المسافة الزمنية الفاصلة بين لقائهما في هذا المكان، واليوم الذي أخذت فيه أمهما تبكي بلا توقف، بينما راح أبوهما يصرخ فيه مُؤنِّبًا، بعد أن أعلن لهما أنه سيترك البيت ويستقل بحياته؟ ستة أشهر؟ عامًا كاملًا؟

حتى ذلك اليوم، كانت تحتفظ بسره لنفسها، ولم تَبُحْ به لمخلوق.. لا أبويها ولا حتى أقرب أصدقائها.

كان "بابلو" قد أعطاها نسخة من كتاب "الإنسان الجديد"، طالبًا منها قراءتها، لكن "دولوريس" أخبرته بأنها لا تريد التورُّط في السياسة. غضب منها وقال بعصبية:

- لِمَ لا تنزعين العصابة التي تُصرِّين على تغطية عينيك بها؟ لا أفهم إصرارك على التعامي عن كل ما يحدث حولك!

لم يتخاصما بعدها، لكن مشاغلهما الحياتية، واهتماماتهما المختلفة، لعبت دورًا في أن تباعِد بينهما.

التقى بها ثانيةً في "داندي". هذه المرة ليبلغها أنه سيترك البيت ويذهب للإقامة مع رفيقته "ميرتا" في أحد الأحياء الشعبية، وأعلن أنه سينتمي إلى طبقة البروليتاريا العاملة.

- البروليتاريا؟! ماذا تقصد؟ هل ستصبح عاملًا؟ هل جُننت يا "بابلو"؟ لماذا تفعلُ ذلك؟

حاول أن يشرح لها، لكن "دولوريس" وجدت صعوبة بالغة في فَهْمِ ما يقول، وقاطعته بغضبٍ:

- لماذا تتبع هذا الأسلوب دائمًا؟ لماذا تتطرف لهذه الدرجة في تطبيق آرائك ومعتقداتك؟! لماذا لا تتواصل مع الـ"جماهير" وتخدمهم، دون أن تعيش تفاصيل حياتهم البائسة كافة؟

أجابها أنه لا يستطيع أن يلومها أو يغضب منها، لأن أسلوبها وتفكيرها ناتجان عن تربيتها ونشأتها، والأشخاص الجهلة سياسيًّا الذين يحيطـون بهـا في كـل مكـان. قـال لهـا إن عليهـا أن تكون متأكدة أن جميع حركات المعارضة، سواء الـ"مونتنيرو" أو الـ"ماوية"، غير مُؤهَّلةٍ للصراع القادم؛ وحده "حزب العمال الثوريين" هو القـادر عـلى خوضـه والانتـصار فيـه. أنهـى كلامـه ناصحًا إياها بأن تستيقظ من سُباتها العميق لتتابع وتفهم ما يجري حولها.

سكت قليلًا، ثم أضاف بعد بُرهة:

- عليكِ ألا تتجاهلي احتياج المجتمع لمجهوداتك بالتعلُّـل بالعراقيـل الأكاديميـة. عليـكِ أن تسيري وسط جموع الجماهير وتشاركيهم طريقهم، سـواءً انتهـى بالنـصر أم بالهزيمـة. هـذان هما الخياران الوحيدان في الصراع الثوري.

احتاج الأمر وقتًا طويلًا، وعددًا كبيرًا من الخطابـات التـي حـرص عـلى إرسـالها لهـا باسـم مستعار، حتى بدأت في تفهم حماسته للقضية التي نذر نفسه من أجلها. لم يكن "بابلو" عازفًا عن الحياة، أو منساقًا لميول انتحارية، كما اعتقدت ووالدها في البداية، بـل عـلى العكـس مـن ذلك تمامًا، اتضح أنه محبٌّ للحياة، فقد كتب يقول:

- أنتِ مخطئة يا "دولوريس"، ليس الأمر أنني غير مبالٍ بحياتي، بل على العكـس.. صراعنـا بأكمله يدور حول الحياة ومن أجلها؛ لكنها، بالنسبة لنا، تعنـي شـيئًا مختلفًـا عـن معتقـدات الطبقة البرجوازية. نريد الحياة، ولكننا نريدها أن تحافظ على كرامة الجميع.

بدا من خلال رسائله سعيدًا ومليئًا بالحماسة.

༄

يُقـرِّر "إدواردو" أن يمـرّ ببـار "دانـدي" ليتنـاول مـشروبًا قبـل الاجـتماع الـذي سيحضره بعد قليـل مـع "أوروتيـا". مـن يـدري متـى سـينتهي الاجـتماع؟ يـشعر بالضيق لاضطراره قيادة سيارته عائدًا إلى بيته الليلة، في هـذا الجـوّ الممطـر، لكـن "ماريانا" أصرَّت على عدم بقائه في "بوينس آيـرس"، وصـممت عـلى رجوعـه فـور

انتهاء عمله، لأنها تريد مناقشته في أمرٍ مهم. لم يستطع أن يرفض، رغم تأكده بأن الموضوع يتعلق بما حدث البارحة في عيد ميلاد "لورا".

ربما كان من الأفضل لو لم يعاتبها حينها. عليه الآن أن يتحمل نتيجة تصرفه. في الواقع، يشعر باستياء وحرج من مخاطبتها لـ"كارولا" بتلك الطريقة التي تفتقد الاحترام واللياقة والتعاطف.

ما سرّ هجوم "ماريانا" عليها بذلك الأسلوب؟ إنها لا تعرف الأشخاص الذين تحدثت عنهم "كارولا" أصلًا! ثم إنها كانت تُوبِّخ المرأة، بدلا من مناقشتها وإبداء رأيها. ذكرته طريقتها بوالديها.. الثقة نفسها واليقين نفسه، والإحساس نفسه بأن دورهما في الحياة هو توجيه الآخرين وفرض آرائهما عليهم. عباراتها مجرد ترديد لكل شيء يقولانه.

ℬℭ

- ويسكي "أولد سماجلر" مع ثلج، من فضلك.

تقع عيناه على المرأة الجالسة بجوار الواجهة الزجاجية. يخامره الشَّكُّ أنه يعرفها.

"دولوريس"؟! غير معقول! ملامحها مختلفة، لكن هذا أمر طبيعي بعد مرور كل هذه الأعوام. أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى، فلم يعد بإمكانه رؤيتها. سمع منذ بضع سنوات أنها انتقلت إلى أوروبا، بصحبة شقيقها "بابلو". يقف، وفي نيته أن يذهب لتحيتها، ولكن ماذا لو لم تكن "دولوريس"؟ يجلس ثانيةً.. يُراقِبُها، فيلاحظ قَسماتها المُلتوية من الألم الشديد.. هل تبكي؟ نعم. إنها تمسح دموعها. لا بد أنها هي.

يشعر في أطراف أصابعه بملمس ثِمار الخوخ الناعمة، الباردة، التي اعتادا قطفها من أشجار "إنتري ريوس".

ما زالت "دولوريس" تخطر بباله أحيانًا، حين يقضم ثمرة خوخ.. ويستعيد مع وجهها إحساسه بالرغبة فيها، حينها.

يرتشف "إدواردو" الويسكي، وهو يفكر أنه إن ذهب ليسلم عليها الآن، فسوف تشعر بالحرج. ما الذي حَلَّ بها؟ المعاناة العالقة بملامحها مسحت أي أثر لابتساماتها المرحة وهي في الخامسة عشرة.

***

كانت مجرد مراهقة صغيرة حينهـا، وكنـتَ أنـت في الثانيـة والعـشرين. مارسـتَ علاقـات جنسية كاملة مع أربع أو خمس سيدات، كنـتَ معجبًـا بنفـسك وبإنجازاتـك الغراميـة! لكـن شعورك حيالها كان مختلفًا ومتميزًا وخاصًّا.. هي وحدها التي تستمتع بصحبتها لتلك الدرجة، وتحب أن تشاركها كل شيء.. الكلام والضحك والـلـهو والاستلقاء تحت أشعة الشمس، وركوب الخيل، والسباحة في النهر.. كل شيء معها كان له سِحرٌ خاصٌّ.

اتخذتَ قرارًا بألا تتمادى معها في المزاح، وألا تلمـسها بـشكل شـائن؛ لا لمجـرد أنهـا بنـت صغيرة، ولكن خوفًا من نفسك ومن رغباتك القويـة تجاههـا.. قـد لا تـستطيع أن تتوقـف إن بدأت. اكتفيتَ بخيالاتك وأحلامـك في لمـسها وتقبيلهـا وتحـسس صـدرها الناهـد.. لكنهـا ـ في نهاية الأمر ـ هي التي تولَّـت الأمـر بنفـسها، حـين اقتربـت منـك بـشفتين منفـرجتين وعينـين مغمضتين. لا شك أنها كانـت تقلـد مـشهدًا مـن أحـد أفـلام هوليـوود. لم تـستطع أن تتمالـك نفسك، وانجرفت في علاقة غير محسوبة. التقيتما يومين متتاليين على ضفة النهر.. صارت يدك تألف انحناءات جسدها، وعرفت شفتاك ملمس رقبتهـا وكتفيهـا. ظهـيرة اليـوم الثالـث، فـيما كانت يدك تتحسس فخذيها، وأصابعك تتسلل بثقة إلى الأعلى، ظهرت أمُّها.

أخذت تصرخ وتُكيل لك السُّباب والاتهامات (لا يتذكر ما قالته بالضبط، لكنه يتـذكر أنهـا كانت مُحقَّـة في كـل مـا قالتـه). وقـف بـسرعة وأخـذ يُعيـد ترتيـب ملابـسه، بيـنما خاطبـت "دولوريس" أمها، قائلة:

- لماذا تصيحين هكذا؟ إنه ليس مخطئًا. أنا التي طلبتُ منه ذلك. أين العيب فيما حـدث؟ نحن يحبُّ بعضنا بعضًا، كما تُحبان أنتِ وبابا بعضكما البعض. لماذا كل هذه الغضب؟ يجـب أن تفرحي لسعادتي.

أحسستَ بدهشة بالغة من جرأة "دولوريس".

أمرتها أمها بالانصراف، والعودة إلى المنزل. وقفتَ أنتَ حائرًا وخجِلًا، ولا تعـرف مـا الـذي ينبغي لكَ قوله. فيما كانت تبتعد، صاحت "دولوريس":

- أنا سعيدة جدًّا على فكرة..

أضافت:

- كان ذلك رائعًا.. شكرًا يا "إدواردو".

قالت لك أمُّها بوجهٍ مُتجهمٍ:

- يجب ألا يتكرر الأمر. أنتَ رجلٌ ناضج، وهي مجرد بنت صغيرة.

أكدتَ لها أن ذلك لن يحدث مرة أخرى؛ لكن ذلك لم يمنعك من التفكير فيها واشتهائها، ولحوالي عام كامل واصلتما تبادل الخطابات الساخنة، التي تفيض بالعواطف الملتهبة، ووضعتما خططًا مشتركة للهروب إن قرر والداها رفض ارتباطكما، لكنها لم تأتِ في الصيف التالي.. وتكفل الزمن بالباقي.

ﮔﮕ

حين رأت "دولوريس" مسكن "بابلو" و"ميرتا" في "سان جستو"، تضاءل إحساسها بالقلق. اطمأنَّت عند زيارتها له في بيته الصغير، إلى أنه سعيد بالحياة التي اختارها. كان قد مضى على انتقاله من بيت أبويهما نحو أربعة أشهر.

كانت قد التحقت بالجامعة، وبدأت تخصصها في قسم الدراسات الإنسانية. وجدت نفسها منجذبة إلى "الاتحاد اليساري للجامعة الأرجنتينية"، وقررت الانضمام ـ في أقرب فرصة ـ إلى "حزب الثورة الشيوعية" لتصبح أكثر قُربًا من "بابلو"، لكنه حين سمع ذلك قابَلَ الأمر برفضٍ واستهجان، وتحوَّل الأمر إلى جِدال مُتبادَل بين الاثنين.. سرعان ما أنهته "دولوريس" بتذكير أخيها أنها جاءت لتراه وتقضي معه وقتًا طيبًا، لا لتتناقش عن الإمبريالية السوفييتية، و"ماو" و"بيرون" و"سانتوتشو"، ومسار الثورة الحقيقي..

- لقد اشتقتُ إليك جدًّا، فلا تكن سخيفًا.. توقَّف عن الجدال والتوجيهات. على كل حال، لن ألتحق بأي حزب قبل استشارتك، ما رأيك؟ والآن أخبرني كل شيء عن حياتك..

قال لها إنه سعيد، لأن الانضمام للبروليتاريا أفاده جدًّا. أخبرها أنه يلقى دعمًا من جميع المحيطين به، وأن "ميرتا" صارت تعمل في مصنع للمنسوجات، وأكد لها أن الجماهير تُولي ثقتها بالحزب.

أخافتها حماسته الزائد للثورة، لكنها التزمت بالعهد الذي قطعته على نفسها بعدم معارضة آرائه السياسية، حتى لا يقاطعها كما فعل مع أبويهما، اللذين لم يرياه منذ عدة أشهر. تبكي الأم يوميًّا بسبب ذلك.

حين فاتحته في الأمر، قال:

- حسنًا.. سوف أتصلُ بماما. صدقيني.

قبل مغادرتها، اتفقا على أن تعاود زيارته الأحد القادم. وعدته "دولوريس" بأن تحضِر معها مكرونة ستصنعها بنفسها. قال بحماسةٍ إن "ميرتا" ستعدّ صلصة الطماطم. أضاف بفخر:

- صلصة الـ"مارينارا" التي تحضّرها، رائعة بمعنى الكلمة!

بعد بضعة أيام، اتصل بها ليسألها: إن كان بإمكانها أن تقابله في البار الواقع داخل محطة "ريتيرو"؟ حين ذهبت في الموعد، صارحها أنه أفلتَ من الاعتقال بمعجزة.. ففي طريق عودتِه للبيت، أوقفه أحدُ الجيران وحذَّره أن هناك مَنْ ينتظره في البيت، فهرب بسرعة. أخبرها أن "ميرتا" كانت في مقر مدرسة الحزب، طوال ذلك الأسبوع، ولذلك لم تكن في المنزل. حطموا كل شيء، ثم كتبوا الأحرف الأولى لـ"التحالف الأرجنتيني ضد الشيوعية" على الجدران، قبل مغادرتهم.

قال إنه طلب لقاءها، ليبلغها أنه مضطرٌّ للتخفي والتعامُل بسرية.

في بادئ الأمر، لم تفهم "دولوريس" معنى ذلك، لكنها استوعبت المسألة مع مرور الوقت، حين اتخذ "بابلو" اسمًا مستعارًا، وأخفى عنها عنوانه الجديد. يتصل بها أحيانًا في مكالمات سريعة هامسة، يُظلِّلُها الخوف. تتلقى منه خطابات بين الحين والآخر، تفضّها فور استلامها بصبر نافد. يتقابلان أحيانًا في أماكن بعيدة، ويسيران خلف بعضهما بعضًا، وكلاهما يتجاهل الآخر، إلى أن يشعر "بابلو" أن الوضع آمن، فيلتفت نحوها ويتحدث معها.

اضطرت "دولوريس" لإبلاغ والديها بحقيقة الوضع، إذ أشفقتْ عليهما من إحساسهما الدائم بإهمال ابنهما لهما، وعدم اهتمامه بمشاعرهما.

حين أخبرته بما يُحسِّانه، صاحَ باستنكارٍ:

- لكنني أحبُّهما، ولا أقصد الإساءة إليهما، وأنتِ تعلمين ذلك يا "دولوريس".. كل ما في الأمر أن النظام يعميهما عن رؤية الحقيقة.

وافَقَ على ما فعلته بمصارحتهما بأنه في حالة هروب. قال إن ذلك سيهيئهما لتقبّل الأسوأ، إذ إنه مُعرَّض للاعتقال في أي لحظة.

تتذكر "دولوريس" جيدًا اليوم الذي سمعوا فيه عبر الراديو خبر الهجوم الفاشل للمعارضين على مخزن الأسلحة الواقع في "مونتي تشينجولو"، في اليوم السابق على الكريسماس عام 1975، والذي خلّف حوالي مئة قتيل. بقيت ووالداها بجوار التليفون، في حالة صمتٍ تام، وقد استبدّ بهم القلق. ليته يتصل! ليته يطمئننا أنه بخير! ليته لم يُقتل!

كان الأب هو أول مَن امتدت يدُه إلى السماعة، ما إن رنّ التليفون. أعاد وضعها بعد لحظات قليلة، وهو يقول:

- "بابلو" بخير. لم يستطع أن يتحدث معكما، لكنه يبلغكما تحياته ويتمنى لكما عيدًا مجيدًا.

سارَ بتثاقُل إلى حجرته، وبدا كما لو أنه قد شاخَ فجأةً.

☙❧

كان قد مضى على هروب "بابلو" بعض الوقت، حين تم الانقلاب العسكري في مارس 1976.

☙❧

اصطحبت "دولوريس" أمَّها معها للقاء "بابلو" في "مورون". شدَّدت عليها أن تتجنب مناقشته بكل وسيلة ممكنة. عليها فقط أن تُقبّله على خديه، وتتحدث معه قليلًا، بمنتهى الهدوء. هذا كل شيء. لكنها، لفرط خوفها على ابنها، لم تستطع أن تلتزم بذلك، وراحت تحثُّه على مغادرة البلاد. أخبرته أن بإمكانها ووالده مساعدته في الأمر، فقد قاما بالتحريات اللازمة في تكتُّمٍ شديد. صديق لبابا مستعدٌّ لنقلهما هو و"ميرتا" إلى "إنتري ريوس" بطائرته الشراعية.

تحدَّثت الأمُّ بسرعةٍ، وبلا توقُّف، ووضعت أمامهما خُطتها المحبوكة، تمامًا كما كانت تحبك الخيوط الصوفية، بإبرتيها الطويلتين، بمهارة.. وهي تصنع البلوفرات له ولأخته.

امتلأ المطعم برائحة الزيت، وفتات الجبن المحترق، المتناثر من قطع البيتزا داخل الفرن. واصلت الأم حديثها بحماسةٍ:

- فور وصولكما إلى "إنتري ريوس" سوف يساعدكما صديق بابا في السفر إلى البرازيل، ومَن هناك يمكنكما أن...

قاطعها "بابلو"، قائلًا:

- انظري يا ماما!

فاتحًا الجاكيت الذي ترتديه "ميرتا".

لن تنسى "دولوريس" أبدًا نظرات الزهو في عيني شقيقها، وابتسامته العريضة.

أضاف ضاحكًا:

- هذا حفيدُك يا ماما. إنه يكبر بسرعة!

كانتْ حاملًا في الشهر السابع، حين تمّ اعتقالها.

لا تتذكَّر "دولوريس" من منهما عبّرت عن صدمتها أولًا، هي أم أمُّها، لكن صوت إحداهما تساءل:

- "ميرتا" حامل؟!

- نعم.. إنها نحيفة لدرجة أن الحمل لا يظهر عليها، أليس كذلك؟

أضاف مازحًا:

- مَن يَرَها يَظنّ أنها ابتلعت زيتونة!

حاولت الأم إقناعه أن هذا سببٌ أدعى لرحيلهما بسرعة، وتساءلت: كيف فكرا بالإنجاب وهما في مثل هذه الظروف من الهروب الدائم والتنقل المستمر؟

لكن "بابلو" أوضح بإصرار لا يقبل المناقشة، أنه لن يرحل إلى أي مكان، ولن يغادر البلاد أبدًا. إنه مسؤول عن الكثير من الناس، ولا يمكنه التخلي عنهم بهذه البساطة، في هذه الظروف الصعبة والخطيرة تحديدًا.

في نهاية الأمر، ولمجرد أن يتخلص من توسلاتهما، وعدهما بالتفكير في المسألة. صارحهما وهو يودعهما أنه قد لا يستطيع مقابلتهما مرة أخرى، كي يُحافِظ على سلامتهم جميعًا. اضطرت "دولوريس" لأن تجرّ أمَّها من ذراعها، وتبتعد بها قبل أن تخور قواها. داخل القطار، في طريق العودة، اضطرت "دولوريس" لأن تثرثر معها طوال الوقت، حتى لا تمنحها فرصة للتفكير أو الانهيار؛ ومع ذلك تساءلت الأم بشرودٍ وأسى:

- ما الخطأ الذي ارتكبناه في تربية ابننا ليصبح أنانيًّا بهذه الطريقة؟

أضافت:

- أقنعيه يا "دولوريس" حين يتصل بكِ. أرجوكِ. يجب أن يغادر البلاد بأسرع ما يمكن. قولي له ذلك. إنه يقتنع بكلامك دائمًا. عديني يا حبيبتي أن تطلبي منه الرحيل.

لم تسنح الفرصة لها للحديث معه، إذ أرسل لها "بابلو" خطابًا يبلغها فيه أنه لن يتمكن من رؤيتها خلال الفترة القادمة. تم اعتقال الكثير من الرِّفاق، لكنه بخير.

وضعت "دولوريس" خطتها باهتمامٍ بالغ، وجهزت ردودًا مناسبة لكل شيء قد يقوله لها، وطلبت من والديها عدم الرد على التليفون أبدًا. هي من ستتحدَّث معه، وتطلب منه لقاءها لأمر مهم وضروري. لن تتردَّد في الكذب عليه حتى يُوافِق على مقابلتها. إنها على استعداد لفعل أي شيء، حتى تراهُ وتُقنِعَه بالرحيل.

نجحت في الخطوة الأولى من الخطة..

تشعر "دولوريس" بألمٍ لا يُطاق. العذاب يُثْقِلُ روحها وضميرها. ليتها لم تلح عليه ليقابلها! لربما اتخذت الأحداث مسارًا مختلفًا حينها.. ليتها لم تقلْ شيئًا لـ"مونيكا".

ꕤ

أسرّت لصديقتها "مونيكا" أن "بابلو" وافق أخيراً على رؤيتها يوم الاثنين، في تمام السابعة؛ لكنها تعمّدت عدم إخبارها بالمكان.

ꕥ

لم تربط قط بين ما قالته لـ"مونيكا" والاعتقال. ظلت تتساءل طويلًا عن الكيفية التي عرفوا بها مكان لقائهما، وتأكدهم من وجود "بابلو" هناك في تلك الساعة. خمّنت أخيرًا أنهم كانوا يراقبونها، وتبعوها من لحظة خروجها من منزلها إلى أن رأته.

كانوا حوالي ثمانية رجال. ربما عشرة. حدث كل شيء بسرعة فائقة. غطوا رأسيهما وابتعدوا بهما.

ꕥ

لم تتذكر "دولوريس" أنها قالت شيئًا بهذا الخصوص لـ"مونيكا". نسيت ذلك الموقف تمامًا. لكن الأخيرة رأتها مصادفة بعد ثلاث سنوات في مدريد، واعترفت لها بكل شيء. كانت "مونيكا" صديقتها المُقرَّبة.

ꕥ

لا شيء يدوم تحت ضغط التعذيب.. لا الصداقة، ولا المحبة، ولا الإخلاص.. لا شيء بتاتًا.

ꕥ

- أكثر من عشرين عامًا كانت تفصل بين هذا الحدث ولقائي بها، ومع ذلك كانت لا تزال تشعر بتأنيب ضمير غير طبيعي لتفريطها في كتمان سِرِّ أخيها. إنها مُقتنعة أنها هي المسؤولة عن إلقاء القبض عليه.

- هل التقيتِ "دولوريس"؟

- نعم، منذ بضعة أشهر، من خلال "ديليا".. إنها إحدى الجدات الناشطات في البحث عن أطفال الحرب القذرة.

- حسنًا.. لماذا تشعر "دولوريس" بأنها المسؤولة عمًّا حدث؟

- لأنها حين التقت "مونيكا" في إسبانيا، اعترفت الأخيرة وهي في أقصى حالات الألم النفسي بأنها تعرَّضت لتعذيبٍ شديدٍ اضطرت معه لمنحهم معلومة مفادها أن "دولوريس" ستُقابِلُ "بابلو" قريبًا.

ﮋﮊ

أمضتا تلك الليلة في مدريد وهما تسرفان في الشرب، إلى أن ثملتا. بعدها أكَّدت "مونيكا" لـ"دولوريس" أنها لم تخبرها بمكان اللقاء. قالت لها أيضًا بأنها تعرضت لتعذيب بشع وآلام غير محتملة، بعد أن ثبتوا أسلاكًا كهربائية على حلمتيها. انهارت في نهاية الأمر، وزوّدتهم بالمعلومة الوحيدة التي تعرفها، إذ لم تكن تعلم شيئًا عن أي أحد، ولا تدري سبب اعتقالها. الاحتمال الوحيد هو علاقتها بذلك الشاب الذي ينتمي إلى "مونتنيرو"، أو ربما ألقوا القبض عليها بطريق الخطأ، كما فعلوا مع غيرها.

كررت ثانيةً أن لقاء "دولوريس" بأخيها كان المعلومة الوحيدة التي بحوزتها، وأنها ذكرتها لهم حتى يتوقفوا عن تعذيبهم لها. سألتها أخيرًا:

- هل بوسعكِ أن تسامحيني يا "دولوريس"؟

ﮋﮊ

سامحتْ "مونيكا"، لكنها لم تستطع قط أن تسامح نفسها. عجزت عن ذلك.

ﮋﮊ

- "دولوريس"؟!

تنظر إليه وتتأمل ابتسامته المبهجة.

- ألا تتذكرينني؟ هل أصبحتُ عجوزًا لهذه الدرجة؟

تومئ "دولوريس" برأسها دون أن تقول شيئًا. يبدو مألوفًا، لكنها ليست متأكدة من أنها تعرفه.

- حسنًا.. لقد كتبتِ لي مرة أنني فارس أحلامكِ الوحيد، وأن الحياة معي ستكون سعادة دائمة.. وهأنتِ قد نسيتني!

تعود، فجأة، مراهقة صغيرة تُمضي أيامها على ضفة النهر مع حبيبها الوسيم. تهتف بسعادة:

- "إدواردو"! هل هذا معقول؟!

ଌଓ

تسألها "لوث":

- متى سيعود بابا؟

- في وقت متأخر. ستكونين نائمة. سوف ترينه في الصباح.

- حسنًا، اقرئي عليّ حكاية إذن.

ଌଓ

- أتذكر بابا جيدًا وهو يحكي لي القصص قبل نومي.

يلاحظ "كارلوس" أنها حين تتحدث عن "إدواردو"، فإن صوتها يكتسب نبرات متميزة، مليئة بالحنان والمحبة.

- كانت قصتنا المفضلة تدور حول بنت من الفضاء الخارجي، اسمها "لوث" مثلي، وتقوم بمغامرات مدهشة. الأحداث دائمًا مُرتجَلة، يُؤلِّفها أبي في اللحظة التي يسردها فيها عليّ. كان حكّاءً بارعًا. ما زالت بعض حكاياته عالقة في ذاكرتي.

أجبر "كارلوس" نفسه على عدم التصريح بمشاعره الحقيقية. إنه لا يعرف طبيعة تلك المشاعر بالضبط، لكنه يدرك أنها غير منطقية وقاسية. لماذا يرغب في منعها من استخدام كلمة "بابا" حين تتحدث عن ذلك الرجل؟ ليس له الحق في ذلك، وبخاصة أنه لم يلتقِ بها إلا منذ ساعات معدودة. لا يمكنه تحطيم ذكرياتها السعيدة عن طفولتها، لمجرد أنه لم يكن جزءًا منها.

هل "لوث" مخطئة لأنها تحبُّ الرجل الذي اختطفها؟

يُتابِعُها وهي تقصُّ عليه باستمتاع إحدى تلك المغامرات المثيرة.. يصعب عليه تخيل هذه الشابة التي تجلس أمامه، كطفلة في الرابعة أو الخامسة. يدرك أن عليه التخلُّص من مشاعر الحقد والكراهية اللذين يحملهما تجاه ذلك الرجل وعائلة زوجته، والإنصات ـ عوضًا عن ذلك ـ إلى "لوث" والاستمتاع بحكايتها، التي تعني شيئًا كبيراً لها كما يبدو، وإلا لما حرصت على قصِّ تفاصيلها الساذجة عليه، وهو المتشوق لمعرفة الأحداث المهمة في حياتها..

حين تنتهي، يُشارِكُها الضحك ويعلّق بأنها حكاية رائعة.

ஐ

تفضّل "ماريانا" قراءة القصص من الكتب، إذ لا تملك موهبة زوجها في التأليف والارتجال. إنها مرهقة وغاضبة، لكنها ـ مع ذلك ـ قرأت على ابنتها بضع صفحات من كتابٍ للأطفال، كي تجعلها تنام بأسرع ما يمكن. لا ترغب في مواجهة ليلة أخرى من ليالي "لوث" السيئة التي تتكرر كل فترة. في تلك الأوقات، تتسع حدقتا عينيها الخضراوين، وتبدأ في الصراخ بخوف، كأنها تتعرض للقتل مثلًا.

أكّد طبيب الأطفال أنها مجرد كوابيس. فكّرت "ماريانا" حائرة:

- ما الذي يمكن أن يخيف طفلة صغيرة لهذه الدرجة؟

في بعض الأحيان، حين تعجز عن تهدئتها وإسكاتها، تستسلم بدورها للبكاء. يحمل "إدواردو" الطفلة ويحتضنها بقوة إلى أن تهدأ.

تعترف "ماريانا" لنفسها أنه أكثر صبرًا منها في التعامل مع "لوث".

كانت الطفلة قد نامت منذ بعض الوقت، حين اتصل "إدواردو" بزوجته ليبلغها أن عودته الليلة مستحيلة. امتدّ الاجتماع حتى هذا الوقت، لكنه لم ينتهِ. يجب مواصلة العمل في الغد. أخبرها بأنه سيغادر "بوينس آيرس" ظهيرة اليوم التالي.

لم تكن تلك كذبة بالضبط.. فلديه اجتماع فعلًا مع "أروتيا"، لكنه هو الذي طلب تأجيله من اليوم إلى الغد. فور أن أنهى اتصاله بزوجته، طلب رقم "دولوريس" وقام بدعوتها على العشاء. قالت ببساطة:

- بالتأكيد، لِمَ لا؟

لم تستغرب اتصاله بها بعد ساعات قليلة من لقائهما العابر في البار.

تبدو "دولوريس" حزينة جدًّا. لا تُخادِعْ نفسك. ليس هذا ما دَفَعَك للاتصال بها. أنت لا تسعى للتخفيف عنها. الحقيقة أنك تريد أن تراها وأن تُمضي معها أطول وقتٍ ممكن. ربما لن تسنح لك فرصة أخرى للقائها. هذا يفسر تهرُّبك من العودة لبيتك وزوجتك.

هل يمكنك أن تحكي لـ"ماريانا" ما حدث لـ"دولوريس"؟

كلا. ستكون أكثر عنفًا مما كانت مع "كارولا".. فـ"بابلو"، فعليًا، كان عضوًا في أحد الأحزاب اليسارية. هؤلاء الناس، في نظر "ماريانا"، هم الأشرار الذين لا يمكنها أن تتعاطف معهم أبدًا. حين سألتك "دولوريس" بمَن تزوجت، لم تجرؤ على قول الحقيقة كاملة، واكتفيت بالقول إنها مجرد فتاة من "بيونس آيرس". ذكرتَ اسمها الأول مرة أو اثنتين خلال حديثك، لكنك تعمدت عدم ذكر لقب والدها. خجلت من أن تصارح "دولوريس" بأن حماك ينتمي للمؤسسة العسكرية، عقب ما أخبرتك به. إنها تكرهُ الجيش، وهي مُحقَّة في شعورها طبعًا. ضع نفسك مكانها.. لو اختفى "خافيير" و"لورا" فجأة، أما كنتَ ستكره من فعل بهم ذلك، وتسعى للانتقام منه؟

تستعيد أحداث الليلة الماضية، خلال حفل العشاء في بيت أخيك، وتدرك أخيرًا أن أكثر ما أزعجك وأثار حرجَك هو اضطرار "كارولا" للاعتذار لـ"ماريانا" عن كل كلمة نطقت بها، وإصرارها وزوجها على توضيح موقفهما وأنهما ضد المعارضة. إنهما يخافانها لأنها ابنة "دوفاو".

حين سألتَ "ماريانا" في السيارة عن إصرارها على التحكم في معتقدات الناس وآرائهم، وانتقدتَ عدم قدرتها على احترام اختلافهم، صاحت بصوت مرتفع:

- هل هذا هو ما ترغب في تنشئة "لوث" عليه؟ أن لكل إنسان مطلق الحرية في التفكير والاقتناع بما يريده؟ هل هذا ما سوف تقوله حين تراها مُدمِنة مخدرات، أو عضوة في منظمات المعارضة؟

ꕤ

أبدت استياءها من أشرار المعارضة الذين هم خليط من المدمنين والمجرمين والشواذ جنسيًّا.. والذين لا يمكن أبدًا مقارنتهم بحُماة الوطن الطيبين، أمثال بابا العزيز.

في بعض الأحيان، تجد سذاجة زوجتك وتفكيرها الطفولي الأحمق أمرًا مضحكًا وظريفًا، لكنها حين تتحدث في السياسة تشعر بالتقزُّز منها ومن أسلوبها. عليك أن تتحدث معها. لا يمكن أن تستمرَّ قناعاتها على هذا النحو. إنها هي التي لا ترى الأمور على حقيقتها. ألم تلاحظ ما يحدث في البلد، في

السنوات الأخيرة؟ "دولوريس" نموذج حي. لم يكن لها علاقة بالسياسة قط، لكن ذلك لم يمنعهم من اعتقالها.

ᘐᘑ

على مائدة العشاء، قالت "دولوريس":

- خروجي سالمة مِن هناك، يُعتبر معجزة. كان بإمكانهم قتلي.

أجابها "إدواردو" بدهشة:

- ولِمَ يقتلونك وأنتِ لستِ طرفًا في حرب العصابات؟

تتأمله بمحبة، يخالطها إحساسٌ بالاشمئزاز لجهله. لماذا تتعب نفسها بالحديث مع شخص ضحل التفكير مثله؟

تُذكِّر نفسها بأنها في الأرجنتين، وليست في منفاها في أوروبا.. حيث الناس أكثر وعيًا وتفهمًا لمشاعرها. لكنها تُقرِّر أن تشرح له الأمر:

- صحيح. لم أكن طرفًا في حرب العصابات، ولم يكن لي أي نشاط سياسي من أي نوع، لكن ذلك لم يكن يعني شيئًا لهم. هل تظن أنهم أطلقوا سراحي لهذا السبب مثلًا؟

سكتت قليلا ثم أكملت في غضب:

- أم أنك تعتقد أن مَن كانوا يمارسون الأنشطة السياسية، أو مَن كانت لديهم رؤى تُغايِر أفكارك، يستحقون التعذيب المهين الذي تلقوه، والذي انتهى بقتل الغالبية العظمى منهم؟ هيا.. أخبرني!

تُعاتِبُ نفسها فور نُطقِها بتلك العبارات الجارحة. "إدواردو" لم يكن يقصد مضايقتها، وإلا لما ظَلَّ ممسكًا بيدها محاولًا تهدئتها وطمأنتها. عليها أن تتوقف عن الحكم على الأمور بصرامة، بأنها إما أبيض وإما أسود فقط.. يجب أن تتذكر أن هناك درجات مختلفة من اللون الرمادي فيما بينهما.

تذكِّر نفسها بأن حتى والديها لم يفهما الحقيقة وقتًا طويلًا جدًّا. ظَلَّ أبوها يردد بثقة:

- لن يقتلوهما. "ميرتا" حامل، والجيش الأرجنتيني لا يمكن أن يؤذي امرأة حاملًا أو يُسيء معاملتها.

كان والدها يتحدث عن جيش آخر، عرفه في زمن مختلف. لم يستوعب التغيير الذي حصل. أمضى أيامًا عديدة، وهو يقف بالساعات، أمام أبواب معارفه علّ أحدهم ينجح في التدخل لإنقاذ حياة ابنه، وفي كل مرة يتلقى إهانة جديدة. إما أن يرفضوا لقاءه، وإما يرددوا عليه أعذارًا زائفة لا معنى لها.

قدموا مئات الطلبات والالتماسات، وأرسلوا كمًّا هائلًا من الخطابات لكل جهة يعرفونها.. دون فائدة. فقدت الأم صبرها في النهاية، وأسرّت لابنتها بصوت غاضب:

- لقد أعطوا الطفل أحد.. أنا متأكدة. هؤلاء المجرمون..

نعم.. هناك دومًا درجات من الرمادي.

انتبهت من شرودها على صوت "إدواردو" معتذرًا:

- أنا آسف. لم أقصد أن أجرح مشاعرك. ربما هناك الكثير الذي أجهله، لأن لا أحد في دائرة معارفي مرّ بما عانيتموه. تأكدي أنني أرفض التعذيب، وقتل المعتقلين، وأؤمن تمامًا بأن لا أحد يستحق تلك المعاملة، ولا تلك النهاية. يهمني أن تعرفي أنني متألم جدًّا لما حدث لـ"بابلو"، وأنني أدرك جيدًا حجم المعاناة التي تعيشينها.

- أنا مدينة لك بالاعتذار يا "إدواردو". أنا لستُ على ما يُرام. ما كان عليّ أن أخاطبك بهذه الفظاظة. أحمل الكثير من الغضب والكراهية بداخلي، وما قلتَه فجّر داخلي كل تلك المشاعر. لم يكن من اللائق أن أردّ عليك بتلك الاتهامات. ربما لو لم أكن هناك تلك الليلة..

تصمتُ وهلةً، فتلاحظ أن "إدواردو" يُصغي إليها بانتباه واهتمام، تمامًا مثلما كان يفعل حين كان شابًّا ناضجًا، وكانت هي مجرد بنتٍ صغيرة. أليس من الغريب أن تكبر وتصبح هي الأكثر نضجًا وفهمًا، ويتحوَّل هو إلى ولد ساذج؟

تُذكِّر نفسها أن عليها أن تهدأ وأن تستمتع بوقتها معه قدر الإمكان. عليها فقط أن تستعيد ذكرياتهما الحلوة ومشاعرها الغضة، والنهارات المعطرة بشذا الخوخ.. يأتيها صوته مدافعًا عن نفسه:

- كل ما كنتُ أعنيه هو أنني ظننتُ أنهم حين يتأكدون من أن الشخص المعتقل غير متورط في السياسة، فإنهم يُطلقون سراحه على الفور.. الحقيقة أنني لا أعرف..

سكتَ حائرًا. قالت توضِّح ما حدث:

- دعني أخبرك إذن أن الضابط الذي أطلق سراحي، فعل ذلك لمجرد أنه قرَّر ذلك. أقصد دون سبب واضح. نظر إليّ، ثم قال: "اغربي عن وجهي أيتها العاهرة الشيوعية. إن رأيتُك مرة أخرى، فسوف أقتلُك. اذهبي الآن". هذا ما حدثَ بالضبط.

ﮦﮧ

أمضت هناك ليلة واحدة فقط، وأطلقوا سراحها في اليوم التالي. ظَلَّ أخوها هناك، وسمعت صرخاته المتواصلة وهم يعذبونه.

ﮦﮧ

تُنبِّه نفسها مرة أخرى: "توقفي! يجب أن تتوقفي حالًا. أنتِ هنا لقضاء وقت سعيد. "إدواردو" ليس منهم. لقد قدم اعتذارًا صادقًا، وها هو يستمع إليكِ باهتمام. نظراته الدافئة تعيدني إلى أيام سعيدة".

تبتسم له، فيقول بلهفة:

- أخبريني كل شيء. أريد أن أعرف.

- كلا.. أرجوك.. أريد ألا أفكر في الموضوع، ولو ساعاتٍ قليلة.

- "دولوريس".. إن كان بإمكاني تقديم المساعدة، بأي شكل، فلا تترددي في طلبها.

- نعم، يمكنك ذلك بالفعل من خلال مساعدتي على تذكُّر أيامنا الحلوة في "إنتري ريوس".

لانت قسماتُها قليلًا، وهي تستعيد لهوهما على ضفة النهر، وقالت:

- هل تعلم أنني أحببتُك بجنون؟ لا شكَّ أنني لم أكن في نظرك سوى طفلة بلهاء. هل تتذكر الرسائل التي كنتُ أكتبُها لك؟ كنتُ أطعمُها بأبيات من ديوان "عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة" للشاعر "بابلو نيرودا".

أضافت باسمة:

- كنتَ تجدها مضحكة ومثيرة للسخرية، أليس كذلك؟

يضحك ويقول:

- عليّ أن أعترف أنني كنتُ مغرمًا بكِ لدرجة العشق. صدقيني.

- لا بدّ أنك تمزح! أنت تبالغ أصلا! رسائلي كانت سخيفة، قصائد من هنا وهناك..

واقع الأمر أنه كان يعشق رسائلها، ويحب المشاعر الصادقة في سطورها. قال مازحًا:

- أنا مضطرٌ لعدم إخبارك بما كان يدور في رأسي، وجسدي معًا، حين أقرأ خطاباتك!

تعالت ضحكاتهما في المكان.

ꙮ

حين تعرض عليها أن تواصلا حديثكما في مكان آخر، عقب انتهائكما من تناول العشاء، تجيبك "دولوريس" بالموافقة.

تنتابك رغبةٌ مُلحَّة في أن تقول لها: "لنذهب إلى غرفتي في الفندق".

لكنك تسيطر على مشاعرك ولسانك، ولا تقول ذلك. تساعدها صامتًا في ارتداء معطفها، ثم تقترح اسم بار قريبٍ من المطعم.

حين يصلان البار، لا يدور الحديث عن النهر وأشجار الخوخ فـ"إدواردو" صادق في اهتمامه بمعرفة حقيقة ما حدث لها ولشقيقها.

أنتَ تضغط عليها لمعرفة المزيد. تتولى إدارة دفة الحديث. تتألم لمعاناتها، وأنت تستمع للتفاصيل.. الهجوم على مسكن "بابلو" وتحطيم محتوياته، القبض عليهما لاحقًا، الركلات القاسية والآلام غير المحتملة، صرخات "بابلو" المتواصلة تلك الليلة في المعتقل، واختطاف "ميرتا" وهي حامل في شهرها السابع. لم تكن "دولوريس" في الأرجنتين حينها. ما إن أطلقوا سراحها في اليوم التالي، حتى سارع أبواها بتهريبها خارج البلاد. نفذا الخطة التي كانت معدّة من أجل "بابلو" في الأساس.. أرسلاها إلى البرازيل أولًا، ومنها إلى فرنسا. أخبرته عن تواصلها مع منظمات حقوق الإنسان في أوروبا، قالت له إن خطتها في "بوينس آيرس" تتلخص في التواصل مع الجدات اللواتي يدرن منظمة البحث عن الأطفال المختطفين من

مراكز الاعتقال. قالت إنها تمضي وقتها في مقابلة أشخاص مختلفين والتحدث معهم وإقناعهم بضرورة العمل مع المنظمة ومساعدتها. صارحته بأنها تشجع والديها على تجاوز آلامهما والتواصل مع المنظمة. أين كنتَ أنت خلال كل هذه الأحداث التي تقصّها عليك "دولوريس"؟ في أي عالمٍ تعيش؟

ꕥ

- حتى اللحظة التي استمع فيها إلى "دولوريس"، وحكاية طفل شقيقها الذي لا يعرفون حتى إن كان ذكرًا أم أنثى، لم يكن قد خطر ببال "إدواردو" أن "لوث" يمكن أن تكون من ضمن مواليد المعتقلات.

علّق "كارلوس" بحدّة:

- مستحيل! غير معقول! لا أفهم إصرارك على الدفاع المستمر عن هذا الشخص، وتصديق كل كلمة يدّعيها. صحيح أنكِ تحبينه جدًّا.. لكن..

قاطعته "لوث" بحدّة مماثلة:

- هذا غير صحيح! أؤكد لك بأنه حتى تلك اللحظة، لم يكن يعرف أنهم يستولون على مواليد السجينات المختطفات. أنا أفهم ذلك جيدًا، لأنني أنا نفسي كنتُ أسمعُ تلك القصص تتردد أمامي، ولم يخطر ببالي أن أكون واحدة منهم.

- ولماذا يخطر الأمر ببالك، من الأساس؟ كنتِ تعتقدين أنكِ ابنتهما. لم يخبراكِ عكس ذلك أبدًا على ما أظن..

- صحيح أنهما لم يقولا شيئًا، لكنني ومنذ سِن مبكرة كنتُ أميل إلى الاعتقاد أن "ماريانا" ليست أمي الحقيقية، لكثرة العبارات الغريبة التي كانت ترددها على مسامعي، من أن جيناتي اللعينة هي سبب تصرفاتي المزعجة، وأن لشخصيتي جانبًا مظلمًا وغامضًا، وأن عيوبي سببها الوراثة.. وغيرها من العبارات الجارحة؛ ثم صرت أتذكر على الدوام ما قالته لي "ميريام" حين جاءت لتأخذني من المدرسة في أحد الأيام. لم أنسَ كلامها سنوات طويلة، رغم أنني كنت حينها صغيرة جدًّا.

- ماذا؟! مَن؟ "ميريام"؟! متى حدث ذلك؟

- لن أخبرك بهذه النقطة الآن، حتى لا تتداخل الأحداث وتسبب لك ارتباكًا. سأقصُّها عليك لاحقًا.

أضافت بعد برهة:

- ما وددت قوله هو أنني وحتى ولادة ابني، لم يخطر ببالي أنني من ضمن مواليد المعتقل.

- كيف توصلتِ إلى أنكِ واحدة منهم إذن، إن لم يخبرك أحد بحقيقة وضعك؟

- اسمح لي أن أسرد الحكاية بترتيب حدوثها.

أردفت قائلة:

- أخبرتُك أن "إدواردو" بدأ يشكُّ في أن "لوث" هي ابنة إحدى نزيلات المعتقل، عقب ما سمعه من "دولوريس". لم يفكر في الأمر قبل ذلك اليوم، وأنا متأكدة من ذلك. تصرفاته التي أعقبت لقاءه بـ"دولوريس" تثبت ذلك. قام باتخاذ خطوات خطيرة للغاية، في محاولة منه للوصول إلى الحقيقة.

علق "كارلوس" بسخرية:

- وما الذي حدث يا ترى؟ هل وصل "إدواردو" المسكين للحقيقة التي يفتش عنها؟

ثم سألها بعصبية:

- كيف يمكنكِ أن تدافعي عن الشخص الذي سرق هويتك؟

نظرت إليه بغيظ، وهي تحاول جاهدة أن تلتزم الصمت، حتى لا تجرحه بإجابة قاسية.

ذكر "كارلوس" نفسه أن عليه أن يتوقف عن هذا الأسلوب، فالفتاة تحب الرجل الذي تولى تربيتها، وهو لا يملك معاتبتها على ذلك. عليه أن يُخفي مشاعره الحقيقية تجاه ذلك المجرم.

بقيا صامتين فترة طويلة، وحين تحدثت "لوث" أخيراً، قالت:

- أفضّل لو أنك تستمع أكثر، وتتكلم أقل. في كل الأحوال، عليك أن تتوقف عن إصدار أحكام مسبقة على الآخرين.

ﮰﮱ

في ساعة متأخرة من الليل، يقوم "إدواردو" بتوصيل "دولوريس" إلى منزل والديها. يعدها أن يتصل بها عند زيارته لـ"بوينس آيرس" قريبًا.

- نعم. لمَ لا؟ كانت سهرة جميلة. سعدتُ برؤيتك.

لاحظت "دولوريس" الأسى المرتسم على وجهه، فأضافت:

- أكرر اعتذاري. لم أقصد أن أثقلك بالهموم على هذا النحو. ليتني اكتفيتُ باستعادة ذكرياتنا في "إنتري ريوس"، دون أن أقحمك في تفاصيل ما حدث لـ"بابلو".

- أنا أشعر بالسوء فعلًا، لكنه ليس ذنبك. صدقيني. على العكس، أنا أشكرك لثقتك بي، وإطلاعي على ما مرّ بكم. كنتُ أجهلُ كل هذه الأمور. صدقيني.

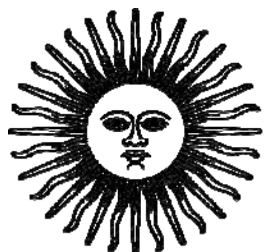
يقبّلها مودعًا:

- حظًّا سعيدًا يا "دولوريس"..

- في المرة القادمة، ستتولى أنت الحديث، وستخبرني عن حياتك، اتفقنا؟



8



حين لمحتهما معًا ذلك الصيف على الشاطئ في "بونتا ديل إيستي"، عادت الفكرة تلحّ على "ميريام" ثانيةً، بقوتها السابقة نفسها. كانت قد توصلت منذ فترة إلى أن قرارها القديم باختطاف "ليلي" وتربيتها بنفسها وإطلاعها على الحقيقة، ليس في الواقع سوى فكرة مجنونة وغير منطقية؛ ومع ذلك فإنها حين رأت "دوفاو" يسير على مقربة منها، ممسكًا بيد طفلة صغيرة ـ لا شك في أنها "ليلي" ـ دَقَّ قلبها بعنف، وأدركت أن رغبتها في اختطاف الطفلة واستعادتها منهم، ما زالت موجودة وبالحماسة ذاتها.

﴿﴾

خلال تلك السنوات السبع، حاولت إقناع نفسها أن الفكرة غير منطقية ومحفوفة بالمخاطر، لكنها في الوقت نفسه لم تتوقف عن التخطيط والتنفيذ؛ ولذلك فإنها ما إن وصلت إلى الأوروجواي، حتى بدأت في الادخار لتتمكن من العودة يومًا لأخذي والسفر بي ثانيةً. فكرتْ في التفاصيل كافة، رغم تأكيدها لنفسها أنها لن تفعل شيئًا، ولن تُعرِّض نفسها والطفلة للمخاطر.

في ذلك الوقت، بدأت الأوضاع في الأرجنتين تتغير. حين عاودتها فكرة استعادة الصغيرة، بدأت حرب الـ"فوكلاند"، وتعرضت الأرجنتين للهزيمة. اختلفت الحياة. لاحت في الأفق بدايات التحوّل إلى الديمقراطية. ربما لم تعد بحاجة للبقاء في المنفى.

تساءل "كارلوس" باستعلاء:

- وهل الأوروجواي منفى أصلًا؟! جيش الأوروجواي تعاون مع مثيله الأرجنتيني.

- على العكس، "ميريام" كانت في منفى فعلًا، لأنها لم تكن تستطيع العودة إلى بلدها. "آنيمال" كان ينوي قتلها. ألا تظن أن الظروف التي مرّت بها، والتي اضطرتها إلى الرحيل، تجعلها منفية وخائفة مثلكم؟

أضافت باستنكار بالغ:

- هل تظنُّ أن مَن يعيشون في المنفى هم مَن عملوا في السياسة فقط؟!

هزّ كتفيه بضجر واستهانة، دون أن يجيب.

واصلت "لوث" دفاعها عن "ميريام" بحماسةٍ:

- في واقع الأمر، عانت "ميريام" خوفًا شديدًا، لكن ذلك لم يمنعها من مواصلة التخطيط لاستعادتي، فبعد أربع سنوات من وجودها في الأوروجواي، تعرفت إلى شخص يعمل في تزوير جوازات السفر والأوراق الرسمية. أخبرته أنها تريد جوازي سفر لصديقة لها وابنتها الصغيرة، اللتين تمران بظروف صعبة للغاية في بلدهما وتحتاجان للمغادرة بأسرع ما يمكن.

ꕥ

في الليلة السابقة، وبينما كانت تتناول العشاء مع "فرانك" الذي راح يخبرها عن تفاصيل حياته في الولايات المتحدة، واصفًا منزله وحديقته ووظيفته، قاطعته فجأة:

- هل تظن أن "آنيمال" ما زال يبحث عني؟ لقد مضت سبع سنوات على مغادرتي.

- لا أدري. لماذا؟ هل تفكرين في الرحيل من الأوروجواي؟

لا تعرف إن كانت تريد ذلك أم لا، لكنها تفكر في الأمر على كل حال.. لديها وظيفة جيدة، ودَخْلٌ معقول. يمكنها أن تأخذ إجازة خلال شهر يوليو، كما فعلت العام الماضي. ثلاثين يومًا من الراحة المتواصلة، دون عروض، ولا مواعيد.. لا شيء على الإطلاق سوى الاسترخاء.

سألها "فرانك":

- ألا تفكرين في السفر كسياحة؟

لمحت في عينية آمالًا لم تفهمها.. هل يخطط لشيء معين؟ كل ما قاله هو أنه جاء خِصيصى لرؤيتها، وعندها أجابته:

- ما هذه المبالغة؟! لم تأتِ لرؤيتي فقط، بالتأكيد. لا بد أنك ستذهب لتمضية بعض الوقت مع أمك وأصدقائك، وربما ستقوم ببعض الجولات السياحية هنا في الأوروجواي. لن تلازمني طوال أيام إجازتك بالتأكيد؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيّ "فرانك"، لكنه لم يعلّق.

أجابت على سؤاله:

- كلا، لا أفكر في السياحة.

أوضحت له بأن حلم السفر راودها حين كانت تطمح لتقديم عروض أزياء في أشهر مدن الموضة حول العالم. أضافت أن تلك الأحلام وغيرها من الطموحات الكثيرة أصبحت عديمة المعنى ولم تعد تشغلها على الإطلاق.

قالت العبارة الأخيرة وهي تضغط على الكلمات، وتنظر إليه بطريقة ذات مغزى، علّه يفهم ما ترمي إليه.

أرادت له أن يعرف بأنه رغم روعة العلاقة التي ربطت بينهما قديمًا، فقد انتهت إلى الأبد ولا أمل في إحيائها مرة أخرى.

حين قابلته مصادفةً، ذلك الصيف، انتهزت الفرصة لتشرح له سبب عدم اتصالها به طوال السنوات الماضية. أخبرته أنها خشيت عليه من التورط في مشكلات لا حصر لها. لم يبدُ "فرانك" مقتنعًا بتبريرها، لكن الليلة التي أمضاها معها في شقتها، كانت كفيلة بإزالة أي سوء فهم بينهما. طلبت منه أن يزورها ثانية، متى عاد إلى أمريكا الجنوبية، لكنها لم تتوقع أن يعود بتلك السرعة، بعد أشهر قليلة فقط. قال "فرانك":

- توقيت إجازتي ممتاز، لأنه يتوافق مع إجازتكِ..

أضاف بشيء من المرارة:

- وإلا لما استطعتِ مقابلتي وسط جدولكِ المزدحم.

- ماذا كانت وظيفة تلك المرأة في الأوروجواي على كل حال؟ هل واصلت عملها بالدعارة؟

- في الفترة الأولى من وجودها هناك، عملتْ راقصةً عارية الصدر في أحد كباريهات "كاراسكو". كانت ترفض أن تلتقي الزبائن بعد ساعات العمل، ولا توافق على إقامة علاقات معهم. في بادئ الأمر، وجدت صعوبة بالغة في العودة لمهنتها القديمة فتاة ليل.. لكنها اعتادت الوضع مع مرور الوقت. أخبرتني أنها الشيء الوحيد الذي تُجيده حقًّا. حين وجد صاحب الكباريه أنها على استعداد لمثل هذا العمل، أعطاها رقم وكالة متخصصة، في "بونتا ديل إيستي"، حيث تمضي إجازتها الصيفية. إنها تكسب الكثير من المال خلال أشهر الصيف. إذًا، ردًّا على سؤالك، نعم.. واصلت "ميريام" عملها فتاة ليل محترفة، إلى أن عادت إلى الأرجنتين لتقوم باختطافي. بعد ذلك..

اعتدل "كارلوس" في جلسته، وسألها بدهشة:

- حاولت اختطافكِ؟!

أضاف بإعجاب:

- يا لها من امرأة شجاعة!

ابتسمت "لوث". أخيراً بدأ "كارلوس" يعجب بشخصية "ميريام"، لم يعد يراها امرأةً رخيصة، تدعي كذبًا أن علاقة ثقة وصداقة ربطت بينها وبين "ليليانا".

سعدت "لوث" بالتغيير المفاجئ الذي طرأ عليه، لأنها معجبة بـ"ميريام" وتُحبُّها جدًّا.

✽✽

سألها "فرانك":

- لماذا تفكرين في مغادرة الأوروجواي؟ حياتك لا بأس بها. هل تعبتِ من العَيش هنا؟

ابتسمت "ميريام". إنها تعرف كم يمقت نمط حياتها، لكنها تتجاهَلُ ذلك. قالت له إن الحياة هنا جيدة، لكنها في الثانية والثلاثين، والعمل في مجالها بعد تخطّي الثلاثين لا يدوم طويلًا. أضافت أن هناك أمورًا تشغل بالها حاليًا، ولذلك فإنها أخذت هذه الإجازة لكي تتفرغ للتفكير والتوصُّل إلى قرار.

قال "فرانك" بحماسةٍ:

- حقًّا؟ فيمَ تفكرين؟

تمنى أن يكون للموضوع علاقة به، ولم يدرك أنها لم تعد تفكر سوى في "ليلي" وإنقاذها ممن يحيطون بها.

أضاف بإلحاح:

- أخبريني فيما تفكرين، لأساعدكِ في اتخاذ القرار.

ضحكت "ميريام" وأضافت:

- لا أستطيع. خططي سرية للغاية. أكثر مما تصور!

كانت تحاول أن تخفي مدى أهمية المسألة بالنسبة لها، تحت ستار المزاح.

هل تجرؤ على إخباره بأنها تنوي اختطاف "ليلي" والهرب بها إلى مكانٍ مجهول، لا يمكن لأحد التوصُّل إليه؟ سيعتقد أنها مجنونة.

يتساءل "فرانك" عن سبب استفسارها المتعلق بـ"آنيمال". هل تفكر حقًّا في العودة إلى الأرجنتين؟ هو، عن نفسه، لم يعد يتحمّل العيش هناك، ويكتفي بزيارات متباعدة. أصبحت الحياة في "بوينس آيرس" أمرًا مستحيلًا.

- قد أعود إلى هناك. لمَ لا؟ لم يعد الوضع بالخطورة نفسها الآن، ولا شك أن "آنيمال" قد نسيني بعد كل هذا الوقت، ثم إن الجيش في طريقه للتخلي عن الحكم. لن أكون معرضة لأي أذى.

- لستُ متأكدًا من مدى صحة ما تقولين. غير معقول أن ينساكِ ذلك الشخص، عقب ما فعلتهِ به. الحقيقة أن نسيانكِ أمرٌ صعب. أنا شخصيًّا فشلت في ذلك.

لم ترغب في رؤيته مستغرقًا في أحلامه وآماله؛ ربما كانت ستفكر في أمر ارتباطها به، لو لم تلمح "ليلي" على الشاطئ، فمنذ أن رأتها أصبح الشيء الوحيد المسيطر على تفكيرها هو اختطاف الطفلة.

ليس بمقدورها إطلاع "فرانك" على ما تفكر فيه، ولذلك ادّعت أنها ستؤسس عملًا خاصًّا بها في الأرجنتين، إما في "بوينس آيرس" نفسها، أو في

إحدى المدن الكبيرة. ستنشئ ملهًى ليليًّا، وستكتفي بإدارته فقط، بينما تقوم الفتيات اللواتي ستجلبهن بكل العمل.

قالت ضاحكة:

- سوف أكون قوّادة المكان!

ابتسم مجاملًا، إذ لم يجد الأمر مضحكًا على الإطلاق.

حين بدأ بخلع ثيابه، فكَّرت أنها لا تريد أن تمارس معه الحب، ولا حتى أن تنظر إليه.. حتى لا يطغى على تفكيرها وأحاسيسها، فتنسى أمر "ليلي". امتدت أصابعه الدافئة تحت بلوزتها.. عليها ألا تستمر، يجب أن تظل صورتها بصحبة "ليلي" حيّة في خيالها، لكنَّ يَدَه التي راحت تضغط بلمساتها القوية على فخذيها، جعلتها تستسلم في النهاية، وتتجاوب مع عواطفه الساخنة.

حين أحست أنه يرغب في قول شيء، تمنت لو يظل صامتًا، لأنها تعرف ما سوف ينطق به. لكنه تكلم:

- "ميريام"، ما رأيكِ لو تسافرين معي؟ سنعيش معًا، ونرى كيف تسير الأمور.

قالت بضحكة مغتصبة:

- لا تكن سخيفًا يا "فرانك"! ما الذي سأفعله هناك في ذلك المكان البعيد؟ كما قلتُ لك منذ قليل، لديّ خطة أنوي تنفيذها.

عليها ألا تسمح له بتغيير خطتها. عرضه مُغرٍ جدًا، وهي تحب صحبته، هذا صحيح، ولكن لديها هدفًا أهم، وقد عثرت مؤخرًا على الخيوط التي ستوصلها لتحقيقه، وبدأت تمسك بها بين أصابعها.. فحين رأت الطفلة مع "دوفاو" أدركت أنها لا تعرف الاسم الذي أطلقوه عليها، ولا لقب والدها الجديد.. وتجهل عنوانها وكل شيء عنها.. إذًا عليها أولًا أن تجمع المعلومات اللازمة عنها. سارت خلفهما، وراقبتهما جيدًا. حين وصلا إلى مجموعة الناس الذين أتوا للقائها، استلقت على بطنها، قريبًا منهم، وأرهفت السمع محاولةً التنصت عليهم.

൬൫

قال "كارلوس":

- كيف إذًا توصلتْ إلى معرفة اسمك وعنوانك؟

- في صيف 1983، سافرنا إلى "بونتا ديل إيستي"، تلبيةً لدعوة إحدى العائلات الصديقة لأسرة "دوفاو"، واسمها "فينتشورا".

صمتت قليلًا، وهي تفكر بعمق، ثم قالت بصوت أقرب للهمس وكأنها تحدث نفسها:

- كانت تلك هي المرة الأولى التي رأيت فيها "دانييل". لقد نسيتُ ذلك. كان حينها لا يزال مع زوجته وأطفاله، لم يكن قد انفصل عنها بعد.

سكتت مرة أخرى، وقتًا طويلًا. نظرت حولها بعينين شاردتين. سألها "كارلوس":

- ما الأمر؟ ما الذي يزعجكِ؟

- لا شيء.. حين استعدت في ذهني ذكريات ذلك الصيف، خطر لي للمرة الأولى مدى أهمية "دانييل فينتشورا" في حياتي. أصبح له تأثير كبير عليّ فيما بعد.

أردفت "لوث":

- حين رأتني "ميريام" مع "آلفونسو"، نظر إليها ولم يتعرَّف إليها.. كنا نذهب إلى الشاطئ نفسه يوميًّا. في إحدى المرات، دخلتْ البحر ورائي وسبحت بجواري. في مرة أخرى، لعبتْ معي على الشاطئ وساعدتني في بناء قصر من الرمال، ولكن حين اقترب منا "آلفونسو" سارعت بالابتعاد، خوفًا من أن يتعرف إليها. حين أخبرتني مؤخرًا أنها أمضت ساعات طويلة، حينها، في مراقبتي، شعرت بتأثر بالغ. غريبٌ جدًّا أن يُحبَّك شخصٌ لا تعرفه، لهذه الدرجة! من خلال استماعها للحوارات الدائرة بين الأشخاص المجتمعين قريبًا منها، استخلصت "ميريام" أن أبوي الطفلة هما "ماريانا" و"إدواردو إيتورب"، وأنهما يعيشان في منطقة "بارانا" بمدينة "إنتري ريوس"، وأنهما يمتلكان أراضي زراعية هناك. حين عقدت "ميريام" العزم على تنفيذ خطتها، كانت كل المعلومات التي تحتاجها متوفرة.. لقب العائلة واسم المدينة.. ولم يكن الحصول على العنوان، من خلالهما، صعبًا على الإطلاق.

❧

لأنها كانت تحبُّه جدًّا، خشيت "ميريام" أن يؤثر وجوده فيها وفي قراراتها، ولذلك طلبت منه عدم المبيت لديها تلك الليلة، ووعدته بلقاء قريب. دون أن يدري،

كان "فرانك" سببًا رئيسيًّا في تهورها وتعجلها تنفيذ الخطة. قرَّرت التوجُّه، في أقرب فرصة، إلى "بوينس آيرس" ومنها إلى "إينتري ريوس". إن لم تكتمل خطتها بنجاح، فسوف تهرب وتغادر البلد على الفور، أما إن تمكنت من الحصول على "ليلي"، فسوف تأخذُها معها وترحلُ بها إلى أبعد جهة ممكنة.

في اليوم التالي، التقت الرجل الذي يزوّر المستندات الرسمية. طلبت منه جوازي سفرٍ لها وللطفلة التي أحضرت لها صورة، كانت قد التقطتها لها مؤخرًا على شاطئ البحر. ألَّفت له قصة طويلة عن اضطرارها لاستخدام صورتها هي في الجواز الذي سيصدر باسم صديقتها. راحت تُثرثر، لكن الرجل بدا غير مُهتمٍ على الإطلاق سوى بالأموال التي سيحصل عليها منها. ألقى نظرة على صورة الطفلة، وأعلن صعوبة استخدامها. لكنه عاد فطلب مبلغًا إضافيًّا من المال، ليتمكن من ضبطها بتقنيات معقدة كما قال.

التقت "فرانك" خلال تلك المدة. ظلت في صراع بين حُبِّها له ورغبتها فيه من جهة، وواجبها في الحفاظ على الطفلة من جهة أخرى. أبلغته بأنها ستسافر في رحلة عمل إلى "بوينس آيرس"، وبإمكانه لقاؤها هناك.

ஐ

يقود "إدواردو" سيارته عائدًا إلى "إنتري ريوس"، وهو يشعرُ بارتباك شديد. ما سمعه من "دولوريس" أثَّر فيه بشدة. أكثر ما آلمه هو الجزء الخاص بزوجة أخيها الحامل، والتي اختفت دون أن يعرفوا مصير طفلها، وهل ولدته أصلًا أم أنهم قتلوها قبل ذلك؟

يشعرُ أنه في دوَّامة تدور به بعنف منذ أن سمع كلماتها. يتردد في رأسه تساؤل مُلحٌّ: ماذا لو كانت "لوث" هي الطفلة التي تبحث عنها "دولوريس"؟

سألها "إدواردو" عن الشهر والعام الذي اختفت فيه زوجة "بابلو".

كان في شغفٍ لمعرفة الإجابة، ولا يريد سماعها في الوقت ذاته.

لم تكن "دولوريس" متأكدة، ولكن أغلب الظن أن الطفل ولِد في شهر يوليو.

حمدًا لله.. إنها ليست "لوث"، فقد وُلِدت في شهر نوفمبر.

ولكن ما أهمية أنها ليست ابنة "بابلو"؟ إنها ابنة سجينة أخرى على الأغلب. لم يخطر الأمر ببالك مسبقًا. لم تظنّ أنهم بهذه الحقارة والخِسة.

لكنك أنت نفسك لا تَقِلُّ وضاعةً عنهم، والدليل أنك لم تبحث عن الحقيقة بالجدية اللازمة. أقنعت نفسك بتصديق ما قاله "آلفونسو" من أن أمها فتاة طائشة، سيئة الأخلاق، حملت بها عن طريق الخطأ.

تجنبتَ سؤال "آلفونسو" عن أصل "لوث" ومن أين أتت.. تشعر الآن بالارتياب، وتثقلك الهموم والأكاذيب، ويملأ العذاب ضميرك. هذا أيضًا ما أحسستَ به في بداية حصولك على المولودة، لكنك سرعان ما استسلمتَ للبهجة التي أضفتها على حياتك، واعتدت السعادة التي تتلقاها عبر ابتساماتها وكلماتها البريئة.

في بداية الأمر، خشيتَ أن تستفسر "ماريانا" عن سبب اختلاف شكل "لوث"عنكما أنتما الاثنين.. بشعرها الذهبي وعينيها الخضراوين اللتين لا تمتّان لملامحكما بصلة. لكن مع تغاضي الجميع عن هذه المسألة، تناسيتها بسرعة.

حاولتَ جاهدًا نسيان المسألة، أنت تحبها لدرجة أنك تشعر بأنها جزء منك.

فور وصول "إدواردو"، قالت "ماريانا" إنها تريد التحدث إليه في التوّ، لكنه أخبرها بأنه بحاجة لفنجان من الشاي أولًا، وتمضية بعض الوقت في اللعب مع "لوث". سألها إن كان يمكن تأجيل المسألة حتى وقت العشاء.

جاءت "لوث" وأحضرت كراستها لتُريه رسوماتها. دون أن ينتظر إجابة "ماريانا"، تصفح الكراسة باهتمام بالغ، مبديًا إعجابه:

- جميل جدًّا.. أحسنتِ.

في بعض الأحيان، تشعر "ماريانا" أنه يحبُّ "لوث" أكثر منها بمراحل. تتابعه وهو يناول الطفلة علبة ألوان الشمع التي أحضرها لها. لماذا يتصرف على هذا النحو، رغم علمه أنها تريد مناقشة أمر مُهم معه؟

قالت وقد بدأ صبرها ينفد:

- يجب أن نتحدث الآن.

نظر إليها بانزعاج، ثم واصل حديثه مع ابنته عن علبة الألوان الجديدة، وعن المدرسة، متجاهلًا "ماريانا" تمامًا.

قالت:

- ما دامت ابنتُكَ تهمُّك لهذه الدرجة، فيجدر بك إذًا أن تسمع ما سأقوله لك. سأنتظرك في حجرة النوم.

لم ترفع صوتها، لكن السيطرة التي انطوت عليها نبرتها الحادة، كانت واضحة جدًّا.

ﮪ

كانت هذه اللحظة منعطفًا خطيراً في حياتهما الزوجية، فبعدها تزايدت خلافاتهما التي دار أغلبها حول القضايا السياسية. امتدَّ شجارهما أحيانًا إلى أمور شديدة التفاهة، لكن ظلت المسائل السياسية هي الأساس.

أخبر "إدواردو" أخاه عن بعض تلك الخلافات. بدأ يكثر من زياراته لبيت "خافيير" و"لورا". أدرك "خافيير" أن حكاية "دولوريس" وكلامها كان لهما تأثير كبير على شقيقه، إذ لم يكن يهتم في الماضي بما تردده "ماريانا"، ويكتفي بتجاهله فقط حفاظًا على استمرار الهدوء في علاقتهما.

حين لحق بها "إدواردو" في غرفة النوم، لم يسألها عن الأمر الذي تودّ مناقشته معه، لكنه قال لها إنه لاحظ انزعاجها الشديد بسبب لعبه مع الطفلة، ثم أمرها بحزم بألا تتحدث معه بهذا الأسلوب أمام "لوث" مرة أخرى.

أوضحت أنها فعلت ذلك لأنها تهتم بمصلحة ابنتها، وتحب أن تطمئنَّ على نمط التربية الصحيح الذي تتلقاه الصغيرة. ما أثار ضيقها وقلقها هو تعاطفه الغبي مع زوجة "لوتشيني".. في أي عالمٍ يعيش؟ على أي حال آن الأوان أن يتفقا على آراء موحدة يرددانها أمام "لوث" حين تأتي سيرة موضوعات معينة. عليه أن يتحلى بالمسؤولية تجاه ابنته. يجب أن تتعلم الصغيرة منهما معنى الصواب والخطأ، وألا تخلط بينهما.

ولأن "ماريانا" اعتادت هدوء "إدواردو" ولطفه الدائم في كل المواقف، وبخاصة حين تفقد أعصابها، فإنها أُصيبت بصدمة بالغة حين أجابها بحدّة بأنها جاهلة، ولا تفهم الأحداث التي تجري في البلد منذ سنوات. قال إنه لا ينتظر إذنًا منها بما يحق له قوله لـ"لوث"، أو لأيّ شخص آخر. أخبرها بأن لها مطلق الحرية في تصديق كل ما يقوله أبوها، لكنه متيقن تمامًا من ممارسة الجيش لأعمال وحشية، لا يوافق عليها بتاتًا، لأن مبادئه تفرض عليه ذلك.

لم تصدق "ماريانا" ما تسمعه. ما الذي حدث لـ"إدواردو"؟ حالته تزداد سوءًا كما يبدو. إنه يدافع عن المخرِّبين بحماسة، وطريقته في الحديث إليها مؤذية وغير مألوفة. كانت على وشك أن تعلن له صراحة أنه قد جُنَّ، لكنه لم يُتِحْ لها الفرصة لذلك، وبادر بالقول:

- سأذهب الآن لأرى "لوث". إن قررتِ الانضمام إلينا، فلا تأتي بهذا الوجه العابس المتجهم، ولا تتحدثي بهذه النبرة.

꧁꧂

تراقبها وهي منهمكة في الرسم. ترفع رأسها وتسألك باهتمام:

- هل تعجبك يا بابا؟

تشعر أنك لا تستحق كلمة "بابا"، ولا القبلة التي تطبعها على خدك بعد أن تقول لها إن رسوماتها رائعة.

لا يريد أن يفكر في زوجة "بابلو" الآن، ولا في أم "لوث" الحقيقية التي حرموها مولودتها، ولا في الرجل الذي يستحق كلمة "بابا" أكثر منه، ويشتاقُ إلى تلك القبلات السعيدة.

إنك غير متيقن من حقيقة الوضع. إن ما سمعته البارحة من "دولوريس" سبّب لك اضطرابًا عنيفًا، وأعاد إحساسك بتأنيب الضمير.

مَن يدري؟ لعل الأم فتاة مستهترة صممت على التخلي عن ابنتها فعلًا.

لماذا كنتَ عنيفًا لهذه الدرجة مع "ماريانا"؟ ما الذي تلومها عليه؟ ليس لها أي ذنب في قصة "لوث".. إنها تجهل الحقيقة أصلًا.

في طريقه لغرفة النوم ليصالحها، مرّت "ماريانا" بجواره متجهة إلى المطبخ. تعمّـدت عـدم النظر إليه. اقترب منها وقبّلها. قال مبتسمًا:

- فلنعتبرها هدنة..

تنظر إليه بوجه متحجر، يخلو من أي تعبير، وتتركه مبتعدة في صـمت. يُقـرِّر أن يتحـدث معها في وقت آخر، يكونان فيه هما الاثنان أكثر هدوءًا. سوف يحاول أن يفهمها وجهة نظـره، وسيحرص على تجنُّب ذكر "آلفونسو".

لكنه حين يحاول محادثتها، من جديد، تخرج الأمور عن السيطرة. تعرب له "ماريانا" عـن استيائها وتصف أسلوبه في الحديث معها بأنه مهين وجارح. صارحته بأنها ظنت في البدايـة أن كل ما في الأمر هو السطحية المعتادة التي يرى بها الأمـور كافـة، لكنهـا متيقنـة الآن مـن أنـه تعرّض لغسيل مخ، لأنه شديد السذاجة.

- أنتِ التي تعانين سذاجة شديدة!

بعد أن تقول ذلك، لا تستطيع السيطرة على نفسك، وتبدأ الكلمات في الاندفاع من فمك، دون تفكير:

- الأوضاع ليـست كـما تظنينهـا يـا "ماريانـا". إن عـددًا كبـيرًا مـن النـاس الـذين تعرضـوا للاختطاف والتعذيب، لم يكن لهم علاقة بالسياسة، عـلى الإطـلاق.. وحتـى الـذين كانـت لهـم اهتمامات سياسية، لم يستحقوا تلك المعاملة. لماذا قاموا بتعـذيبهم وقـتلهم عـلى ذلـك النحـو الوحشي، غير الآدمي؟

تتكلم كثيرًا، ولا تدرك ما تقول، لكنك تلاحظ أن "ماريانا" تحدّق بك باستغراب.

أنت تشعر بألم بالغ لكل ما يحدث للآخرين، وتحاول إشراك زوجتـك في آلامـك لتتفهمهـا، لكي ترى الحقيقة. تستمرُّ في حديثك وشرحك.. لكنها تقاطعك بغتة:

- ما كل هذا الهراء؟! مَن أخبرك بهذه الأكاذيب؟ لقد التقيـتَ شخـصًا في "بـوينس آيـرس" قام بعمل غسيل مُخ لك. لم تكن تقول هذا الكلام الفظيع من قبل.. مَن رأيت هناك؟ أخبرني.. قل الحقيقة.

ﮔ

قال لـ"خافيير":

- لم أصارحها أنني قابلت "دولوريس"، بطبيعة الحال.

- لماذا؟ هل كانت ستنزعج؟ هل تدري أنك كنتَ تحبُّ "دولوريس"؟

- نعم، لقد صارحتها بذلك منذ سنوات، لكن ذلك ليس السبب.. بل إدراكي أنها لم تعد تتقبل قط أي رأي يخالف معتقداتها. إن حكيتُ لها القصة الحقيقية لـ"دولوريس" و"بابلو"، فإنها لن تتعاطف معهما، وسوف تتهمهما بأنهما من الأشرار المخربين. ستغضب لأنني تناولت العشاء مع واحدة ممن تطلق عليهم "الأعداء". ستتعامل مع الأمر بأكمله على أنه خيانة. خيانة لها وللوطن ولذلك الخنزير أبيها.

لم يحب "خافيير" والد "ماريانا" قط، لكنه مع هذا تفاجأ تمامًا من الكراهية الشديدة التي أحسَّها في كلام شقيقه تجاه "آلفونسو". ما الذي فعله "آلفونسو" يا تُرى؟ تيقن "خافيير" من أن "آلفونسو" لا بد أنه أقدمَ على فعل شيء آذى "إدواردو". تساءل عن طبيعة ذلك الفعل بالضبط، قال له:

- هل تعلم متى أحسستُ بذلك. حين وُلِدت "لوث".. عندما رأيتُك في أقصى حالات الغضب داخل العيادة.

أعلن "إدواردو" أنه لا يرغب في التحدُّث عن ذلك، الآن تحديدًا؛ وأنه جاء فقط ليقصَّ عليه ما سمعه من "دولوريس"، لأنه يشعر بالاضطراب والصدمة، منذ أن عرف تلك التفاصيل المزعجة.

أجابه "خافيير" أن الأمر فظيع فعلًا، لكنه لا يُثير الاستغراب، فالكل يعلم ما يحدث. إنه لا يفهم سبب صدمة شقيقه.

- هل لأنك تشعر بأن حَماك هو المتسبب في فوضى الاعتقالات والتعذيب، والتعامل مع أرواح الناس باستهانة؟ إن كان الأمر كذلك، فلا تحمّل نفسك الذنب.. أنت زوج ابنته فقط، ولستَ شريكًا في جرائمه. أتفهم طبعًا أن مناقشة المسألة مع "ماريانا" شبه مستحيلة، لحساسية موقفها، وحبها الجنوني لأبيها.

لكن "خافيير" أدرك أن للمسألة جذورًا أعمق من ذلك بكثير، فاضطراب "إدواردو" واحساسه بالأسى أكبر من أن يكون مجرد صدمة.

ﮩﮨ

- حين بدأ "إدواردو" في الاستيقاظ من نومه العميق...

- أي نوم عميق؟

- أعني حين بدأ يدرك، أو يرتاب، بمعنى أصح.. في إنني ابنة إحدى معتقلات "آلفونسو"، لجأ إلى شقيقه "خافيير". لم يجرؤ في بداية الأمر على مصارحته بالحقيقة كاملة، لكنه بعد عدّة أيام، عاد إليه ليخبره بكل شيء. كان ذلك بعد ما فعلته "ميريام"..

ﮓﮔ

قبل يوم من رحلتها إلى "إنتري ريوس"، خرجت "ميريام" لتناول العشاء مع "فرانك"، ثم أمضيا الليلة معًا في الفندق الذي ينزل فيه في "بوينس آيرس". كانت خائفة ومرتبكة، لكنها لم تخبره بشيء. شعر بقلقها وتوترها، فغمرها بحبه وحنانه إلى أن استسلمت للنوم بين ذراعيه. في تلك الليلة، حدثها عن حياتهما المشتركة في الولايات المتحدة. سوف يعيشان معًا في بيت له حديقة جميلة، ولن تكون مضطرة للعمل، ولكن يمكنها فعل ما ترغب به، فلن يضغط عليها أبدًا. لا يريد منها أكثر من أن ترافقه إلى هناك، ولو فترةً، ترتاح فيها من ضغوطات الحياة، وتتيح له الفرصة للاعتناء بها وتدليلها.

- حسنًا.. إن لم تَسِر الأمور كما خططت لها، فسوف ألحق بك، وأعيش معكِ في أمان.. إلى أن ينسوني تمامًا.

أحسَّت بالخوف عقب ما قالته، وتساءلت: ماذا لو اكتشفوا أمري وقاموا باعتقالي وسَجني؟ ماذا لو قتلوني؟ ماذا لو قام الكولونيل بإبلاغ "آنيمال" بما فعلتُ؟

"فرانك" الذي كان مستلقيًا على الفراش، جلس من فوره وسألها عمّا تقصده بكلامها.

- أعني فقط أن مشروعي في "إنتري ريوس" قد يفشل.. هذا كل شيء. عندها سألجأ إليك في الولايات المتحدة لأرتاح من مشكلاتي..

ارتعشت شفتاها باضطراب واضح، فسكتت ولم تكمل عبارتها.

- "إنتري ريوس"؟! لم تخبريني شيئًا عن ذهابك إلى "إنتري ريوس"! مَن يعيش هناك؟ ابنة "دوفاو" أليس كذلك؟

أخذت تتأمل أظفار يديها، وهي تتحاشى النظر إليه. رفع ذقنها نحوه وسألها:

- "ميريام".. هل ما زالت هذه الفكرة المجنونة تسيطر عليك؟

نظرت إليه بعينين ذاهلتين، دون أن تقول شيئًا.

- ما زلتِ تنوين استعادة تلك الطفلة، واختطافها من الكولونيل؟

دنت منه، والتصقت به:

- لا عليك. حدثني فقط عن حياتنا معًا في الولايات المتحدة، وعن بيتنا وحديقتنا وكل شيء..

ﮋﮊ

على العشاء، لاحظت "لورا" أن "خافيير" يبدو مهمومًا.. وحين وجّه له الأطفال سؤالًا، كان شارد الذهن وغير منتبهٍ لهم. أدركت أن شيئًا يقلقه، لكنها فضَّلت الانتظار إلى وقت النوم حتى تتحدث معه.

قال لها:

- "إدواردو" ليس بخير..

- ماذا به؟

- إنه في حالة نفسية سيئة للغاية، عقب اكتشافه حوادث الاختطاف والاعتقالات والتعذيب والقتل.

كانت "لورا" على وشك أن تقول: "تطَّلبَ اكتشافه ذلك وقتًا طويلًا جدًّا، أليس كذلك؟ الفضل يعود إلى زوجته، ابنة ذلك الكولونيل الملعون!"

لكنها تمالكت أعصابها، حتى لا تقول ذلك، لأنها تعلم أن "خافيير" يتضايق من هجومها على "ماريانا"، وكثيرًا ما يردد: "إنها فتاة لطيفة، و"إدواردو" يُحبُّها، وهذا هو المهم".

وكانت تُجيبه: "نعم، إنها لطيفة، لكنها لا تُطاق! آراؤها السياسية كريهة، وعشقها المجنون لبابا الرهيب.. مسألة مستفزة جدًّا".

أخبرها "آلبيرتو لوتشيني" بما حدث في حفل عيد ميلادها، وحمدت اللـه أنها لم تكن في الغرفة ذاتها حينها. تحرص "لورا" على عدم ذكر أي أمر له علاقة بالقَمع الذي يعانيه الناس أمام "ماريانا". قبل سنوات قليلة، حين اختفى صديقها "إنريكي"، ولجأت زوجته وابنهما الصغير إلى الاختباء لديها في المنزل، أحسّت "لورا" بحزن عميق. حين قابلتها "ماريانا" في تلك الفترة، علقت بأن منظرها مخيف. لم تجرؤ على إخبارها بالحقيقة. قالت إن صديقتها ستسافر، وأنها حزينة على فِراقها، ولا تدري إن كانت ستراها مرة أخرى أم لا.

- ولماذا تسافر؟

لم تدرِ بمَ تجيبها.. هل تقول لها إن والدك وأعوانه اعتقلوا زوجها، وأنها هربت منهم بأعجوبة، وأنها إن لم تغادر بأسرع ما يمكن فلن يترددوا في قتلها؟

قالت بسرعة:

- لقد حصل زوجها على وظيفة في أوروبا..

- آه! ممتاز!

لا تستطيع منح"ماريانا" ثقتها، وتكتفي بتبادُل بعض المجاملات معها.. تسأل عن أخبار أختيها التوأم، وعن بعض وصفات الطعام، وعن لعبة التنس التي تمارسها كلتاهما.. أما حين تبدأ "ماريانا" في الحديث عن والدها، تتحجج "لورا" بأي سبب لتغادر المكان.

اعتادت أن تقول لـ"خافيير":

أ- علم أنها لطيفة، بل يمكنها أن تكون ظريفة وخفيفة الظِلِّ في بعض الأحيان، لكنها حين تتحدث عن الـ"مخربين" و"أعداء الوطن" تصبح سمجة للغاية.

يخبرها زوجها الآن أن "إدواردو" استمع إلى قصص عن الاعتقالات المجحفة غير المبررة، والتعذيب الوحشي، والمعاملة غير الإنسانية. يقول لها إنه سمعها على لسان امرأة كان يُحبُّها منذ سنوات، واسمها "دولوريس".

علقت "لورا" ضاحكة:

- عظيم! أتمنى أن تبدأ بينهما علاقة خاصة. ممارسة الجنس ستفيد كلًّا منهما!

يضحك "خافيير" بدوره، ويطرق رأسها بأصابعه:

- هذا المخ مشغول على الدوام بالجنس، أليس كذلك؟

مررت يديها على جسدها:

- كل أعضائي مشغولة به كما تعلم!

تتعالى قهقهاتهما، ويتبادلان المزاح والمداعبة. لحظات، تزول آثار الهَم من وجه "خافيير"، ويعود صافيًا ومَرِح التعابير. تفكر "لورا" أنه مهما يكن الحب المُتبادَل بين "ماريانا" و"إدواردو"، فإن علاقتهما ليست في متانة ارتباطها بـ"خافيير".

يحكي لها زوجها ما سمعه، نقلًا عن أخيه، عن "بابلو" الذي عرفاه جيدًا في مُستهلّ شبابهما. حين ينتهي، تعلق زوجته بجدية بأنها سعيدة لأن "إدواردو" بدأ يرى الأمور من منظور مختلف. تضيف:

- أظنُّ أنه يعرف شيئًا يتعلق بـ"آلفونسو"، ولا يودّ الإفصاح عنه، احترامًا لكونه والد زوجته.

- صحيح أن "إدواردو" محترم، لكنه في الوقت نفسه يكره "دوفاو" أكثر مما تتخيلين.

بعد تفكير، تقول "لورا":

- لعل "لوث" ليست ابنتهما.. ربما كان أبواها من ضمن المعتقلين في السجون.

يصيح "خافيير" باستنكار:

- هل جننتِ؟ كيف ذلك؟ لقد كانت "ماريانا" حاملًا، ورأيتها أنتِ بنفسك. لماذا سيفعلان ذلك أساسًا؟

- لا أدري.. لكن تصرفاتهم جميعًا في تلك الأيام التي أعقبت الولادة كانت غير طبيعية. لم يسمحوا لأحد برؤية الطفلة، و"إدواردو" كان مرتبكًا طوال الوقت؛ وحتى بعد ذلك.. هل نسيت تصرفات "آميليا" وإصرارها على أن الطفلة تشبه "إدواردو"، رغم أن الحقيقة هي أن شكلها مختلف عن كل أفراد العائلتين؟ ربما ماتت مولودة "ماريانا"، فجلب لها أبوها هذه الطفلة عوضًا عنها..

غضب "خافيير" جدًّا، واتهمها بالجنون، وأخبرها بأنه لا يريد الاستماع للمزيد من هذا الهراء؛ ولو كان كلامها نكتة، فإنها سخيفة وغير مضحكة. لن يُقدِم أخوه أبدًا، وتحت أي ظرف، على مثل هذا العمل البشع. "لوث" هي ابنة هذه العائلة، وأي تشكيك في الأمر هو إهانة غير مقبولة.

- أنا آسفة يا "خافيير". أنسى نفسي أحيانًا، وأتفوّه بكلام سخيف. لا تغضب مني. أنا أحبُّك جدًّا، ولـ"إدواردو" معزّة خاصة في قلبي كما تعلم..

لم تنم "لورا" جيدًا تلك الليلة، ندمًا على الكلام الجارح الذي قالته دون قصد. حين حاولت أن تعتذر لزوجها ثانيةً، تجاهلها.

ꕥ

حجزت "ميريام" غرفة في أحد فنادق محافظة "بارانا" بجنوب البرازيل، على الحدود مع الأرجنتين. حصلت على عنوان "إدواردو إيتورب" من خلال دليل التليفون. في الأيام الأولى، أمضت ساعات طويلة في المقهى الصغير المطل على منزله، تُراقِبُ دخولهم وخروجهم، لكن ذلك لم يكن كافيًا. إنها بحاجة لمعرفة الأماكن التي يترددون عليها. ستحتاج إلى سيارة. لحسن الحظ، كانت تجيد القيادة. تعلمتها في الأوروجواي بعد نصيحة من مالك الكباريه، الذي أخبرها أن التنقل في "بونتا ديل إيستي" مستحيل دون سيارة.

ꕥ

- رغم أنها أمضت أعوامًا طويلة وهي تخطط لاستخراج الورق المطلوب، والحصول على جوازات سفر مزورة، وادخار مبلغ مالي كبير يساعدها على تنقلاتها وسفرها، فإنها لم تفكر في خطة معينة لاستعادة الطفلة. توصلت إلى أنها لن تتخذ أي قرار قبل أن تتعرف إلى ظروفهم الحياتية بشكل مباشر. راودتها بضع أفكار معقدة، كلها محفوفة بالمخاطر.

- مثل ماذا؟

- مثل أن تلتحق بالعمل خادمة في بيتهم!

ꕥ

فكرت وهي تجلس في المقهى أنها لو تمكنت من العمل لدى العائلة كخادمة أو طاهية، فسوف يكون اختطاف "ليلي" أمرًا سهلا للغاية.

في الدكان المجاور للمقهى، تبادلت "ميريام" حديثًا مع صاحبته العجوز، وسألتها عن الكيفية التي يمكنها بها أن تعمل خادمة في بيت محترم. قيّمتها المرأة بنظرات متشككة، ثم قالت لها إنها بحاجة إلى رسالة أو شهادة من أصحاب المنازل التي عملت بها سابقًا. تنبهت "ميريام" فجأة إلى أن شكلها لا يوحي بأنها من تلك الطبقة. حسنًا.. ربما أصلها من الطبقة نفسها بالفعل، لكنها من نوعية أخرى. إنها تلبس جاكيت وبنطلون جينز وحذاء منخفض الكعب، وتجمع شعرها في ذيل حصان. مظهرها بسيط، لكنه أنيق. عليها أن تقول شيئًا يُبرِّر أناقتها وجودة ملابسها.. قالت بتردد:

- الحقيقة أنني من "بوينس آيرس". يعمل زوجي في أحد البنوك. كنتُ موظفة استقبال، إلى أن وُلِدت ابنتي. تركت العمل بعدها. هجرني زوجي دون مقدمات، ودون أن يترك لي أي مال يعينني على الحياة. أشعر بالحرج من مواجهة عائلتي وأصدقائي بحقيقة وضعي وظروفي. آثرتُ الابتعاد عنهم جميعًا، وقررتُ أن آتي إلى "إنتري ريوس" لعلي أتمكَّن من بدء حياة جديدة.

تغيرت نظرة العجوز، وسألتها بحنان:

- هل ابنتك الصغيرة معك الآن، أم أنها في "بوينس آيرس"؟

قالت "مير يام" وهي توشك على البكاء:

- لقد فقدتُ صغيرتي.

࿇

أحست "ميريام" أنها فقدت طفلتها بالفعل.. ابنة "ليليانا".

࿇

اقتربت منها المرأة، وربتت عليها بعطف. عرضت عليها أن تكتب لها الرسالة المطلوبة، وسألتها:

- إذن فقد هجرك ذلك النذل بعد فقدانك ابنتك؟ يا للقسوة!

أخبرتها السيدة بأنها ستحاول مساعدتها على الحصول على عمل في بيوت معارفها. اقترحت "ميريام" عائلة "إيتورب"، سألتها المرأة في حيرة:

- لماذا هم تحديدًا؟

لم تجب على سؤالها، وقالت إنها غير متأكدة من رغبتها في العمل خادمة أساسًا. ربما ستبحث أولًا عن عمل كموظفة استقبال، وعليها قبل كل ذلك أن تجد مكانًا تعيش فيه.

عادت إلى المقهى وقد اختمرت في ذهنها فكرة تأجير سيَّارة. عليها أن تراقبهم وتتابع جميع تحركاتهم. إنها تعرف أن الطفلة تغادر البيت في تمام الثامنة والنصف، صباح كل يوم، في سيارة الأسرة؛ ثم تعود في الخامسة، بصحبة امرأة شابة تلبس ثياب خادمة.

꧁꧂

- ماذا فعلت في نهاية الأمر؟

- استأجرت سيارة، وتبعتهم في كل مكان. عرفت موقع المدرسة، وعنوان منزل معلمة اللغة الإنجليزية.

طافت حول المدرسة لعدّة أيام.

꧁꧂

في الأسبوع الأول، راقبت "ميريام" التلاميذ وهم يخرجون من بوابات المدرسة، ولاحظت أن الخادمة المُكلَّفة باصطحاب "ليلي" إلى البيت، تأخرت عليها مرتين. قررت أن تتحدث مع الطفلة، إن تأخرت الخادمة مرة أخرى.

꧁꧂

- يا للجنون! كيف كانت ستقنعكِ بالذهاب معها أصلًا؟ وماذا لو رأتها الخادمة معك؟

꧁꧂

في المرة الأولى التي اقتربت فيها "ميريام" من الطفلة، سألتها:

- ألا تتذكرينني؟ لقد بنينا معًا قصرًا من الرمال في "بونتا ديل إيستي".

لم تتذكرها الطفلة، لكنها قالت:

- آه.. بلى.. ما اسمكِ؟

- اسمي "ميريام".

كانت على وشك أن تقترح عليها أن تصطحبها لتناول الآيس كريم، لكنها لمحت الخادمة قادمة من بعيد، فقالت لها:

- باي يا حلوة.

سارت في الاتجاه الآخر، بخطوات واثقة وبطيئة، حتى لا تثير الانتباه؛ لكنها أدركت أنها تهورت بذكر اسمها الحقيقي.

ꙮ

ظل طيف "إدواردو" يلاحق "دولوريس" في كل وقت. ربما كان تفكيرها فيه مجرد هروب من واقعها، أو نوع من الترويح عن النفس بعد كل ما عانته في السنوات الماضية. تملؤها رغبة قوية فيه. كم سيكون جميلًا لو مارسا الحب معًا، الآن وقد أصبحا شخصين ناضجين! حين اتصل بها تلك الليلة ليدعوها على العشاء، استعادت الأحاسيس نفسها التي كانت تعصف بها عندما تستلم خطابًا منه، وهي فتاة مراهقة.

تذكّر نفسها بأنها لم تأتِ إلى "بوينس آيرس" لتدخل في علاقة عاطفية؛ إن كان هذا هو ما تتعطش إليه روحها، فبإمكانها أن تجد لنفسها شخصًا آخر غير "إدواردو"، شخصًا لا يعرف شيئًا عما مرت به وعائلتها من آلام وعذاب. على أي حال، حتى لو كان "إدواردو" أيضًا يريد إقامة علاقة عابرة معها، فلا بد أنه لم يعد يشتهيها بعد الفظاعات التي سمعها منها، لقد فَقَدَ كل رغبة تجاهها.

ꙮ

حواره مع "خافيير" والمشاعر المختلفة التي تنتابه كلما نظر إلى "لوث"، تجعل تقبله لغضب "ماريانا" وصمتها الدائم أكثر صعوبة. يحاول تجنبها، طوال الوقت، ويمضي داخل غرفة المكتب أطول وقت ممكن.

لم تعد المسألة ما تقوله "ماريانا"، بل ما لا تستطيع أنت قوله لها.

يشعر "إدواردو" بأنه بحاجة ماسة للحديث مع أحد.. لكن مَن؟ "دولـوريس"؟ مـستحيل! إنك لا تملك الجرأة لفتح الموضوع مع شقيقك، أقرب الناس إليك، فكيف سـتكلم "دولـوريس" فيه؟

لكنك بحاجة للكلام فعلًا، ومعرفة المزيد عن الأمر. الموضوع يضغط عـلى أعـصابك طـوال الوقت. لمَ لا تتحـدث مـع "آلفونـسو"، وتـسأله بوضـوح إن كانـت "لـوث" هـي ابنـة إحـدى سجيناته المختفيات؟

يُصاب بالذعر. لن يسكت "آلفونسو"، سيهينه وسيوجه له تهديدات مخيفة، ولن يصل إلى معرفة الحقيقة بعد كل ذلك. عليه أن يعرف الحقيقة من مـصدر آخـر، ثـم يواجهـه بهـا. إن كنتَ تملك الحقائق، فأنت في موقع قوة، وستكون أكثر ثقة بنفسك.

لمَ لا تتصل بـ"دولوريس"؟ استمع إليها، دون أن تحكي قصتك أو تصارحها بمشكلتك.

ﮪ

من الأفضل، على الأغلب، أن تخرج وتُرفِّه عن نفسها قليلًا. تقفز صورته في خيالها. تتمطى على سريرها في غرفتها القديمة، التي حافظت أمُّها على كل ما فيها بحرص بالغ، وحـين عـادت وجدتها كما تركتها بالـضبط. لقـد أمـضت نهـارًا طـويلًا في التحـدث إلى جـدات المنظمـة، ثـم رجعت البيت وواصلت الكلام في الموضوع نفسه مع والديها.

حين أخبرت "دولوريس" أمها "سوزانا" عـن لقائهـا بالجـدات، وموضـوع مـضاهاة عينـات الدم، الذي تشرف عليه إحدى الجمعيات الأمريكية. أبدت أمُّها اهتمامًا كبيرًا، وأخـذت تُوجِّـه لهـا العديـد مـن الاستفـسارات. شرحـت لهـا ابنتهـا أنـه صـار بالإمكـان التعـرُّف إلى الأطفـال ووالديهم من خلال عينات تودعها العائلة في بنك الدم.

ﮪ

تمّت الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع في قـسم المناعـة بمستـشفى "دورانـد"، الـذي يحتـوي عـلى الأجهـزة المتطـورة المطلوبـة كافـة. أنـشأ المستـشفى المحـافظ الـسابق "كاتشيتوري"، الذي ارتبط اسمه ارتباطًا وثيقًا بمجلس الثورة. كان قد بنـى المركـز هديـةً

لطبيبه الخاص المهتم بجراحات زراعة الكلى. المفارقة هي استخدام المكان لاحقًا للربط بين عينات الدم المختلفة، والعثور على الأطفال وذويهم.

ﮪﮫ

تنصت أمها باهتمام بالغ. تكتسب عيناها الكابيتان بريقًا واضحًا، وتعلق:

- هذا رائع!

بهذه الطريقة، يمكنهم الآن العثور على طفل "بابلو" و"ميرتا"، واستعادته ممن أخذوه، أليس كذلك؟ عليهم حينها أن يقرروا مع والدي "ميرتا" أين سيعيش الطفل. أي غرفة ستخصص له إن كان سيقيم هنا؟

سألت ابنتها:

- ما رأيك يا "دولوريس"؟ أي حجرة نعطيه إياها؟

فكرت "دولوريس" بأنها أخطأت حين أبلغت أمها بهذا الأمر. أعلن والدها بأنه مستعد لإعطائهم عينة من دمه، عندما يحتاجونها، ثم أردف بشيء من القلق:

- لا تزرعي الأمل في نفس أمك يا "دولوريس".. نحن أصلًا لا نعرف ما حدث. ربما لم يمنحوا "ميرتا" فرصة لولادة الطفل من الأساس. ربما قتلها الأوغاد وهي حامل.

كم مضى من الوقت على الأيام التي كان يردد فيها بثقة أن الجيش الأرجنتيني لا يمكن أن يؤذي امرأة حاملًا؟

ذهبت إليه "دولوريس" وربتت عليه بحنان:

- أنت محق يا بابا. سوف نفعل كل ما بوسعنا. لم أقل أننا سنجد الطفل. كنت أقصد أن علينا مواصلة البحث عنه. هذا كل شيء.

هزّ "خوليو" رأسه منزعجًا. إنها هنا لبعض الوقت فقط، وستسافر بعدها، تاركة إياه مع "سوزانا" التي سينهشها الإحباط وخيبة الأمل.

قالت زوجته:

- كلام "دولوريس" صائب. من جدّ وجد.. علينا ألا نفقد الأمل يا "خوليو". ستأتينا حكومة ديموقراطية، وستتغير الأمور للأفضل. أنا متفائلة وواثقة أننا سنعثر على حفيدنا.

اقترحت "دولوريس" أن تلتقي والدة "ميرتا". يمكنها هي أن تتفاهم معها بسهولة أكبر مما لو تحدث معها أبويها. العائلتان تنتميان لعالمين مختلفين تمامًا.

أعلنت أمها بإصرار أنها هي مَن ستدعوها لتناول الشاي، وتشترك مع ابنتها في الحديث إليها. قالت إن عليهم تشكيل جبهة موحدة، وأضافت أنها ستحاول إقناعها بالانضمام إلى منظمة الجدات.

فكرت "دولوريس".. ليتك تراها الآن يا "بابلو"! لقد أصبحتْ أكثر قوة وصلابة، وتحاول المحافظة على تفاؤلها، وتحرص على بث البهجة في نفس بابا، ولا تدخر جهدًا في البحث عن طفلك. لقد تغيرت هي وبابا أكثر مما تصور.

- "دولوريس".. "إدواردو" على التليفون.

فكرت على الفور: "ليته هنا في "بوينس آيرس"، لنلتقي".

يفاجئها التفكير على هذا النحو، وتشعر بالصدمة. تلتقط السماعة. إنه ليس هنا، ولا يقترح لقاءها. يكتفي بسؤالها عن أحوالها ويؤكد لها أنه على استعداد لخدمتها متى ما احتاجته.

يختلج صوته وهو يضيف بأنه يودّ أن يشكرها على حديثهما، لأنه شكّل أهمية كبيرة بالنسبة له.

لماذا صوته مرتعش؟ إنها لا تفهم، لكنها تشعر بتأثر بالغ. تقول دون تفكير:

- لِمَ لا تأتي لتراني؟ أنا باقية لبعض الوقت.

تندم على ما قالته، فور نطقها به. لماذا تُعقِّد المسألة؟

- سأحضر خلال أيام. سأخبركِ قبلها.

لماذا أنهى المكالمة بهذه السرعة؟ ولماذا اتصل في هذا الوقت من الليل؟

قطعت "سوزانا" أفكارها المتوالية، حين دقت على بابها. دخلت وقد ارتسمت على قسماتها فرحة لم ترها "دولوريس" منذ زمن بعيد..

- بدوتِ سعيدة حين ذهبتِ للرد على المكالمة. مَن هذا الشاب؟ هل هو صديق قـديم، أم شخص تعرفت إليه مؤخرًا؟

أضافت بمرح:

- هل يعجبكِ؟

مسكينة ماما.. هأنا أثير حماستها للمرة الثانية خلال وقت قصير. إنهـا مبتهجـة لأن ابنتهـا في حالة حب.

تأخذ "دولوريس" نفسًا عميقًا، وتقول لها:

- لا يا ماما.. إنه "إدواردو". هل تتذكرينه؟ ذلك الفتـى مـن "إنـتري ريـوس"، الـذي كنـتِ تكرهينه. التقيتُه مصادفةً منذ بضعة أيام، وتبادلنا الأخبار.

- لكنه متزوج، أليس كذلك؟

كان شقيق "سوزانا" قد أخبرها أن ابن جيرانه في المزرعة المجاورة، قد تزوج.

يغادرها المرح الذي كان في عينيها منذ لحظات، ويحلُّ محله خوف وقلق. تقول:

- أبلغني خالكِ "بيبي" أنه تزوج ابنة ضابط كبير. خذي حذركِ يـا "دولـوريس". لا تخبريـه بأي شيء.

إحساسها المفاجئ بالسعادة انتهى في دقيقة. ليتها كذبت وقالـت إنهـا تعرفـت إلى شـاب جديد! أجابت، تطمئنها:

- لا تقلقي يا ماما، لا أظن أنني سأراه مرة أخرى.

ꕥ

حسنًا، هذا يفسر الصدمة التي لم يستطع إخفاءها حين سمع تفاصيل قصة "بابلو". لعلهـا لفتت نظره إلى أمور كان يجهلها.

يرن التليفون. تُناوِلُها "سوزانا" السماعة، وهي تحدجها بنظرة غريبة:

- إنه "إدواردو" ثانيةً.. لماذا يتصل في هذا الوقت المتأخر؟

أخبرها بأنه سيصل في اليوم التـالي، وأنـه بحاجـة للحـديث معهـا. سـيراها في الخامـسة في "داندي".

- هل ستقابلينه يا "دولوريس"؟ انتبهي جيدًا لتصرفاتك.

لماذا ماما خائفة لهذه الدرجة؟ ترى مَن يكون والد زوجته؟ أمي تعرفه ولا شك.

أنكرت الأم معرفتها بـه، وقالـت إنهـا ستتـصل بأخيهـا لتعـرف منـه إجابـة هـذا الـسؤال. أضافت أن شقيقها قابل "دوفاو" وزوجته في حفل زفـاف "إدواردو"؛ كـما أن والـدي العـريس سألا عنها وعن "بابلو"، فأجاب الخال: إنهما يقيمان الآن في أوروبا. خاف أن يقول الحقيقة.

غادرت الغرفة وهي تقول:

- سأتصل بأخي الآن.

- لا يا ماما.. الأمر غير مهم.

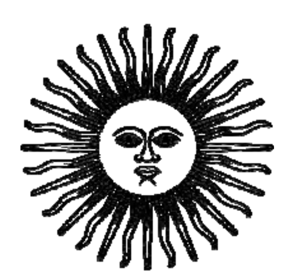
في اليوم التالي، قبـل أن تخـرج "دولـوريس" للقـاء "إدواردو"، تخبرهـا أمهـا أن حـماه هـو "آلفونسو دوفاو"..

- إنه ضابط كبير، ومتورط في قضايا التعذيب يـا ابنتـي. لا تـذهبي للقـاء "إدواردو".. ربمـا كان يحاول استخلاص بعض المعلومات منكِ.

كلا.. لديها إحساس قوي بأن للمسألة جانبًا آخر.



9



عقب كلام أمها، أحسّت "دولوريس" بارتباك ومشاعر متذبذبة، لكنها حين التقت "إدواردو" بعدها بنصف ساعة وبدأت في الاستماع إليه، اختفت كل مخاوفها. إنه يتحدث بصدق وتلقائية. ليس هناك نية للإيقاع بها، كما توقعت أمها.

أخبرها بأن ما قالته المرة الماضية تسبب له في صدمة نفسية عظيمة، وأنه بحاجة لمعرفة المزيد عن الأمر.. هل لدى منظمات حقوق الإنسان قوائم بأسماء المختفين؟ مَن الذي يشرف على متابعة قضايا الأطفال المفقودين؟ متى بدأت منظمة الجدات العمل؟ ثم بدأ يسألها عن أخيها.. كيف عرفوا أنه وزوجته قد تعرضا للقتل؟ هل تم ذلك بشكل رسمي، أم من خلال المعتقلين الذين أطلِق سراحهم؟ كم عدد السجون السرية ومراكز الاعتقال؟ ومَن الذي يديرها؟

توسَّل إليها أن تخبره كل شيء، حتى لو كان ذلك مؤلمًا بالنسبة لها.

- قدمي لي هذه الخدمة. لا يمكنني أن أبقى في الظلام إلى الأبد.

- كلا يا "إدواردو"، تحدثتُ طويلًا المرة السابقة. إنه دورك الآن. أخبرني عن زوجتك وابنتك. كلمني عن حياتك في "إنتري ريوس".

يحاول أن يتملص من الإجابة. يخبرها ببعض المعلومات التافهة، ويتعمد ألا يذكر شيئًا عن عائلة زوجته.

- ما اسمها بالضبط؟ "ماريانا" مَن؟ ما اسم أبيها؟ ما لقب عائلتها؟

"دولوريس" تعرف شيئًا، وإلا ما كانت ستصرّ على طرح هـذه الأسـئلة. عليـه أن يُـصارِحَها بالحقيقة. يجيب وهو يشعر بحرجٍ بالغ:

- "دوفاو"..

يمتدّ بينهما صمتٌ طويل، تقطعه "دولوريس" أخيراً:

- إنه واحد منهم، أليس كذلك؟ ضابط جيش..

يومئ برأسه صامتًا.

بعد سكوته الطويل، ينطلق في ثرثرة أقرب للهستيريا:

- هذا هو السبب يا "دولوريس".. هذا، وربما أمـور أخـرى أيـضًا، هـو الـسبب في أننـي لم أستطع أن أرى شيئًا. ربما لم أرغب في الرؤية من الأساس. فضَّلتُ أن أبقى داخـل فقاعـة آمنـة تـضم زوجتـي وابنتـي وأصـدقائي ومزرعتـي، ولم أدرك أن هنـاك أشـياء تحـدث خـارج عـالمي المستقر. أمَّا عن والد زوجتي، فإنه لا يتحدث أبدًا عمّا يفعله في عملـه، وهـذا وضـع طبيعـي؛ ثم إن زوجتي تعشقه وتقدسه. بالنسبة لها، هو تجسيد لمعنى البطل أو القدّيس.

من خلال حديثه، تفهم "دولوريس" أنه يكره حماه كرهًا شديدًا، وتدرك أن الأمـر يتعـدى حدود الغيرة، بسبب تعلُّق زوجته بأبيها. هناك شيء أعمق من ذلك.

- عندما عُدتُ إلى البيت ذلك اليوم بعد لقائنا، أردتُ أن أخبر "ماريانا" بمـا سـمعته منـكِ، لكنني عجزت عن ذلك. الأمر مستحيل. عشقها لأبيها غير طبيعي.

تفكر "دولوريس".. هذا هو الأمر إذًا. لهذا طلب لقائي هذه المرة.

"إدواردو" صامت، يحيطه الغموض. يقول بعد دقائق:

- الحقيقة.. لا ذنب لها أبدًا، إنها غلطتي أنا.

تنظر إليه "دولوريس" في حيرة، إنها لا تفهم قصده، لكنها لا تسأله عمَّا يعني.

الشعور بالذنب يحيط به من كل جهة. يبدو مضطربًا. يقول:

- هناك أمرٌ أودُّ مصارحتك به. موقف حدث منذ عدة سنوات.

يسكت مترددًا، ثم يضيف:

- كلا.. لا أستطيع فِعْلَ ذلك.. أعني أنه أمرٌ عائلي. شيء شخصي في الحقيقة.

تتساءل عمَّا يؤلمه ويعذبه لهذه الدرجة، لكنها تفضّل ألا تضغط عليه بأسئلتها، فتبقى صامتة. إنها متيقنة من أنه سيخبرها في الوقت المناسب. تتألم لمعاناته. يملؤها الحنان تجاهه، وتودُّ لو أنها تستطيع التخفيف عنه. ترغب في احتضانه بين ذراعيها، ومواساته، وتركه يبكي على كتفها. لا يمكن فعل ذلك في مكان عام. تقترح عليه أن يذهبا إلى مكان أكثر هدوءًا.

- أين؟

تهز كتفيها مبتسمة:

- لا أدري. سنفكر في ذلك.

ꕥ

كل شيء تغيَّر، عدا ابتسامتها. تقود السيارة، وهي إلى جوارك، في شارع "ليبرتادور". كلاكما صامت. تتجه إلى الشمال. تضع يدها على رقبتك. دفء أصابعها يتسلل إليك. توقف السيارة مقابل بحيرة غابة "باليرمو". تشعر بأنك مدين لها بإجابة على تساؤلاتها الصامتة.

- أنا في مشكلة معقدة يا "دولوريس"، لكنني لا أستطيع أن أخبركِ شيئًا.

لا تجيبك، لكنها تضع راحة يدها على وجهك. تفتح ذراعيها بقصد احتضانك ومواساتك، لكنك تدنو منها وتقبّلها بنهمٍ. يرتعش جسدها. تعاودك أحاسيسك القديمة تجاهها، مزيج من السعادة والرغبة المُلحّة. تمدّ أصابعك تحت ملابسها، متحسسًا بشرتها الناعمة. رغبتك تمحو كل الآلام التي تلازمك منذ زمن. تبتعد عنك وتعيد ترتيب ثيابها وهي تتحاشى النظر إليك. تلفُّ رأسها إلى الجهة الأخرى، وتمدّ بصرها خارج نافذة السيارة. تؤنب نفسك على تصرفك الأرعن. كانت تقصد التخفيف عنك، لا أكثر.

تقول هامسة، وهي لا تزال تنظر إلى الخارج:

- "إدواردو"..

تحاول أن تعتذر، لكنك تكتفي بالقول:

- "دولوريس"، أنا..

ثم تصمت. تنظر إليك أخيرًا، ثم تضحك وتقول:

- حسنًا.. لمَ لا نذهب إلى مكان أكثر خصوصية؟ أعني.. لا تريد أن تظهر ماما فجأة، كما حدث ونحن صغار!

تشاركها الضحك. تمسك بيدك طوال الطريق. لا مجال للشرح والتبريرات. كل منكما يريد الآخر، وهذا يكفي.

ꕤ

اتصل بها "فرانك"، وسألها إن كان بإمكانه مقابلتها في الغد. أخبرها بأنه لم يتبقَ في إجازته سوى أيام معدودة، يعود بعدها إلى الولايات المتحدة. أجابته "ميريام" بأنها لا تزال مشغولة، لكنها ستحاول أن تجد وقتًا تقابله فيه، وأنها ستتصل به لتأكيد الموعد.

كم مضى عليها وهي تحوم حول أسوار المدرسة يوميًّا؟ عشرة أيام؟ اثنا عشر يومًا؟ حدسها يؤكد لها أن حظَّها اليوم سيكون متميزًا. نعم، ها قد مضت خمس دقائق كاملة، دون أن تظهر الخادمة. غادر كل الأطفال، ولم يبقَ سوى "لوث". عليها أن تفعل ذلك الآن. قد لا تُتاح لها الفرصة مرة أخرى.

- أهلًا يا حلوة.. كيف حالك؟

- بخير. شكرًا. كيف حالك؟

- ما رأيك في تناول الآيس كريم؟

ꕤ

أمضت ساعات طويلة وهي تفكر في كيفية إغرائي بالذهاب معها.. هل تعرض عليّ تناول الآيس كريم، أم شراء الحلوى؟ أم تخبرني بأن لديها شيئًا مهمًّا تريد أن تريني إياه داخل سيارتها؟ كانت قد أوقفت سيارتها في الجهة الأخرى من الميدان الذي تطلُّ عليه المدرسة. كانت خطتها بسيطة جدًّا.. بل ساذجة وبدائية.

ꕤ

لم تتوقع "ميريام" نجاح خطتها بهذه السهولة. تلفتت "ليلي" حولها بحثًا عن خادمتها، وحين لم تجدها سألتها:

- هل أنتظرك هنا وتحضرينه لي، أم نعبر الطريق ونذهب معًا؟

أضافت متبرمة:

- "كارمن" تتأخر دائمًا.

قالت "ميريام":

- لمَ لا تأتين معي؟ سنعود بسرعة، خلال دقيقة واحدة فقط.

ﮩ

- الحقيقة أنني نسيت تفاصيل ما حدث، لكن ما أتذكره جيدًا هو العبارة التي قالتها لي بعد ذلك حين لمحتْ ماما..

تساءل "كارلوس"، منزعجًا، باستنكار بالغ:

- هل تنادينها "ماما"؟!

- أعني "ماريانا".

أشاحت بوجهها، وأضافت:

- لقد ناديتها "ماما" طوال حياتي. كل الأطفال يفعلون ذلك. أنت نفسك فعلت ذلك!

سكتت وهي تشعر بالغضب. قال:

- أنا آسف. لا أستطيع التخلُّص من إحساسي بالغيظ تجاههم. أكرر اعتذاري. لن أقاطعك مرى أخرى. هيا أخبريني.. "ماريانا" إذن هي التي جاءت لتعيدك إلى المنزل يومها، وليست الخادمة؟

ﮩ

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة بعشر دقائق، حين غادرت "ماريانا" بيت صديقتها، وهي تلوم نفسها لأنها أخبرت "كارمن" ألا تذهب للمدرسة، وأنها هي التي ستعيد الصغيرة للبيت. اتصلت بها في المنزل لتطلب منها الذهاب في موعدها كالمعتاد، لأنها قد تتأخر، لكنها لم ترد على التليفون. "إدواردو" في

"بوينس آيرس". مشت بخطوات سريعة إلى المدرسة. لم ترَ "لوث" أمام البوابة. بحثت بعينيها في المكان، فوجدتها في الجهة الأخرى. لمحتها من ظهرها. كانت تعبر الطريق ممسكة بيد امرأة.. لا بد أنها إحدى الأمهات، ستأخذ "لوث" إلى بيتها للاتصال بوالديها من هناك، بدلًا من وقوفها بمفردها في الشارع. غلبها إحساس بعدم الارتياح. هُرعت نحوهما، ثم بدأت تهرول لتلحق بهما..

ﮓﮔ

حين اتصلت بـ"آميليا" لاحقًا، قالت لها:

- حمدًا لله يا ماما إنني هرولت لأصل إليهما. تلك المرأة كانت تنوي اختطاف "لوث". لا يهمني ما يقوله بابا و"إدواردو" من إنني أبالغ.. أنا أعرف ما أقول.. صدقيني.

عندما شاهدت "ماريانا" الطفلة وهي تستدير لتركب السيارة ورأت وجهها، تأكدت أنها "لوث" فعلًا. هل كانت ستستقل سيارة تلك المرأة؟ مَن تلك الإنسانة أصلًا؟!

كانت تفصلها مسافة عنهما. صاحت مذعورة:

- "لوث"!

ابتسمت الطفلة، وهتفت بسعادة:

- ماما!

التفتت المرأة نحو "ماريانا" ولوحت لها بيدها، تحييها. قالت شيئًا للطفلة، ثم انطلقت بسيارتها بسرعة.

ﮓﮔ

سألها "كارلوس":

- ماذا قالت لكِ؟

- إنها ليست أمكِ.

ﮓﮔ

بانفعال شديد، تقبض "ماريانا" على ذراع "لوث" وتهزها بعنف:

- مَن تلك المرأة؟ أين كنتِ ستذهبين معها؟

- كانت ستحضر لي آيس كريم.

- هل جُننتِ؟ كيف تذهبين مع إنسانة لا تعرفينها؟ ماذا قالت لكِ قبل أن تركب سيارتها؟

ﮰﮱ

- بسبب عصبية ماما، خفت أن أخبرها بما قالته "ميريام" لي. لكنها حين اكتشفت الأمر لاحقًا، ظلت تعيد تلك العبارة، وتلومني عليها، وتؤنبني.. وكأنني أنا التي قلتها! وحتى بعد أن كبرت قليلًا وأصبحت مراهقة، ما إن نتشاجر أو نتجادل، حتى تقول: "أنتِ ساذجة وبلهاء منذ طفولتك.. هل تذكرين حين تبعتِ تلك المجنونة التي قالت إنني لستُ أمكِ؟".. بسبب معاملتها القاسية ظننت في بعض الأحيان أنها ليست أمي. كنتُ أستعيد كلام تلك المرأة، وأفكر فيه.

- هل صدقتِ أنكِ لستِ ابنة "ماريانا"؟

- ليس بالضبط.. حين يتشاجر المراهقون مع والديهم يفكرون في مثل هذه الأمور عادة. لكن الحقيقة أن كلمات "ميريام" ظلت محفورة داخلي، كأنها جزء مني.

ﮰﮱ

أخبرتها "لوث" أن المرأة عرضت عليها أن تشتري لها آيس كريم، وأنها حين رأتها تقترب منهما غادرت على الفور. نعم.. لقد رأتها قبل ذلك. أمام المدرسة ربما.

ﮰﮱ

انتظرت "ماريانا" أن يتصل بها "إدواردو" من "بوينس آيرس"، لتخبره بما حدث. كانت قد تحدثت إلى والديها وقصت عليهما الحكاية. طمأنها "آلفونسو" بأنه لا يوجد سبب يدفع أحد لاختطاف طفلتها. حين كلمها "إدواردو"، قال لها شيئًا مماثلًا، لكن صوته كان يشي بإحساسه بالقلق. سألها في البداية بخوف:

- ماذا تعنين أن أحدًا حاول اختطاف "لوث"؟

- لا أدري.. إنها تقول كلامًا متناقضًا أصلًا. قالت أنها تعرفها، ثم عادت فأنكرت ذلك. تـصرُّ على أن المرأة لم تقل لها شيئًا، رغم أنني رأيتُها تتحدث معها.. لا أفهم شيئًا.

نصحها زوجها أن تهدأ، وألا تكثر من الكلام معها، فمن الواضح أن الصغيرة خائفـة. طلـب منها أن تقرأ لها قصة، وأن تتحدث معها في أمور أخرى.

- خائفـة؟! لقـد ذهبـت معهـا بكامـل إرادتهـا وهـي في منتهـى الـسعادة! إنهـا هادئـة ومتماسكة ولا تشعر بفداحة فعلتها! عليك أن تتحدث معها.

- سأفعل ذلك حين أعود في الغد.

- عليك أن تعود الآن.. فورًا!

- أنا آسف. لا أستطيع. لديّ اجتماعٌ مهم في الغد. سأعود فور انتهائي منه.

***

قبل اتصاله بزوجته، كان "إدواردو" و"دولوريس" قد مارسا الحب ببطء واستمتاع. تلاشت جميع الهموم التي يشعران بها، كأنهما أمضيا حياتهما في انتظار هذه اللحظة.

قررا ما سيفعلانه بقية ساعات اليوم. سيتناولان العشاء معًا، ثم يتنزهان سيرًا على الأقـدام حول الميناء، يعودان بعدها للنوم بين ذراعيّ بعضهما بعضًا.

قال "إدواردو" بإنه سيجري اتصالًا تليفونيًّا مهمًّا. قررت "دولـوريس" أن تـدخل لتـستحم، لتمنحه مساحة من الخصوصية. حين خرجت من الحمام، أحـست بـالتغيير الـذي طـرأ عليـه. بدا حزينًا وقلقًا وخائفًا. اغتصب ابتسامة حين رآها، لكنها لم تنجح في إزالـة التـوتر مـن عـلى وجهه.

فكرت "دولوريس" بأنه يشعر بالذنب تجاه زوجته، عقب ما حدث بينهما. عليها أن تفكر في أي عذر تقوله، ثم تغـادر عـلى الفـور. اسـتمرار الموقـف عـلى هـذا النحـو قـد يتـسبب في مشكلات لكُلٍ منهما. أرادت أن تواسيه فقط، ثم انجرفا معًا في دوامة من مشاعرهما المتبادلة، واشتياقهما لبعضهما بعضًا. عليها أن ترحل الآن. إن بقاءها هنا فكرة غيرصائبة.

تقول له إنها تذكَّرت فجأة وعدها لأبويها وبعض الأصدقاء بتناول العشاء معهم. يومئ برأسه صامتًا. إنه ليس الشخص نفسه الذي كان يوزع لمساته الساخنة على جسدها منذ قليل. قبل أن تترك الغرفة، تقول له:

- "إدواردو".. لا أدري ما الذي يزعجك، لكنني على استعداد لمساعدتك إذا ما احتجتني.

- نعم.. أعلم ذلك. أشكرك يا "دولوريس".

يحتضنها شاكرًا. تغلق الباب وراءها، وتفكر: "ربما عليّ أن ألحّ قليلًا، ليصارحني بما يشغله".

هناك شيء يملأ قلبها بالخوف عليه، لكنها لا تعرف ما هو.

༄༅

شعرت "دولوريس" أن "إدواردو" في خطر، قبل حتى أن تعرف تفاصيل المسألة التي تشغل تفكيره، ربما لأنها كانت تحبُّه بصدقٍ. لم تصارحني بذلك، ولم أسألها بدوري، لكنني واثقة بمشاعرها تجاهه.

تعبيرات وجهها حين تتحدث عنه تفضحها، أسلوبها في الكلام عنه كذلك. يحتلُّ مكانة مميزة في قلبها، أكادُ أجزم بذلك. أعتبر أن حديثي معها، منذ بضعة أشهر، كان نقطة تحول مهمة في حياتي، لأنه جعلني أرى "إدواردو" من زاوية مختلفة، لم أكن أعرفها من قبل.

༄༅

خلال انتظارها لسيارة تاكسي تقلها إلى المنزل، تلوم "دولوريس" نفسها على اندفاعها في عواطفها مع "إدواردو". ربما كان عليها أن تتأنَّى وأن تُفكِّر مطولًا قبل أن... هذا يكفي! ما حدث بينهما جزء مما كتبه القدر لهما. إنه يعلم الآن أنها على استعداد لتقديم العون له، وهذا هو المهم، ولكن، ماذا لو لم يتصل بها مرة أخرى؟ يعاودها الإحساس بالقلق والخوف عليه. يجب ألا تستسلم لهذه الأحاسيس، وأن تفكر فقط في الوقت السعيد الذي أمضته معه. جسدها يحمل آثار أصابعه. للمرة الأولى تشعر أنها سعيدة لأنها ما زالت على قيد الحياة. رغم كل ما مرّ بها، فإنها ـ في أعماقها ـ تحبُّ الحياة وتقدّرها.

&&&

تتساءل "ميريام" إن كانت ابنة "دوفاو" قد ارتابت بها؟ لقد حرصت على أن تلوّح وتبتسم لها. هل كان ذلك كافيًا؟ ترى ماذا قالت لها "ليلي"؟ هل فهمت عبارتها حين قالت لها: "إنها ليست أمك"؟ لقد نظرت إليها بدهشة. هذا كل شيء. لا تدري ماذا حدث بعد ذلك..

&&&

- لم تكن تنوي قول ذلك. أخبرتني أنها فوجئت بنفسها تتفوَّه بتلك العبارة. خافت ألا تراني مرة أخرى، فقررتْ أن تكشف لي الحقيقة، كما وعدت "ليليانا" قبل وفاتها.

- هل كانت تنوي أن تخبرك بالحقيقة، أم كانت ستكتفي باختطافك فقط؟

- كانت ستخبرني بكل شيء، بالطبع. سبق وقلت لكَ ذلك، مرات عديدة. لم تنسَ قط وعدها لـ"ليليانا"، حين حاولت أن تفتديها بجسدها.

أضافت "لوث" بصوت متحشرج:

- "كارلوس".. أرادت "ميريام" إنقاذي بكل وسيلة تعرفها. لقد عرضت نفسها للخطر، أكثر من مرة، من أجلي. لقد انتظرت حينها مرور بضعة أيام، ثم كررت المحاولة مرة أخرى. اختبأت خلف شجرة كبيرة، قريبة من المدرسة، ووقفت تراقب البوابة في انتظار خروجي، رغم أنها كانت تشعر بخوف شديد.

&&&

"ماريانا" تتكلم عن المرأة التي كانت ستخطف "لوث"، طوال الوقت، ولا تستطيع التوقف.

- لماذا إذًا كانت تريدها أن تركب معها في السيارة؟ ماذا كانت تفعل أمام المدرسة؟ إنها ليست من أمهات التلاميذ..

- كيف تعرفين ذلك؟

- سألتُ "لوث" عدة مرات، بطرق مختلفة، وفي كل مرة تعطيني الإجابة نفسها.. المرأة عرضت عليها شراء الآيس كريم فقط. ترفض مصارحتي بأنها كانت ستركب معها السيارة.

تتأمل "إدواردو" بنظرات غاضبة، وتواصل حديثها:

- أنا التي أسأل وأستفسر وأحلل الموقف، وأنت تتصرف ببرود وعدم اهتمام.

تُردِّدُ كل بضع دقائق أن والدها كان سيتعامل مع المسألة بشكل مختلف، وبطريقة أفضل. يبذل "إدواردو" جهدًا خارقًا حتى يحافظ على هدوئه وصمته، دون أن يصارحها برأيه الحقيقي في "آلفونسو". آخر ما يريده الآن هو أن يتشاجر معها. يطلب منها أن تدعه يتحدث مع "لوث" على انفراد. يوضح لها أن غضبها وعصبيتها يخيفان الصغيرة. تقول له إنه قد تكلَّ معها منذ قليل، فهل أحدث ذلك أي فرقٍ؟ لقد أجابته بالردود نفسها. يشرح لها بأن ذلك تم في وجودها. حديثه معها على انفراد سيأتي بنتيجة مختلفة.

ꟷꟷ

- احتجت بضعة أيام لأخبره اسم "ميريام"، وما قالته لي بالضبط.

سألها "كارلوس" باهتمام:

- وكيف كان ردّ فعله؟ لا بد أنه شعر بالذعر.

- لا أتذكر. كنتُ في السابعة. عرفت التفاصيل لاحقًا، من "خافيير" وزوجته "لورا".

ꟷꟷ

أنتَ مذعور ومتوتر بسبب عذاب الضمير. لقد سرقتَ "لوث"، وهناك من يتربص بك الآن لسرقتها منك. تطمئن نفسك بأن "ماريانا" تبالغ في خوفها وردّ فعلها. لا بد أن يكون هناك تفسير منطقي للأمر. ربما هي أم إحدى زميلات "لوث" في المدرسة. ربما كانت ابنتها الصغيرة داخل السيارة، لكن "ماريانا" لم تلحظ وجودها.

يلحّ في طلبه:

- مِن فضلكِ يا "ماريانا"، دعيني أتحدث معها بمفردي. دون تدخل منك.

يدخل "إدواردو" غرفة "لوث". إنها على الأرض، تلعب بقطع الـ"ليجو". يجلس بجانبها. يشاركها اللعب، ويسألها بين الحين والآخر، بعدم اهتمام متعمد، عن السيدة ذات السيارة. تكرر "لوث" الإجابات نفسها.

- ولكن، ألم تخافي الذهاب مع امرأة لا تعرفينها؟

- ولكنني أعرفها. لقد سبق لي رؤيتها.

تثبّتْ قطعة بلاستيكية فوق أخرى، وتسأله:

- هل هذه في مكانها الصحيح؟

يضع "إدواردو" قطعًا أخرى متجاورة، ويسألها:

- أمام باب المدرسة؟

أنتَ متأكد من أنها أم واحدة من طالبات المدرسة.

- لا أدري. لم أرَ ابنتها.

- أليست زميلتك؟

- أنا لا أعرفها. بابا.. ناولني ذلك المستطيل الأزرق.

يتساءل "إدواردو" في سرّه: كيف إذن سبق للصغيرة رؤيتها، إن لم يكن أطفالها يتعلمون في المدرسة ذاتها؟ لماذا تتردد على المدرسة من الأساس؟

تخبره "لوث" بأن السيدة اللطيفة قالت لها أكثر من مرة إنها جميلة جدًّا. تعلق بأنها تبدو من النوع الذي يحبُّ صُحبة الأطفال، وليست مثل أم صديقتها التي تعاملهم جميعًا بعصبية.

- صحيح؟ نعم، كلامها يوحي بأنها لطيفة فعلًا، وماذا قالت لكِ أيضًا؟

- لا شيء.

تواصل اللعب بالمكعبات الملونة، ثم تقول فجأة:

- آه! نعم! تذكرت! قالت إنها هي التي ساعدتني على بناء قصر الرمال، حين كنا في "بونتا ديل إيستي".

تشعر بالقلق. هل هناك من يراقبكم منذ فترة؟ هل هم من منظمة الجدات؟ تشعر بالاختناق. هل أبلغ أحد عنكم؟

تحاول أن تأخذ نفسًا عميقًا لتستعيد هدوءك. تسألها مرة أخرى:

- حقًّا؟ يبدو إذن أنها صديقة لعائلة "فينتشورا"، أليس كذلك؟

تقول "لوث" إنها لا تدري. إنها لا تتذكر. آه.. نعم.. إنها تتذكر.. تظن أن السيدة لعبت معها على الشاطئ فعلًا، وأن اسمها...

تصمت، وقد استبدت بها الحيرة. تسألها بلهفة:

- ما اسمها؟

ينتابُك الرعب، لكنك لا تريدها أن تشعر بخوفك وقلقك، فتعيد السؤال بنبرة أهدأ:

- ألا تتذكرين اسمها يا حبيبتي؟

لكنها تؤكد له أنها نسيت الاسم. يُقرِّر ألا يواصل الضغط عليها، كما تفعل "ماريانا"، حتى لا ينتابها الخوف من كليهما معًا. يؤكد لها بهدوء أن تصرفها كان سليمًا. لا بأس بالحديث مع الآخرين، ومن تناول الآيس كريم معهم. المهم ألا نركب سيارات أشخاص لا نعرفهم.

تبدأ "لوث" في تفكيك اللعبة بأصابع متوترة. يراقب وجهها وانفعالاتها. إنها تشعر بانزعاج بالغ. سوف يواصل اللعب معها، ويحكي لها قصة، إلى أن تشعر بتحسن.

حين يعود إلى حجرته، تسأله "ماريانا":

- هل قالت شيئًا جديدًا؟

- كلا. قالت إنها رأتها قبل ذلك عند سور المدرسة.

تقول بغيظ:

- إنها ترفض إخباري بأي شيء، وكلما سألتُها تجيبني بأنها لا تتذكر!

تهمّ بالذهاب إلى "لوث" لتؤنبها على إخفاء الحقيقة، لكن "إدواردو" يمسك بذراعها ليستبقيها..

- كيف تتوقعين أن تخبرك بأي شيء، وأنتِ تتعاملين معها على هذا النحو؟ "لوث" تخافكِ.

تنهره بحدّة:

- لا تكن سخيفًا! ماذا قالت أيضًا؟

تقرر ألا تخبرها شيئًا بخصوص "بونتا ديل إيستي". عليك أن تطمئنها..

- إنها تظنُّ أنها سيدة لطيفة، لأنها قالت لها أكثر من مرة بأنها جميلة.

أضاف مهدئًا إياها:

- لا تغضبي منها يا "ماريانا". إنها طفلة صغيرة. أي طفل يرفض الآيس كريم؟ وبخاصة إن كان من يقدمه له شخص لطيف يقول له كلامًا حلوًا؟

تجيب "ماريانا" بأنها لا تصدق إصراره على أن كل شيء على ما يرام، وتسأله باستياء:

- أهكذا تنوي تربية ابنتك؟ لا بأس في التحدث إلى الغرباء ومرافقتهم، ما داموا لطفاء؟!

- لا تقلقي. إن كانت قد رأتها من قبل، فلا بد أنها واحدة من الأمهات، وأولادها تلاميذ في المدرسة.

- أمُّ من؟ أرى أنها قالت لك تلك المعلومة. سألتها عدّة مرات ولم تقل شيئًا.

أردفت بتهديد:

- اسمعني جيدًا.. إن استمر الوضع على هذا النحو، فأنا سأضطرُّ للسفر إلى "بوينس آيرس" للتحدث مع بابا، حتى يرسل شخصًا يحقق في المسألة، ويتوصل لمعرفة من تكون تلك المرأة.

تقول في سرّك: "هذا آخر ما تودّين معرفته يا عزيزتي!".

تدرك الآن أنك شبه متأكد من أن والدا "لوث" هما من المعتقلين. راودتك الفكرة للمرة الأولى حين استمعت إلى "دولوريس"؛ لهذا أنت مهتمٌّ بها وتحبها.. لقد فتحت عينيك ووجّهتك نحو الحقيقة. أنت خائف الآن، لأنك تدرك أن المرأة التي تلاحق "لوث" قد تكون إحدى الجدات اللواتي يبحثن عن أحفادهن.

يجب أن تعرف المزيد من "دولوريس".

ينتبه من شروده على صوت "ماريانا" الغاضب، وهي تردد أن والدها كان سيحل المسألة منذ لحظة وقوعها.. يفكر في نفسه بغيظ: "وهل تعتقد أنه إله؟!".

يصيح بها دون وعي:

- والدكِ العظيم يا سيدتي يعذب السجناء ويقتلهم، ويسرق أطفالهم..

تلتوي قسماتها في غضب، وتصيح به:

- ماذا تقول؟ ما هذا؟ لقد جُننت!

يتراجع قليلًا:

- حسنًا، ربما لا يفعل ذلك بيديه.. لكنه يصدر الأوامر وأعوانه ينفذونها.

- أنت لا تفهم معنى الحفاظ على أمن الوطن!

- وهل تتطلب المحافظة على أمن الوطن تعذيب الأبرياء وقتلهم، والاستيلاء على صغارهم، وإضاعة الهوية الحقيقية لهؤلاء الأطفال؟

لحسن الحظ، تسكته "ماريانا" بصفعة قوية على وجهه؛ لولا ذلك لواصل كلامه وأخبرها بحقيقة "لوث".

عليكَ ألا تلومها الآن. أنت المخطئ في الأساس، منذ أن وافقت على الاشتراك في هذا المخطط، وأخفيتَ عنها الحقيقة.

يدنو منها محاولًا احتضانها والاعتذار لها، لكنها تدفعه بعيدًا عنها وهي تبكي بحرقة. يقرر ألا يصالحها الآن. إنه منزعج للغاية، ويخشى أن يفقد أعصابه. يغادر الغرفة ويذهب إلى المطبخ.

"لوث" تجلس إلى الطاولة مع "كارمن"، وقد تحممت ولبست ثياب النوم، وتوشك على تناول عشائها.

- هل يمكنني الجلوس، وتناول الطعام معك؟

- ألن تتعشى مع ماما لاحقًا؟

- بلى، ولكن يمكنني أن آكل مرتين! أنت تعرفين كم أحب الطعام!

حين يصطحبها إلى حجرتها، ليقص عليها حكاية قبل النوم، تقول فجأة وهو يضعها في السرير:

- "ميريام".

تضيف:

- السيدة التي قالت إنها ستشتري لي آيس كريم.. أظن أن اسمها "ميريام".

يخفق قلبك بقوة، وتتسارع نبضاته. ألم يكن ذلك اسم الأم المُدوَّن في شهادة الميلاد الأصلية؟ أين وضعتَ النسخة المصورة من تلك الشهادة؟ في أحد أدراج مكتبك. لم تطلع عليها منذ زمن. في الواقع، أنت لم تَرَها إلا مرة واحدة في العيادة. تحاول استعادة هدوئك، وتسألها:

- وماذا قالت لكِ هذه الـ"ميريام" يا ترى؟ أظن أن ماما رأتها تتحدث معك. هل قالت شيئًا عن "بونتا ديل إيستي" ربما؟

يزعجها السؤال كما يبدو، إذ تعطيه ظهرها حتى تتجنب النظر إليه. تخبره بأن السيدة عرضت عليها شراء الآيس كريم فقط، وأنها قالت له ذلك مرات كثيرة جدًّا؛ وأن المرأة تجدها جميلة أيضًا.

- والآن.. احكِ لي حكاية يا بابا.

تتمنى أن تقصَّ عليها حكاية الرجل البائس الذي كذب على الجميع، بمن في ذلك زوجته وابنته.. أو بمعنى أصح.. ابنة أشخاص لا يعرفهم؛ لكنك لا تستطيع ذلك طبعًا.

تتذكر، بغتة، إحدى المربيات اللواتي عملن لديكم وأنت صغير. قالت لك مرة إنك ابن عامل تنظيف المداخن، وأن والديك ليسا أبويك الحقيقيين. لسببٍ ما، لم تخبرهما بما قالته إلا بعد فترة طويلة، حين قاما بطردها لأمرٍ لا تتذكره. وتجد نفسك تحكي القصة لـ"لوث":

- كان يا ما كان.. كان هناك ولد مُشاكس بعض الشيء، تشرف على رعايته وتربيته امرأة شريرة...

تقاطعك "لوث" ببراءة:

- امرأة شريرة؟ مَن تكون؟ أمه؟

- كلا، بل مُربيته. في أحد الأيام، أشارت بسبابتها إلى رجل يلبس ثيابًا سوداء شديدة القذارة، وقالت للولد إنه لو استمرَّ في تصرفاته المزعجة، فإنها ستعيده إلى هذا الرجل، منظف المداخن، فهو والده الحقيقي. أخبرته بأنه ليس ابن ماما وبابا..

ما هذا الذي تقوله للطفلة؟! أين قصص الأرانب والسناجب والكائنات اللطيفة؟ أين حكايات سكان الفضاء الخارجي وكوكب المريخ، التي تعشقها "لوث"؟

تفتح "لوث" عينيها قليلًا، ثم تغمضهما بسرعة. تضغط على يدك بين أصابعها الصغيرة:

- هذا أيضًا ما قالته سيدة الآيس كريم.. قالت إن ماما ليست أمي.

تقول بعد لحظة:

- أكمل القصة يا بابا..

هذا سبب سكوتها إذن. إنها خائفة. عليه أن يبث الطمأنينة في روحها.

يؤلف نهاية سعيدة، ليشعرها بالأمان:

- ظَلَّ الصبي الصغير يشعر بالقلق، بعد ما سمعه من المربية، ثم قرَّر أن يذهب إلى منظف المداخن ويسأله إن كان ابنه حقًّا. ضحك الرجل وقال "لديّ أربعة أبناء يا صغيري، وأنت لستَ واحدًا منهم بكل تأكيد".

- هل كانت تلك المرأة الشريرة تكذب؟

إنها اللحظة المناسبة ليخبرها أن سيدة الآيس كريم أيضًا كاذبة وشريرة، لكنه لم يستطع أن ينطق تلك الكلمات. ربما عليه أن يركز على الحكاية فقط.

- نعم يا حبيبتي.. وهكذا أصبح الولد صديق منظف المداخن، ثم أخبر أمه وأباه بما حدث، فقاما بطرد المربية.

- وهل هي امرأة شريرة فعلًا يا بابا؟ هل كانت تنوي اختطافي، كما تقول ماما؟

- ربما لم تفهمي كلامها جيدًا. لم تقل ذلك بالضبط.

- ماذا إذًا؟

- أعني أنها.. ربما لم تَقُلْ إن ماما ليست...

ضميرك يمنعك من استكمال الجملة. تبتلع ريقك، ثم تقول:

- أظنُّ يعني.. أنكِ أسأتِ فهمها، وأنها على الأغلب كانت تسألك: "هل هذه ماما؟".. لأنها لا تعرفها.

تبتسم "لوث" وقد اقتنعت بالإجابة. تغمض عينيها ثانيةً. تواصل أنت سرد النهاية السعيدة.. طرد الأبوان المربيةَ الشريرة، ولم يعد الصبي خائفًا، وأحسوا جميعًا بالسعادة وعاشوا في هناء ومحبة.

يخبر "ماريانا" بأن "لوث" لم تقل شيئًا جديدًا. يحاول مصالحتها، لكنها تبتعد عنه، وتبين له أنها ما تزال غاضبة. تُطفئ الأباجورة المجاورة لها، فيشعر بالارتياح.. لقد انتهت الليلة أخيرًا.. دون مزيد من الاتهامات، ودون أي مشاعر من الحب أو الكراهية.

كلام "لوث" يدور في رأسه كأسطوانة مشروخة، وصورة شهادة الميلاد لا تفارق خياله.

في اليوم التالي، يبحث عن الشهادة في الدرج الثالث بمكتبه. "ميريام لوبيز". إنها الأم إذن! وعلى قدر القلق الذي تشعر به، يغمرك إحساس بالسعادة البالغة.. لم تتم سرقة الطفلة من إحدى المعتقلات. ما زالت الأم على قيد الحياة. تندفع للاتصال برقم "دولوريس". أنت سعيد. لم يتم اختطاف الصغيرة، لقد تخلَّت أمُّها عنها، كما هو واضح.

يُقرِّرُ أنه لن يخبر "دولوريس" بشيء، لكنه يرغب في رؤيتها مرة أخرى. اللقاء الأخير كان رائعًا بمعنى الكلمة. ما زال يشعر به في كل خلية من جسده. ممارسة الحب، وهما راشدان، مختلفة تمامًا عمَّا كانا يفعلانه في سن صغيرة. لم تعد "دولوريس" مجرد قوام جذاب، يُشعِرُه بمتعةٍ خيالية، ولكنها أصبحت الباب الذي يَلِجُ منه إلى الحقيقة الكاملة. لقد فتحت عينيه، ومنحته القوة والثقة. شعر معها، ومن خلالها، بأنه رجلٌ حقيقي.. وليس مجرد شخص مسكين يتصف بالبلاهة، كما تُشْعِرُه "ماريانا".

حين تجيب "دولوريس" على التليفون، لا تفهم الكثير من ثرثرته وحماسنه، لكنها تشعر بأنه سعيد. تشتاق إليه من أعماقها، تكاد رغباتها أن تعصف بها:

- لِمَ لا تأتي إلى "بوينس آيرس"؟ سأسافر الأسبوع القادم.

- غدًا. تمام السادسة، في "داندي".

عليها أن تسأله في الغد عمَّا حدث بالضبط. إنه سعيد، لكن شيئًا ما يشغله. إنها متأكدة من ذلك. يجب أن يصارحها به ليكتمل ارتياحه.

ماذا عنها؟ ماذا عن مشاعرها؟ لا تعرف. لا تدري كيف تصف شعورها. على كل حال، ستعود إلى فرنسا بعد بضعة أيام، وعلاقتها بـ"إدواردو" تسير في طريق مسدود. إنها سعيدة برؤيته.. فلتستمتع بذلك وكفى.

يقول "إدواردو" لـ"ماريانا" إنه سيذهب إلى "بوينس آيرس" في اليوم التالي، وإنها إن كانت لا تزال تشعر بالقلق، فعليها أن تذهب بنفسها لاصطحاب "لوث" إلى البيت، وأنه ابتداء من يوم الأربعاء سيعيد هو الطفلة من المدرسة يوميًّا. يطمئنها بأنه سيعمل على البحث عن معلومات عن تلك المرأة.

ꙮ

يقرر أن يبحث عن "ميريام"، لكنه لن يعرف الخطوات المطلوبة إلا بعد أن يتحدث مع "خافيير"، بعد بضعة أيام.

ꙮ

- حان الوقت لتفعل شيئًا! لقد تحدثت مع بابا وطلبت منه أن يأخذ إجازة قصيرة ليساعدني على حل هذه المشكلة، إذ يبدو أنك عاجز عن فعل أي شيء.

إن لم تتوقف "ماريانا" عن أسلوبها السخيف في الهمز واللمز، ومدح والدها، فقد تجد نفسك مضطرًّا لمصارحتها بالحقيقة. لقد كدت تفعل، في ذلك اليوم، لكنك تمالكت أعصابك.. تقول لها برجاء:

- من فضلك يا "ماريانا".. توقفي عن الثناء على والدك بهذه الطريقة المستفزة! أنا لا أطيقه!

هل هذا المرأة التي تقف متحفزة، كوحشٍ غاضب، وقد امتلأ وجهها بالحقد والكراهية، هي نفسها "ماريانا"؟ متى تحولت إلى هذا الكائن البشع، قبيح الشكل؟ تصرخ بأعلى صوتها:

- أنتَ تغار من بابا، لأنه يُجيدُ الاعتناء بي، بينما أنت مجرد زوج فاشل، لم تشعرني بالأمان يومًا..

يجب أن ألتزم الصمت. لن أقول شيئًا. لن أجيبها..

يذهب إلى غرفة المكتب، محاولًا التفكير في الكلام الذي سيقوله لـ"ميريام" إن رآها مرة أخرى. عليه أن يطمئنها لتوافق على لقائه والكلام معه.

إنها امرأة هجرت مولودتها بإرادتها، وتندم الآن على تلك الخطوة. إنه يتفهم ذلك. الفكرة تريحك، رغم معرفتك بأن مطالبة المرأة باستعادة ابنتها ستتسبب في مشكلات لا حصر لها.

يشغل تفكيرك أمرٌ آخر.. ما تعرضت له زوجة "بابلو"..

ꕥ

تؤكِّد لنفسها، طوال الوقت، أن الاستسلام لمشاعرها هو نوعٌ من الجنون.. لكنها ـ في الوقت ذاته ـ لا تستطيع إيقاف إحساسها بالسعادة.

لكن أكثر ما يسعدها هو الحماسة والابتهاج الذي تشعر به أمها، بعد انضمامها إلى منظمة "جدّات ميدان مايو".. هل تصدّق ذلك يا "بابلو"؟ لطالما انتقدتَ سلبيتها وطاعتها العمياء لكل من حولها. إنها تعمل الآن بمنتهى الجدية مع سيدات المنظمة. هل تتذكر يا "بابلو" كيف كنت تغضب من طريقتها البرجوازية المتعالية في التعامل مع "ميرتا" وأسرتها، لأنهم مَن الطبقة العاملة؟ إنها هي مَن يسعى الآن للتقرُّب من والدة "ميرتا" وإقناعها بالانضمام إليهم ومشاركتهم مجهوداتهم للوصول إلى الحقيقة. ماما متيقنة من أنهما ستعثران على حفيدهما. تقول إنه حدس. أم "ميرتا" تشعر باليأس. لقد فقدت اثنين من أبنائها، ولم يعد بإمكانها تحمُّل المزيد من الأسى وخيبات الأمل.

تقول لأمها:

- لو رآكِ "بابلو" الآن، لأحسّ بالفخر يا ماما. أنا أيضًا فخور بك يا حبيبتي. لا تقلقي بشأن رفض بابا لنشاطاتك. إنه ليس في قوتك وصلابتك، لكنه سيتفهم ما تفعلينه، قريبًا جدًا.

- تحدثي معه يا "دولوريس".. أقنعيه بأن يتوقف عن رفضه عملي مع المنظمة. لم أعد أتحمل كل هذا الجدل. والدك ليس ضعيفًا، لكنه مُحبَط.. هذه هي

حقيقة الأمر. أُصيبَ بخيبة الأمل بعد المعاملة السيئة واللامبالاة التي لقيها من رجال الدين وكبار العسكريين.. جميعهم أوغاد.. صدقيني. كانوا يخادعونه.

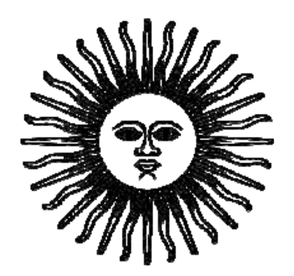
تقول لأمها إنها ستذهب لملاقاة أصدقائها، لكن "سوزانا" تعرف أن ابنتها تكذب عليها..

- انتبهي لتصرفاتك يا "دولوريس". لقد أخبرتك من يكون والد زوجته..

- لا تقلقي يا ماما. أنا أعرف ما أفعل.



10



سيأتي "فرانك" لرؤيتها يوم السبت. وعدته "ميريام" بأن تتصل به في حال غيّرت رأيها وقررت السفر إلى "بوينس آيرس". تراودها فكرة مجنونة.. ماذا لو أقنعته بالهروب معها و"ليلي"؟ سيكونون ثلاثتهم معًا إلى الأبد.. كلا الفكرة غير واقعية.. بل على العكس، إن استطاعت استرجاع "ليلي" فعليها أن تقطع علاقتها به. لن تراه بعدها مرة أخرى. ستتصل به من المطار قبل أن تغادر مع "ليلي". لن تعرّض حياته للخطر من جديد.

عليها أن تنقذ "ليلي" بأسرع ما يمكن، لا يمكنها الانتظار أكثر من هذا.

كانت "ميريام" تجلس في سيارتها، حين رأت "ليلي" تخرج من باب المدرسة. أول ما لفت نظرها هو ابتسامة الطفلة ومشيتها المتقافزة.

أوقفت السيارة في الجهة المقابلة للمبنى، وهي تخاطب "ليليانا" في عقلها:

- لا أدري كيف سأفعل ذلك يا عزيزتي، ولكنني سأستعيدها، وسآخذها بعيدًا عنهم. سوف تعرف الحقيقة. لا تقلقي.

تمنَّت لو يتأخرون على "ليلي" اليوم، فذلك سيسهل مهمتها.

كانت بصدد الخروج من السيارة، وقد تسارعت دقات قلبها، حين رأت "ليلي" وهي تركض باتجاه سيارة "بيجو" رمادية. أغلقت الباب بسرعة، قبل أن يلمحها أحد.

꧁꧂

يجلسان في الـ"داندي"، في صمتٍ تام، تقطعه "دولوريس" أخيراً بسؤالها لـ"إدواردو" عن الأمر الذي اكتشفه مؤخرًا، كما أخبرها على التليفون. يواصل سكوته. كيف يخبرها، وماذا يقول؟ يخشى إن بدأ في الكلام، أن ينهار كل شيء. سوف تكرهه. إنه متيقن من ذلك. تتعمد عدم الإلحاح عليه. تمسك بيده:

- أنت تتألم..

تضيف:

- لنرحلْ مِن هنا.

&&&

حين تصلان الفندق، تمارسان الحب بتمهل. تتأنيان في الاستمتاع بكل لحظة، وكل لمسة. تشعران بصلتكما بمصدر الحياة نفسه.. بالحقيقة. تقبّلها أسفل عنقها، فتخبئ نفسها داخل جسدك.

تحدثه "دولوريس" ببساطة وثقة عن أخبارها وتفاصيل أيامها في الفترة الماضية. تتكلم بألفة شديدة، كما لو كان زوجها أو أحد أصدقائها المقربين. تخبره عن منظمة الجدّات، وعن التغيرات الإيجابية التي طرأت على أمها؛ ثم تسهب في الحديث عن الأمل.

يسألها باهتمام:

- كيف تقوم المنظمة بالبحث عن الأطفال؟ كيف تعرفون من الذي أخذهم؟

تخبره "دولوريس" عن التقارير والبلاغات التي يقدّمها بعض الناس (يعرّفون بأنفسهم أحيانًا، فيما يحرص عدد منهم على إخفاء هوياتهم) والتي يذكرون فيها أسماء سيدات وعناوينهنَّ، لم يحملن قط، ثم ظهرن فجأة بصحبة مواليد صغار. تتوجه الجدات إلى تلك العناوين ويحققن في الأمر.

هل "ميريام" واحدة منهن يا ترى؟ ربما كان تطابق اسمها مع ذاك المدون في شهادة الميلاد، مجرد مصادفة.. ولكن لماذا سيشكّون في "ماريانا"؟ لقد كانت حبلى في تلك الفترة. ما السبب إذًا في أنها تراقبهم وتتبعهم أينما ذهبوا؟ هل أفشت إحدى ممرضات العيادة السِّرَّ؟ هل ذكرت أمام أحد بأن الجنين ولِد ميتًا؟ ربما كانت الموظفة التي زوَّرت شهادة الميلاد هي من فعلت ذلك..

أنت إنسان مُخادِع. أنت تخادع "دولوريس" قبل أي شخص آخر. أسئلتك لها عن منظمة الجدات، توحي أنك مهتمٌّ بعملها ونشاطها، بينما أنت في الواقع تحاول أن تطمئن نفسك. لا أكثر.

تصيح فجأة:

- كم أنا حقير!

تسألُك عن سبب قولك ذلك، وتقول لك إن هناك ما يزعجك وأنها أحست بألمك منذ اللحظة التي رأتك فيها في "داندي".

كيف يمكن مصارحتها بالموضوع؟ كيف ستشعر حيالك؟ لقد منحتْ جسدها وعواطفها لشخصٍ يسرق المواليد، ولا يختلف في إجرامه عن الناس الذين تلاحقهم من خلال المنظمة.

يظلُّ "إدواردو" صامتًا. يغمض عينيه. تربّت عليه وتُمرِّر راحتها على جسمه، محاولةً طمأنته وتهدئته.

أنت لا تستحقُّ هذه الإنسانة الطيبة، ولا تستحق ابتسامة "لوث" البريئة وحبها العظيم لك. تقول "دولوريس":

- ولكن لماذا تقول ذلك؟

تميل نحوه وتقبّله، وتخبره أنها متيقنة من العكس. يحتضنها بقوة وهو يحاول التغلب على رغبته الملحّة في البكاء.

لم تبكِ منذ ذلك اليوم البعيد في العيادة، حين وضع "خافيير" ذراعه حول كتفيك.

ليتك تستطيع إخبارها! ولكن نظرتها إليك ستتغير تمامًا. ربما الأمر أبسط من ذلك.. "ميريام" هي الأم الحقيقية فعلًا، وهي لا تزال على قيد الحياة. قد لا يكون الأمر كذلك.. لا تدري..

تعتذر لـ"دولوريس" وتقول لها إنك آسف، ولكنك لن تستطيع مصارحتها بالحقيقة. تخبرها أنك مدين بالاعتذار لزوجتك وابنتك أيضًا.

تتوسل إليه لمعرفة الإجابة، بعينيها وجسدها الذي يعشق:

- لماذا؟ أخبرني. قل لي.

- وَلدت "ماريانا" بعملية قيصرية. لازمها والداها منذ اللحظة الأولى...

شيئًا فشيئًا، تتوالى فصول الحكاية على لسانه. يتلعثم في بعض الأجـزاء، ويرتبـك في أجـزاء أخرى، فيقصُّ أحداثًا قبل أخرى.

تجلس "دولوريس" على حافة السرير، وقد تجهَّم وجهها واتسعت حدقتا عينيها. يكرر مـا قاله منذ لحظة من أن المرأة تحمل الاسم نفسه المدوّن على شهادة الميلاد..

- أعني.. إذا كانت هي التي ذهبت للقاء "لوث" أمام المدرسة، فإنها ليست إحـدى قـضايا الاختفاء القسري والاختطاف، أليس ذلك؟

لم تهتم بالردّ عليه. جلست في جمود مرتدية قميصه.

ﮩﮨ

احتاج "إدواردو" وقتًا طويلًا ليتمكن من مصارحة "دولوريس" بالحقيقـة. أحـست بعـدها بالفظاعة. لقد عادت إلى "بوينس آيـرس" لحـل هـذه القـضايا تحديـدًا. في لحظـات، اسـتحال "إدواردو" من حبيب إلى خصم.

ﮩﮨ

لم تقاطعك مرة. تحدق إليك في صمت. إنهـا متـوترة جـدًّا. إنهـا تكرهـك، وأنـت تـستحقُّ ذلك.

- أنا لا أكرهُك.. كل ما في الأمر هو أنني...

تنظـر حولهـا بـشكل جنـوني. تـستقر نظراتهـا في النهايـة عـلى "إدواردو". تقـول بتـصميم وصرامة:

- لا يمكن ترك الأمور معلّقة على هذا النحو. عليك أن تفتش عن الحقيقة.

يرتفع صوتها فجأة وهي تقول:

- اسأل حماك. اطلب منه أن يدلك على المكان الذي أحضر منه الطفلة.

تبذل مجهودًا واضحًا للسيطرة على نفسها وصوتها، ثم تقول:

- حسنًا.. أقترح أن تُواجِهُ المرأة أمام سور المدرسة، أو في أي مكان تجدها فيه، ودعها تخبرك إن كانت هي الأم الحقيقية أم لا.

تضيف بعد برهة:

- وصارح زوجتك.. كيف تكذب عليها طوال هذه السنوات؟!

تتوالى أسئلة "دولوريس" وتعليقاتها، بلا رحمة. "لماذا تركتهم يفعلون ذلك؟"، "لماذا لم تحرص على معرفة مصدر تلك الطفلة المسكينة؟"، "لماذا اخترت السكوت طوال هذه الأعوام؟".

تتلعثم وتتأتئ، ولا تعرف كيف تجيبها.. ولا كيف تبرر موقفك المتخاذل. دعها تَرَكَ على حقيقتك، وتدرك مدى حقارتك وقذارتك.

❀

- تفهمت "دولوريس" لاحقًا الظروف التي مرّ بها "إدواردو"، ودفعته للاستسلام. حين التقيتُ بها، حرصتْ على أن تعيد على مسامعي أن "إدواردو" حاول جاهدًا أن يبحث عن الحقيقة، بعد بلوغي السابعة. أخبرتني بأنها هي التي حثته على ذلك. اعترفت لي بأنها اضطرت لأن تقسو عليه. كانت قسوتها هي ما يحتاجه منها في تلك الفترة. أحسستُ بأنها أحبته بصدق وبعمق. لو لم تحبه، لأبلغت عنه مثلا..

- لم تَقُم بالإبلاغ عنه؟ لماذا؟

- كلا، لم تفعل. كانت أمُّها "سوزانا كولادو" هي التي...

سكتت "لوث" لحظة، ثم قالت:

- أقترح أن أواصل سرد الأحداث بالترتيب.

❀

بعد حوار طويل جدًّا بينهما، تتعامل "دولوريس" معه بصرامة بالغة، دون أن تفقد حنانها عليه:

- حسنًا.. إن كنتَ مُحقًّا، واتضح أن "ميريام" لم تكن ضمن مَن اعتقلوا وتعرضوا للاختفاء القسري، فإن ذلك أمر جيد، لكن السؤال هو: لِمَ لم تعرض مولودتها للتبني؟ النقطة الثانية هي أنك قد تكتشف أن والدي "لوث" تعرضا

للاعتقال والسجن. هل تدرك ما يعنيه ذلك للطفلة؟ لقد قمتم بحرمانها من هويتها الأصلية ومن تاريخ أبويها، وتعاملتم معها بشكل غير آدمي، على أنها مجرد شيء.. جماد.. دمية يعوّض بها حماك ابنته حتى لا تبكي على لعبتها القديمة المكسورة. أليس هذا ما قلته أنت بنفسك عن "ماريانا" وأبيها منذ قليل؟

تصيح بصوت تخنقه الدموع:

- كفى! توقفي!

تُخبّئ رأسك تحت الوسادة، وتبكي بحرقة. تستلقي "دولوريس" بجوارك، وتمسح بكفها على رأسك. هي أيضًا تبكي.. من أجل "إدواردو"، ومن أجل نفسها و"بابلو" و"ميرتا"، وطفلهما الذي لا يعرف أحد مكانه.

الشكّ بأن "لوث" طفلة مسروقة يهاجمك بضراوة، وينشب مخالبه في روحك وضميرك.. ماذا لو اتضح أن الأمر ليس مجرد شك؟ كيف ستتصرف؟ تشعر بحيرة بالغة، لكنك تقول بتصميم:

- سأفعل كل ما بوسعي يا "دولوريس".

- نعم. لقد ارتكبتَ خطأ جسيمًا يا "إدواردو"، لكنك تغيرت، ولن تدع المسألة دون حل.

تقترح عليه أن يجلب لها شهادة الميلاد لتطلع عليها. إنها تعرف المعتقلات التي أخذوا النساء إليها. تضيف:

- لكنني مندهشة من وجود شهادة الميلاد أصلًا!

- كلا. أرجوكِ. لا تخبري أحدًا بالقصة. سأتولى الأمر بنفسي.

حين يوصلها إلى المنزل، في ساعة متأخرة من الليل، يلتزم كلاهما الصمت. يُودِّعها بقبلة.

- اتصل بي فور معرفتك أي شيء. يمكنني مساعدتك.

قبل وصولها إلى باب البيت، تستدير وتلتفت نحوك. تعود إليك وتحتضنك بقوة، وتهمس:

- "إدواردو".. أنا أحبك وأثق بك.

تشعر بالقوة والأمان. لقد غفرت لك.

- سأبذل قصارى جهدي للوصول إلى الحقيقة. صدقيني.

༄༅

ينتظرها "إدواردو" على ناصية الطريق المؤدي إلى المدرسة، بدلًا من وقوفه أمام البوابة. ليس لديه خطة معينة، ولا يعرف شكل "ميريام". عدد هائل من الأمهات يقفن في انتظار أطفالهن. يتفقد "لوث" بين الصغار الخارجين عبر البوابة. لا يراها. ينتابُه الرعب. ماذا لو استغلت تلك المرأة هذا الازدحام وقامت باختطافها؟ اختفت "لوث".. اختفت..

تتردد كلمة "اختفت" في رأسك عشرات المرات، وأنت تشقُّ طريقك بين السيدات بلهفة.. اختفت "لوث" مثلما اختفى والداها. ماذا كان اسمها قبل أن يستولي عليها حموك ومعاونوه؟ قبل أن يعمدوا إلى محو هويتها.. ولماذا تستثني نفسك؟ أنت واحد من معاونيه.. أنت الأساسي.. لم تكتفِ بمساعدته على إتمام المسألة، بل منحتها اسمك ولقب عائلتك، ثم أطلقت عليها اسم "لوث". جعلتها "نور". نور يغطي ظلمات الماضي وجرائمه.

༄༅

- "إدواردو" هو من اختار اسمي. اعتادت "ماريانا" أن تردد أنه لا يلائمني، وبخاصة حين أمرّ بنوبات اكتئاب. كانت قد وضعته، خلال حملها، ضمن قائمة من الأسماء المقترحة، لكنها حين مرضت وعانت من الغيبوبة، اضطر "إدواردو" للاختيار بمفرده. لم يعجبها في نهاية الأمر ورأت أنه غير مناسب.

༄༅

يلمح "إدواردو" الطفلة، فيحتضنها بلهفة كأنه لم يَرَها منذ أعوام. تتهلل لرؤيته. بابا بنفسه جاء ليصطحبها إلى البيت!

༄༅

ذلك اليوم، تحديدًا، لم تذهب "ميريام" إلى المدرسة.

༄༅

بعد أن يتصل بها "فرانك"، تستلقي "ميريام" على فراشها، وتستغرق في سلسلة من أحلام اليقظة.. إنها تُمضي كل وقتها بين ذراعيّ "فرانك" في بيته ذي الحديقة. يتفنن في تدليلها. يضمُّها إلى صدره بحنان، كما لو كانت طفلته الصغيرة. لم تتلقَ أي قدر من الحنان في طفولتها. لا تعرف شكل أمِّها، فقد هجرتها حين كانت في الثانية، وتركتها لدى شقيقتها. تفكر "ميريام" بأن أمَّها لم تكن تحبها، ولذلك تخلت عنها بمنتهى البساطة.

يهاجمها الأسى بغتة.. تتساءل بحزن: إن كانت ستفقد كل ما تحلم به وتتمناه، دون مقابل؟ قد لا تحصل على "ليلي" بعد كل هذا، وينتهي بها الأمر في السجن، أو في قبضة "آنيمال". ستُحرَم من "فرانك" وحبه، وعطفه عليها.

تُذكِّر نفسها بأن عليها ألا تحزن على نفسها، وألا تضعف أو تستسلم. ما زالت فرصتها لاستعادة "ليلي" قائمة. ستخبرها كيف تعرفت إلى أمِّها. لن تخدعها. ستصارحها بكل شيء.

ꕥ

- وذلك ما فعلته بالضبط. لم تكذب أو تُقدِّم لي أي تبريرات.

ꕥ

ستجد مكانًا تعيش فيه معها. مَن يدري؟ إن تغيرت الظروف وأتت حكومة ديمقراطية فعلًا، فسوف تقوم بالبحث عن عائلة "ليلي". ربما استطاعت الوصول إلى جدتها أو عمها. لن تجد الأب.. رفيق "ليليانا".. لقد قتلوه ولا شك.

ꕥ

تبتسم "لوث" بسخرية، وتوجه له نظرات نارية:

- لكنهم لم يقتلوك. ظللتَ على قيد الحياة، لكنك لم تكلف نفسك عناء البحث عني أصلًا! "ميريام" التي تسبّها وتنتقدها طوال الوقت، هي التي جازفت بكل شيء للعثور عليّ.

هذه المرة، لم يدافع "كارلوس" عن نفسه، أو يذكر لها مبرراته. اكتفى بالصمت. "لوث" بحاجة للتنفيس عن غضبها المكتوم، فليسمح لها بذلك.

꧁꧂

تُفكِّر "ميريام" فيما حدث ذلك النهار، حين لم تأتِ الخادمة ذات المريلة الـ"دانتيل"، وجاءت بدلًا منها السيارة الـ"بيجو" الرمادية. وجود الخادمة يشعرها بالأمان، إذ لم يسبق لتلك الفتاة الشابة رؤيتها، ولا تعرف شكلها؛ لكن "ليلي" قد تشير بيدها تجاهها وتقول: "هذه هي السيدة التي طلبت مني ركوب سيارتها. هي التي أخبرتني بأن ماما ليست ماما".

سيتم إلقاء القبض عليها، وينتهي كل شيء. تتوالى في مخيلتها صور التعذيب المرعبة، كما وصفتها "ليليانا" لها منذ بضع سنوات.

تفتح التليفزيون حتى تنشغل به عن هذه الأفكار المخيفة.

انقضى وقت خروج الأطفال من مدارسهم، دون أن تغادر "ميريام" مقعدها أمام التليفزيون.

꧁꧂

سكتت "لوث" قليلًا. بدا وجهها متعبًا ومتوترًا. لقد وصلت في حكايتها إلى نقطة فاصلة في حياة "إدواردو" و"ماريانا".

- في تلك الليلة، عرفت "ماريانا" أنني لست ابنتها. لم تكن قد ارتابت في الأمر من قبل.

- لا بد أن ذلك كان أمرًا صعبًا عليها. لقد كذبوا عليها جميعًا، وخدعوها.

أجابت "لوث" بحدّة:

- لقد كذبوا عليها وخدعوها فعلًا، لكنها لم تبدِ أي اعتراض أو انزعاج، لأنها كانت ستفعل مثلهم تمامًا.

للمرة الأولى، يلاحظ "كارلوس" أن مشاعر "لوث" تجاه تلك السيدة التي تدعوها "ماريانا" أحيانًا، و"ماما" في أحيان أخرى، متضاربة ومرتبكة. كانت ـ وما زالت على الأغلب ـ تحبها جدًّا، لكنها في الوقت ذاته لا تستطيع التوقف عن انتقادها وتعديد عيوبها.

꧁꧂

كانت "لوث" قد استسلمت لنوم عميق، قبل أن يندلع الشجار بينهما..

لماذا لم يأتِ بمعلومات جديدة؟ إنها مُتيقنة من أنه لم يفعل شيئًا. كلا، بل فعلت. ذهبتُ أنتظر المرأة أمام المدرسة. وقفتُ أترقب حضورها، كما لو كنتُ مخبرًا سريًّا، لكنها لم تأتِ.

تهزّ "ماريانا" رأسها بعصبية ونفاد صبر، وتعلن أنها لو كانت تعلم أن شخصيته ضعيفة لهذه الدرجة، لما تزوجته من الأساس. كانت تحلم بإنسان قويّ الشخصية مثل والدها. رجل حقيقي.

- رجل حقيقي؟! لعلكِ إذن تقصدين وغد، وسادي، ومجرم، ومحتال، وكاذب، وغشاش؟

هذه المرة، تمسكُ بيدها قبل أن تهوي على وجهك بصفعة. تظل تضغط على كفها بقبضتك، وأنت تخبرها أن والدها كذب عليها هي شخصيًّا، حين كانت في غيبوبتها. تقول لها إنه جلب لها طفلة، لا أحد غيره يعرف ممن أو من أين، ونسبها إليها بمنتهى البساطة.

يستمر "إدواردو" في الكلام دون توقف، إلى أن تنهار "ماريانا" على مقعد قريب، وهي تحملق إليه بعينين ذاهلتين.

تسألك بصوت مبحوح:

- ما هذه القسوة؟ كيف تخبرني الحقيقة بهذه الطريقة الموجعة؟

تعتذر لها، وتقصُّ عليها الحكاية من أولها، بالتفاصيل كافة. تخبرها بأن توقيت المصارحة، في وسط شجار، غير مناسب بالطبع، لكنك سعيد لأنك ارتحت من وطأة هذا الحِمل الثقيل.

- من المستحيل الاستمرار في حبك ومعاشرتك، وهذه الكذبة تلقي بظلالها الكريهة علينا..

- بابا الذي وجدها إذًا! لم يخبرني شيئًا عن الموضوع!

يفكر "إدواردو":

- ها هي، أخيراً، تراه على حقيقته. ستغضب منـه، وتـدرك أنـه لـيس بالمثاليـة ولا الروعـة التي تخيلتها.

لكنها فاجأته حين أضافت، وقد ارتسم تعبير حالم وسعيد على وجهها:

- بابا حريص دائمًا على حمايتي من أي شيء قد يجرح مشاعري.

ᘓᘐ

يا إلهي! هـذا غـير معقـول! مـستحيل! يجـب أن يـسألها إن كانـت تـدرك مـدى فداحـة المسألة؟ هل تفهم أن والدها متورط في أمور أكبر من اختطاف رضيعة من عائلتها؟

لكنه يسألها، عوضًا عن ذلك، إن كان بإمكانها مسامحته عـلى خداعـه لهـا طـوال الأعـوام الماضية. دون أن تجيبه، تتوجَّه إلى غرفة "لوث". تراقب الـصغيرة النائمـة، وكأنهـا تراهـا للمـرة الأولى.

تقول لنفسك: "لا بد أنها تتألم الآن بعد اكتشافها أن "لوث" ليست ابنتها".

تلحق بها إلى غرفة الطفلة، وتحاول احتضانها لتواسيها، لكنها تفاجئك للمرة الثانيـة، حـين تقول شاكرةً:

- على الأقل، بشرتها بيضاء ولها عينان خضراوان.

ما معنى هذا الكلام التافه؟ إنها لا تشعر بالغضب ولا الحـزن ولا الخديعـة، ولا شيء. كـل ما يهمها هو أن الطفلة بيضاء!

تلاحظ تجهمك، فتقول:

- أعني أن بابا أحسنَ الاختيار. جلب لنا طفلة تناسبنا من حيث الـشكل، وليـست سـمراء من أصول هندية مثلًا..

يمنعه الغيظ من الردّ. يدخل غرفة المكتب. يفكر في الاتصال بـ"دولوريس". لكنه يغير رأيه في اللحظة الأخيرة، ويتصل بأخيه، ويقول له بأنه بحاجة للتحدث معه.

ᘓᘐ

في الثالثة والنصف فجرًا، تُطفئ "لورا" الأباجورة وتدرك أنها لـن تحظـى بـأي قـسطٍ مـن النوم. خلال ساعات قليلة، ستوقظ الأطفال وتـساعدهم في ارتـداء ثيـابهم للمدرسـة. سـتكون متعبة طوال اليوم. تنظر إلى زوجها الذي يتقلب على جنبيـه في قلـق واضـح. لقـد تركتـه مـع شقيقه، بعد أن شربت القهوة معهما. "إدواردو" لا يتنـاول القهـوة لـيلًا، أبـدًا. لا بـد أن شـيئًا يشغله.

يقول زوجها:

- صدقي، أو لا تصدقي، لقد كنتِ محقة في كل كلمة قلتيها! لا أدري كيف خمنتِ ذلـك، لكنك على صواب.. "لوث" ليست ابنتهما. ذلك العجوز المختل تعمّد أن يعرّضـه لغـسيل مـخ، وأنتِ تعرفين مدى ضعف شخصية "إدواردو".

"خافيير" ممتلئ بالغيظ والسخط والألم. لقـد أخـبره شـقيقه كـل شيء. إنـه يـتفهم تـورط أخيه في المسألة. لقد كـان يمـر بوقـت عـصيب.. زوجتـه مريـضة جـدًّا، وهـو مرهـق ومتـوتر الأعصاب، والكولونيل يضغط عليه بأوامره المتتابعة.

"لورا" تصر على معرفـة التفاصـيل. تتـساءل بعـدها عـن الـسرّ في اعـتراف "إدواردو" الآن فقط؟ هل للأمر علاقة بـ"دولوريس"؟

- ليس بشكل مباشر، رغم أنه كرر عدة مرات أن حكايتها، هي وشقيقها، هي التي جعلته يُدرِكُ أن الطفلة قد تكون ابنة إحدى السجينات.

أضاف "خافيير":

- ظَلَّ يُردِّد أنه لم يتوقع أن يقوموا بعمل إجرامي بهذه البشاعة. لقد شعر بتأنيـب ضـمير رهيب في البداية، لكنني أظنُّ أنـه تنـاسى ذلـك مـع الوقـت، مـع انغماسـه في حـب الـصغيرة وتعلقه الشديد بها.

أردف:

- لم يشرح لي طبيعة علاقته بـ"دولوريس"، لكنني أظنُّ أن ما بينهما قوي للغاية. بـدأ مـن خلالها في رؤية الأمور من منظور مختلف تمامًا. أنضجته هذه العلاقة، كما يبدو، وصنعت منه رجلًا حقيقيًّا، لدرجة أنه قرّر مواجهة مخاوفه وشكوكه. لقد تشاجر مع "ماريانا"، كعادتهما في الفترة الأخيرة، لكنه قررمصارحتها بكل شيء هذه المرة.

سألته "لورا" عن شعورها بعد معرفتها بالحقيقة الصادمة. يخبرها "خـافيير" عـن تعليقهـا بشأن بياض بشرة الصغيرة.

تقول "لورا" بعفوية:

- إنها لا تقلّ حقارة وقذارة عن أبيها!

ꟸꟹ

- ساعدتني "لورا" كثيرًا. في المرات الأولى التـي ذهبـت فيهـا إلى "خـافيير"، لم يـتمكن مـن الكلام. لكنها هي من أقنعته بضرورة مصارحتي بكل ما يعرفه.

ꟸꟹ

قال "خافيير"، مدافعًا عن "ماريانا"، إن ذلك لا يعني معرفتها أو موافقتهـا عـلى اختطـاف أطفال سجينات المعتقل. قد يكون مجرد تعليق نطقت به دون تفكير.

تنظر إليه "لورا" بعدم اقتناع.

حين يخبرها "خافيير" عن شهادة الميلاد، تعلق "لورا" إن الأمر إمَّا مجـرد مـصادفة غريبـة، وإما أنهم وضعوا اسمًا مزيفًا. توضح لـه بـأنهم يكتفـون عـادة بكتابـة كلمـة "مجهـول" عنـد تسجيل هؤلاء الأطفال، وبخاصـة في المراكـز الـسرية مثـل سـجن "أولمـوس"، وموقـع الحاميـة العسكرية في منطقة "كامبو دي مايو"، وغيرها من الأماكن..

يقول "خافيير":

- نعم، ولكن هذه القضية غريبـة وغـير مألوفـة. لقـد ارتكبـوا العديـد مـن الأخطـاء، ولم يهتموا بمحو آثار جريمتهم كما اعتادوا، والأغرب من كل ذلك أن الأم لا تزال عـلى قيـد الحيـاة وتتجول بين الناس بحرية!

هتفت "لورا" بدهشة بالغة:

- ماذا؟! ما هذه المفاجآت المتوالية؟ كلها غير منطقية!

- حـسنًا.. هـل تتـذكرين مـا قالتـه "ماريانـا" مـؤخرًا مـن وجـود محاولـة لاختطاف "لوث"؟ لقد تصورنا أنها تبالغ وتتخيل أشياء غـير حقيقيـة، وأن كـل

ما في الأمر هو أنها رأت امرأة تتبادل حديثًا مع الطفلة، أليس كذلك؟ الحقيقة أن تلك السيدة قالت للصغيرة إن "ماريانا" ليست أمها. أسرّت "لوث" بذلك لـ"إدواردو". أخبرته أيضًا أنها لعبت معها على الشاطئ في "بونتا ديل إيستي"، وأن اسمها "ميريام". إنه الاسم المدوّن نفسه على الشهادة!

نصح "خافيير" شقيقه بأن يبحث عنها ثانيةً حول المدرسة، محذرًا إياه بأن الحديث معها قد تترتب عليه نتائج مؤلمة لكل الأطراف. عرض عليه أن يذهب معه، لكن "إدواردو" أكد له بأنه يستطيع التصرف بمفرده.

- عليّ أن أفكر في التصرف الأمثل لو تبين لي أنها تخلت عن ابنتها عند الولادة، وتريد استعادتها الآن..

حين غادرت "لورا" فِراشها لتعاون الصغار على الاستعداد للذهاب إلى المدرسة، لم تكن نعسانة كما توقعت، بل يقظة ونشيطة ومتنبهة الحواس، ظلت تفكر فيما سمعته، ووجدت نفسها غير متعاطفة مع "ماريانا" بتاتًا. ردّ فعلها أظهر قسوة قلبها، وبيّن أنها لا تختلف عن أبيها في شيء.

༄

- ظل "خافيير" مقتنعًا بأن "ميريام" هي أمي الحقيقية. المعلومة الوحيدة التي يعرفها عنها هي أنها فتاة ليل محترفة، وكان "إدواردو" قد أخبره بذلك. وجد صعوبة في مصارحتي بالأمر، لكنه استسلم لإلحاح "لورا" عليه، بأن يخبرني الحقيقة كاملة. شعرت "لورا" بأن للمسألة جوانب خفية، وأن هناك تفسيرًا آخر لما حدث، يتجاوز تخلي "ميريام" عني عند الولادة.

༄

استبدلت "ميريام" سيارتها المؤجرة، بأخرى من لون وتصميم مختلف، حتى لا يتعرف عليها أحد، عقب محاولتها الفاشلة في اختطاف الطفلة. في كل يوم، تحوم حول المدرسة بالسيارة الجديدة، ثم توقفها في الجهة المقابلة للبوابة، وتراقب ما يجري من داخلها.

كان "فرانك" قد اتفق معها على اللقاء بعد يومين، وأخبرها أنه سيعود إلى الولايات المتحدة في الأسبوع القادم. قال ضاحكًا:

- عليّ أن أعمل، فلستُ شيخًا عربيًّا ثريًّا!

- حسنًا، سأحجز لك غرفة في فندق غير الذي أقيم فيه.

- لماذا؟ ألن نكون معًا؟ ألن أراكِ؟

- بلى، ولكنني هنا في الأساس من أجل العمل. أفضِّل الفصل بين عملي وحياتي الخاصة.. ثم ما الذي يمنع أن أنزل معك في فندقك، ونعود السيد والسيدة "هاريسون" من جديد؟ سأتصل بك غدًا. قد أعودُ إلى "بوينس آيرس" إن أنهيت عملي هنا في "إنتري ريوس" في وقت مبكر.

تفكر بعد أن تضع السماعة: "ثم آخذها وأتوجَّهُ بها إلى السويد، أو إلى مكان أبعد من ذلك أيضًا، حتى لا يعثر علينا أحد".

كانت قد حجزت تذكرتيّ سفر إلى ستوكهولم، ليوم السبت. تطيران بعدها في اليوم التالي إلى سنغافورة، باستخدام جوازي السفر المزورين.

الخطة واضحة وسهلة التنفيذ، وهي تشعر بتفاؤل كبير، وتظنُّ أنها ستنجح في مهمتها. "ليلي" ستجلب لها الحظ السعيد.

تفكِّر في الطفلة، سيكون الأمر صعبًا عليها في البداية.. سوف تفتقد الناس الذين قاموا بتربيتها. تقرر ما ينبغي عليها قوله لها.. لقد تعرضت للاختطاف وهي رضيعة، وهؤلاء الناس هم الذين أخذوها من أمها.

ستغمرها بكم هائل من الحب والحنان، إلى أن تجد الطفلة نفسها تبادلها المشاعر نفسها. ربما ما زالت أيامها الأولى محفورة في ذاكرتها، سيساعدها ذلك على التجاوب مع محبتي وعطفي.

ꕥ

- لا أتذكر شيئًا من أيامي الأولى، بطبيعة الحال، لكنني حين التقيت "ميريام" بعد مرور سنوات طويلة، وأنا كبيرة، شعرت نحوها بألفة وحميمية، وكأنني أعرفها منذ زمن. ربما كان للأمر علاقة بالذاكرة فعلًا.. مَن يدري؟ ربما يفسر هذا عدم ترددي في الذهاب معها واستعدادي لركوب سيارتها وأنا طفلة في السابعة.

ꕥ

بعد مرور خمس دقائق تقريبًا، غادرت "ميريام" سيارتها وسارت بتصميم وإصرار تجاه مبنى المدرسة. جَفَلَت "لوث" حين رأتها. لاحظت "ميريام" ذلك، وانزعجت بشدة.. لقد حذروا "ليلي" منها، ولهذا تشعر بالخوف.

الوقت ضيق، إمَّا أن تفعل ذلك الآن، وإما ينتهي الأمر إلى الأبد.

- أهلًا يا حلوة!

غمغمت "لوث"، وهي تُشيح بوجهها في ارتباك:

- أهلًا..

التفتت تجاه "ميريام" فجأة، وتكلمت بسرعة كأنها تخشى أن يراها أحد، وقالت:

- لا تعرضي عليّ شراء الآيس كريم. ليس مسموحًا لي بذلك.

- لا.. لا آيس كريم. سأقف معكِ قليلًا، إلى أن يأتوا لأخذك.

اتجهتا للشجرة الكبيرة، ووقفتا تحتها. لم تعرف "ميريام" ماذا تقول. لن توافق "ليلي" على الذهاب معها، كما فعلت ذلك النهار. سيأتي شخص من عائلتها الجديدة، في أي لحظة، ليعيدها إلى البيت، وسوف يرونها ويلقون القبض عليها، وسيقتلونها لا محالة.

تتذكر رجاء "ليليانا"، حين طلبت منها أن تنقذ "ليلي"، فينتابها إحساس هائل بالقوة. تقترح على الطفلة:

- لِمَ لا نمشي قليلًا؟ لنحرّك عضلاتنا..

توافق "لوث" وتبدأ في الحركة. تمد "ميريام" يدها، فتتناولها "ليلي" بتلقائية. إنها مُتيقنة من ذلك! أيًّا كانت التحذيرات التي تلقتها، فإنها لا تخافها. ربما تخاف فقط الموافقة على تناول الآيس كريم معها، لكنها تثق بها. خمسون أو ستون ياردة فقط تفصلها عن ناصية الطريق الرئيسي. حالما تصل هناك، ستتمكن من الابتعاد بها عمن خطفوها.

❧

- تلخصت فكرتها المجنونة في أن تصل بي إلى ناصية الطريق، وعندها ستحملني وتهرب بي، إذ كانت تلك فرصتها الأخيرة.

ﮧ

يجلس "إدواردو" في سيارته. مرت خمس دقائق، ثم عشر.. كأنها دهر. يرى "ميريام" تقترب من "لوث" وتتحدث معها، ثم تقفان في صمت تحت الشجرة الكبيرة. يترجل من سيارته، حين تبدآن السير، ويمشي خلفهما بمسافة قصيرة. قبل وصولهما إلى الناصية، يباغت "إدواردو" "ميريام" ويقبض على ذراعها بين أصابعه بإحكام..

- اسمحي لي أن أسألك.. من أنتِ؟

تسحب "لوث" يدها من كف "ميريام".

- من أنا؟!

تجيبه "لوث":

- إنها "ميريام". اسمها "ميريام".

يدرك "إدواردو" أنها "ميريام لوبيز"، صاحبة الاسم المُدوَّن على شهادة الميلاد. لكنه لا يريد أن يسمع ذلك.

- ماذا تفعلين؟

ﮧ

تدرك "ميريام" أنه خائف، مثلها تمامًا. الذعر يغطي ملامح وجهه. قررت أن تتحلى بالجرأة.

ﮧ

- ماذا أفعل لكسب لقمة عيشي مثلًا؟ هل هذا ما تقصد؟

تطلق ضحكة هستيرية عالية:

- أنا فتاة عاملة.

تميل على أذنه وتهمس:

- أنا عاهرة.

يتلجلج "إدواردو":

- ماذا؟ عاهرة؟!

يفلت ذراعها من بين أصابعه.

- نعم. هذا صحيح. وماذا عنك؟ ما عملك؟ لص؟ حرامي؟

يلاحظان فورًا أن الطفلة التي تتوسطهما تنظر إليها بصدمة وتوتر. تقول "ميريام" بسرعة:

- لا تقلقي يا حبّوبة.. نحن صديقان منذ زمن بعيد. كنا نلعب "عسكر وحرامية" ونحن صغيران، وأنا أُذكِّره بذلك فقط.

ﮰﮯ

حين يومئ "إدواردو"، تشعر "ميريام" بالأمان، وتزول عنها مخاوفها. شعرت منذ رأته بأنه لن يكون عنيفًا معها. كانت، بحكم خبرتها الطويلة، تجيد الحكم على الناس وتعرف أيهم يتصف بالعنف.

ﮰﮯ

يقول مخاطبًا "لوث":

- نعم، هذا صحيح.. لقد كنا أصدقاء.

يضيف لـ"ميريام" بصوت هامس:

- أريد أن أتحدث معكِ.

يشير برأسه تجاه "لوث"، ويكمل همسًا:

- الوقت غير مناسب الآن.

تفاجأ "ميريام":

- تتحدث معي؟! فيم؟

- في الماضي. أنا مهتمٌّ جدًّا. أريد معرفة بعض الأمور، سيكون ذلك مهمًّا من أجل جميع الأطراف. أحتاج عنوانك أو رقم تليفونك.

ﮰﮯ

كانت على وشك أن تعطيه إياهما، فقد أحست نحوه بأمان وثقة. لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، وطلبت رقم تليفونه لتتصل هي به. ناولها بطاقة عمل عليها اسمه وأرقام تليفوناته.

ﮋﮊ

- اتصلي بي من فضلك. أنا بحاجة لمعرفة..

نظر باتجاه "لوث"، ثم قال بصوت مرتفع:

- أنا يا "ميريام" بحاجة لمعرفة ما حدث منذ أن التقينا آخر مرة..

ﮋﮊ

تجاوبت "ميريام" مع هذه التمثيلية، وقبَّلته على وجنته كما لو كان صديقًا قديمًا، وقالت قبل أن تسير مبتعدة:

- سنتحدث قريبًا جدًّا.

ﮋﮊ

يطلب "إدواردو" من "لوث" ألا تخبر "ماريانا" بأنها كانت تتمشى مع "ميريام". يستاء من نفسه لأنه يضع الصغيرة في هذا الموقف. يقول لها شارحًا:

- سوف تصاب ماما بالقلق.. لا داعي لذلك.

يطلب منها أيضًا ألا تقول بأنها تحدثت معها.

- حسنًا، ولكن لماذا قالت إن ماما ليست ماما؟

يقول لها إنه مُتيقن من أنها أساءت الفهم، لكنه سوف يسأل "ميريام" عن ذلك حين تتصل به.

يتناولان الآيس كريم قبل التوجُّه إلى المنزل.

يخشى أن تنهال عليه "ماريانا" بأسئلتها المتوالية، كما فعلت حين ذهبت لإحضار "لوث" من المدرسة، في المرة الماضية. قد يفشل في الكذب عليها هذه المرة.

لكنها هادئة، وتقوم بالإشراف على أداء "لوث" لواجباتها المدرسية. يشعر بالأسى حيالها.

<>

والدة "دولوريس" مبتهجة. تخبر ابنتها بأنهن أقدمن على خطوة مهمة في المنظمة. وصلهن بلاغ يفيد أن أحد ضباط الجيش، الذين خدموا في أحد المراكز السرية في "إل فيسوبيو"، ظهر له مولود منذ بضع سنوات، بشكل مفاجئ، رغم عدم حمل زوجته. ابنة "مرسيدس" كانت ضمن سجينات ذلك المعتقل، وكانت حاملًا في تلك الفترة. بمقارنة التواريخ، خمَّنت السيدات أن طفل الضابط هو نفسه حفيد "مرسيدس"، على الأرجح. توجهت المرأة و"سوزانا" إلى العنوان المذكور، ولمحتا الطفل بصحبة زوجة الضابط. تؤكد الجدة أنه يشبه ابنتها، له عيناها وأذنا والده.

ليس بمقدور المنظمة اتخاذ خطوة أخرى في هذا الوقت. اجتمعت السيدات لاحقًا في منزل "مرسيدس"، حيث انخرطن في بكاء جماعي. تقول "سوزانا" إنها بكت حزنًا على "بابلو". توضح المسألة لابنتها:

- شعرت بعدها بارتياح عظيم. البكاء مع أشخاص آخرين، يمرون بظروفك ومشكلاتك نفسها، يختلف كثيرًا عن البكاء بمفردك. معهن تدركين أن هناك وقتًا للحزن، ووقتًا آخر للفعل والحركة.

تشعر "دولوريس" بتأثر بالغ، لم تكن تتخيل أن تندمج أمها مع سيدات المنظمة لهذه الدرجة. تقول "سوزانا" إنهن ما زلن بحاجة لمعلومات عديدة في قضية "ميرتا"، لكنهن يسعين لحلها بكل جدية، لتحديد مكان طفلها والوصول إليه.

- سأذهب الآن لأتصل بوالدتها. سوف أتمكن من إقناعها بالانضمام إلينا. أنا متأكدة. إنها مثل والدك.. هزمها الحزن واليأس.

أضافت بعد برهة:

- مَن يلومها؟ لقد فقدت اثنين من أبنائها.

تدنو من ابنتها وتضمها إلى صدرها:

- "دولوريس".. أنا سعيدة يا حبيبتي لأنك على قيد الحياة.

تفكر "دولوريس": "كم عدد هؤلاء الصغار الذين لا يعرف أحد بوجوههم؟ كم عدد الأهالي الذين فقدوا الأمل في استعادتهم، كما حدث لأم "ميرتا"؟ هل هناك من يبحث عن ابنة "إدواردو"؟ مَن يدري إن كان تاريخ ولادتها المدون في الشهادة صحيحًا؟ ليتها تقدر على سؤال جدات المنظمة إن كُنَّ يعرفن شيئًا عن طفلة ولدت في منتصف نوفمبر عام 1976؟"، لكنها قطعت وعدًا لـ"إدواردو" بألا تبوح بسرّه. ربما كانت "لوث" معروضة للتبني حينها، فعلًا. لكن وجود حماه طرفًا في المسألة، يجعلها مريبة.. ماذا لو لم يستطع "إدواردو" الوصول إلى تلك المرأة؟ لقد وعدها بأن يبذل قصارى جهده، وهي تصدقه، رغم صعوبة الوضع والظروف. إنها تستغرب مشاعرها نحوه، إنها ما تزال تتعاطف معاه رغم كل ما فعله. لمَ لم يتصل بها؟ ترغب في أن تراه مرة أخرى لتمنحه قدرًا من التشجيع.

ما زال لديها بضعة أيام قبل السفر، لمَ لا تذهب إليه بنفسها وتساعده في البحث عن هذه الـ"ميريام لوبيز"؟ ستفتش عنها في قوائم نزلاء الفنادق، وتنتظرها أمام المدرسة. ستفعل كل ما بوسعها لمساعدته.

تقوم بالاتصال به..

- "إدواردو".. سآتي إلى "بارانا". لا تقلق. لن أتسبب لك بأي مشكلة. أريد المساعدة، هذا كل شيء. سنعثر عليها حتمًا.

يجيبُ بصوتٍ كئيب:

- لقد وجدتها بالفعل، وتحدثت معها.

- هل هي الأم؟

- لم أستطع سؤالها. كانت "لوث" معي. لكنها وعدتني بالاتصال.

تشعر "دولوريس" بالسخط:

- ماذا تعني؟ هي التي ستتصل؟! حسنًا ماذا قالت؟

- أمرٌ عجيب.. إنها داعرة. ادّعت أمام الصغيرة أننا صديقان منذ أيام الطفولة. لقد أوضحت لها أنني بحاجة للحديث معها، وأن هناك أمورًا لا بد من معرفتها.

تصر "دولوريس" على الذهاب إليه في "إنتري ريوس" لمساعدته؛ لكنه يؤكد أنه ليس بحاجة لذلك. لقد وعدته "ميريام" بالاتصال.

- أتمنى لقاءك يا "دولوريس"، لكن لدي الكثير من المشكلات حاليًا. لقد صارحتها.

حين يلاحظ أنها لم تفهم، يشرح لها بأنه أخبر زوجته بكل شيء عن موضوع الطفلة.

- وهكذا.. عليّ أن أبقى هنا لبعض الوقت. إنها بحاجة لذلك.

ومع أنها هي التي شجعته على مصارحة زوجته بالحقيقة، فإنها تشعر الآن بالقلق.. ماذا لو منعته من مواصلة البحث عن حقيقة "لوث" وعائلتها؟

تدرك أيضًا أنها لن تراه ثانية، فتشعر بغصة ويجتاحها ألم عنيف.

تشتاق إليه، ولكنها لن تقول له ذلك.. إنها تحبه لدرجة تمنعها من تعقيد حياته.

يعدها أن يتصل بها في حال حدوث شيء جديد، ويبلغها أنه لن يستطيع السفر إلى "بوينس آيرس" خلال الفترة القادمة.

تشعر بفراغ رهيب يتمدَّدُ في روحها.. لن يأتي.. ويفضّل ألا تذهب إليه.

تقول بصوت متحشرج:

- نعم.. بالطبع.

أي حماقة دفعتها للوقوع في حبه، في هذه المرحلة الحرجة من حياة كل منهما؟

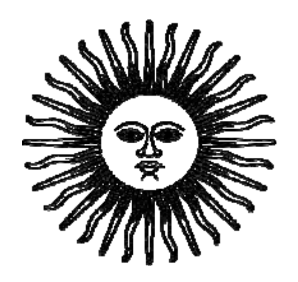
تلتقي ظروفهما في بعض النقاط، لكنهما ـ بشكل عام ـ يقفان على طرفي نقيض. كلاهما يبحث عن الحقيقة.. إذًا فلماذا يقف على الجهة الأخرى. إنه معها ومثلها تمامًا. لعلها طريقته في حبها. عليها أن تكتفي بذلك، وترضى به.

- حسنًا.. اتصل بي في أي وقت. حتى لو لم يكن لديك أنباء جديدة. سأصغي إليك متى احتجتَ لذلك.

حين تعيد وضع السماعة مكانها، تنفجر في البكاء.

- أنا بخير يا ماما.. صدقيني.

11



لا يعرف "إدواردو" كيف استحالت الأمور إلى جحيم. لقد بدأ الحوار بنيّة صافية، إذ لم يعد يرغب في الاستمرار في الكذب عليها. أراد كسب ثقتها من جديد، والاعتذار لها، ولكن ها هما يتبادلان الصراخ بصوت مرتفع للغاية، ولم يعد مُهمًّا من منهما الذي بدأ ذلك.

ما أزعجكَ حقًّا وأثار غضبك الشديد هو تعليقها حين قالت إنها فهمت الآن فقط بعض سلوكيات وتصرفات "لوث" التي تُثير أعصابها وحيرتها في الوقت نفسه:

- مثل نوبات الصراخ التي لازمتها في سنواتها الأولى، والكوابيس المتكررة، والبساطة التي تتحدث بها مع جميع الناس، كأنهم يتساوون معها في القدر والأهمية، لدرجة أنني أشعر في بعض الأحيان أنها تفضّل صحبة "كارمن" على البقاء معنا. هناك أشياء أخرى أيضًا، كالطريقة السوقية المبتذلة التي ترفع بها ثوبها عندما ترقص!

أضافت:

- ألا تلاحظ أنها ودود أكثر مما يجب؟ وتلك الابتسامات التي توزعها على كل من تراه!

لطالما تساءلت "ماريانا" عن المكان والأشخاص الذين اكتسبت منهم طفلتها هذه السلوكيات والصفات.. من غير المعقول أن تتصرف ابنتها هي بهذا الأسلوب.

قالت بثقة واقتناع:

- أظن أن الأمر وراثي.

في تلك اللحظة، شعرتَ أنك تكلم عدوًا، وليس زوجتك. أحسستَ بذلك، مرة أخرى، حين تحدثتْ عن بشرة "لوث" وعينيها.

- البنت جميلة، دون شك، بشرتها بيضاء وعيناها خضراوان، لكن لا بد أنها ورثت عن والدتها أمورًا أخرى، أليس كذلك؟ الأمر مقلق.. مَن يدري ماذا كانت أمها؟ عاهرة وضيعة على الأغلب، وإلا لما اضطرت للتخلي عن ابنتها بهذه الطريقة.

كلامها وأسلوبها حطما صفاء نيته، ووجد نفسه يقول:

- ماذا لو لم تتخلَّ عنها أصلًا؟ ماذا لو تم انتزاع الطفلة منها بالقوة والإجبار؟ ألا تعرفين ما يحدث للنساء والفتيات في تلك المعتقلات؟

- اسمعني جيدًا.. إياك وتكرار هذا الهراء ثانيةً! لا أدري من وضع هذه الأكاذيب التافهة داخل رأسك! ما دام بابا هو الذي أحضرها، فلا بد أنه مُتيقنٌ من أنها وأمها تتمتعان بصحة جيدة.

تتعالى أصواتهما، وتتداخل عباراتهما.. "ما دمتِ مهتمة بالوراثة والجينات، كيف لم تهتمي بمعرفة من تكون الأم؟ لماذا لا تسألين والدك؟".. "كلا، لا نية لديّ لإزعاجه وتعكير مزاجه".

تضيف بانزعاج شديد:

- لقد طلب منكَ أن تحتفظ بالسر لنفسك، فلمَ صارحتني به؟ وأي فائدة جنيتها أنا من ذلك؟ كل ما حدث هو أنك جعلتني أُصابُ بقلق بالغ وأنا أفكر في شخصية "لوث" وطباعها حين تكبر.

في فورة غضبه، بدأ "إدواردو" يقول كلامًا لم يكن ينوي ذكره أمام "ماريانا"، من أنه هو الذي سيسأل والدها عن الطفلة، إن لم تفعل هي ذلك، وأنه سيتولى بنفسه البحث عن الأم والتأكد من أنها لا تزال على قيد الحياة، ومعرفة مَن تكون..

ꕤ

- كانت تلك هي بداية النهاية.

- لماذا؟ هل انفصلا بعدها؟

- كلا، لم ينفصلا..

أرادت "لوث" أن تقول شيئًا، لكنها ترددت. أطرقت برأسها، وصمتت طويلًا. لم يجد "كارلوس" في نفسه الجرأة لكي يخاطبها، فظل صامتًا بدوره. رفعت رأسها بعد فترة وقالت:

- حين قلتُ إن أحدًا لم يبحث عني، كنتُ أقصدُ "منظمة الجدات" مثلًا، أو أحد أبويّ، أو أيًّا من أقاربهما.. أعني الناس الذين تجمعني بهم علاقة دم. في المقابل، هناك أشخاص خاطروا بكل شيء، وتحملوا الكثير، في سبيل معرفة من أكون. "إدواردو" أحدهم.

ϩϣ

- هل جننت يا "إدواردو"؟ هل تريدهم أن يأخذوا "لوث" منّا؟

كلا بالطبع. كيف ستعيش دون "لوث"؟ ولكنك لا تستطيع مواصلة الحياة على هذا النحو، والشك يطاردك في كل لحظة. أنت خائف. تقول لها:

- واجبكِ يحتم عليكِ البحث عن الحقيقة يا "ماريانا".

- هناك المئات من الآباء الذين يربون أطفالًا بالتبني.. هل يقضون ساعات يومهم في التفكير في الأهل الحقيقيين لهؤلاء الصغار؟

- "ماريانا"! ألا تدركين أنها ليست مُتبناة؟ لقد جاءنا بها والدك من حيث لا نعلم! من يدري من أين أتى بها؟ لو كانت متبناة، لاختلف الوضع تمامًا، ولأصبح قانونيًّا.

- أيًّا كان ما تعنيه بكلامك، فإن بابا لم يكن ليفعل ذلك لو لم يكن هذا هو الحل الوحيد المتاح حينها؛ أو ربما كان التصرف الأسرع، لأن إجراءات التبني بطيئة للغاية ومعقدة. كان يريد مساعدتي بأسرع ما يمكن.

كلا. عليك ألا تعلق. لا ترد على استفزازاتها. اذهب إلى أخيك. "خافيير" سينصت إليك ويتفهم مشاعرك.

ϩϣ

يغادر "إدواردو" الغرفة. تناديه "ماريانا". يلتفت نحوها، يراوده الأمل. تسأله:

- إلى أين؟

- لا أدري.. ربما سأمرّ على "خافيير".

تصيح باستنكار:

- ماذا؟ هل ستخبره بالموضوع؟ لا تذهب. ابقَ معي. هناك ما أريد قوله لك..

أضافت بعد برهة:

- اسمعني جيدًا.. أنا أمنعك، منعًا باتًا من البحث في أصول "لوث" ومحاولة معرفة والديها. أنا أثق ببابا. تشبثك برأيك سيسبب لنا مشكلة معقدة.

أكملت بنبرة تهديد قاسية:

- على كل حال، أنت بنفسك الذي قمت بتسجيلها.. ومن ثم لا أظن أن البحث عن الحقيقة فكرة جيدة.

❦

يقول "خافيير" لزوجته:

- أغرب ما في الموضوع بأكمله، هو أن "ماريانا" ليست غاضبة بسبب ما فعله زوجها، بل بسبب مصارحته لها بحقيقة الوضع. إنها لا تضع أي لوم على أبيها، على الإطلاق. أراد "إدواردو" أن يأتي إلينا البارحة لكي يتحدث معي، لكنها منعته. فضّل البقاء في البيت حتى لا تتضخم المشكلة بينهما. لن تنتهي المسألة على خير، كما أظن. قال لي: "أشفق عليها وأتعاطف معها، ولكنني أشعر تجاهها بالكراهية، في بعض الأحيان". لم أسمعه يقول شيئًا بهذا المعنى من قبل. صارحني أيضًا إنه سينفصل عنها إن لم تتغير.

- إنه مُحقٌّ. أعرف أنك تنزعج من انتقادي لها، لكنها شخصية حقيرة جدًّا. أظن أنها تعرف أكثر مما نتصور. ألم تقل مؤخرًا إنها تخشى أن تكون أم الطفلة مجرمة أو داعرة؟

فكر "خافيير" قليلًا، ثم قال:

- المفارقة أن "ميريام" أخبرت "إدواردو" أنها فتاة ليل.

فشل الزوجان في معرفة سبب قولها ذلك. علق "خافيير":

- كان الحوار بينهما غريبًا على ما يبدو!

أضاف:

- أظنُّ أنها عرضت الطفلة للتبني، ثم ندمت على ذلك لاحقًا. لعلها فتاة ليل فعلًا. لقد قالت له شيئًا على نحو: "أنا عاهرة، ولكن ماذا عنك؟ أأنت لص؟".. شيء من هذا القبيل.

قالت "لورا" بعد لحظات من التفكير:

- ما دامت قد وصفته بـ"اللص"، فإنها متيقنة من أنهم سرقوا الطفلة واستولوا عليها عنوة.

يتململ "خافيير" في جلسته، شاعرًا بنفاد صبر. لو استمرت "لورا" في ترديد هذه الحماقات، فلن يخبرها المزيد، لكنه يقول بعد قليل:

- اسم الأم هو "ميريام لوبيز"، لقد رأيت شهادة الميلاد بنفسي. أطلعني "إدواردو" عليها.

- هل تشبه "لوث" تلك المرأة؟

- كلا. قال "إدواردو" إنها امرأة جذابة، ولها شعر أسود، لكنه لم ينتبه لملامحها بدقة. طلب منها أن تتصل به، لأنه بحاجة لمعرفة المزيد عن الأمر.

- شقيقك شجاع جدًّا، وهذا أكثر ما يعجبني فيه. أعني من الصعب أن يتولى بنفسه البحث عن أبوي "لوث"، وبخاصة أنه متعلق بها جدًّا؛ لكن الفضل يعود إلى "ماريانا" في الحقيقة، فبسبب جبروتها، يحرص "إدواردو" على العثور على والدي الصغيرة والتيقن من أنهما لم يتعرضا لمكروه.

تنظر إليه، وتستطرد:

- ما هذا الوجه المكفهر؟ لا بأس.. سوف أسكت!

عقب لقائها بـ"إدواردو"، أقفلت "ميريام" باب غرفة الفندق على نفسها، ولم تغادرهـا، ولا حتى لتناول الطعام. سيصل "فرانك" في الغـد. لقـد حجـزت حجـرة لهـما في فنـدق يقـع عـلى أطراف المدينة.

أمسكت ببطاقـة عمـل "إدواردو" وفكـرت في الاتـصال بـه أكـثر مـن مـرة، ولكـن فارقتهـا الشجاعة. تعصف بهـا الـشكوك والتـساؤلات.. مـا الـذي يريـد "إدواردو" معرفتـه؟ لمـاذا كـان مذعورًا؟ كيف تتحدث إلى شخص يتظاهر بأنه والد "لوث"؟ إنه زوج ابنـة "دوفـاو"، وهـذا في حدّ ذاته أمرٌ مخيف.

لكن شيئًا ما بداخلها بقي يحثُّها على الاتصال به.

لم يعد بإمكانها العودة إلى بوابة المدرسة، أو الانتظار داخل سيارتها أمام بيته. ماذا تفعل؟ هل تتسلل إلى المنزل ليلا وتختطفها؟ إنهـا عـاجزة عـن فعـل أي شيء. الحـل الوحيـد هـو أن تتحدث مع "إدواردو".

هناك سبب يدفعه للتصرف بهذه الطريقـة.. كـان بإمكانـه الاسـتعانة بالـشرطة، أو بأحـد "بلطجية" حَميه، ليمنعها من الاقتراب من الطفلة. بإمكانـه إلقاؤهـا داخـل زنزانـة سـجن، أو حتى قتلها في لحظات والتخلص منها للأبد، لكنه حرص على ألا يفعـل شـيئًا مـن ذلـك. هنـاك سبب غريب يدفعه للتصرف على هذا النحو، وعليها معرفته.

الوضع محفوف بالمخاطر، لكن عليها أن تقدم هذه الخدمة لـ"ليلي". لا مفر مـن الاتـصال بـ"إدواردو".

❧

أمـضى "إدواردو" نهـار الجمعـة بأكملـه في المكتـب. غـادره فقـط ليحـضر "لـوث" مـن المدرسة. لم تتصل "ميريام" رغم أنها وعدته بذلك. يبدو أن وعدها لا قيمة له. لعلهـا قالـت ذلك فقط حتى لا تحرجه أمام "لوث". أغلب الظن أنها لـن تتـصل أبـدًا. إن لم تفعـل حتـى يوم الإثنين، ستقوم بالبحث عنها بنفسك في فنادق المنطقة، وستسأل كل من يمكن أن يعرف عنها شيئًا.

❧

تفاجأ "فرانك" حين رأى أن الحقيبة التي أحضرتها "ميريام" معها، صغيرة الحجم. قالت لـه إنها تركت بقية حاجياتها في الفندق الآخر، الذي لا تزال تدفع إيجار غرفتها فيه.

- لا تنظر إليّ بهذه الطريقة! سأبقى معك هنا إلى أن تغادر. كل ما في الأمر هو أنني سأعود إلى هناك يوم الإثنين، بعد أن ترحل، وليس من المنطقي أن أتنقل بكافة حقائبي بين الفندقين.

ꟷ

منذ اللحظة الأولى، ارتاب "فرانك" في "ميريام"، وأحسَّ أنها تخفي عنه شيئًا مهمًّا، والحقيقة أنها رغم خيالها الواسع فشلت في تأليف حكاية مقنعة. هي نفسها أحست بتناقض مشاعرها.. فجزء منها كان يريد لـ"فرانك" أن يعرف الحقيقة، والجزء الآخر كان يخشى ذلك. ضغط عليها لتخبره، لكنها تظاهرت بالانزعاج البالغ من أسئلته؛ لكن لسانها أفلت ببعض المعلومات غير المقصودة، كان من ضمنها شيء عن مكالمة تليفونية مهمة.

ꟷ

- تعنين أن هناك من سيتصل بك؟ ألهذا احتفظتِ بغرفة الفندق الآخر؟

- كلا. أنا التي سأتصل بهم.

ꟷ

بدا الأمر جنونيًّا وغامضًا بالنسبة له. كان يأمل في أن تصارحه بكل شيء، إن واصل الإلحاح عليها، وأغدق عليها عواطفه. حين لم يجد منها تجاوبًا، بدأ يكلمها ببعض الفظاظة. أخبرها أنه سيعود إلى الولايات المتحدة يوم الخميس القادم، وأنه يرغب في ذهابها معه.

ꟷ

- "ميريام".. أرجو أن تُسرعي بإنهاء هذا الـ"عمل"، أو أيًّا ما كان هذا الذي تقومين به هنا. الحقيقة أن الأمر بأكمله مريب جدًّا. على أيّ حال، الوقت ضيق.

شرح لها بأن كل ما يريده هو أن يمضيا بعض الوقت معًا في بيت واحد، ليعرفا كيف ستسير الأمور. إنه لا يطلب منها سوى إتاحة الفرصة لعلاقتهما، كي تنمو وتزداد قوة. هناك توافق هائل بينهما، في كل شيء تقريبًا.. أم إن هذا ما يصوّره له خياله؟

أخبرته بأن هناك ما يُقيِّدُها ويشغلها حاليًا.. شيء عليها إتمامه، لا علاقة له به من قريب أو بعيد.

توسلت إليه ألا يوجه لها المزيد من الأسئلة، وأن يدعها تنام بين ذراعيه لأنها متعبة، ولأنها تشعر بالقلق حيال موضوع لا يمكنها مصارحته به.

ﮘﮗ

يعود "إدواردو" إلى البيت في تمام التاسعة والنصف مساء ذلك اليوم، بمزاج عَكِر. تنتظره "ماريانا" بخبر سار.. لقد قررت أن يذهبا إلى "بوينس آيرس" في إجازة نهاية الأسبوع.

- حتى تستريح وتتخلص من التوتر.

قال بسرعة:

- لا يمكنني ذلك. لديّ أعمال كثيرة.

ﮘﮗ

أيُّ حق لديك يخوّلك منع "ماريانا" من زيارة والديها؟ لقد عانت هي أيضًا القلق والتوتر في الفترة الأخيرة، ولكن هل يمكنك الجلوس في مواجهة "آلفونسو" دون أن تتناقش معه في موضوع "لوث"، ودون أن تطالبه بتبريرات ومعلومات؟

ربما كان من الأفضل أن يتحدث مع "ميريام" أولًا. نعم.. لن يضطر حينها لمناقشة "آلفونسو"، وسيتحاشى بذلك أي شجار حاد قد ينشب بينهما، ويتسبب في مضايقة "ماريانا".

لِمَ لا يوافق على الصُلح، ويبدأ بهذه الهدنة؟

- حسنًا، أنا موافق. دعيني فقط أنهي العمل المطلوب صباح الغد.

يخطط لأن يذهب إلى المكتب صباحًا، وينتظر اتصال "ميريام" بـه. لكنـه في تلـك الليلـة، يفقد أعصابه حين يكتشف أن "ماريانا" قصَّت كل ما حدث مؤخرًا على أمها، وطلبت منهـا ألا تخبر بابا شيئًا حتى لا تجرح مشاعره، أو ينزعج من "إدواردو".

يندلع بينهما شجار عنيف، عقب هذا الاكتشاف، يصرّح لها في خلاله بكـل شيء.. "ميريـام لوبيز" وشهادة الميلاد، وما قالته "ميريام" للصغيرة.

تغضب "ماريانا" منه ومن "لوث"، وتعلن أنها لن تسامحهما أبدًا..

- وكيف تصدق تلك الطفلة امرأة مجنونة قابلتها في الشارع، وقالت لها إنني لستُ أمَّها؟

- لكنها لم تصدقها يا "ماريانا"..

ঌ৫

هأنت ترتكب الخطأ تلو الآخر، ولا تستطيع منع نفسك من استفزازها، وكأنـك تتعمـد أن تزيد النار اشتعالًا.

في وسط صراخكما المتبادل، تصيح بها:

- لا تهدديني! لا يمكنكِ منعي من فعل مـا أريـد. هـل تفهمـين؟ سـأبذل قـصارى جهـدي للوصول إلى الحقيقة، وسوف أتحدث مع "ميريام"..

تجيبك ببرود:

- كيف؟ هل تعرف مكانها؟

تنتبه إلى نظراتها المتحديـة. لمـاذا أنـت بهـذا الغبـاء؟ سـوف تخـبر "ماريانـا" والـدها عـن "ميريام"، ولن يتردد في القضاء عليها بـدم بـارد. ألا يكفيـك أنـك حرمتهـا ابنتهـا طـوال هـذه الأعوام؟

عليك الآن أن تجدها بأسرع ما يمكن. يجب أن تفلتها مـن مخالـب عائلـة "دوفـاو" التـي توشك على الانقضاض عليها.

تواصل "ماريانا" استفزازاتها المتعمدة، وتظل تردد أنه متوحش، لأنـه ينـوي حرمانهـا مـن صغيرتها.

- لِمَ لستِ مثل...

يصمت. لا يعرف كيف يكمل سؤاله. هل يقول لها ما جال بخاطره فعلًا: "لِمَ لستِ مثل "دولوريس" في إنسانيتها وقلبها الرحيم؟".

لا يستطيع ذلك، فيقول وهو يتلعثم:

- كيف.. كيف.. تكونين قاسية القلب ومتحجرة العقل بهذه الطريقة؟ أنتِ لا تختلفين في شيء عن أبيكِ. أصبحتِ في الجانب الآخر. صرتِ العدوّ.

يصارحها برغبته في الانفصال عنها. لا يريد الاستمرار في الحياة مع إنسانة تفكر بهذا الأسلوب، وتحتقر طفلة بريئة، لأنها ترفع ثوبها قليلًا عند الرقص، وتجد ذلك سلوكًا معيبًا وسوقيًّا..

- أنتِ تشعرينني بالغثيان يا "ماريانا".

- هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟

يتجاهل سؤالها، ولا يهتم بالردّ عليها.

- لأن الرجال لا يسعون للانفصال إلا إن كانت في حياتهم امرأة أخرى. أنت تفتعل المشكلات، وتختلق الأسباب لإيلامي وهجري، ولكنني لن أستمع إليك، فأنت لا تقصد ما تقول. كل ما في الأمر، أنك أحببت عاهرة وتبحث عن سبب يبرر علاقتك بها.. فلتعلم إذًا أنني قد لا أسامحك حين تعود إليّ بعد أن تزهدها.

تضيف بحدّة:

- مَن هي؟ أخبرني. هناك امرأة أخرى في حياتك، أليس كذلك؟

يجيبها بضجر وتعب:

- نعم. هناك امرأة أخرى، لكنها ليست السبب.

- مَن هي؟

ﮓﮔ

في السادسة صباحًا، وبعد أن يشعر "إدواردو" بإرهاق شديد، يخبرها أنه ليس في حياته امرأة أخرى، وأنه تعمّد قول ذلك ليجرحها ويخرسها فقط؛ ويسألها إن كان بإمكانها أن تدعه ينام قليلًا؟

تلتصق به في الفِراش، وتقول له إن كل ما عليه فعله هو الاعتذار لها، لا أكثر. تخبره بأنهما سيذهبان في الغد إلى "بوينس آيرس".

حين يستيقظ "إدواردو" تكون "ماريانا" ما زالت مستغرقة في نوم عميق. يكتب لها ورقة يعتذر فيها عن أسلوبه في الكلام معها، وليس عن الكلام ذاته. يؤكد لها أنه لا يزال مصممًا على الانفصال، ويخبرها بأنه سيبحث عن أصل "لوث"، رغم علمه برفضها لذلك. سيتحدثان معًا، بعد أن يهدأ كل منهما. إنه بحاجة لأن يستريح ويفكر بهدوء.

يختتم ما كتبه بعبارة: "لا تنتظريني".

ꕥ

ذلك الصباح، تقول "ميريام" لـ"فرانك" إنها ستعود إلى فندقها القديم لتجلب لنفسها بعض الثياب. تقرر، بينها ونفسها، أن تتصل بـ"إدواردو" في مكتبه، رغم أنها ليست متأكدة إن كان يعمل أيام السبت.

ولكن حين يقترح "فرانك" عليها أن يتنزها على الساحل، توافق على الفور، وتقرر أن تتصل بـ"إدواردو" عند عودتها مساء. سيكون قد غادر المكتب. لا يهم.. ستتصل به يوم الإثنين، بعد أن يغادر "فرانك".

ꕥ

تتصل "ماريانا" بزوجها في مكتبه، نحو خمس أو ست مرات، لتستفسر منه عن موعد عودته للبيت. ظَلَّ يُجيبها بكلمة واحدة:

- ليلًا.

حين تصل إلى قمة يأسها وقلقها، تتصل "ماريانا" بأمها، وتخبرها بكل كلمة قالها "إدواردو".

ꕥ

يلمحها من سيارته. إنها مع رجل. يجلسان في مقهى يطل على النهر. يوقف "إدواردو" سيارته ويدخل المقهى، ويجلس على مقربة من طاولتهما، ويطلب فنجانًا من الشاي. لم تره "ميريام". إنها مندمجة في ثرثرة سعيدة مع الرجل. لعله زوجها.

يتحير "إدواردو" في كيفية لفت نظرها، لكنه حين يرى الرجل يخرج محفظته ليدفع الحساب، يُسارِع بالتوجُّه إليهما.

تتفاجأ "ميريام" حين تجده أمامها، وتشعر بحرج بالغ.

- "ميريام".. لم تتصلي بي..

يخاطبها بحزن وحسرة، ويشعر بغصة تمنعه من مواصلة الكلام.

ينظران إليه بمزيج من الدهشة والخوف. يلاحظ "إدواردو" أنها تنقل بصرها بينه والرجل الجالس أمامها، كأنها تراقب ردّ فعله.

- كنتُ سأتصل بك.

تضيف، وهي تحاول أن تُكسِب صوتها شيئًا من الخفة واللامبالاة:

- "إدواردو".. هذا "فرانك"، أحد أصدقائي.

يتصافح الرجلان، ثم يشعران بالارتباك ولا يعرفان الخطوة التالية. يشير "فرانك" إلى مقعد شاغر، داعيًا إياه إلى الجلوس، لكن نظرة "ميريام" الصارمة تمنعه من ذلك بحسم.

لا تستطيع أن تغادر المكان بهذه البساطة، وأنت لا تدري إن كانت ستتصل بك حقًّا أم لا. عليك أن تصارحها بما تريده منها.

- يجب أن أتحدث معك في أمر ضروري جدًّا.

يرتعش صوته من فرط التوتر:

- أحتاج لمعرفة شيء. أنتِ وحدك التي تستطيعين إخباري به. لا تخافي. ربما كان الأمر في صالحكِ. أعني إن كنتِ أنتِ...

يصمت دون أن يستكمل عبارته. يحدّق إليه الرجل. يشعر بالحماقة. لا يمكنه التحدث في الأمر أمامه. هل يقول لها إنها لو كانت أم "لوث" فلن يمنعها

من رؤية صغيرتها؟ مَن يدري أي مشكلات قد يتسبب بها للمرأة، إن كان هذا الشخص يجهل أن لها ابنة؟ هذا إن كانت "لوث" ابنتها من الأساس..

- إن كنتِ من أعتقد، فلن أتسبب لكِ في أي مشكلة. أؤكد لك بأننا سوف نتوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين.

ينظران إليه بدهشة بالغة.

يخاطبه الرجل بنبرة ودود، وهو يشعر بالأسى حياله:

- هل أنت متأكد من أنك لا تريد الجلوس يا صديقي؟

تتدخل "ميريام" بسرعة، لتنهي الموقف بحسم:

- سوف أتصل بكَ يوم الإثنين. صدقني. لا تقلق.

بعد لقائهما به، تضطر "ميريام" إلى مصارحة "فرانك" بكل شيء. يخبرها أن الرجل يبدو في أقصى حالات البؤس واليأس. لو لم يره بعينيه، لنصحها بعدم التحدث إليه أو لقائه، ولظنّ أن الرجل ينصب لها فخًّا للإيقاع بها؛ لكنه يبدو مسكينًا وتائهًا، وبحاجة ماسة لمساعدتها.

تعاطف الاثنان مع "إدواردو".

قررا أن يلتزما الحذر. قال "فرانك" إنه سيكون موجودًا حين تلتقي بـ"إدواردو"، لكنها اعترضت وقالت إن ذلك مستحيل. إنها تريد الجلوس معه على انفراد. أصرّ "فرانك" على أن يراقبهما من مكان قريب، حتى لا تتعرض لأي خطر. لن يرحل الأحد، وسيبقى معها.

- يا لكِ من غبية! كيف ظننتِ أنني سأتركِكِ وحدك في هذه الظروف؟ أنا أحبُّك جدًّا.

كان سعيدًا أنها أطلعته ـ أخيرًا ـ على تفاصيل الموضوع. كان السر قد بدأ في صنع حاجز بينهما.

ꕥ

عندما أخبرت "آميليا" زوجها عن هـذه المـرأة التـي تُـدعى "ميريـام لـوبيز"، شـعر بحـيرة وتشويش، وتساءل عمن وضع هذا الاسم على شهادة الميلاد؟ ثم تذكر أنه "آنيمال". تذكر بعد ذلك شيئًا آخر.. "ميريام" كان اسم خطيبة "آنيمال".. تلك المرأة الجذابة التي اعتنت بالسجينة ومولودتها، ولكن هل هي المـرأة نفـسها التـي تزوجهـا "آنـيمال" لاحقًـا؟ لم يكـن "آلفونـسو" متأكدًا، إذ لم يحضر حفل الزفاف. قال "بيتيوتي" حينها شيئًا عن وقوع خـلاف بينـه وخطيبتـه، ثم عاد فأعلن بعد فترة عن قرب زواجه. هل كانت العروس نفسها يا ترى؟

تطلب الأمر عدّة مكالمات تليفونية، إلى أن توصل أخيرًا إلى رقم "بيتيوتي".

- معك الكولونيل "دوفاو". تعالَ إلى بيتي حالًا.

ꕥ

سوف يعيد "إدواردو" إلى صوابه، ولو بالقوة. يجب أن يتخلص من فضوله هذا. الظـروف الحالية لا تحتمل هذه التـصرفات؛ أمـا الطـلاق فمـستحيل مـن الأسـاس. بنـات الكولونيـل لا يتطلقن.

اتصل بـ"ماريانا" في السابعة مساء. أحست بارتياح. بابا سيهتم بكل شيء، وهو يعـرف مـا يفعل.

- يمُرُّ الرجال بمراحل مختلفة يا "ماريانا". إنهم ضعفاء. كوني صبورًا. لن يحدث الانفـصال. "إدواردو" يمر بحالة ارتباك حاليًا، لكنه يدرك جيدًا أن الزواج يدوم للأبـد. صـدقيني. إنـه مـن عائلة محترمة، ولن يرتكب هذه الحماقة. سأتحدث إليه قليلًا، وسيأتيكِ بعدها معتذرًا. سوف ترين.

لم يذكر "آلفونسو" شيئًا عن موضوع "لوث". كانت "ماريانا" قد أخبرت أمها كل ما يتعلـق بالمسألة، وهي متأكدة أن والدتها ستعمل على إقناع "إدواردو" بأن يتصرف بالشكل اللائق.

قالت "آميليا" لابنتها:

- كوني لطيفة جدًّا معه حين يعـود، حتـى لـو كنـتِ في أشـد حـالات الغـضب، وإيـاكِ أن تذكري شيئًا عن المرأة الأخرى. تجاهلي الحكاية تمامًا، كأنه لم يقل شيئًا.

أضافت قبل أن تضع السماعة:

- آه.. وقولي له إن بابا يريد أن يتكلم معه.

ꕥ

أرادت السيدة "بيتيوتي" أن تعرف سبب اتصال الكولونيل "دوفاو". أخبرها زوجها بأنه قـد تم تكليفه بمهمة رسـمية، وعليـه أن يغـادر في الغـد، متجهًـا إلى "بارانـا"، في محافظـة "إنـتري ريوس".

علقتْ بحماسةٍ:

- هذا عظيم!

لقد أصابها الضجر من سماع بطولات زوجها وانتصاراته الرهيبة، خلال عمله مع "دوفاو"، قبل أن يتزوجها. ليته يعود إلى نشاطه السابق! حتى لا يظل متجهمًا طوال الوقـت، كـما هـو الحال الآن.

لقد انتهى العصر الـذهبي للـضابط "بيتيـوتي". تـم إغـلاق المعـتقلات الـسرية، وأصـبحت الأوضاع تبعث على الملل والسأم. لم تعد مثيرة كالسابق. أصبحت وظيفته إدارية، وذات طابع ثانوي..غير مهمة على الإطلاق، ولـذلك أسـعده اتـصال "دوفـاو". لم يتخيـل أن للمهمـة علاقـة بـ"ميريام".

حين أخبر الكولونيل، منذ بضعة أعوام، بأنه سيتزوج.. لم يذكر شيئًا عن العروس، وتمنى أن يظن قائده أنها خطيبته التي رآها عند استلام الطفلة. تعمّد اختيـار تـاريخ الـزواج في موسـم الإجازات، خلال شـهر ينـاير، حتـى يـضمن عـدم حـضور "دوفـاو". حـين أنجبـت زوجتـه أول أولادهما، هنأه الرجل وقال بسرور:

- إنها مفاجأة عظيمة، أليس كذلك؟

فهم "بيتيوتي" أن "دوفاو" مـا زال يتـذكر أن "ميريـام" تعـاني مـن صـعوبات صـحية تمنـع حملها، وأنه يظن أنها زوجته. قال ليؤكد ظنه:

- لحسن الحظ، الطب يتقدم ويصنع المعجزات يا سيدي.

لكنه حين دخل على "دوفاو" منتشيًا وسعيدًا ومتحمسًا لبدء مهمة جديدة، تملأ الابتسامة وجهه، اكتشف أن الرجل غير مهتم بتاتًا بحياته الخاصة، ولا بزوجته وأول أطفاله، وغيرها من الأمور التي تصورها طوال الطريق. اهتمام الكولونيل ينصبُّ على أمر واحد.. "آنيمال" هو الوحيد الذي يستطيع أن يضغط على أي الشخص، ليستخلص منه المعلومات التي يحتاجها، في أقصر وقت ممكن.

الكولونيل من الناس المؤمنين بضرورة قتل المخربين، بأقسى الوسائل وأكثرها وحشية؛ كما يؤمن بأنه لكي تكسب الحرب، فعليك أن تقوم بإبعاد الجيل الجديد بأكمله، والتخلص منه، إذ لا يوجد فيهم شخص وطني واحد. لم يكن ممن يسعون لكسب ودّ المعارضة، وأعضاء الـ"مونتنيرو"، ومحاولة تشكيل ائتلاف معهم. إن فكرة إعادة تأهيل الإرهابيين، بالنسبة للكولونيل، ليست سوى سخافة مطلقة، لا معنى لها.

كان "آنيمال" هو ذراعه اليمنى في تطبيق أفكاره، وتنفيذ معتقداته. فور أن رآه، عاجله بالقول: إن المسألة تتعلق بخطأ جسيم ارتكبه في الماضي..

- قل لي يا "بيتيوتي": هل تزوجتَ تلك المرأة التي تولت رعاية السجينة؟

لم يؤكد "آنيمال" الأمر أو ينفيه، بل سأله بدوره:

- لماذا؟

- هل اسمها "ميريام لوبيز"؟

اضطرَّ في النهاية لتوضيح ملابسات الموضوع. اعترف بأنه تجاوز السلطات الممنوحة له، حين سجّل اسم خطيبته على شهادة الميلاد.

سأله الكولونيل، وقد استبدّ به الغضب وارتفع صوته عاليًا، عن السبب في ذلك.

- لا أدري. كان ذلك أول ما خطر ببالي.

- لكنك أكدت لي، وقتها، أنها الشخص المناسب لتنفيذ المهمة. قلتَ ذلك بنفسك.

وقف مذعورًا، وهو يرتعد، ولم يعد بإمكانه حتى الإيماء برأسه. ترى هل اكتشف الكولونيل أنها هي نفسها العاهرة الشهيرة بـ"باتريشيا"؟ وهل عرف أنها هي التي ساعدت السجينة على الهروب؟

- اسمع.. إن هذه الـ"ميريام لوبيز" تحوم حول ابنتي وزوجها في "بارانا"، وتحاول التقرُّب من حفيدتي. لا أريدها أن تستمر في ثرثرتها التافهة. لا أريدها على قيد الحياة. إن الطفلة ليست ابنتها أساسًا! ما الذي تريده إذًا؟ على كل حال، هذا لا يهمني.. المهم أن تتخلص منها بأسرع ما يمكن. يجب أن يتم ذلك خلال الساعات القادمة، ودون أي آثار. أريد عملية نظيفة.

جزء بداخله يشعر بالعار لفشله في تنفيذ المهمة القديمة، والجزء الآخر يشعر بالإثارة والسعادة.. ها قد حانت الفرصة أخيراً للانتقام منها، بعد ما سمعه من العريف "بيلون" داخل السيارة منذ سنوات.

- اطمئنَّ يا سيدي. سأنفذ ما تريد على أكمل وجه.

قابل الكولونيل ذلك بابتسامة عريضة، راضية، بعد أن لمح رغبة البطش في عينيّ مساعده القديم.

يسأل قائده إن كانت تستخدم الآن اسمًا مستعارًا، كما اعتادت أن تفعل؟

ينظر إليه الكولونيل بدهشة:

- اسم مستعار؟

- نعم، حين قابلتها كانت تطلق على نفسها "باتريشيا".

لم يصدق "دوفاو" أذنيه. لقد سمع عن "باتريشيا" الكثير، رغم أنه لم يحضر أيًّا من حفلاتها الشهيرة، التي كان زملاؤه يتغنون بها.

ارتفع صوته ثانيةً، وقد احمرّ وجهه من شدة الغيظ:

- هل تقول إنك وضعت حفيدتي أنا، في رعاية هذه العاهرة؟!

لا يعرف "بيتيوتي" بمَ يجيب، لقد ارتكب غلطة كبيرة. لا يهم الآن. سوف يعمل على إصلاح الأمر لاحقًا. يعلن أنه بحاجة إلى مساعدة. يقترح الكولونيل أن يأخذ معه معاونه القديم:

- ما اسم ذلك الضابط الذي لعب دورًا في هذه القضية؟

- "بيلون" يا سيدي.

- نعم.. بإمكانك أن تصطحبه معك. سوف أصدر أوامري بذلك.

ꕥ

يعود "إدواردو" إلى المنزل ليلًا. يندهش حين تقابله "ماريانا" بقبلة، متبوعة بابتسامة أوشك على نسيانها لندرتها..

- أهلًا يا حبيبي.. أنا سعيدة لعودتك. لقد اشتقتُ إليك.

تقول له إنها تتمنى أن يوافق على أن تتناول "لوث" العشاء معهما الليلة. لا بأس إن تأخرت قليلًا عن موعد نومها اليومي المعتاد، لأن الغد إجازة. بإمكانهما بعد ذلك أن يخرجا ليسهرا في مكان أنيق، كي يتناولا بعض المشروبات ويرقصا معًا. لديها رغبة في السهر، والاستمتاع بصحبته.

يحار "إدواردو" في الرد عليها. رغبتها الواضحة في مصالحته تجعله يتعاطف معها. ربما فكرت في الأمر مليًا، وأدركتُ أنه ما زال بإمكانهما تجاوز خلافاتهما، والعمل على حلها. يبتسم ويخبرها بأنه مرهق، لكنه سيستحم ويتناول العشاء، وبعدها يقرر ما سيفعل..

- والحقيقة يا "ماريانا" إنني أفضل أن نبقى في البيت ونتبادل حديثًا هادئًا.

تغمز له بعينها في تواطؤ وهي تضحك. تقوم لتدخل المطبخ، ثم تلتفت نحوه وتقول بتلقائية:

- آه، على فكرة، لقد اتصل بابا ويريدك أن تكلمه حالًا.

- كلا. لن أفعل.

يكفهرُّ وجهها لثوانٍ معدودة، ثم تبذُل مجهودًا واضحًا لكي تبتسم وتقول بهدوء:

- هيا يا حبيبي.. من فضلك، وإلا فإنه سوف يتصل بنا لاحقًا، وقد نكون حينها مشغولين بشيء آخر، كما تفهم!

حين يرن التليفون، فيما بعد، تكون "لوث" معهما على مائدة العشاء، فيضطر للتصرف بشكل طبيعي، ويقوم بالرد بعد أن تناوله "ماريانا" السماعة:

- إنه بابا.

يسأله الرجل بوقاحة:

- متى ستأتي إلى "بوينس آيرس"؟

يقاوم رغبته في وضع السماعة مكانها، فور سماعه هذا الأسلوب المتعجرف، ويقول:

- الأسبوع القادم، أو ربما الذي يليه.

يصيح الكولونيل آمرًا:

- هذا الأسبوع. يوم الإثنين، على أقصى تقدير. هناك أمرٌ عاجل يجب مناقشته. لا يمكن تأجيله.

- أنا آسف. لا يمكني أن آتي يوم الإثنين. لديَّ التزامات هنا يجب أن أنهيها أولًا.

- حسنًا. تعالَ غدًا إذًا بطائرة الصباح، ثم غادر في طائرة العصر.

تريد أن تقول له: "اذهب للجحيم!".

لكن جلوس "لوث" و"ماريانا" بجوارك، يمنعك. من الأفضل، على كل حال، أن تنتهي من هذه المسألة المزعجة، بأسرع ما يمكن. لم يعد هذا الإنسان يخيفك. عمومًا، إن ذهبت الأحد ـ كما يقترح ـ فسوف تكون هنا يوم الإثنين لتلقي مكالمة "ميريام". سفرك في الغد سيتيح لك الابتعاد عن "ماريانا" لبعض الوقت، وهو أكثر ما تحتاجه الآن.

يمكنك أيضًا أن تلتقي "دولوريس".

يأتيك صوتُ حميك:

- "إدواردو".. ما الأمر؟ متى ستصل هنا؟ أخبرني الآن حتى أعرف كيف أضع جدولًا لنهاري.

يفكر "إدواردو": "أنا أيضًا بحاجة إلى وضع جدول لنهاري، ومسائي أيضًا. "دولوريس"! لماذا أحرم نفسي من لقائها وأنا مشتاقٌ إليها لهذه الدرجة؟".

تقول له:

- سوف آتي في الغد. سأبلغك بموعد وصولي، فور أن أحجز الرحلة. إلى اللقاء.

تبتسم "ماريانا" بسعادة. ترمقها بطرف عينك فتدرك إنها تعرف سر هذا اللقاء، ولهذا تعاملك بمنتهى اللطف. تريد أن تضمن موافقتك على طلبات أبيها.

تسألك "لوث":

- بابا.. هل يمكننا الذهاب غدًا لركوب الخيل، نحن الثلاثة؟

- لا يمكنني ذلك يا حبيبتي. جدك يريد أن يراني في الغد لأمر مهم. عليّ أن أذهب إلى "بوينس آيرس".

تعلّق "ماريانا":

- يا خسارة!

لا يصدق "إدواردو" حسرتها الزائفة. إنها سعيدة، وهو متيقن من ذلك.

حين تدنو منه لاحقًا، في غرفة النوم، يشعر جازمًا أن كل أفعالها اليوم من تخطيط عائلة "دوفاو". يزيح يدها بلطف، ويقول:

- "ماريانا"، من فضلك.. توقفي! لا تصعبي عليّ الأمور. أنا مصمم على الانفصال. أنا أعني ذلك. لن أذهب لأبيك لمجرد أنه أصدر أوامره بذلك، بل لأنني أحتاج لمعرفة بعض المسائل والتأكد منها.. كان عليّ فعل ذلك قبل سنوات.

يشعر بارتباكها واضطرابها ورغبتها في الصراخ عليه من جهة، وتنفيذ وصية والديها في التعامل معه بصبر من جهة أخرى. تجلس أمامه وتذرف بعض الدموع. يقول لنفسه: "دموعها حقيقية على الأغلب.. لا تكن بهذه القسوة".

تقول له بحيرة:

- لماذا ننفصل إن كنا نحب بعضنا البعض جدًّا؟

- لأنه لم يعد بيننا شيء مشترك. كل منا يفكر بطريقة مغايرة للآخر. اهتماماتنا مختلفة. حتى أسلوبك في الكلام.. انظري كيف تتحدثين عن "لوث"، وما تعتقدين أنها ورثته عن أمها! ألفاظك في هذا الشأن بشعة وبغيضة وشديدة القبح؛ وفي المقابل أنتِ تُسفِّهين من آرائي وتجدين اهتماماتي تافهة.

- وماذا عن مصلحة "لوث"؟ هل تريدها أن تنشأ في أسرة مفككة؟ هذه الأمور عواقبها وخيمة.

- أنا أهتمُّ جدًّا بـ"لوث" ومصلحتها. إنها طفلة مسكينة تم فصلها عن أبويها الحقيقيين، أو بمعنى أصح.. تم اختطافها وانتزاعها منهما.

يدرك على الفور أنه ما كان ينبغي قول ذلك. يرجوها التوقف عن المناقشة، حتى لا يقول شيئًا يندم عليه لاحقًا.

- علينا أن ننام قليلًا يا "ماريانا".

تُمرِّر يدَها على جسدك، برفق. تتمنى لو أنك تستطيع التجاوب معها، لكن حاجزًا سميكًا من عدم الثقة يفصل بينكما. هل تلمسك أصابعها لأنها تريدك حقًّا، أم أن لمساتها جزء من الخطة التي رسمتها عائلتها؟

لا تدفعها بعيدًا عنك، لكنك تظل مستلقيًا دون حراك، حتى حين تحاول إثارتك بيدها، وهو ما لم تفعله معك من قبل أبدًا.

وكما لا يقتنع هو بحركاتها، لا تصدق هي أنه نائم، رغم حرصه على التنفس بعمق.

تستدير في السرير وتوليه ظهرها. سوف يدفع ثمن تجاهله لها غاليًا. بعد أن يعيده والديها إلى صوابه، ويأتيها نادمًا ومعتذرًا، لن تسمح له بالاقتراب منها ولمسها؛ ولكن ربما عليها أن تتحمله بصبر إلى أن تختفي المرأة الأخرى من حياته.

مَن تكون يا ترى؟ "كارولا" ربما.. أو لعلها واحدة التقاها في "بوينس آيرس". لم يتغير على هذا النحو إلا بعد عودته من هناك، آخر مرة. لا يهمُّ مَن تكون، ستختفي من حياته قريبًا، وهذا هو المهم. صديقتها تردد دائمًا بأن الرجال يستسلمون للنزوات، بين الحين والآخر، ولكنهم يعودون لزوجاتهم في نهاية المطاف، يملؤهم الندم والأسف. حين يعود "إدواردو" إليها بعد انتهاء مغامرته هذه، ستذيقه الهوان.

❧

يتصل "إدواردو" بـ"دولوريس" فور هبوط طائرته، حوالي الحادية عشر صباحًا. حمدًا لله أنها في البيت! إنه بحاجة ماسَّة لرؤيتها. صوته ممتلئ بالحماسة والسعادة. تشعر "دولوريس" معه أنها ما زالت فتاة مراهقة، وتدرك جيدًا أنه متيم بها هو أيضًا.

أخبرها في سخرية بأنه لا يـدري متـى سـينتهي مـن اجتماعـه الطـارئ والمهـم مـع حَميـه العزيز، لكنه سيتصل بها عند عودته إلى الفندق، لتلحق به هناك. لن يقيم في الفندق المعتاد. سيخبرها لاحقًا عن مكانه.

- كن حذرًا يا حبيبي.

༄༅

الساعة الآن الرابعة عصرًا. تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في انتظار أن يرن التليفون. "إدواردو" بمفرده مع ذلك القاتل.

لحسن الحظ، والداها ليسا في المنزل، وإلا لفهمت أمها أنها قلقـة بـسبب "إدواردو". إنهـا تشك في أن ما بينهما علاقة أقوى مما تعترف به ابنتها.

يتصل بها أخيرًا. يبدو منزعجًا ومستاء للغاية. إنـه في فنـدق "ويلينجتـون". اتفقـا عـلى أن تصعد إليه في غرفته رقم 402، عند وصولها بعد حوالي نصف ساعة.

༄༅

عصر الأحد، يتوجَّه "فرانك" و"ميريام" لجلب حاجياتها من الفندق. توافق على أن يرافقها عند لقائها بـ"إدواردو". صحيح أنه يبدو صادقًا ومحترمًا، لكنـه في النهايـة زوج ابنـة "دوفـاو"، ومَن يدري ما الذي ينويه؟

تدخل الفندق بمفردها. كانت هذه رغبتها. ينتظرها "فرانك" في شارع جانبي، حتى لا يراه أحد ويعرف أنهما جاءا معًا. تطلب "ميريام" تـسديد فـاتورة إقامتهـا، وتـذكر للموظـف بأنهـا ستغادر إلى "بوينس آيرس".

- وهل ستعودين قريبًا؟

تجيب مبتسمة:

- نعم، بالطبع، لقد أحببتُ فندقكم. إنه مريح للغاية.

- أنا أسألكِ يا سيدتي لأن شخصًا جاء إلى هنا يسأل عنكِ اليـوم. أخبرتـه بأننـا لم نـركِ منـذ يومين، وأنك تقضين إجازة نهاية الأسبوع في مكان آخر على الأرجح. أكد أنه سيعود ثانيةً. أضاف:

- ماذا تحبين أن نقول له حين يأتي؟

ابتلعت ريقها بصعوبة، وحاولت إخفاء ارتباكها وارتعاش يديها:

- أخبروه أنني عدت إلى "بوينس آيرس". مَن يكون يا ترى؟ هل ترك اسمه أو رسالة ما؟

- كلا، لا شيء. شعره أسود، وفي نهاية الثلاثينيات تقريبًا. إنه مِن ذلك النوع الـ ...

سكت قليلًا، كأنه يبحث عن الكلمة المناسبة، ثم قال:

- مسيطر. نعم.. ويبدو قاسيًا. يوجه الأسئلة بصرامة، وينتظر إجابة محددة.

هزت "ميريام" كتفيها، وتظاهرت باللامبالاة:

- لا أعرف مَن يكون. على أي حال، إن عاد مرة أخرى، اطلب منه أن يترك لي بطاقة العمل الخاصة به، لأتمكن من الاتصال به في زيارتي القادمة.

تقول "ميريام" لـ"فرانك" بصوت متهدج:

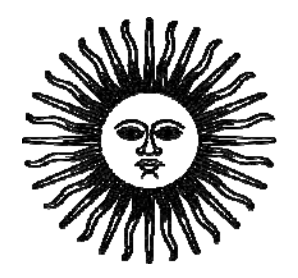
- إنه "آنيمال". أنا متأكدة.

- ليس بالضرورة. ربما كان شخصًا من طرف "إدواردو". لا يهم. الأمر غير مطمئن في كل الأحوال. من الأفضل أن تغادري "إنتري ريوس" بأسرع ما يمكن. انسِي "إدواردو" تمامًا.

- قد تكونُ محقًّا يا "فرانك". لكنني لن أذهب إلى أي مكان قبل أن أتحدث إليه. هذا قراري وسألتزم به.

اتفقا في النهاية على أن تبقى في فندقه، المسجلة فيه تحت اسم السيدة "هاريسون"، وأن تتصل بـ"إدواردو" في اليوم التالي. تمسّك "فرانك" بضرورة إعادة سيارتها المؤجرة إلى الوكالة، صباح الغد.

12



فور أن تدخل "دولوريس" حجرة "إدواردو" في الفندق، يحتضنان بعضهما بعضًا بشوق جارف. تلثم خديه ورقبته:

- أصابني القلق. خشيت أن يصيبك مكروه. حمدًا لله أنك بخير.

تمرر أصابعك في خصلات شعرها، وتتبادل معها القبلات، وأنت تسير بها نحو الفراش. تستلقيان على الفراش، ويرتفع صوت ضحكاتكما المنتشية السعيدة.

تبتعد "دولوريس" عنه بعد لحظات، وتعلن أن أمامهما متسعٌ من الوقت لممارسة الحب، وتصارحه بأنها تشعر بتوتر كبير.

تخبرها بأنك ستقضي الليلة معها:

- وأنوي الاستمتاع بكل دقيقة معكِ.

تسأله "دولوريس" عن لقائه بوالد زوجته..

- هل سألته مَن تكون الأم؟ هل اعترف بأن والدي "لوث" كانا من المعتقلين في سجونه؟

- تحدثنا لساعات. لا أظن أن الأم كانت ممن تعرضوا للاختفاء القسري. الأمر غريب، لكنه و"ميريام" يقولان الشيء ذاته.. أنها كانت داعرة.

- ماذا؟

يقصُّ عليها "إدواردو" تفاصيل ما حدث أمام بوابة المدرسة. تعلـق "دولـوريس" أن أغـرب ما في الحكاية بأكملها هو اتهام "ميريام" له بأنه لصٌّ..

- لا بد أنها تقصد شيئًا معينًا، ألا تعتقد ذلك؟ ربما مـثلًا أن "لـوث" مـسروقة؛ وفي الوقـت نفسه.. لم تقل "ميريام" أنها أم الطفلة. من جانب آخر، بإمكـان "دوفـاو" أن يقـول مـا يـشاء، فهذا ما اعتاد عليه.

تردف بسرعة:

- أنا آسفة.. ما كان عليّ أن أقاطعك. لن أفعل ذلك مجددًا. قل لي ما حدث بالتفصيل.

- حدث كل ما يمكنك تخيله، يا عزيـزتي! حـاول "دوفـاو" في البدايـة أن يقنعنـي بـضرورة التخلي عمَّا أنوي فعله، وحـين لم يُجـدِ أسـلوبه نفعًـا، راح يكـذب ويهـدد ويكلمنـي بوقاحـة، ويأمرني بالابتعاد عن البحث في هذا الموضوع.

يضيف ضاحكًا أنه قال له:

- سأفعل ما يحلو لي، وسأبحث عن أصل "لوث" وأبويهـا، وسـأتحدث إلى "ميريـام لـوبيز"، كما أنني سأترك ابنتك وأنفصل عنها.

يستطرد"إدواردو":

- قمت واقفًا، وغادرت بيتـه، وصـفقت البـاب ورائي. لا بـد أن الـصوت مـا زال يـدوّي في أذنيه!

يقهقه بسعادة، ويقبّل "دولوريس"، ويقول:

- شعور رائع أن يقول الإنسان كل ما يخطر بباله، دون خوف. لولاكِ لما واتتنـي الـشجاعة لفعل ذلك. لم أتخيل يومًا أن بإمكاني مواجهته.

يضمُّها إلى صدره، ويسألها:

- ألستِ سعيدة؟

تقول له إنها تائهة وتشعر بالحيرة. هل حقًّا سيترك زوجته؟

- نعم. "ماريانا" مثل والدها تمامًا. إنها.. لا أدري.. لقد أحببتها لدرجـة أننـي لم أرَ عيوبهـا، ولكن حقيقتها تكشفت لي في الفترة الأخـيرة، عنـدما بـدأنا نتنـاقش في موضـوع "لـوث". إنهـا قاسية القلب جدًّا. الأمر مؤلم للغاية. مؤلم لأنه...

تقاطعه "دولوريس":

- أرجوك.. لا تقل شيئًا. ربما كان من الأفضل ألا تخبرني بهذه النقطة.

لكنه يقول إنه بحاجة لمصارحتها. تصرفات "ماريانا" الأخيرة وكلامها، وما تقوله عن "لوث"، وإصرارها على عدم البحث عن حقيقة الطفلة، كلها مواقف أدت إلى نفوره منها.

- لقد اتخذت قراري، وكما قلتُ لك، سأبذل قصارى جهدي لمعرفة الحقيقة. لن أخذلكِ.

ﷺ

كان حموه قد بدأ اللقاء بتهديد واضح:

- عليّ أولًا، وقبل كل شيء، أن ألفت انتباهك إلى أنك أنت الذي قمت بتسجيل بيانات "لوث"، وأنت الذي دفعت رشوة للموظفة لكي تستخرج لها شهادة ميلاد مزورة. من أول شخص فينا سيدخل السجن إذًا؟

سأله "إدواردو" عن السبب الذي سيجعل السلطات تسجنه. قابل الكولونيل السؤال بابتسامة ساخرة كريهة، وقال إن الأوضاع في الأرجنتين قد تغيرت، وأن العديد من الأشياء السيئة تحدث عادة في ظل الحكم الديمقراطي.. أردف محذرًا، بنبرة متعالية:

- لا تكن ساذجًا يا بني! ستفقد كل شيء.. ابنتك وزوجتك، وسمعتك أيضًا. وماذا عن عائلتك؟ ألم تفكر في أمك وأخيك، وموظفيك؟ ماذا سيقولون جميعًا، حين يرونك مسجونًا؟

ورغم أنها وعدته بألا تقاطع حديثه، لكن "دولوريس" وجدت نفسها تعلق باندفاع:

- لقد كشف نفسه وأفعاله! إنه يهددك لأنه يعرف جيدًا الجرم الذي ارتكبه. لقد تأكدتُ الآن أنه تخلَّص من أم الطفلة، وأنها كانت إحدى سجيناته. إنه يخشى أن تكشف الحقيقة، لأنه هو نفسه معرّض للسجن، مثلك تمامًا.

يشعر "إدواردو" بالصدمة:

- ماذا؟! هل تظنين أنهم سيحكمون عليّ بالسجن؟

ترتاع وتنظر إليه بفزع.. تجيبه بأن للمسألة حلولًا أخرى بالطبع، وصحيح أنه ارتكب خطأ جسيمًا لكنه يسعى لإصلاحه بكل إمكاناته؛ وعلى كل حال لقد كان يجهل أنهم ينتزعون المواليد من أحضان أمهاتهم المعتقلات.

يهز "إدواردو" رأسه في حيرة، ويذكر لـ"دولوريس" أن الرجل فوجئ بمعرفته أن أم "لوث" عاهرة، كما وصفت هي نفسها، وقال له إنه سيبحث عن رقم تليفون امرأة تدعى "آنيت" تمتلك وكالة لتشغيل الفتيات في هذا المجال، ليتصل بها "إدواردو" ويسألها بنفسه إن كانت "ميريام لوبيز" هي نفسها "باتريشيا"، أشهر العاهرات وأغلاهنَّ في منتصف السبعينيات. ماذا لو كان "دوفاو" محقًّا؟ سيعرف ذلك في الغد. ثم يخبرها عن لقائه بـ"ميريام" في المقهى، وكيف أنها وعدته بأن تتصل به يوم الإثنين.

تعلِّق "دولوريس" بأنها لا تفهم شيئًا.. ألم يكن "دوفاو" يرفض رفضًا باتًّا أن يمنحه أي معلومة قد تقوده للأم؟ لماذا إذًا يخبره الآن باسمها الكامل ومهنتها القديمة؟

يجيبها "إدواردو" بأنه هو الذي ذكر اسمها أمام "ماريانا"، خلال شجارهما. تشعر "دولوريس" بخوف وقلق. كان عليه أن يتجنب ذكر أي معلومة بحوزته أمام "ماريانا" ووالدها. إنه لا يعرف الطرق التي يتبعها الكولونيل وأمثاله في إدارة الأمور. تخبره أنها بحثت في قوائم المختفين، ولم تجد اسم "ميريام لوبيز" بينهم؛ ولكن ربما لم يبلغ أحد عن اختفائها. تضيف:

- إن كانت ما تزال على قيد الحياة، فقد تمكنت من الهرب دون شك؛ ولكن كيف لم يتخلصوا منها بعد أن سرقوا ابنتها؟ وربما كانت فتاة ليل فعلًا، ولكن لماذا اتهمتك بأنك لصٌّ؟

تشعر فجأة بأنك مرهق جدًّا. يعذبك الإحساس بأنك تعرّض حياة "ميريام" للخطر. تستلقي "دولوريس" إلى جانبك، وتلمسك بحنان. لكن التوتر لا يفارقك. تقترح عليك جلسة تدليك لتساعدك على الاسترخاء. تستلم لحركة يديها القويتين.

*****

عندما تخبر "آميليا" زوجها بأن "ماريانا" تعاني القلق لعدم عودة "إدواردو" حتى اللحظة، وقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، يشعر "آلفونسو" بالذعر.. لقد نفَّذ تهديده إذًا، وتوجه فور عودته إلى "إنتري ريوس" للقاء "ميريام".

اللعنة! "آنيمال" لم يتصل حتى الآن.

ꕤ

قبل بضع سنوات، حين بدأت الجدّات نشاطهن في المنظمة، وكن يعقدن اجتماعات كثيرة في مختلف مناطق البلاد، قمن بنشر رسالة طويلة في صحيفة "بوينس آيرس هيرالد"، تضمنت قائمة بجميع الحوامل من المعتقلات، اللواتي اختفين بغير رجعة، في تلك الفترة. راجع "آلفونسو" أسماء من كتبن الخطاب بتمعن، وشعر براحة عظيمة عندما لم يجد والدة "ليليانا" ضمنهن.

ꕤ

- لم يبلغ أحد عن اختفائي. لقد راجعت الأمر بنفسي في المنظمة.

- الحقيقة أن "نورا"، والدة "ليليانا"، لم تكن تعلم أن ابنتها حامل. كانت "ليليانا" قد قررت عدم إخبارها، حتى لا تسبب لها قلقًا وانزعاجًا أكبر. لقد رأتها مرتين أو ثلاثًا، خلال الفترة التي كانت فيها "ليليانا" في حالة هروب، قبل إلقاء القبض عليها. كان حملها في أوله، وحرصت على ارتداء معطف كبير، يخفي تفاصيل جسدها. لقد احترمت رغبتها وقرارها، ولم أعلن شيئًا بدوري.

- إذًا أنت لم تخبر أمها قط؟ ألا تعرف بوجودي؟

- أخبرتها لاحقًا بأن ابنتها حامل. كان ذلك عقب اختطاف "ليليانا". بعد فترة، حين اتصلت "نورا" بوالدي، أخبرها ما كنا نعتقده جميعًا، من أن "ليليانا" تُوفيت أثناء الولادة، وأن طفلها وُلِدَ ميتًا. ليس من المنطقي أن تبحث عن شخص لم يعد موجودًا. اتصلت بها حين ذهبت للأرجنتين في 1984.

يبتسم "كارلوس" ابتسامة حزينة، ويضيف:

- قالت لي "ليت حفيدي معي". أظنُّ أن "ليليانا" أخفت نبأ حملها عنها، لأنها خشيت ألا تتفهم موقفها. والدا "ليليانا" كانا غير مقتنعين بنشاطها السياسي ولا

بعلاقتها معي. من الواضح أنهما كانا يعتقدان أنني أنا السبب في أفكارها وتوجهاتها الجديدة. لكن هذا لم يكن صحيحًا. لقد كانت مؤمنة بما تفعله. حين التقيتها، كانت قد بدأت الانغماس في العمل الثوري، بالفعل.

يواصل حديثه بعد لحظة صمت:

- حواري مع "نورا" في 1984 كان مؤلمًا للغاية، أدركتُ بعده أنها كانت تحب ابنتها بجنون، لدرجة أنها كانت على استعداد لتفهم كل ما تنادي به "ليليانا" وتعمل من أجله. لقد ارتكب كل منا أخطاء كبيرة.

- ماذا عن والديك؟

- كان ردّ فعلهما مختلف. لم يفهما تمامًا الأعمال التي كنا نقوم بها، لكنهما كانا يؤيدان أفكارنا ومطالبنا، لأنهما ينتميان في الأساس إلى الطبقة العاملة. ملح الأرض كما يقولون. لكن التنكيل الذي تعرضنا له لاحقًا، دمّرهما تمامًا. حين ماتت ماما، لم أكن وأختي في الأرجنتين. كانت حزينة ويائسة على الأرجح.

❧

لم يتخيل "آلفونسو" أن خطيبة "آنيمال" ستتسبب في كل هذه المشكلات. إنها مجنونة حقًّا! أي حماقات أخرى تنوي ارتكابها يا ترى؟

تسأله "آميليا" بوجل:

- ماذا سنفعل إن لم ننجح في إيقاف "إدواردو" عند حدّه؟ لا يمكننا السماح له بمواصلة البحث والتفتيش في حقيقة حكاية "لوث"؛ ومن غير المعقول أن ندعه ينفصل عن "ماريانا". هذه فضيحة كبرى!

تستطرد باستنكار بالغ:

- من يكون حتى يترك ابنتنا؟

يطلب منها "آلفونسو" أن تهدأ وتطمئن. سوف يغير "إدواردو" رأيه، حين يدرك مخاطر المسألة. سيتحدث معه مرة أخرى، بأسلوب أكثر مباشرة.

في العاشرة مساء، يتلقى "آلفونسو" أخبارًا من "آنيمال"، تزيد من قلقه. لقد توصل إلى الفندق الذي تقيم فيه "ميريام"، لكنه اكتشف أنها قد غادرته في الظهيرة.

إنه يعرف شكل السيارة التي تقودها، وعنوان المكتب الذي أجرتها منه. لم تعدها بعد، لأن المكتب لن يفتح أبوابه حتى صباح الإثنين. لقد ذهب إلى مواقف المطار، علها تكون تركتها هناك، ولم يجد لها أثرًا. إنه متأكد أنه سيعثر على "ميريام" غدًا.

- ألم أقل لك إن هذه القضية يجب أن تنتهي خلال ساعات قليلة؟

يكتشف أيضًا أن "آميليا" محقة، فـ"إدواردو" ليس في "إنتري ريوس" أساسًا. تقول لزوجها:

- إن الاستهتار الذي يتصرف به يجعلني متأكدة أن لديه عشيقة أفسدت عقله. إنه معها في فندق ما، على الأغلب.

تضيف بحماسةٍ:

- ليس من الصعوبة أن نكتشف مكانه، أليس كذلك؟

يجيبها "آلفونسو" بأن عليهما الانتظار قليلًا، فربما عاد "إدواردو" إلى بيته بعد بضعة ساعات.

- كلا. إنه في "بوينس آيرس". حدسي لا يخيب أبدًا.

تسارع بإحضار دليل التليفون.

لا ترغب في إزعاج زوجها. الأمر لا يستحق. "آنيمال" يؤدي واجبه في البحث عن "ميريام". إنه ينوي القضاء عليها، ولن يفعل ذلك تنفيذًا لرغبة "آلفونسو" فقط، فلديه أسبابه. زوجها قادر على إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، وسيتمكن من إقناع "إدواردو" بكل ما يريدانه.. إما إذا فشل هذا الأسلوب، فإن لديها خطة محكمة.. جريئة ومتطرفة بعض الشيء ربما.. لكنها ستؤدي للنتائج المرجوة.

꧁꧂

خلال تناولهما العشاء، داخل غرفتهما في الفندق، يسألها "فرانك" عما تنوي فعله بعد أن تتحدث مع "إدواردو"؟ إنه يتوقع منها أن تسافر معه. لم تجرؤ "ميريام" على الرفض، لكن كل شيء متوقف على نتيجة الحوار.. ربما استطاعت إقناع "إدواردو" بمساعدتها في قول الحقيقة لـ"ليلي"، ولكن لماذا سيستجيب لها، ويخسر الطفلة؟

لماذا لا تكذب عليه وتقول له إنها هي الأم، حتى يسمح لها بزيارة الصغيرة بين الحين والآخر؟ عندها ستتولى إبلاغ "ليلي" بأن والديها الحقيقيين هما "ليليانا" و"كارلوس".

يطلب منها "فرانك" أن تتوقف عن ترديد هذه التفاهات، ويسألها برزانة:

- أي فائدة ستعود على البنت الصغيرة من هذه التمثيليات والأكاذيب؟ ولنفترض أنكِ أخبرتِها الحقيقة كاملة، وماذا بعد؟ لن تستطيعي عمل شيء، وستعرضين حياتك للخطر.

تدرك "ميريام" أن "فرانك" ليس فقط حبيبها، بل صديقها المخلص أيضًا. إنه يساعدها على رؤية الأمور بشكل أوضح، دون أن يجبرها على فعل أي شيء.

ᴥ

- تأثرت "ميريام" بمعاملة "فرانك"، القائمة على الاحترام والتفهم، لها. ساهمت طريقته في توثيق علاقتهما وجعلها أكثر متانة. لا أظن أنها أُغرمت به، لكنها كانت بحاجة ماسَّة لما قدمه لها.. أعني الحماية والصداقة الحقيقية. أخبرتني بأن "فرانك" هو الوحيد الذي عاملها كونها إنسانة، وتقبَّلها بعيوبها وسلبياتها. كانت تحتاج ذلك بشدة، في تلك المرحلة الحرجة من حياتها.

ᴥ

- السيدة "هاريسون" ترغب الآن في النوم مع السيد "هاريسون"، وتتساءل إن كان ذلك ممكنًا؟

كانت تلك طريقتها في إبلاغه بأنها، وإن كانت لا تعرف الخطوة القادمة، فإنها تشعر بأنه زوجها بالفعل. تفضل أن تعبر له عن مشاعرها بالمزاح.

ᴥ

ترتعب "دولوريس" حين تسمع ما قاله "دوفاو" لـ"إدواردو":

- أريدُ وعدًا صريحًا بأن تتخلص من فكرة البحث عن جذور "لوث" وعائلتها؛ ووعدًا آخر بأن تعتذر من "ماريانا" عن طلبك الانفصال عنها.

يعلق "إدواردو" بأن هذا هو أسلوب حماه المعتاد في الحديث، وإصدار الأوامر بغطرسة. تدرك "دولوريس" أن الأمر أعمق وأخطر من ذلك بكثير، لكنها لا تملك الجرأة لمصارحة "إدواردو" بذلك، حتى لا تسبب له أي ضيق أو توتر.

كانا قد انغمسا في لقاء حميم، دام فترة طويلة، عقب جلسة التدليك. نسيا كل شيء خلاله، عدا استمتاع جسديهما. يتناولان مشروبات باردة، بعد ذلك، ويستغرق في الحديث عن "لوث" ولطفها الزائد، وحبها لركوب الخيل، والرقص. قال إنها اجتماعية وتحب تبادل الأحاديث مع كل الناس. أخبرها أيضًا عن استمتاعه بابتكار شخصيات الحكايات التي يؤلفها لها. اختتم حديثه بالقول بأنه يحبها جدًّا.

تنصت إليه "دولوريس"، ثم تقول له:

- ولأنك تحبها، يجب أن تواصل ما بدأته يا "إدواردو". عليك ألا تيأس أو تستسلم.

تقول ذلك، رغم أنها ليست متأكدة أن تشجيعه على ذلك هو أمر صائب، وبخاصة بعد تهديدات "دوفاو" الواضحة.

- "دولوريس".. سوف أترك "ماريانا". أنا بحاجة إليكِ. لا تعودي إلى فرنسا. أنا في أمس الحاجة لدعمكِ لي، وحين تنتهي هذه المشكلة.. لا أعرف حقًّا ما سوف يحدث، ولكنني أتمنى أن نكون معًا، ونبقى معًا إلى الأبد. لا تسافري. غيّري التذكرة من فضلك.

كيف بإمكانها مساعدته؟ ينتفض جسدها حين تتذكر "بابلو" وكيف كانت السبب في إلقاء القبض عليه، وقتله لاحقًا. تشجيعها لـ"إدواردو" لفعل ما يراه صائبًا، سينتهي بالطريقة نفسها.. تحتضنه بقوة وتعلن بأنها ستبقى، وستظل إلى جواره ما دام يحتاجها.

تفكر: "أو إلى أن يقوموا بـ ...".

لا، عليها ألا تفكر في هذه النهاية المأساوية. كيف تتصرف؟ هل تنصحه بأن يخضع لـ"دوفاو"، ويواصل خداعه للطفلة؟ ماذا تفعل؟ ليس أمامها سوى إحاطته بمحبتها.

تطلب منه أن يستلقي، وأن يدعها تحبه بطريقتها.. بيديها وفمها وجسدها. هذه المرة، يمارسان الحب باستمتاع أكبر، يمتع كل منهما الآخر قدر استطاعته. يتكامل جسداهما في نشوة غير مسبوقة.

ꕥ

تتصل "ماريانا" بوالديها في الثانية صباحًا، وتخبرهما بأن "إدواردو" لم يعد بعد، وتقول:

- صحيح أنه قال لي إنه سيرجع غدًا على الأرجح، لكنني ظننت أنه سيغير رأيه بعد نصائحكما، ويقرر العودة الليلة.

- لماذا لم تقولي ذلك قبلًا؟! هل قال ذلك حقًّا؟ سيمضي الليلة في "بوينس آيرس"؟

- نعم. قال إنه سيبقى إن تأخر الوقت، ويعود في اليوم التالي.

يطمئنانها، ويعدانها بأن يحلا المشكلة بينها وزوجها.

تتصل "آميليا" بالفندق الذي ينزل فيه "إدواردو" عادةً، لكنه ليس هناك. لديها قائمة طويلة بالفنادق التي يمكن أن يقيم فيها، كما أن لديها متسعًا من الوقت.

يعلن "آلفونسو" لزوجته أن اقتراحها بالبحث عمن غيّرت أفكار وشخصية "إدواردو"، صائب تمامًا، ويجب تنفيذه سريعًا.

تغادر "آميليا" الحجرة، وتذهب إلى غرفة المعيشة، لتكمل اتصالاتها. يظل "آلفونسو" مستيقظًا، يعذبه الأرق. يفكر أنهما إن عثرا على "إدواردو" الليلة، سيجب عليه مواجهته.

ꕥ

كانا نائمين بعمق، وقد أنهكتهما ممارسة الحب، حين أيقظهما رنين التليفون. رفع "إدواردو" السماعة..

- ستغادر على أول طيارة متجهة إلى "إنتري ريوس". عند وصولك، ستبادر بالاعتذار لـ"ماريانا"؛ والأهم.. لا علاقة لك إطلاقًا بماضي "لوث" وأبويها، وإلا فسوف تندم. هل كلامي واضح؟

يبعد السماعة عن أذنه، حتى تتمكن "دولوريس" من الاستماع للمحادثة. كل ما تسمعه هو: "سوف تندم".

هذا ما كانت تتوقعه وتخشاه. ترتعد بخوف. تحاول أن تقول شيئًا لـ"إدواردو"، لكنه يسبقها بالكلام، ويقول لـ"دوفاو":

- أنا أنوي التحدث مع "ميريام"، ومع غيرها، ولا يهمني إن رضيت أو لم ترضَ.

يضحك "آلفونسو" باستهانة:

- ستتحدث مع "باتريشيا" إذًا؟! أظن أن ذلك سيكون صعبًا بعض الشيء، لأن تلك القحبة الحقيرة ستتعرض لحادث صغير، ينهي كل شيء؛ هذا إن لم تكن قد تعرضت له بالفعل منذ قليل.

تسحب "دولوريس" السماعة من يد "إدواردو" وتعيدها مكانها، منهيةً المكالمة. تقول له إن الساعة تقترب من الخامسة صباحًا، وعليه أن يرحل. "دوفاو" يعلم مكانه، والوضع خطير جدًّا؛ لكن حالة الغضب الشديدة التي يشعر بها "إدواردو"، تمنعه من رؤية الموقف على حقيقته، ويتساءل بحنق:

- كيف عرف مكاني؟ كيف يجرؤ على الاتصال بي في هذه الساعة؟ سأبقى هنا إلى الوقت الذي يحلو لي، لستُ خائفًا منه.

تحاول "دولوريس" أن تجعله يفكر بعقلانية.. عليه أن يعود إلى بيته الآن. يجب أن يكون في "إنتري ريوس" حين تتصل به "ميريام" ليحذرها. تلفت نظره إلى أن "دوفاو" قد يكون في انتظاره خارج أبواب الفندق.

- فلينتظرني كما يشاء. لا يهمني. لن أقبل أوامره بعد اليوم. سأسافر بطائرة التاسعة والنصف صباحًا، كما كان مقررًا. لن يأتي ما دام قد أصدرَ أوامره بالتليفون.

"دولوريس" خائفة جدًّا، وتعلن أنها ستعود إلى بيتها الآن.

- لا.. انتظري. لا تذهبي. مَن يدري متى سنلتقي مرة أخرى؟

يحتضنها بقوة.

- حسنًا. سأبقى.

تدرك أن الأمر مجازفة كبرى. تتساءل في سرها عن موعد لقائهما التالي، وتخشى ألا يتحقق أبدًا. تبدأ في البكاء، ويعمل على طمأنتها:

- لا تقلقي، لن يحدث شيء.

لا يحب أن يراها حزينة.

تقول له إنها ستبقى معه، لكنهما لن يغادرا الفندق معًا، ولن توصله إلى المطار. قد يراها حموه.

ﮘ

في الساعة العاشرة صباحًا، حين ذهب "فرانك" ليعيد السيارة، أخبر المسؤول بأن صديقته كلفته بهذه المهمة، لأنها اضطرت فجأة للذهاب إلى "سالتا". قال الموظف إن هناك مَن جاء يسأل عنها في الصباح الباكر..

- رجلان يقولان إن الأمر طارئ، ويريدان المعلومات الخاصة بها. أخبرتهما أن هذا تصرف غير معتاد، فنحن لا نعطي بيانات عملائنا لأحد. قال أحدهما بغضب: إن عليّ أن أجيب عن أسئلته دون نقاش، وأنه يريد معرفة مدة استئجارها للسيارة، والعنوان الذي تقيم فيه. تدخَّل الرجل الآخر، الأكثر هدوءًا وعقلانية، وأخرج شارة الشرطة ومسدسًا. اضطررتُ لأن أخبرهما كل شيء.. أعني أنها ستعيد السيارة يوم الأربعاء، وأنها تمتلك رخصة قيادة صادرة من الأوروجواي؛ كما أعطيتهما عنوان فندقها. علق الرجل العنيف: إنها قامت بسرقة السيارة، على الأرجح، لأنها غادرت المدينة بالأمس. عمومًا، أنا ممتن لأن ذلك غير صحيح.. ها هي السيارة بحالة جيدة!

أضاف بعد برهة:

- أشكرك يا سيد...

قال "فرانك" بسرعة:

- "رودريجز".

- شكرًا يا سيد "رودريجز" على إعادتها.

- أنا لا أعرف مَن يكونان، لكنني سأخبر صديقتي بالأمر. يبدو أن هناك التباسًا ما.

أجابه الرجل المذعور:

- ماذا أقول لهما إن عادا ثانيةً؟

- لقد عادت السيارة إليك بحالة ممتازة، وهذا كل ما يهمنا.

توجه "فرانك" إلى وكالة أخرى، واستأجر منها سيارة "رينو"، قادها بسرعة إلى الفندق.

تخبره "ميريام" بأنها اتصلت بـ"إدواردو"، لكنه لم يكن موجودًا. أبلغتها السكرتيرة بأنه سيصل في الحادية عشرة. يسألها بحذر:

- هل ذكرتِ لها اسمك؟

- قلت لها إنني السيدة...

يقاطعها "فرانك" بفزع:

- "هاريسون"؟! سوف يطاردوننا في كل مكان.

- كلا. قلتُ إن اسمي السيدة "هيرناندز". اهدأ قليلًا! أخبرتها بأن السيد "إيتورب" ينتظر مكالمة مهمة مني، حتى يفهم حين تخبره بأنني أنا التي اتصلت.

يخبرها بأن عليها أن تنسى الأمر بأكمله. يقصُّ عليها ما حدث في مكتب تأجير السيارات، ويقول إن عليهما مغادرة "إينتري ريوس" بأسرع ما يمكن. يمكنهما إعادة السيارة في أي فرع للوكالة بأي مدينة. لقد اتفق معهم على ذلك. تطلب منه "ميريام" ألا يزيد من توترها. تعلن أنها بحاجة للتفكير بهدوء..

- ماذا لو تمشينا على ضفة النهر، لأفكر فيما يجب فعله؟

- الشيء الوحيد الذي يجب علينا التفكير فيه، هو مغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن. هناك رجلان يبحثان عنك في كل مكان، والأمر أخطر مما تصورين يا "ميريام".

- لا أريد أن تجادلني بهذه العصبية. اتركني بمفردي قليلًا، لأقرر ما سأفعل.

- بشرط ألا تتصلي بـ"إدواردو". قد يكون التليفون مراقبًا.

- "إدواردو" مسالم للغاية، ولا خطر منه. الرجل الذي يتبعني هو "آنيمال". أنا متيقنة من ذلك.

ﮩﮨ

حين يصل إلى المكتب، تبلغه السكرتيرة بنَصّ مكالمة السيدة "هيرناندز". يدرك على الفور أنها "ميريام"، ويشعر بارتياح بالغ لأنها بخير. ليتها تتصل به ثانيةً، بسرعة.

تكلمه بالفعل، خلال دقائق. يسألها:

- أين يمكنني مقابلتك؟

- لا أدري، إنهم يفتشون عني في كل مكان.

هذا ما كان يخشاه. إن "دوفاو" يحاول منعه من معرفة الحقيقة، بأي ثمن.

- الأمر يتعلق بالطفلة. أتوسل إليكِ. حددي المكان الذي تريدين. المهم أن نتحدث. فليكن على التليفون، إن كان ذلك مريحًا بالنسبة لك.

- وما يدريني أن التليفون ليس مراقبًا؟

- لا أظنُّ ذلك.. ولكن مَن يدري؟ كل شيء جائز.

يتذكر تحذيرات "دولوريس"، ولا يعرف ماذا يقول.

تنهي المكالمة بالقول:

- سأتصل بك مرة أخرى.

- سريعًا من فضلك.

ꕥ

تقول لـ"فرانك":

- إن كنتَ تحبني حقًّا، فلا ترفض هذا الطلب. الحل الوحيد هو أن تذهب إلى "إدواردو" في مكتبه، وتطلب منه أن يأتي للقائي هنا في الفندق.

توضح له أن التليفون قد يكون مراقبًا كما قال فعلا.

يرفض "فرانك" الفكرة في البداية، لكنه يوافق في النهاية..

- بشرط واحد.. قومي بوضع ملابسنا في الحقائب، حتى نغادر فور انتهائكِ من التحدث مع "إدواردو".

تعانقه بسعادة.

ꕥ

تتصل "ماريانا" بزوجها في مكتبه، وتخبره أنها حزينة لأنه لم يحدثها مـن "بـوينس آيـرس". يقول لها إنه أخبرها قبل أن يغادر بأنه سيعود يوم الإثنين. على أي حال، لقد توجه من المطار إلى المكتب مباشرًة، لأن لديه أعمالًا ولقاءات مهمة.

- هل ستعود البيت للغداء؟ تعالَ أرجوك.

- كلا. الوقت ضيق. سأجلس معكِ قليلًا حين أحضر "لوث" من المدرسة.

تبدأ "ماريانا" في البكاء:

- أرجوك.. أرجوك.. يجب أن نتكلم.. لا يمكنكِ تركي هكذا.

إنها محقة. لا يمكنك تركها هكذا دون كلمة واحدة.

- حسنًا. سأحضر وقتًا قصيرًا، فجدولي مزدحم بالأعمال اليوم.

حين يخرج من باب المبنى، يلمح الرجل الذي رآه مؤخرًا برفقة "ميريام". تغادر الـسكرتيرة المبنى في اللحظة نفسها. يسير "فرانك" باتجـاه "إدواردو". تـرمقهما المـرأة بفـضول، فيقـرر أن يرحب به بحرارة، كما لو كان صديقًا عزيزًا..

- "آلبرتو"! يا للمفاجأة! ماذا تفعل في "بارانا"؟

يغتصب "فرانك" ابتسامة زائفة، ويربت على ظهره بحرارة:

- أنا هنا في رحلة عمل، وسأغادر الليلة. ما أخبار العائلة؟

تمضي السكرتيرة في طريقها، وقد فتر اهتمامها. يقول "فرانك" بسرعة:

- سوف تنتظرك "ميريام" في السادسة مـساءً، في بـار "أوتيـل دي لا بـيرا". أتمنـى ألا تكـون مراقبًا. المسألة غير مريحة على الإطلاق، ولا أدري ما الذي تسعى إليـه تحديـدًا، لكـن كـل مـا يهمني هو سلامة "ميريام".

- هل تقيمان في ذلك الفندق؟

يتعمد "فرانك" تجاهل سؤاله. يقول "إدواردو":

- بلغها أن تظل في غرفتها حتى موعد اللقاء. "دوفاو" يبحـث عنهـا. يريـد أن يمنعهـا مـن مصارحتي بحقيقة الأمر. أنا شاكرٌ لك جدًّا.

ꕥ

حدث أمران دفعا "آميليا" و"آلفونسو" للاعتراف بالخطة التي يفكران بها منذ البارحة، دون أن يجرؤ أي منهما على مناقشتها علنًا. الأول هو اتصال "ماريانا" وهي في أشد حالات الأسى، لتخبرهما بأن "إدواردو" عاد من عمله ظهرًا، ليخبرها بأنه مصمم على الانفصال عنها، وبأنه مصمم أيضًا على معرفة المكان الذي جاءت "لوث" منه؛ أما الثاني فهو فشل "آنيمال" في العثور على "ميريام"، رغم أنه يمتلك خيطًا واحدًا قد يقوده إليها، هو مواصفات رجل بصحبتها دائمًا، تمت رؤيته في "بارانا" صباح اليوم.

طلب منه "آلفونسو" أن يتصل به مرة أخرى، في تمام الساعة السادسة، إن لم يستطع التخلص من "ميريام" حتى ذلك الوقت، ليملي عليه أوامر تتعلق بمشروع جديد.

ꕥ

حين يدخل "إدواردو" البار، تكون "ميريام" هناك وهي تمسك كتابًا، كأنها تقرأ منه. يلوحان لبعضهما بعضًا، كما لو كانا صديقين قديمين. يتابع "فرانك" ما يجري من مكانه على مقعد وثير في بهو الفندق، يسمح له بمراقبة كُلٍ من باب الدخول والبار في آن واحد.

يعاجلها "إدواردو" بالقول:

- قبل أي شيء، أحتاج لمعرفة إن كنتِ والدة "لوث" أم لا. إن كنتِ أمَّها، فسوف أفعل كل ما بوسعي لتربيها بانتظام. صدقيني.

- أنا لستُ أمَّها. وأنت لستَ أباها، ولكن يجمعنا شيء واحد، كلانا كان يرغب في الاستيلاء على "ليلي".

- "ليلي"؟!

- نعم. أسميتها "ليلي"، وأعددت غرفة لاستقبالها.. زينتها بورق حائط ملون. كانوا قد وعدوني بالحصول عليها، والواقع أنها لا تنتمي لي، ولا لك. إنها ابنة "ليليانا". أعرف اسمها الأول فقط.. "ليليانا"، لا أعرف اسم عائلتها. والد الطفلة يدعى "كارلوس". أغلب الظن أنه قتِل. اخترت للمولودة هذا الاسم، لأنه

قريب من اسم أمها. بقيت في بيتي خلال الفترة التي مرضت فيها زوجتك. كانت هذه مرحلة فاصلة في حياتي..

لا يفهم "إدواردو" شيئًا من هـذا. يريـد أن يعـرف إن كـان أبـوا الطفلـة ضـمن المعتقلـين الذين تعرضوا للاختفاء؟

- نعم. لكنني لم أكن أعلم ذلك حين كنت في انتظار الحصول عليها.

- أنا أيضًا لم أكن أعرف. قد يبدو الأمر غير منطقي، ولكنني لم أعلم إلا مؤخرًا. أنـا بحاجـة لمعرفة كل شيء. أخبريني كل ما لديك. أرجوكِ.

- لقد وعدتُ "ليليانا" بأن أخبر ابنتها عمن يكون والداها، وأن أقول لها بأنهما قتلا لأنهـما كانا يسعيان لمجتمع أكثر عدالة. كنت خائفة، واضطررت للهروب، سنواتٍ كثيرة، لكنني جئـت الآن لأنقذها من...

تصمتُ قليلًا، ثم تغالب حرجها وتقول:

- لأنقذها منكما. ولأخبرها بالحقيقة، ومَن تكون.

- سأتولى أنا إبلاغها. صدقيني.

تخبره "ميريام" عن "آنيمال"، والسجينة ومولودتها اللتـين أقامتـا في بيتهـا، ومـا قالتـه لهـا الفتاة عن التعذيب في المعتقلات، واشتراكها معها في محاولة فاشلة للهروب.

تشعر بتأثر بالغ، وببعض الحرج، حين تدرك أن هذه المـرأة ـ التـي اتـضح أنهـا فتـاة ليـل بالفعل ـ تمتلك جرأة وشجاعة، تفتقر أنت إليهما. تنصت إليها وقـد امـتلأتَ بالحـسرة والنـدم على الأعوام التي أمضيتها وأنت تتجاهل المسألة بسبب خوفك وجبنك وأنانيتك. تـشعر بـآلام "ليليانا" حين اخترقت الرصاصات جسدها، وكأنها في جسدك أنت. تسألك بشغفٍ:

- هل ستخبر "ليلي"؟

- سأفعل أكثر من ذلك بكثـير، لـدي صـديقة تعمـل مـع "منظمـة جـدات ميـدان مـايو"، سأقدم بلاغًا وأعترف بدوري في القضية. يمكنكِ مساعدتي يـا "ميريـام" إن أحببـتِ. علينـا فعـل شيء..

تبدي "ميريام" حماستها، وتعلن استعدادها لمعاونته في مهمتـه، وتعـترف بأنهـا قـصّرت في حق الطفلة. يقاطعها:

- صحيح، ولكنَّ كلينا يحبها يا "ميريام".

تنظر للجهة الأخرى، حتى لا يلاحظ دموعها. تتغير ملامحهـا فجـأة وترتعـد مـن الخـوف، وهي تنظر من النافذة المجاورة لها. تقول له بصوت مرتعش:

- إنه "آنيمال"! أسرع بالذهاب إلى "فرانك" وأخبره. إنه هناك، على ذلك المقعد في البهو.

تغادر بخطوات سريعة تجاه حمام السيدات.

يخرج "إدواردو" من البار، فيلمح رجلين يقتربان من مكتـب الاسـتقبال، يقـول لــ"فرانـك" بأنفاسٍ متقطعة:

- "آنيمال".. إنه هنا.. في الاستقبال.. "ميريام" تختبئ في الحمام.

يسأله "فرانك":

- هل يعرفك؟ هل رآك من قبل؟

- كلا، ولا مرة. لم أسمع عنه إلا اليوم.

يناوله مفتاح الغرفة:

- حسنًا، هاك المفتاح. اصعد إلى الغرفة. لا ترد على التليفون، ربمـا كانـا يبحثـان عنـي أنـا أيضًا. لا تفتح الباب لأي طارق. سأدق الباب ثلاث مرات لتفتح لي.

دخـل "فرانـك" كابينـة التليفـون العمـومي، ليراقـب منهـا مـا يحـدث دون أن يـراه أحـد بوضوح. مرّ "آنـيمال" بجـواره، دون أن ينتبـه لـه. خـرج "فرانـك، واتجـه إلى البـار، ثـم دخـل "آنيمال" الكابينة واستخدم التليفون. تحدث دقائق، لوّح بعدها للرجل الذي جاء معه وغادرا الفندق.

قال للكولونيل إنه يتصل به من الفندق. يبدو أن "ميريام" والرجل الـذي برفقتهـا يقـيمان فيه، لكن لا أثر لهما الآن.. يقاطعه "دوفاو" بعجالة:

- لا وقت لدينا الآن لهذه المرأة. غادر الفندق حالًا، لديك مهمة أخرى أكثر أهميـة. انتبـه جيدًا للتفاصيل..

يعطيه الاسم، والسن، والأوصاف، ولون وشكل سيارته، بالإضافة إلى عناوينه في كل من المكتب والمزرعة والمنزل. يؤكد عليه بألا يذهب للمنزل، تحت أي ظرف. يخبره أيضًا باسم شقيقه وعنوانه.

يقول له إنه يفهم بالطبع ما يجب عليه عمله. لا شهود، كالعادة. يجب أن تبدو المسألة كحادث اقتحام وسرقة.

يُنهي أوامره بالقول:

- أمامك ساعات معدودة لتنفيذ المهمة. فشلك فيها يعني نهاية وظيفتك وحياتك العملية.

ﮋﮊ

يلمح "بيتيوتي" في موقف الفندق سيارة بالمواصفات نفسها التي ذكرها الكولونيل. لكنه لا يملك الوقت الكافي للتيقن منها. عليه أن يغادر بأقصى سرعة، لينفذ المهمة المكلف بها. أمامه ساعات قليلة فقط. ينطلق بسيارته باتجاه عنوان المكتب.

ﮋﮊ

في الفندق، يجتمع "إدواردو" بـ"ميريام" و"فرانك" داخل غرفتهما. يتحدثون لحوالي عشرين دقيقة. يخبرهما "إدواردو" بأنه سيتصل بصديقته التي تعمل في المنظمة إما هذه الليلة، وإما في الصباح الباكر على أقصى تقدير، ليعرف منها الخطوة التالية. سأل "ميريام" إن كانت تقبل الإدلاء بشهادتها؟

ﮋﮊ

يعلق "كارلوس" بأن بإمكان "ميريام" الآن أن تدلي بشهادتها، في المحاكمات التي تجري في مدريد. لقد رأت مقتل "ليليانا" بعينيها، ويمكنها أيضًا أن تخبرهم بما قصته عليها "ليليانا" عن وقائع التعذيب في المعتقل.

ﮋﮊ

يخبرهما "إدواردو" أن عليه المغادرة الآن، سيذهب إلى المزرعة ليطمئن على سير العمل بها، ثم يتجه إلى المنزل. سوف يتصل بـ"آلفونسو" ويتظاهر أنه اقتنعَ برأيه ولن يبحث عن أبوي "لوث". سيقول له إن ما ساهم في توصله لهذا

القرار، هو اختفاء "ميريام" من "إنتري ريوس". يشرح لهما أن ذلك سيجعل الكولونيل يوقف البحث عنها. يخبرهما أيضًا أنه سيتحدث مع زوجته في بعض الأمور المهمة.

يلاحظ نظرات القلق في أعينهما، بعد الجملة الأخيرة، فيقول:

- اطمئنا. لن أقول لها شيئًا مما عرفته منكما.

يصارحه "فرانك" أنه لم يعد بوسعهما فعل المزيد، ولذلك فإنهما سيغادران الليلة.

يقول "إدواردو" بأنه سيتلقى المعلومات اللازمة من صديقته العاملة في المنظمة، ثم سيأتي للقائهما ظهيرة الغد، ليتفقوا على ما سيفعلونه معًا. يريدهم أن يبقيا قليلًا، وهو لا يظنُّ بأنهما في خطر. يبدو أن "آنيمال" لا يعرف اسم "فرانك" أصلًا. يقول أيضًا إنه بحاجة للبقاء مع "لوث"، أطول وقت ممكن، فقد يضطر إلى وداعها قريبًا.

يوافق "فرانك" على البقاء، ويعلن ـ مع ذلك ـ أنه لا يفهم تمسك "إدواردو" باشتراك "ميريام" في تقديم البلاغ معه والإدلاء بشهادتها في القضية. تلتفت إليه "ميريام" بنظرات مستجدية:

- إن "إدواردو" بحاجة للمزيد من الوقت، كما أنه يرغب في الاستمتاع بصحبة "ليلي" قليلًا..

أدرك "فرانك" أن كلًّا منهما بحاجة للآخر، ليستمدَّ منه الشجاعة التي يتطلبها الموقف. يقول "إدواردو" محاولًا إقناعه:

- سأكون هنا في الثانية عشرة ظهرًا، وسنقرر عندها ما سنفعله بالضبط.

تجيبه "ميريام":

- حسنًا. سننتظرك حتى الواحدة والنصف فقط.

يمدُّ يدَه ليصافحها شاكرًا، لكنها تسحبه نحوها وتضمه كصديق عزيز. تفيض عيناه بالدموع، ويحتضنها بقوة أكبر.

يغادرهما ويذهب إلى المكتب. يتصل بـ"ماريانا" ليبلغها أنه سيعود البيت خلال ساعة، أو ساعة ونصف، وأنه يرغب في أن تتناول "لوث" العشاء معهما.

كان قد تحدث إلى "خافيير" صباحًا، وأخبره بأنه سيعرف كل شيء اليـوم، وأن "آلفونـسو" قـد أكد له أن "ميريام" فتاة ليل. سيتصل به مرة أخرى مـن المزرعـة. سـيذهب إلى هنـاك ليقابـل المدير لأمر مهم.

ꙮ

في طريقك إلى المزرعة، تحاول أن تُرتِّب في ذهنك ما سوف تقوله لـ"دولوريس" حين تتصل بها. ربما عليك ألا تسهب في التفاصيل، اذكر النقاط الأساسية فقط، ودَعْها تُوجِّهْـك لمـا ينبغـي عمله. قل لها إنك تحبها جدًّا، وأنك تحتاجها. حين اتصلت بك اليوم، لم تعبر لها عن مـشاعرك، واكتفيت بالقول أنك ذاهب للقاء أصدقائك، وأنـك سـتخبرها كـل شيء في الغـد. هـل فهمـت "دولوريس" أنك كنت تحاول التزام الحذر، كما أوصتك، أم هل اعتقـدت أنـك تعاملهـا بفتـور وعدم اهتمام؟

تذكر أن تسألها إن كانوا سيسمحون لك بمقابلة "لـوث" بـين الحـين والآخـر.. فكـرة فـراق الصغيرة تدمي قلبك وتؤلمك بشكل غير محتمل.

سيارة مدير المزرعة غير موجودة. عليك أن تعود لرؤيته غـدًا. يمكنـك اسـتخدام التليفـون على أي حال. تتصل بـ"دولوريس"، فترد أمها وتخبرك بأن ابنتها غير موجودة وستعود في ساعة متأخرة من الليل.

- هلا قلتِ لها إنني أحبها؟ أخبريها أيضًا أنني سأتصل صباحًا.

يتصل بـ"خافيير" أيضًا، فترد "لورا" بأنه لم يعد بعد. يبلغها بأنه سيزورهما بعد العشاء.

يقفل الباب عند خروجه، فيتلقى دفعة قوية من شخص لم يتبينه.

ꙮ

تقول "لوث" بعينين حزينتين وصوت يملؤه الغضب:

- أتبعها برصاصة في الرأس، ومحاولة سرقة المكان. لم تصدق "لورا" أبـدًا أن الأمـر مجـرد حادث سرقة، وكذلك "دولوريس".

- ماذا عنكِ؟ هل صدقتِ ذلك؟

- نعم، فهذا ما يرددونه أمامي منذ أن كنت طفلة صغيرة. صدقت ذلك، إلى أن بدأت مؤخرًا في إعادة ترتيب الأحداث. اكتشفت أن "لورا" محقة في شكوكها.

تضيف:

- لقد بذل "خافيير" مجهودًا خارقًا في محاولة كشف جوانب الحادث بالتعاون مع الشرطة، لكنه لم يتوصل إلى شيء. هو أيضًا يرتاب في قصة السرقة، فالوقت لم يكن موسم حصاد.. بمعنى أنه لم يكن هناك أي مال في المزرعة، كما أن "إدواردو" بطبيعة شخصيته، ما كان سيقاوم اللص، وكان سيمنحه ساعته ومحفظته على الفور. توصل "خافيير" في نهاية الأمر إلى قناعة مفادها أن شقيقه قد انتحر، بعد اليأس والمشكلات التي كان يعانيها في الفترة الأخيرة من حياته، وأن حكاية الاقتحام والسرقة كانت من تأليف عائلة "دوفاو" وابنتهما للتغطية على فضيحة الانتحار.

تواصل "لوث" حديثها:

- لكن "لورا" ظلت مقتنعة، طوال هذه الأعوام، أنها جريمة قتل واضحة، لا تحتمل اللبس أو التأويل.

𝔐𝔒

تشعر "آميليا" ببعض الحزن، عقب حديثها مع ابنتها. تقول لزوجها:

- إنها منزعجة لأن زوجها لم يعد إلى البيت بعد. لم يكن من السهل طمأنتها..هل تظن أنها ستعاني كثيرًا لفراقه؟

"آلفونسو"، الذي شعر بالارتياح أخيرًا، بعد اتصال "آنيمال" الذي صرح له بأنه "تم تنفيذ المهمة بنجاح"، يقول لها إنهما سيبذلان كل ما بوسعهما لمواساتها، وتعويضها عن غيابه.. يردف:

- فكري فقط في كمّ المعاناة التي كانت ستعيشها، لو استمر ذلك المختل على قيد الحياة! كان ينوي أن يهجرها، وأن يحرمها من طفلتها. كان سيتسبب في فضيحة اجتماعية قوية. وجوده شكّل خطرًا كبيرًا علينا جميعًا يا "آميليا".

- معك حق.. على كل حال "ماريانا" ما زالت شابة صغيرة وجميلة، كما أنها لطيفة للغاية. يمكنها مواصلة حياتها بنجاح.

في تلك اللحظة، تفكر "آميليا" أن "إينيس فينتشورا" يجب أن تكون أول من يعرف بالخبر. تبتسم بسعادة لهذه الفكرة.

ﮋ

- لطالما حلمت "آميليا" بتوثيق علاقتها بعائلة "فينتشورا"، بأي وسيلة؛ حتى أنها حين أنجبت ابنتيها التوأم منذ سنوات، حرصت على أن تكون "إينيس" و"دانييل" ـ الذي كان لا يزال فتى يافعًا حينها ـ هما العرّابين. في الفترة نفسها التي قامت فيها، هي و"آلفونسو"، بقتل "إدواردو"، كان "دانييل" ينهي إجراءات انفصاله عن زوجته.

ﮋ

في الثانية عشرة والنصف، كانت حقائبهما جاهزة. أصرت "ميريام" على الانتظار لبعض الوقت، فقد يأتي "إدواردو" في أي لحظة. إنها متأكدة أنه لن يغير رأيه، وسينفذ ما اتفق عليه معهما البارحة. لن يستسلم لضغوط وتهديدات والديّ زوجته.

ﮋ

- أحسَّ "فرانك" بتوتر بالغ، فتوجه إلى بار الفندق ليشرب شيئًا. هناك، سمع بحادث إطلاق النار، الذي نتج عنه وفاة "إدواردو". طلب "فرانك" فاتورة حساب الإقامة، على الفور.

ﮋ

احتضن "ميريام" بين ذراعيه، وقال لها:

- لقد قتلوا "إدواردو". أطلقوا عليه النار البارحة.

ﮋ

- لم يصدق أي منهما حكاية السرقة. غادرا الفندق بسرعة، وسافرا معًا إلى الولايات المتحدة عقب ذلك بيومين. ما زالا يعيشان هناك. كانت "ميريام" خائفة، ولم يكن بمقدورها فعل المزيد. لقد تأثرتُ بالطريقة التي تحدثت فيها عن بابا. بكت بحرارة، وكأنها تتكلم عن صديق قديم.

يمسك "كارلوس" بيدها مواسيًا. لقد اقتنع أخيراً بأن "إدواردو" يستحق لقب "بابا" الذي تستخدمه "لوث" للإشارة إليه.

꧁꧂

تتناقش "دولوريس" وأمها في قضية البحث عن صبي ولد في أواخر شهر يوليو 1976، في مستشفى "كامبو دي مايو" العسكري، والذي يمكن أن يكون ابن "بابلو".

تشعر "دولوريس" برغبة ملحة في الاتصال بـ"إدواردو" لتخبره عن البلاغ التليفوني الذي تلقته المنظمة من مجهول، يخبرهم فيه عن لقائه بـ"ميرتا باليريني"، في مستشفى "كامبو دي مايو" العسكري، في العنبر المخصص للسجينات. إنه متأكد أنها أنجبت صبيًّا، أسمته "بابلو"، وأن المولود كان بصحة جيدة. طلبت منه "ميرتا" حينها إبلاغ عائلتها. أخبرهم بأنه كان ينوي ذلك، لكنه لم يستطع. أقفل الخط بعدها، دون أن يضيف شيئًا أكثر.

ليس من الصعب تخيل مصير "ميرتا"، بعد الولادة. لقد قضوا عليها بكل تأكيد. إنهم بحاجة لمعرفة مصير المولود. لن يهدأ لهم بال حتى يعثروا على الولد. تتخيله "دولوريس".. لون عينيه، خصلات شعره المجعدة، النمش المتناثر على وجهه، ابتسامته اللطيفة. سوف نعثر عليه. ستتصل بـ"إدواردو" لتزف إليه الخبر. لا يمكنها الانتظار أكثر من ذلك.

يأتيها صوت السكرتيرة مضطربًا ومترددًا:

- أأنت صديقة له؟

تخشى "دولوريس" أن تكون المرأة تحاول استدراجها لمعرفة اسمها، فتقول دون أن تفصح عن شخصيتها:

- نعم، أنا صديقة له. إنها مكالمة شخصية.

- يؤسفني إبلاغك أن السيد "إدواردو إيتورب" قد تُوفيَ ليلة أمس.

تنخرط السكرتيرة في البكاء، وهي تقصُّ عليها تفاصيل حادث السرقة وإطلاق الرصاص.. تجد "دولوريس" صعوبة بالغة في استيعاب ما تقوله المرأة. تواصل السكرتيرة حديثها:

- سوف تقام الجنازة في...

تضع "دولوريس" السماعة، دون أن تهتم بسماع المزيد. تقف في مكانها، وهي في حالة ذهول، إلى أن تمر أمها، عندها فقط تتشبث بها وتصيح بانهيار:

- لقد قتلوه! لقد قتلوا "إدواردو"!

ꕥ

- تحكي "دولوريس" لوالدتها كل ما تعرفه عن المسألة. كانت أمها، "سوزانا كولادو"، هي التي قدمت بلاغًا للمنظمة في عام 1983، ذكرت فيه أن ابنة الجنرال "دوفاو"، والتي هي أرملة "إدواردو إيتورب"، قد قامت بتربية طفلة أخذتها من إحدى نزيلات المعتقل.

تضيف "لوث":

- تم حفظ البلاغ، إذ لم تستطع سيدات المنظمة إحراز أي تقدم في التحقيق في المسألة، لأن أحدًا من عائلتي الأصلية لم يتقدم بطلب بذلك؛ لكنهن سمحن لي فيما بعد بإضافة عينة من دمي إلى العينات التي يحققن في قضايا أصحابها، رغم رفضهن لذلك في البداية. ساعدتني "سوزانا"، والدة "دولوريس"، في ذلك.



1995 - 1998

13



أرشُّ وجهي بالماء البارد وأغسل رأسي به، عله يُهدِّئ من غيظي وعصبيتي، بعد شجاري مع ماما. تتملكني رغبة قوية في تحطيم أي شيء. أستلقي على سريري وأتنفس بعمق.

أُذكِّر نفسي دائمًا بأن عليّ ألا أستمع لها، وألا أسمح لها باستفزازي، والأهم طبعًا.. ألا أرد عليها. ردودي تعقد أي مشكلة، لكنني لا أستطيع منع نفسي أحيانًا.

أجهل كيف تبدأ شجاراتنا. تندلع لأسباب صغيرة وتافهة في أغلب الأحيان. سببها اليوم هو السيارة. تقول إحدانا كلمة.. ترد الأخرى.. تتضايق الأولى.. تنزعج الثانية.. وهكذا ينتهي بنا الأمر بأن تردد هي أمورًا لا علاقة لها بالسبب الأصلي، وأظل أنا أقدم تبريرات ودفاعات متوالية. في كثير من الأحيان، أشعر باختناق من أسلوبها، فأبادر بدخول غرفتي وأنا في أشد حالات الضيق والغضب. في أحيان أخرى، أغادر المنزل، حتى لا أستسلم لرغبتي الملحة في إيذائها. لكنني، بشكل عام، لا أقدر على مجاراتها في سباق الاستفزاز المتعمد. هي الفائزة دائمًا؛ وإن كنتُ قد نجحت في إيلامها مؤخرًا، عندما قلت لها كلامًا جارحًا، بالغ القسوة. أحسست بالذنب والندم لاحقًا، واعتذرت منها. لكن يبدو أنها لم تنسَ الإساءة، على الإطلاق.

أرغبُ في ترك البيت، والاستقلال بحياتي. لم يعد بمقدوري تحمُّل هذه الحياة. لكنني لا أستطيع المغادرة.. ليس لدي أي مال، وهم يرفضون إعطائي شيئًا. لا أدري لماذا تُصرُّ على بقائي، رغم أنها لا تطيق وجودي معها؟ حين ألح عليها في السؤال، ترد دائمًا بالإجابة نفسها:

- سيبدو مظهرنا سيئًا.

من يهتم بنا وبـ"مظهرنا" ؟!

تهددني:

- سأبلغ الشرطة عنكِ. ما زلتِ قاصرًا، ما دمتِ لم تبلغي الواحدة والعشرين. حتى ذلك الوقت، عليك طاعتي وتنفيذ كل ما أطلبه منك.

"دانييل" يرمقني بسخرية، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامته اللزجة. إنه يعشق شجاراتنا ويستمتع بمتابعة ماما وهي تصفني بأبشع الألفاظ. هو أيضًا يكرهني. ساءت علاقتنا أكثر حين انتقدت أعماله أمام أمي. ليس هذا هو السبب الوحيد، بالطبع، لأنه ـ في الأساس ـ لم يحبني قط.

يتدخل أخيرًا، ويسألني:

- ما الأمر يا "لوث"؟ أأنت غاضبة ومزاجكِ سيئ، أم أنكِ حزينة؟

تجيبه أمي بضجر:

- هكذا هي منذ كانت طفلة صغيرة. الأمر وراثي كما يبدو. لا أفهم هذا المظهر المأساوي الذي تتمسك به.. تبدو ككلب مذعور، طوال الوقت!

ماما محقة إلى حدٍّ ما. تهاجمني نوبات من الاكتئاب، والقلق المرضي، بين الحين والآخر. أشعر عندها بأنني عاجزة عن التصرف، وينتابني إحساس بعدم الانتماء لأي شيء أو لأي مكان. الأمر لا يرتبط بشجاراتي المتواصلة مع أمي، ولا بنظرات "دانييل" المستفزة؛ بدأ هذا قبل زواجهما، ودون سبب محدد. أنا خائفة دائمًا، وأشعر بأنني تحت وطأة أحمال ثقيلة. يراودني شعور بأن شيئًا أو شخصًا قد يهاجمني في أي لحظة.

حين كنتُ أصغر سنًّا، ظننتُ أن السبب هو افتقادي لبابا و "إنتري ريوس" بعد انتقالنا إلى "بوينس آيرس"؛ أو أنه انزعاجي من زواج ماما السريع بـ"دانييل" وانتقالنا إلى بيته.

ꕤ

- بعد سبعة أشهر من وفاة بابا، انتقلنا إلى شقة "دانييل" في "بوينس آيرس". كان موجـودًا في جنازة "إدواردو"، ثم جاء ليزورنا في "إنتري ريوس" عدّة مرات. أنا متأكـدة أن "آميليـا" اجتمعـت بوالدته "إينيس فينتشورا"، وقامتا معًـا بالترتيـب لكـل شيء. عائلـة "فينتـشورا" أصـدقاء قـدامى لـ"آميليا" و"آلفونسو"، وكانوا هم من قاموا بدعوتنا لقضاء الصيف معهم في "بونتا ديل إيـستي"، حين التقيت "ميريـام" للمـرة الأولى. إنهـم أغنيـاء جـدًّا. حـين تـوفي "إدواردو"، سـارعت "آميليـا" بتوثيق علاقتها بهم. "دانييل" يكبر "ماريانـا" بكثـير.. بنحـو سـبعة عـشر عامًـا. عقـدا قـرانهما في الكنيسة، رغم أنه مطلِق ولديه طفلان. ادّعت "آميليا" أن زواجه الأول لم يكن رسـميًّا، وأنـه كـان يعيش مع أم أولاده فقط. ما زلت أتذكر حفل الزفاف. كان الكل سعداء، وأنا وحدي التـي كنـتُ حزينة. بكيت طويلًا. لم تسامحني ماما قط على بكائي ذلك اليوم.

ꕤ

ثم بدأتُ أعتـادُ الحيـاة في "بـوينس آيـرس"، ومدرسـتي الجديـدة وأصـدقائي ودراجتـي والنهر. انتقلنا بعـدها إلى الـضواحي.. إلى "مـارتينيز" تحديـدًا. خُيِّـلَ إليّ وقتهـا أن إحـساسي بالتيه وعدم الانتماء سيفارقني، فالمنزل الجديد ملكنا، وليس ملكًا لـ"دانييل". لكن شـيئًا مـا بداخلي ظل شاغرًا، ولم أستطع قط تحديد ما يكون. اسـتمر الخـوف يلازمنـي، وإن لم أعـرف سببه قط. ربما كان الأمر "وراثيًّا" كما تردد أمي بامتعاض.

سألتها كثيراً عن موضوع الوراثة الذي تذكره كثيراً، وتربط جميع تصرفاتي به..

- هل كانت شخصية بابا مثلي؟ هل كان يصاب بنوبات من القلق والتوتر؟ هـل هـذا مـا ورثته منه ومن عائلته؟

كل ما أتذكره هو وجهه الباسم، وحكاياته المـسلية، وركوبنـا الخيـل معًـا. أتـذكره مرحًـا، لكنه مات وأنا في السابعة، ربما نسيت طباعه الأخرى.

ماما لم تجب على هذا التساؤل قط. حين ألح عليها وأكرر سؤالي، تجيب بسأم:

- لا تقولي على لساني شيئًا لم أتفوّه به يا "لوث".

في أحد الأيام، خطر ببالي أن بسبب معاناة بابا من هـذه النوبـات التـي لا أعـرف كيـف أسميها.. اكتئابًا أو مرضًا أو حزنًا.. فإنه قد أقدم على الانتحـار. ربمـا هـذا هـو الـسبب الـذي يجعل ماما تمتنع عن الردّ على استفساراتي بشأن هذا الموضوع.

نهار أحد الأيام التي كنت أشعر فيها بالحزن، وبدأت ماما تقـول إن الأمـر وراثي، سـألتها عن انتحار بابا.

- لكنه لم ينتحر. لقد قُتِلَ برصاصة، عندما اقتحم اللصوص مزرعته.

أضافت بانزعاج بالغ:

- من أين تأتين بهذه الأفكار العجيبة؟

ﮋﮌ

- لم يضايقني كلامها، بـل نظراتهـا. مـا زلـتُ أتـذكرها جيـدًا. كانـت مزيجًـا مـن الدهـشة والـرفض والحـيرة، كأنهـا كانـت تتـساءل في نفـسها: كيـف اسـتحالت ابنتهـا إلى هـذا الكـائن العجيب؟ شيء ما فيّ، كان يخيفها.. كنتُ ألمح هذه النظرة أيضًا عندما تراني أرقص...

سكتت "لوث" طويلًا، وهي تشعر بالخجل من مصارحة "كارلوس" بما اعتـادت أن تـراه في عيني والدتها. تقول بعدها:

- كنت أرى الأمور بسوداوية، في الحقيقة..

- نعم، كأنما هناك عصابة تغطي عينيك..أفهم ذلك، كلنا مررنا بهذه المرحلة، لكن الإنسان يتخلص منها في نهاية المطاف..

- احتجتُ عشرين عامًا لأتخلص منها!

ﮋﮌ

تقول صديقتي المُقرَّبة "جابي"، إن إحساسي الـدائم بـالخوف، لـه مـا يـبرره.. وهـو وجـود "دانييل" في حياتي. حين أخبرتْ "جابي" أمها بأنها لا تطيقه، وأنها تنزعج من نظراته المقززة لها، وأنها تخاف الحراس الشخصيين الذي يحيط نفسه بهم، قالت لها والدتها أمورًا لم أكن أعرفهـا. نقلتها لي صديقتي:

- إنه غارق حتى أذنيه في صفقات مريبة مع المافيا، ولذلك يتناوب الحرس على حمايته طوال الوقت. إنه لا يستعين بهم لأنه واسع الثراء، انظري إلى "ماريتا".. والدها غني جدًّا، أكثر مما تتصورين، ولكن ليس لديه حارس شخصي واحد. وأعرف أنه ينبغي عليّ عدم التحدث في أمر زواجه الأول، لكن الحقيقة أنه كان يسيء معاملة زوجته. "فال" هي التي أخبرتني. إنها قريبتها كما تعرفين. زوجته هي التي تركته، وأخذت الولدين معها. إنه خطير وكريه يا "لوث"، ومن الطبيعي أن تشعري بالتوتر بسببه. لا تستمعي إلى أمك وكلامها الغريب عن الوراثة والجينات.

ꙮ

- لم أحب "دانييل" يومًا. كلما كبرت، كلما ازدت نفورًا منه ومقتًا له. لديه أسلوب حقير في إفقادي الثقة بنفسي، وجعلي أكثر توترًا. كثيراً ما فكرت في الهروب والرحيل عن البيت بسببه. تنامى شعوري الدائم بالاغتراب، عقب ولادتي لابني. يصعب شرح هذه النقطة، لكن هذا ما حدث. ربما كان هذا دافعي للبحث عن جذور المسألة، وربما هو ما أوصلني إليك هنا في مدريد.

تنظر إلى "كارلوس" بوجه مبتسم.

ꙮ

"جابي" لا تحب ماما أيضًا. صحيح أنها لا تذكر ذلك صراحة، لكن الأمر واضح ولا يحتاج لشرح. حين قلت لها إنني واجهت ماما بمعرفتي بطبيعة عمل زوجها، قاطعتني "جابي":

- لقد أنكرت الأمر برمته، أليس كذلك؟ أنا متيقنة مما أخبرتك به. والداي يعرفان الموضوع، وجميع الناس كذلك في الحقيقة. بدأ فساده وصفقاته المريبة تحت حماية مباشرة من الجيش، وهو يفعل ذلك الآن أيضًا تحت جناح الحكومة الجديدة.

واقع الأمر أن ماما لم تنكر، لكنها اكتفت بالقول إن الأمر غير مهم بتاتًا. حين طلبت منها بغضب أن تخبرني بطبيعة عمل "دانييل" بالضبط، قالت إنها لا تتدخل في أعمال زوجها، ثم علقت بأنها لا تفهم جرأتي في التحقق منها عن

الأمر، رغم أنهما يوفران لي كل وسائل الراحة والدلال. قالت إنه عليّ أن أكون أكثر امتنانًا لـ"دانييل"، لكل ما يقدمه لي.

ꕥ

- تشتكي "ماريانا" طوال الوقت من أنني لا أظهر شكري وتقديري لـ"دانييل"، مقابل الأشياء الكثيرة التي يوفرها لي، رغم أنه ليس والدي الحقيقي. أظن أنها لم تكن تقصد بكلامها زوجها فقط، بل تشير إلى نفسها أيضًا.. أعني أنها ليست أمي في الواقع، لكنها تعطيني الكثير.

ꕥ

قالت "جابي" بنبرات ساخطة:

- تم تقديمه للمحاكمة مرة، لكنه تمكن من إغلاق ملف القضية للأبد، عبر الرشاوى السخية التي وزعها على القضاة. أنا غير مقتنعة أن والدتك لا تعرف شيئًا عن نشاطه الإجرامي.. إنها زوجته! أظن أنها تفضل التظاهر بالجهل. هذا كل ما في الأمر.

لا جدوى من مناقشة الموضوع مع ماما، ولذلك لم أكرر ذلك مرة أخرى. لن تخبرني شيئًا، على كل حال، وستتهمني بالفضول. لم أخبرها شيئًا عن حارسه الشخصي الذي يتلصص عليّ بنظراته المقززة. وجوده يخيفني. أتجنب الخروج إلى الحديقة حين تكون مناوبته.

لم أكن أعرف أنه موجود، حين استلقيتُ في الحديقة في أحد الأيام، لأتشمس. فوجئت بأصابع تتحسسني. قفزت من مكاني وأنا في أشد حالات الغضب.. كان غضبي يفوق خوفي بمراحل، قلت له:

- إن تجرأت وكررت هذه الحركة مرة أخرى، فسوف تندم أشد الندم.

لم يقترب مني ثانيةً.

لم أخبر "دانييل" عن سلوك حارسه. ما الذي كان سيقوله أو يفعله؟ هو نفسه ينظر إليّ بطريقة مريبة، تثير الاشمئزاز في نفسي. ضبطته مرتين وهو يتلصص بنظراته عبر باب غرفة نومي، حين كنت لا أزال صغيرة، واعتدت من

حينها إقفال الباب بالمفتاح حين أغيّر ثيابي. لو أخبرت أمي بما فعله الحارس، أو بنظرات زوجها، لألقت اللوم عليّ وعلى تصرفاتي، أو لا تهمتني بالكذب، أو أنني أعاني خللًا متوارثًا في عقلي، وجسدي أيضًا. إنها تردد عبارة الـ"خلل العقلي والجسدي" منذ أن رأتني أتبادل القبل مع صديقي "جييرمو"، على شاطئ النهر... أو ربما من قبل ذلك بكثير.. حين كانت تراني أرقص.

ﮩ

حين أدرك "كارلوس" أنها تواجه صعوبة في الإفصاح له عن حكاية رقصها التي تثير انزعاج "ماريانا" البالغ، قرر أن يستفسر منها عن الأمر، وبخاصة أنه لاحظ تألُّمها كلما استعادت هذه الذكريات تحديدًا.

- لماذا تنزعج من رقصك؟

- لا أدري. إنها لا تطيق منظري عندما أرقص. أحببت الرقص منذ صغري، إنه يمنحني شعورًا بالسعادة والارتياح. لم تكن تقول شيئًا في البداية. كانت تكتفي بإيقاف الموسيقى، والنظر إليَّ بامتعاض بالغ؛ ثم رأتني ذات مرة وكنت في حوالي الثالثة عشرة، وأنا أرقص في الشرفة الأرضية على موسيقى مرتفعة الصوت. كنت أشعر باستمتاع بالغ. صُدمتُ حين رأيت التعبيرات المرتسمة على وجهها. كانت شديدة البشاعة. أخذت تصرخ بأعلى صوتها: "لماذا ترقصين بهذه الطريقة؟ أين تعلمتِ هذه الحركات؟ عليك أن تخجلي من نفسك. تبدين مثل...".

سكتت "لوث" بُرهةً، وقد شعرت بالحرج من تكرار لفظ "ماريانا" أمام "كارلوس"، كما أزعجتها استعادة هذه الذكرى تحديدًا. واصلت حديثها بعد قليل:

- تحاشيتُ بكل الوسائل أن تضبطني وأنا أرقص، مرة أخرى. صرت أفعل ذلك وراء باب حجرتي المقفل، أو حين يخرجان للسهر.

تبتسم وتقول له:

- استمتعت ببعض الأوقات السعيدة، في الحقيقة. لم تكن كل أيامي بائسة كما قد يخيل إليك. صحيح أنني عانيتُ لسان ماما وشجاراتها الدائمة معي، ومن سخافة "دانييل" وشخصيته البغيضة، لكنني أمضيت أوقاتًا ممتعة وأنا أرقص وأقرأ وأستمتع بالشمس وركوب الدراجة والخروج مع أصدقائي.

ﻙﻭﻛ

في اللحظة التي لمحتني فيها أمي مع "جييرمو" على ضفة النهر، سارعت بالخروج من سيارتها. لم أرَها. فوجئت بيدها وهي تقبض على ذراعي بقوة. صاحت:

- ماذا تفعلين؟

أخبرتُها أنها مجرد قبلة. جرتني من ذراعي إلى السيارة، وهي تقول لـ"جييرمو" بأنه ممنوع من دخول بيتنا إلى الأبد. رحتُ أصرخ فيها طوال الطريق إلى المنزل:

- لماذا فعلتِ ذلك؟ أنتِ مجنونة.. إنه حبيبي، ما المشكلة في ذلك؟

بادلتني الصراخ. صاحت بأن المشكلة هي الناس، ماذا سيقولون حين يشاهدوننا نتبادل القبل؟ إنها لا تستغرب تصرفاتي التي تدل على أنني منحلة وعاهرة، فهذه أمور وراثية؛ لكنها تعرف كيف ستؤدبني.

في تلك الفترة، لم تتجاوز علاقتي بـ"جييرمو" تلك القبلات.. لكن إصرار ماما على اتهامي بأنني أنام معه، جعلني أمارس ذلك فعلًا. قالت بأن تصرفاتي المبتذلة في الأماكن العامة، والتي تدل على عدم الحياء، دليل على أنني أمارس الجنس معه ومع عدد آخر من الرجال. قلت لنفسي.. ما دمتُ موضع اتهام، في كل الأحوال، فلمَ لا أفعل ما يحلو لي؟

منعتني يومها من لقائه مرة أخرى، واتهمتني ـ كعادتها ـ بأنني أنا المذنبة، لأن المرأة دائمًا هي السبب في أي تجاوز أخلاقي، من وجهة نظرها:

- لا يمكن لأي رجل أن يتمادى في تصرفاته، إذا كانت المرأة محترمة.

انتهى خلافنا، كما في كل مرة، بضربها لي على وجهي.

استمرت علاقتي بـ"جييرمو" فترة طويلة، في السر. كنت أفوّت دروسي ومحاضراتي، وأذهب للقائه. في بعض الأحيان، أخرج مع فتى يعجب أمي، وأطلب منه توصيلي للبيت في وقت مبكر، وفور أن يغادر، أركب سيارة "جييرمو" الذي ينتظرني في شارع جانبي قريب من المنزل. في إحدى الليالي،

شاهدتني أمي وزوجها وأنا أنزل من سيارته. نشب شجار عنيف جدًّا، طلب "دانييل" خلاله من "جييرمو" أن يبتعد عني نهائيًّا.

تركنا بعضنا البعض بعدها، ولكن لم يكن اعتراض أمي وخلافاتها السبب، رغم أنه برر لي الأمر وقتها بأنه غير قادر على تحمل جنون "ماريانا" و"دانييل".. ثم اكتشفت الحقيقة، وهي أنه معجب بفتاة أخرى، وأدركت بعدها بفترة أنني لا أحبه أصلًا. أصبحنا صديقين، ونلتقي أحيانًا لتبادل الأخبار.

حلَّل "جييرمو" مسألة بقائي وحيدة فترة طويلة، دون أن أرتبط عاطفيًّا بأحد، وقال إن السبب هو تدخلات أمي المستمرة. لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، كل ما في الأمر هو أنني لم أجد الشخص المناسب الذي يثير إعجابي بعد؛ وإن كانت ماما تلاحقني فعلًا بأسئلتها وترغب دائمًا في معرفة إن كنت أمارس الجنس مع أحد، أم لا. تصفني بالعاهرة، بين الحين والآخر. تفعل ذلك أحيانًا لمجرد أنني ألبس ثيابًا تراها هي مبتذلة وسوقية. أمرتني بألا أرتدي التنورة الخضراء الـ"ميني جيب" إلى الجامعة، لأنني أبدو كما لو كنت أحاول إغواء أساتذتي، وكأنني أريد منهم منحي درجات عالية، دون أن أبذل أي مجهود.

اتصل بي أحد المعيدين، ويدعى "جوزيه"، في البيت مرة.. لينبهني لأمر يتعلق بدرجاتي. جُنّت ماما، وصاحت وتشاجرت معي.. الواقع أنه لم يكن بيني وبينه أي شيء.. أستاذ محترم وشخص رائع، وأظنُّ أنه متزوج.

❧

- كنتُ في كلية الهندسة. ما زلت أدرس لنيل درجة البكالوريوس.

❧

بعدها بفترة بسيطة، كنتُ أستعد صباحًا لأذهب إلى الجامعة. في ذلك اليوم، كنت أشعر بتوتر كبير ناتج عن امتحاناتي وقلة نومي. دخلت ماما غرفتي، فوجدتني أرتدي ثيابي أمام المرآة. سألتني بريبة:

- لماذا تنظرين إلى نفسك في المرآة بهذه الطريقة؟ تصرفاتكِ الغريبة لا تصدر إلا عن عاهرة رخيصة. إلى أين أنتِ ذاهبة؟ للقاء ذلك المعيد الذي اتصل بكِ؟

وبسبب إرهاقي وأعصابي المشدودة، لم أدَعْ المسألة تمرُّ دون نقاش. قلت بتحدٍّ وغيظ:

- حقًّا؟! وتظنين طبعًا أن تصرفاتي ناجمة عن جيناتي الوراثية، أليس كذلك؟ هل تعرفين معنى ذلك؟ أنني ورثت هذه الخصال عنكِ يا ماما. هل كنتِ عاهرة مثلي؟

أخرستها الصدمة، ووقفت مشدوهة لحظات. واصلتُ هجومي:

- لا شكِ أنكِ تخافين أن أصبح عاهرة مثلك إذًا.. بعتِ نفسك لرجلٍ يكبركِ بكثير، لمجرد أنه غني.

اقتربت مني، والشرر يتطاير من عينيها، تحمل في يدها شماعة ملابس وجدتها فوق السرير؛ لكنني لم أستطع التوقف:

- لا فرق بينكِ وبين أي فتاة ليل ماما.. الفرق الوحيد، إن وُجِد، هو أنك أكثر زيفًا وادّعاء منها.

خرجت بسرعة، وأغلقت الباب ورائي، قبل أن تصيبني الشماعة التي كانت تهم بقذفي بها.

أحسست بتأنيب ضمير بعدها، فاعتذرت لها. قلت لها إنني أعرف مدى حبها لـ"دانييل"، ولكنها جرحت شعوري، ففعلتُ المثل بهذا الكلام القاسي. رغم أنني تأسفت لها، فقد ظلَّت غاضبة مني، وتؤنبني لأتفه سبب. حين كنا نتناول الطعام اليوم، استأذنتها في أن أستخدم سيارتها لأذهب إلى حفل في المدينة. ثارت وهاجت، ثم أمطرتني بالأسئلة:

- أي حفل؟ أين؟ في منزل مَن؟

عندما أخبرتها بأن "فيرونيكا" هي صاحبة الحفل، لم تعترض في البداية، لأنها و"دانييل" يرتبطان بعلاقة صداقة مع والديها، لكنها سرعان ما وجدت سببًا للرفض:

- وما يُدريني أنكِ ستبقين في الحفل؟ ربما ذهبتِ دقائق معدودة، تخرجين بعدها للتسكع واستعراض نفسك في الطرقات إلى منتصف الليل!

راقبنا "دانييل" مبتسمًا، وقد أسعدته إهانة أمي لي.

تأتي إلى غرفتي لاحقًا، وتضع مفتاح سيارتها إلى جواري. أقول لها:

- لا بأس. لن أذهب للحفل. ليس لي مزاج.

تحاول أن تكون لطيفة بعض الشيء، فتصِرُّ على ضرورة ذهابي، لأنني أستحقُّ بعض المرح، وينبغي عليّ مقابلة أشخاص جدد، بدلًا من الناس الذين أختلط بهم دائمًا.

تظنُّ ماما أن أصدقائي في الجامعة أشخاص خطرين. كانت تفضل أن ألتحق بجامعة "بيلجرانو" الخاصة، ولكن تم قبولي في جامعة "بوينس آيرس". تخشى عليّ من تأثير زملائي الشيوعيين، لكن "دانييل" شرح لها الوضع:

- لقد تغيرت الأمور يا "ماريانا". لا أحد يهتمُّ بالشيوعية هذه الأيام.

ومع ذلك، لم يفارقها القلق كُليًّا، وما زالت تعتقد أن اختلاطي بزملائي مجازفة غير مأمونة العواقب.

تقول بإصرار:

- "لوث".. عليكِ أن تحضري هذا الحفل وتتعرفي إلى أصدقاء جدد.

لا أدري إن كنت أرغب في ذلك أم لا.. إلحاحها يزعجني ويجعلني أرغب في مضايقتها بعدم الذهاب، وفي الوقت نفسه فإن بقائي معها في البيت سيزيد من توتري.. لا أريد فعل أي شيء على الإطلاق.. لِمَ لا تدعني وشأني؟

يحسم اتصال من "جابي" المسألة. إنها ترغب في الذهاب، وتقنعني بالمرور عليها وأخذها معي، تقول:

- إذا لم تعجبنا الحفلة، يمكننا الخروج والذهاب إلى أي مكان آخر.

أفكر: "ونتسكع، ونستعرض أنفسنا إلى منتصف الليل!".

تعجبني الفكرة، وأعلن موافقتي..

- حسنًا.. انتظريني في التاسعة، سنأكل شيئًا في الطريق، ثم نتوجه لمنزل "فيرونيكا".

࿇

يُبدي "راميرو" اعتراضه على فكرة الذهاب للحفل. إنـه مـستمتع بجلوسـه هنـا، وبـالحوار الدائر.. لماذا يترك هذا ليحضر حفلًا لا يعرف فيه أحدًا. يجيبه "رافاييل":

- لأنني أنا مضطرٌّ لحضوره. ستغضب مني "فيرونيكا" إن اعتذرت عـن عـدم حـضور عيـد ميلادها. هيا! تعالَ معي. لقد أكدت لها أنك ستأتي معي.

يستسلم "راميرو" لإلحاح صديقه، ويوافق في نهاية الأمر. يدفعان الحـساب، ويغـادران. في الطريق إلى الحفل، يطلب "رافاييل" من صديقه ألا يتركه، وألا يغادر من دونه، حتـى لـو قـرر الرحيل مع فتاة من الحاضرات..

- ومن تظنني؟ مربيتك؟!

- ليس الأمر كذلك.. لا أريد أن أبقى وحدي مع "فيرونيكا"، حتى لا أتعرض لموقف محرج. ما زالت تحبني، كما تعلم، رغم انفصالنا.

- لا تقلق.. لا أنوي الإيقاع بإحدى الفتيات في الحفل لممارسة الجنس معها.. سـنرحل معًـا وقتما تريد أنت.

اتفقا على أن يظل "راميرو" على مقربة منه، لينقذه من براثن "فيرونيكا" إن تعقد الوضـع وصار محرجًا، وأن يستأذنا في الانصراف بالقول إنهما مدعوان إلى حفلة أخرى؛ لكن الخطـة لم تسر حسب الاتفاق، إذ لم يلاحظ "راميرو" أيًّا من حركات "رافاييـل" المـستنجدة بـه، وإشـاراته المتوالية. كان منغمسًا بكل حواسه في الرقص مع "لوث".

ꕤ

تقول "لوث" لـ"كارلوس" وقد أشرق وجهها فجأة:

- تعرفت إلى "راميرو" في إحدى الحفلات. أحببنا بعضنا البعض ونحن نرقص معًا.

ꕤ

يخلص "رافاييل" نفسه من حبيبته السابقة، ويتجه إلى "راميرو"، ويهمس في أذنه بغيظ:

- أنت أيها الأبله! كان من المفروض أن تأتي لتقول إننا مضطران للانصراف. ماذا تنتظر؟ تعالَ الآن لتقول ذلك.

لكن "راميرو" غير منتبهٍ لوجود صديقه. إنه يلاحق "لوث" بعينيه، في انتظار أن تنتهي من الدوران حول نفسها، ليضع ذراعه حول خصرها، ويستكملا رقصتهما.

لم يتوقفا عن الرقص، منذ أن التقت أعينهما.. بدآ بالـ"سالسا"، وأعقباها بالرقص على كل الأنغام اللاتينية، ثم موسيقى الـ"روك"، والـ"ريجي". رقصًا طويلًا، إلى أن شعر "رافاييل" بضجر غير محتمل، فاقترب منه ثانيةً ليسأله:

- هل سنبقى هنا للأبد؟

أجابه "راميرو" دون أن ينزع عينيه عنها:

- اذهب أنت لو شئت، أو ابقَ.. كما تشاء. لن أستطيع التوقف عن الرقص إلى أن تتوقف هي.

حدث ذلك بعد مدة طويلة، حين بدأت موسيقى الـ"تكنو". علق "راميرو" بأنها تشبه رنات التليفون. أومأت "لوث" موافقة، رغم أنها كانت على استعداد للرقص معه على نغماتها، إن هو أبدى استعدادًا لذلك.

أعلنت بأنها تريد زجاجة كولا، فقال إنه سيشرب كأسًا من الجين والتونيك. عندها فقط، تذكر صديقه، فاستأذن منها لحظات..

- سأعود على الفور، ولكن عليّ أن أجد "رافاييل" أولًا..

لم يعثر عليه في البداية. بحث عنه في غرفة المعيشة، والبلكونة، ومدخل البيت، ولم يجد له أثرًا. تمنى أن يكون قد غادر، وتخيل نفسه وهو يقبل "لوث" ويتعرف إليها بشكل أفضل.. لكنه لمح صديقه في تلك اللحظة، وهو يترنح بشكل واضح. لقد شرب أكثر مما يجب، كما يبدو. عاجَلَه بالقول:

- أنا آسف..

وضع "رافاييل" ذراعه على كتفيّ "راميرو"، وسار معه إلى غرفة المعيشة:

- لا داعي للاعتذار، لولا بقاؤك مع تلك الفتاة الرائعة، لغادرنا في وقت مبكر أنا وأنت، ولما تسنَّى لي أن أصالح "فيرو" بطريقتي الخاصة.. أنت تعلم ما أعني.. إنها تستحمُّ الآن.. إنها تفعل ذلك كل مرة. أين صديقتك الحلوة لأشكرها بنفسي؟

اقترب "رافاييل" من "لوث"، وقبلها شاكرًا، بحماسةٍ ظاهر، جعلها تقهقه..

- لا بأس.. المهم أنك و"فيرونيكا" تخطيتما خلافاتكما وعدتما لبعضكما البعض. يجب أن تشكر صديقك أيضًا.. فلولا..

سكتت قليلًا، والتفتت إلى "راميرو":

- عذرًا، ولكنني لا أتذكر اسمك.

صاح "رافاييل" بدهشة:

- أنتِ لا تعرفين اسمه؟! ومع ذلك فهو متيم بك.. أؤكد لكِ ذلك!

أقبلت "فيرونيكا" نحوهم، فاحتضنها "رافاييل"، وقال بلسان أثقله السُّكر:

- "فيرو"! انظري إلى هذين الاثنين! إنهما في حالة حب مثلنا. حفلٌ رائع! هيا لنرقص.

ꕥ

- أنا "راميرو". اسمكِ "لوث"، أليس كذلك؟

ꕥ

- عدتِ في ساعة متأخرة ليلة البارحة. هل ذهبتِ إلى مكان آخر، بعد عيد الميلاد؟

ماما تحاول استفزازي، كعادتها، ولكني في مزاج حسن للغاية، ولن أسمح لها بتعكيره.

- كلا، كنت في الحفل طوال الوقت. كان رائعًا.

قطبت جبينها وهي تجتهد في التفكير لتقول لي شيئًا جارحًا، لكنني قطعت محاولتها بسرعة:

- شكرًا لأنكِ سمحتِ لي باستعمال سيارتك يا ماما.

غادرت بسرعة، قبل أن تجيبني. سأقابل "راميرو" عصر اليوم، ولا أريدها أن تبدأ اليوم بشجار يحطمني. جدالنا بالأمس كان مزعجًا للغاية، ساعدتني دعابات "جابي" وضحكاتها، والموسيقى الراقصة في التخلص من مشاعري السلبية. كان الرقص رائعًا بمعنى الكلمة. أحسست مع "راميرو" بأنني أطير بخفة، أو أسبح بانسيابية. حين رقصنا الـ"سالسا"، كانت حركاتنا متوافقة بشكل غريب، كأننا أمضينا أوقاتًا طويلة في التدرب معًا. حين انتهينا، شعرت بأنني أعرفه منذ زمن بعيد. ربما هذا ما دفع صديقه للقول إننا في حالة حُب! شعرت بأنه انزعج من هذا التعليق، ولا أعرف لماذا.. كنت قد نسيت اسمه أصلًا! لكن الحقيقة أننا رقصنا كحبيبين فعلًا..

لم يقل الكثير، ولا أعرف عنه شيئًا. من الجيد أنه لم يتكلم. خشيت أن أكتشف تفاهته المحتملة. لم نتحدث، ولهذا لا أعرف عمله أو سنه. أعرف فقط أنه راقص ممتاز، وله يدان جميلتان، وعينان معبرتان.

بعد أن تناولنا المشروبات، وجلسنا في صمت مشترك يبعث الراحة في النفس، تردد في المكان صوت المطرب "كيتانو فيلوزو". وقفت، فتبعني ووضع يده على خصري، وبدأنا في الرقص ثانيةً. هذه المرة أيضًا لم نتوقف وقتًا طويلًا جدًّا. حين انتهينا، تنبهنا إلى أنه لم يبق الكثير من الحضور. غادر أغلب المدعوين.

عرض عليّ أن يوصلني لبيتي، بكلمات قليلة للغاية. أجبته:

- أشكرك. لديّ سيارة.
- إذًا سأركب معكِ حتى منزلك.
- أسكن في مكان بعيد جدًّا.. في "مارتينيز".
- لا يهم.
- وكيف ستعود من هناك؟
- سأتصرف.

أحببت عباراته المختصرة، وأسعدني إصراره على توصيلي للبيت. لم يقل الكثير في السيارة. علق فقط بأن قيادتي تشبه رقصي.

- ماذا تعني بذلك؟

- بثقة. تفعلين كل شيء بثقة.

أضاف وهو يلمس خدي براحة يده:

- ذلك شيء جميل.

أحسست بشيء من الارتباك.

عندما وصلنا إلى تقاطع الطرق الموازي للنهر، قلتُ له إننا اقتربنا من منزلي. سألني إن كنت أسمح له بلقائي اليوم، وقام بكتابة رقم تليفوني.

لم أشأ أن أضع السيارة داخل الجراج، فبابه يصدر صريرًا عاليًا، سيوقظ أمي، وستنزل لتتشاجر معي بسبب عودتي الفجر، وستفسد بكلماتها إحساسي بالسعادة. أدرت المفتاح وأطفأت المحرك أمام المدخل. سألني "راميرو" بدهشة:

- ألن تدخليها الجراج؟

- لا، الأمر غير مهم.

اقترب بشفتيه من وجنتي، وطبع قبلة خفيفة، لم أكد أشعر بها. لا أدري ما الذي حدث بعدها بالضبط، لكننا غبنا في قبلة طويلة، تركتني في حالة ارتباك. غادرت السيارة، وسرت بخطوات سريعة إلى الداخل، دون أن ألتفت ورائي. بأنفاس مبهورة، راقبت الشمس وهي تشرق، عبر النافذة. ذهبت بعدها لأدخل السيارة في الجراج. ستتشاجر معي ماما إذا رأتها في الشارع.

يتصل بي، ونتفق على اللقاء في ميدان "بلازا دي سان إيسيهرو" في السابعة مساءً. يقترح أن يأتي لاصطحابي من المنزل، لكنني أرفض، فماما و"دانييل" لن يخرجا الليلة، وسوف تلاحقني بأسئلتها إن رأت "راميرو".. أنا متيقنة من أنه لن يعجبها، لسبب أو لآخر.

ظلت "لوث" تلتقي بـ"راميرو" سرًّا، دون علم أمها، لثلاثة أشهر متوالية. لم تكن متيقنة من مدى تقبل "ماريانا" له. دون وعي، وضعت "لوث" في رأسها قائمة بسلبياته وإيجابياته من وجهة نظر والدتها. كونه يقطن في منطقة "باليرمو"، نقطة إيجابية تحسب له ولوالديه اللذين التقت بهما في بيتهما. ليس

فيهما، أو في مسكنهما، ما يمكن أن تعترض عليه. لن تصارحها أبدًا أنها مارست الجنس معه، بطبيعة الحال؛ ولن تخبرها أن والدته تعرف ذلك وتتقبله ببساطة. لن تستطيع "ماريانا" أن تعترض على زواج أمه برجل آخر، عقب وفاة أبيه، لأنها هي نفسها فعلت ذلك. مات والده مقتولًا، ولكن ليس على يد لصوص، بل على يد الجيش. كان "راميرو" حينها في الخامسة من عمره.

كيف بإمكانها أن تقول له:

- عندما تقابل ماما، حاول ألا تذكر لها شيئًا عن ذلك الأمر، لأنها ابنة جنرال في الجيش، لا يستطيع أحد أن يمسه بكلمة، وفقًا لـ"قانون الطاعة الواجبة" الذي صدر بعد انتهاء عهد الدكتاتورية العسكرية..

꧁꧂

- لم أكن أعرف هذا القانون، ولم أسمع عنه شيئًا على الإطلاق. كنت أجهله تمامًا. صدر وأنا في حوالي الحادية عشرة، وتجنب جميع أفراد العائلة الإشارة إليه، أو ربما قاموا بذلك ولكنني لم أنتبه لذلك؛ ويبدو أنه كان أحد الموضوعات التي نوقشت بشكل مفصل في منزل صديقتي "ناتاليا". تشاجرنا يومًا، فصاحت: "اخرسي أنتِ تحديدًا! فجدكِ من ضمن هؤلاء الكلاب الذين لم يستطع أحد أن يحاسبهم على جرائمهم بفضل قانون الطاعة الواجبة". حين سألت "ماريانا" عن طبيعة هذا القانون، سألتني بدورها عن سبب رغبتي في معرفة ذلك. تتابعت استفساراتها الغاضبة، حتى وجدت نفسي أدافع عن "ناتاليا"، رغم غضبي منها. يعرف والدا "ناتاليا" ماما و"آلفونسو" و"آميليا"، فقد تقابلوا جميعًا في اليوم الرياضي بالمدرسة...

يقاطعها "كارلوس":

- كان لديكم يوم رياضي؟ لا بد إذًا أنكِ كنتِ في مدرسة راقية؟

- نعم. مدرسة إنجليزية.. "سانت كاثرين".

- حسنًا، وكيف شرحت لك هذا القانون، في نهاية الأمر؟ ما وجهة نظرها بالضبط؟

- لم تشرحه لي. اكتفت بالقول إن الأشخاص الذين يهتمون به هم في العادة من حثالة المجتمع، الذين ينتمون للطبقات الدنيا، وأبدت دهشتها من السماح لبنت مثل هذه بالالتحاق بمدرسة محترمة، والاختلاط ببنات العائلات العريقة. منعتني من

مصادقة "ناتاليا"، وطلبت مني مقاطعتها. اعتذرت لي الفتاة في اليوم التالي، وصارحتني أن فكرة صداقتنا لا تعجب أمها. قلت لها إنني لا أعرف هذا القانون، وتوسلت إليها أن تفهمني إياه. شرحته لي بما يتناسب مع عمرينا، الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة حينها، وبما يلائم وجهة النظر السياسية لأسرتها، التي تختلف اختلافًا جذريًّا عن معتقدات بيتنا. واقع الأمر، أنني لم أستوعب جيدًا كل ما قالته "ناتاليا"، لكنني صرت أتعامل مع "آلفونسو" بعدها ببعض الحذر، وعدم الارتياح، رغم أنه كان بالغ اللطف معي على الدوام.

أضافت "لوث":

- لم أستوعب الأمر وأفهمه، إلا بعد لقائي بـ"راميرو". إنه أحد من ساعدوني في اكتشاف ذاتي، وهويتي الحقيقية.

ꟷ

يواجه "راميرو" صعوبة بالغة في التحدث عن أبيه، وقصة اختفائه المفاجئ. كان والداه قد انفصلا قبلها بعامين، لكن الأب ـ الذي يصفه "راميرو" بأنه شخص رائع ـ واظب على رؤية ابنه بشكل منتظم؛ وحتى حين اضطر للهروب والاختباء في منزل بـ"إل تيجري"، حرصت الأم على اصطحاب الولد لمقابلته.

- كانت تلك آخر مرة رأيناه فيها. أتذكر أنهما احتضنا بعضهما بعضًا عند الوداع. أتذكر أيضًا كيف أخبرتني بالأمر. لم تقل إنه مات، بل قالت إنه سقط في أيديهم، وأننا لن نراه مرة أخرى على الأرجح. رغم انفصالهما، كانا يحبان بعضهما بعضًا.

عقب اختفاء والده، لجأ "راميرو" ووالدته إلى المكسيك، وعاشا هناك حتى عام 1984. تزوجت أمه، "مارتا"، من لاجئ أرجنتيني هناك، مثلهما، يدعى "آنتونيو".

ꟷ

- حكايات "راميرو"، وأحداث حياته التي قصها عليّ، جعلتني أرى الأمور بمنظور مختلف. بدأت أدرك أن هناك تاريخًا مختلفًا للأرجنتين، غير الذي تعلمته. "راميرو" يمتلك معلومات لم أكن أعرف عنها شيئًا.

ꟷ

كانا في بيته، حين أخبرها أنه حضر بعض جلسات محاكمة المجلس العسكري، حين كان في الرابعة عشرة من عمره، عام 1985، وقال لها إنه كان يقرأ الجرائد في ذلك الوقت بنهم شديد، وكأنه يبحث عن أبيه فيها، أو عن نوع من السلوى، أو الانتقام لغيابه. أنصتت إليه "لوث" باهتمام وتأثر، ودمعت عيناها حين علمت أن أشدهم قسوة وبطشًا، الأميرال "ماسيرا" والجنرال "فيديلا"، قد حُكِم عليهما بالسجن مدى الحياة. قال "راميرو" إنه وأمه شربا نخبًا يومها، احتفالًا بهذا النصر.

- ثم جاء "آلفونسين" ومرر قانون "الطاعة الواجبة" و"قانون التوقف الكامل"، ومنع الناس بموجبهما من تقديم أي شكاوى، أو رفع أي قضايا تتعلق بالحرب القذرة؛ وجاء "كارلوس منعم" بعد ذلك وأصدر عفوًا شاملًا عن جميع من تمت محاكمتهم، وكل من صدرت ضدهم عقوبات قضائية. ألم تكوني تعرفين ذلك؟

أضاف بحنق:

- ذلك رجل بغيض حقًّا.. وهذا بلد يعاني فقدان الذاكرة!

تذكرت "لوث"، بغتةً، صديقتها "ناتايا" وكلامها عن "قانون الطاعة الواجبة".. قفزت من سرير "راميرو"، وجلست على الأرض، في مواجهته..

- ما "قانون الطاعة الواجبة"؟

- يا إلهي! "لوث"! هل تعيشين معنا على الكوكب نفسه؟!

- أريد شرحًا تفصيليًّا. كنت صغيرة حين حدث كل ذلك.

- صدر القانون عام 1987، وبموجبه تم تبرئة المئات من الضباط وإعفائهم من المسؤولية عن التعذيب والقتل، لأن ما فعلوه تم في إطار "الطاعة الواجبة"، أي أنهم كانوا ينفذون أوامر رؤسائهم، لا أكثر.

علقت "لوث" بشيء لم يتبيَّنْهُ "راميرو". طلب منها أن تعيد ما قالته، لأنه لم يسمعها؛ لكن الشحوب الذي اعترى وجهها، ونظراتها المرتاعة، جعلاه يضمها إلى صدره في قلق..

- ما الأمر يا حبيبتي؟ ماذا حدث؟

أشاحت بوجهها إلى الجانب الآخر:

- جدي. والد أمي. إنه أحدهم. لقد أفلت من العقاب بسبب هذا القانون.

أحسست بحرج شديد وأنا أخبره، لكنني ـ في الوقت ذاته ـ شعرت بارتياح بالغ. لم أستطع مواصلة الإصغاء إليه، وأنا أخفي عنه حقيقة أن جدي هو أحد "الضباط الأوغاد"، كما يطلق عليهم. لم يتقبل الأمر في البداية. أبعدني عنه، وأولاني ظهره، ثم التفت إليّ وتمعن فيّ طويلًا. التزمت الصمت ولم أقل شيئًا، وبادلته النظر. لم يكن يعرف عني الكثير، حتى هذه اللحظة. بالنسبة له، أنا الفتاة التي تسكن في "مارتينيز"، وتربطها علاقة متوترة للغاية بأمها، وتخشى أن تعرفه إليها.

حين صارحته بمن تكون أمي، ومن يكون والدها، شعرت بالحرية.. هذه أنا.. وهذه حقيقتي. أحسستُ بنشوة تماثل تلك التي تجتاحني حين أرقص، أو أمارس الحب مع "راميرو".

- حقيقة أنكِ حفيدة "دوفاو"، تصيبني بالغثيان يا "لوث".. هل تفهمين ما أعني؟

هززت كتفيّ، وأنا لا أعرف بمَ أجيبه.. لا أدري إن كنتُ أفهم ما يعنيه فعلًا أم لا، لكن تعليقه جرحني. أنا لستُ جدي. أنا أمثل نفسي فقط.

لم أقل شيئًا، وظللت في مكاني على الأرض. ضرب المكتب بقبضته، بقوة، وقال بغيظ:

- كم أنا غبي! ما كان عليّ قول ذلك. الحقيقة أنني لم يسبق لي التعامل مع أي أحد له صلات بالجيش، من قبل. إن جدكِ يا "لوث"...

سكت قليلًا، ثم قال:

- أنتِ تعرفين ما أقصد، أليس كذلك؟

هززت رأسي، نافية. كرهت نفسي لأنني لم أجتهد في البحث عن الحقيقة، عقب حديث "ناتاليا"، واكتفيت بمحاولات تجنب المسألة قدر الإمكان؛ وها هو "راميرو" يسألني عن الموضوع، وأنا أجهل كل ما يتعلق به. يقترب مني، ويأخذني بين ذراعيه. إنه يحبني، أنا متيقنة من ذلك، لكنه يعتقد أن الفشل هو مصير علاقتنا الوحيد. قلت له ذلك.

تبادلنا القبلات، ثم ابتعد عني فجأة، وأعلن أنه ليس على ما يُرام، ثم قال بأنه بحاجة للتفكير في الأمر، وأنه سيوصلني إلى بيتي.

- لا داعي لذلك. يمكنني العودة للمنزل بمفردي.

تناولت حقيبتي وكتبي، وخرجت من الشقة. سمعت صوته يناديني، وأنا داخل المصعد، لكنني مضيت في طريقي، وخرجت من باب العمارة. استطاع أن يلحق بي عندما وصلت إلى أول الطريق، طلب مني ألا أرحل على هذا النحو. قال إنه لم يقصد إزعاجي، كل ما في الأمر أنه شعر بالصدمة، فتحدث معي بأسلوب يفتقر إلى اللباقة. ذهبنا لتناول بعض المشروبات، فوجدت نفسي أحكي له كل شيء عن حياتي، وعن علاقتي بماما و"دانييل"، وكل ما يشعرني بالاختناق والحرج. كنت أتحرَّق شوقًا لمصارحته بأدق تفاصيل حياتي، وقلت لنفسي: "وحتى لو لم يعجبه الأمر.. لا مشكلة!".

لكنه يحبني فعلًا. بقينا معًا حتى الرابعة صباحًا، ومارسنا الحب بمتعة لم يسبق لنا تذوقها. أغلب الظن لأنني أزلت القناع عن نفسي، واحتفظت بطبيعتي وشخصيتي الحقيقية.

حين أوصلني إلى البيت، قال إنه سيعود ثانيةً بعد ساعات للتعرف إلى أمي وزوجها، فمن السخف أن تظل علاقتنا سرية. إنه محق، لماذا أخفي علاقتي به، وهي بهذه الروعة؟

كان ذلك حينها، أما الآن وقد اقترب موعد اللقاء، فإنني خائفة جدًّا.

سألتني ماما عنه قبل ذلك، حين اتصل بي مرة. قلت لها إنه صديق لـ"فيرونيكا"، وكأن لا علاقة لي به. اعتدت الكذب عليها. كلما كنت معه، قلت لها إنني في مكان آخر.

وعلى عكس ما هو متوقع، قابلته "ماريانا" بالترحاب.

في اليوم التالي، سألت "لوث" عنه، فأخبرتها عبر إجابات مقتضبة المعلومات الأساسية عن "راميرو".. إنه مصمم في وكالة إعلانات، وأنها تحبه. لم تجرؤ على مصارحتها بكل شيء، فتعمدت عدم ذكر بعض الحقائق التي قد تزعجها.

لحُسن الحظ، كانت "ماريانا" في تلك الفترة منشغلة بالتخطيط لإجازة طويلة في جزر الكاريبي، ولم يكن لديها متسع من الوقت لاستجواب "لوث"

عن كل صغيرة وكبيرة. حرصت "لوث" من جانبها على عدم مضايقة أمها، وكانت تبتسم طوال الوقت، لدرجة دفعت "دانييل" لممازحتها:

- تبدين سعيدة.. ما الأمر؟ هل أنتِ مريضة؟

حدّقت إليها "ماريانا" مطولًا. صاحت "لوث" بانزعاج:

- ماذا؟ لماذا تفعلين ذلك؟

في تلك اللحظة، رن جرس التليفون. خشيت "لوث" أن يكون المتصل جديها، أو إحدى خالتيها، للاتفاق على تفاصيل بقائها مع أحد منهم خلال سفر أمها.. كان هذا يعني حرمانها من لقاء "راميرو"؛ لكن "ماريانا" عادت بعد قليل بوجه متهلل، عقب إنهاء المكالمة..

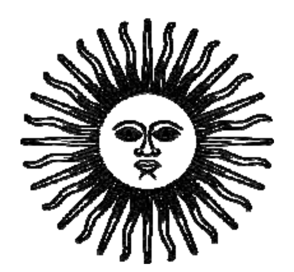
قالت "لوث" لـ"راميرو" لاحقًا:

- كان الأمر يتعلق برحلتها.. أفضل باخرة.. أو أفخم فندق.. شيء من هذا القبيل.. أعني تلك الأمور التي تسعدها فعلا. أيًّا ما كان موضوع تلك المكالمة، فقد شغلتها عني وعن التخطيط لإرسالي إلى منزل جديّ.

- ما كنتُ سآتي لزيارتك هناك بكل تأكيد!



14



اتصلت ماما اليوم لتبلغني بأنها مدَّتْ إجازتها لأسبوعين إضافيين. ممتاز! ليتها وزوجها يبقيان هناك لعامين كاملين! لو كانا موجودين، لما استطعت تمضية كل هذا الوقت بصحبة "راميرو". فعليًّا، أنا أقيم في منزله بصفة شبه دائمة، فهناك أدرس وآكل وأرقص وأتكلم وأمارس الحب وأنام. لا أدري حقًّا ما الذي سأفعله عند عودتهما. سيكون الأمر شديد الصعوبة عليّ.

غادر "راميرو" بيت والدته، وانتقل إلى شقة مؤجرة في "بيلجرانو". عاونته "لوث" في الانتقال. صارا يقضيان وقتًا طويلًا معًا. عادةً، تبقى "لوث" معه حتى الفجر، ثم تتسلل إلى المنزل خلسة، قبل استيقاظ الخادمات. عبّر لها "راميرو" عن انزعاجه من إصرارها على الكذب والمراوغة، وقال: إن تصرفها سخيف.

- توقفي عن هذه الألاعيب يا "لوث"! لقد كبرتِ. إن كان والداكِ لا يسمحان لك بفعل ما تريدين، فالحل الوحيد هو الاستقلال بحياتكِ بعيدًا عنهما. تركُكِ للبيت هو الحل الأمثل لجميع مشكلاتك.

- لا يمكنني ذلك. إنني لا أملك أي مال، وهما لن يمنحاني شيئًا.

- تعالي وعيشي معي إذًا.

- كلا، لا أريد أن أعيش معك لمجرد أنني أرغب في ترك البيت.

- لماذا؟ ألا تعجبك فكرة أن نكون معًا طوال الوقت؟ ننام معًا، ونستيقظ معًا.. ونشترك في فعل كل شيء معًا؟

أشرقَ وجه "لوث" بابتسامة عريضة، لكنها سرعان ما خبت.

- أنت تقول ذلك، لأنك ترغب في أن أستقلَّ بحياتي بعيدًا عن أسرتي.

- نعم، ذلك أحد الأسباب بالطبع، لكنني في الأساس لا أجد سببًا يمنعنا من تنفيذ حلمنا بالعيش المشترك.

تحب "لوث" الفكرة، لكنها تدرك استحالة تحقيقها، ستفعل "ماريانا" كل ما بوسعها للوقوف في وجه تطور هذه العلاقة. لن تتوانى عن تقديمهما للمحاكمة، إن انتقلت ابنتها إلى بيت "راميرو".

تقول له ذلك، ولكنه لا يصدقها.

- إنها تردد ذلك أمامكِ لتخيفك. مجرد كلام!

تعرف "لوث" أن المسألة ليست "مجرد كلام"، لكنها ـ في الوقت ذاته ـ تقرر أنها مخاطرة تستحق التجربة. تسأل "راميرو" إن كان على استعداد لتحمُّل ما قد ترتكبه "ماريانا" من حماقات.. ستذهب إلى بيت أسرته وتتشاجر معهم، وقد تأتي إلى الشقة هنا لتستكمل وصلة الشجار. تحذره أن أمها ستنهي الجانب السحري الجذاب في علاقتهما، وتثقل حياتهما بالمشكلات.

- هل تدركين ما قلتِه للتوّ يا "لوث"؟ إنك تصفينها باختلاق المشكلات والمداومة على التشاجر، ومع ذلك ترفضين تركها وتتمسكين بالحياة معها؟!

فكر "راميرو"، في النهاية، بأن الأمر لا يعدو كونه مبالغات تتوهمها "لوث"؛ إذ لا يمكن لأي أم، مهما تبلغ قسوتها، أن ترفع قضية على ابنتها أمام المحكمة، كما لو كانت مجرمة.

حين أخبر والدته "مارتا" بقرارهما المشترك، لاح القلق على وجهها:

- انتبه يا "راميرو"، فأمها هي ابنة "دوفاو". أنت لا تعرف هؤلاء الناس، وهذا من حُسن حظِّك.

لكنها أعلنت موافقتها، وتأييدها:

- جميل أنكما تحبان بعضكما البعض. إن كنتما تريدان العيش معًا، فلمَ لا؟ أنا خائفة فقط من عائلتها. إنهم أشخاص شرسون.

ꕥ

"لوث" ما زالت مترددة، ولا تستطيع حسم أمرها. يقنعها "راميرو" بأن سعادتهما تستحق أن يتحملا من أجلها بعض الصعاب في البداية. يعدها بحفل كبير لعيد ميلادها، ودعوة جميع أصدقائهما له ليرقصوا حتى الفجر، ويؤكد لها أن حياتهما معًا ستكون رائعة.

حزمت "لوث" حقيبة كبيرة، وأخذتها إلى شقة "راميرو"، قبل يومٍ من وصول "ماريانا". قررت أنها لن ترحل، حتى تواجه أمها، وتصارحها بكل شيء، بمنتهى الوضوح. سوف تمنح والدتها الفرصة لإظهار محبتها ودعمها وتعاطفها. ستحدثها أولًا عن الحب.. لا بد أنها عاشت قصة حب مع "إدواردو"، رغم أنها لم تتطرق للحديث عنها يومًا.

حين رأيت ردّ فعل ماما، عقب الجُمَل المعدودة التي تفوهتُ بها، أدركت بأنه لا أمل أبدًا في حدوث أي تقارب بيننا، ولا فائدة من الكلام عن الحب، وتذكيرها بمشاعرها تجاه بابا.

ꕥ

لاحظت "لوث" نظرات "كارلوس"، فقالت على الفور:

- نعم، لقد تزوجها "إدواردو".. وماذا في ذلك؟ هذا لا يعني أبدًا أنه مثلها وعائلتها. كان مغرمًا بها، هذا كل شيء!

- ما كنت لأقع في حب ابنة مجرم من رجال الجيش.

- لقد أحبّ "راميرو" من يفترض أن تكون حفيدة "دوفاو" شخصيًّا، رغم علمه بكل جرائمه.

- إنه من جيل مختلف.. أو ربما لأن لكِ شخصية مختلفة عنهم..

أضاف باستنكار:

- لكن "إدواردو" تزوج "ماريانا"!

نظرت "لوث" بضيق إلى الجهة الأخرى. حاول "كارلوس" أن يتخلص من شعوره بالغيرة.. نعم.. إنه يغار من "إدواردو"، ويجرحه حب "لوث" لذلك الرجل، ودفاعها المستمر عنه.

قالت "لوث" ما كررته سابقًا:

- اسمعني.. ذلك الرجل الذي تلومه على زواجه من "ماريانا"، دفع حياته ثمنًا ليعرف من أكون ويساعدني على استعادة هويتي.

استطردت قائلة:

- صحيح أنك لم تتزوج ابنة أحد قادة الجيش، ولكن ماذا فعلت من أجلي، وأنت لحمي ودمي؟

نكس "كارلوس" رأسه، وقرر ألا يقول شيئًا. وضع يده فوق يدها. عليه أن يمنحها الوقت الكافي لتتخلص من غضبها منه، وتبدأ في حبه. في تلك اللحظة، تحديدًا، أحس "كارلوس" بأبوة حقيقية تجاهها.

ꕥ

الكلام مع هذه المرأة مستحيل! هأنا أخبرها بأنني واقعة في الحب، وأنني مغرمة بشاب ممتاز، فتقاطعني وتشير بسبابتها إلى بقعة على سطح الكنبة. تنادي الخادمة بغضب، وتطلب منها معرفة سبب عدم نظافة الأريكة على الوجه الأمثل. أستمع إليهما مدة لا تقل عن ربع ساعة.. الخادمة تبرر، وماما تؤنبها، وتوجهها لاستخدام مُزيل البقع، ثم تعاود لومها وتقريعها. تلتفت إليّ أخيرًا:

- ما الأمر يا "لوث"؟ ماذا كنتِ تقولين؟ آه.. إنك تحبين شخصًا؟ من هو؟

- "راميرو"..

تحاول إزالة البقعة. أسألها:

- هل تذكرينه؟ لقد عرفتكِ عليه قبل سفرك.

تجيب، دون أن تلتفت إلي:

- آه.. نعم.. نعم. هل ترين؟ البقعة لا تزول! لن يمكنني شراء قماش مماثل، إنه إنجليزي. لقد أوقفوا استيراد البضائع الإنجليزية.

أقول لنفسي: "لماذا أنتظر؟ سأخبرها الأمر دون تمهيد".

أخاطبها:

- ماما، سأنتقل اليوم إلى بيت "راميرو". سأعيش معه.

تنتبه إليّ، أخيرًا. تثب من مكانها، وقد اشتعلت عيناها من الغضب. تقف في مواجهتي وتصيح:

- ماذا؟ هل جننتِ؟ عمّ تتكلمين؟

أجيبها وأنا أهم بالخروج من الباب:

- لقد سمعتني يا ماما. سوف أعيش مع "راميرو" في بيته. لم أذهب قبل وصولك، لأنني أردت أن أبلغك بنفسي. لم أشأ الهروب.

تمسك بذراعي بقوة، وتغرز أظفارها فيه، وهي تجرني إلى داخل غرفة المعيشة مرة أخرى. يتعالى صراخها وصياحها، مزيج من الاتهامات والتهديدات. يتحول صوتها إلى طنين مزعج في أذنيّ، ولا أستطيع تحمله أكثر من ذلك. أفلت ذراعي من قبضتها، وأنزل السُّلم بسرعة باتجاه الباب الرئيسي للبيت، قبل أن أغلقه ورائي، يأتيني صوتها مهددًا:

- لن تضعي قدمكِ في هذا المنزل مرة أخرى.

ليت الأمر كان صحيحًا..

في تلك الليلة، أبكي كثيرًا. يعلق "راميرو" بأن الأمر مُتوقَّع، ولن يكون سهلًا على الإطلاق. يقول لي إنه يفضل أن يرى دموعي على أن يراني وأنا أتظاهر بالسعادة، وأضع على شفتيّ ابتسامة زائفة. أتساءل عن الكيفية التي ستعاقبني بها، والطريقة التي ستنتقم بها مني، لم أكن أرغب في الخروج من البيت بتلك الطريقة، لكنها هي من دفعتني لذلك.

صباح اليوم التالي، تلقيا اتصالًا من والدة "فيرونيكا"، وهي صديقة لـ"ماريانا". كانت قد أخذت الرقم من "رافاييل". سألت "راميرو" عن سبب تصرفهما على هذا النحو..

- ضع نفسك مكان أم "لوث".. إنها لا تعرفك، وتجهل عنوانك، وكل شيء عنك؛ والأهم من ذلك كله.. "لوث" لا تزال في الثامنة عشرة فقط.

- ولكنكِ تسمحين لـ"فيرونيكا" بالمبيت لدى "رافاييل" في نهاية كل أسبوع، بينما والدة "لوث" لا تمنحها أي قدر من الحرية. لم يكن أمامها إلا التصرف بهذه الطريقة.

- سأتحدث مع والدتك، إن لم يكن لديك مانع.

- لا مانع على الإطلاق.

أحسَّ "راميرو" بالغضب، لكنه طمأن "لوث" أن أمه ستجيد التصرف مع تلك الفضولية البلهاء، والدة "فيرونيكا".

لكن من اتصلت بـ"مارتا" بعد قليل، لم تكن سوى "ماريانا" نفسها..

- اعذريني يا سيدة... الحقيقة أنني أجهلُ اسمك، وهذا أكبر دليل على عدم منطقية الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه. أنا والدة "لوث". هل تعرفين أنها انتقلت للعيش مع ابنك؟

- نعم. أعرف.

حاولت كلتاهما الحفاظ على هدوئها. من المهم لـ"ماريانا" أن تقنع هذه المرأة بالتعاون معها. وصفتها أم "فيرونيكا" بأنها إنسانة جيدة ذات شخصية محترمة؛ "مارتا" من جانبها تدرك أن عليها عدم صَبِّ لعناتها على رأس هذه الغبية، كما تتحرق لتفعل، حتى لا تتسبب في مشكلة لابنها.

اقترحت "ماريانا" أن تذهب "مارتا" للقائها، قبل أن تضطر للجوء إلى القضاء..

- يمكننا حل المسألة بشكل ودّي.

سألتها "مارتا" باستغراب:

- ولماذا القضاء من الأساس؟

- لأن "لوث" قاصر. ابنك ليس كذلك، كما أتوقع.. لا بد أنه تجاوز العشرين ببضعة أعوام.

- إنه في الرابعة والعشرين، لماذا؟

انزعجت "ماريانا" مِن هذا السؤال، وكادت أن تُسمعها كلامًا حادًّا، لكنها ذكرت نفسها بأن ابن المرأة غير مخطئ، والذنب كله ذنب ابنتها، فهي التي تتصرف كما لو كانت عاهرة. حاولت شرح موقفها لـ"مارتا":

- أنا لم أربّها بهذه الطريقة المنحلّة.. صدقيني.

كانت "مارتا" توشك على الانفجار من أسلوب "ماريانا" المستفز.

- هذه ليست مشكلتي. إنها مشكلتك. ليس لديَّ أي نية للقائك.. لا في بيتك ولا في بيتي.

فكرت في نفسها: "لن أدع ابنة "دوفاو" تقترب منا، بأي طريقة".

واصلت حديثها لـ"ماريانا":

- الأمر يخصُّ "لوث" و"راميرو" فقط، والقرار قرارهما.

ذكَّرت نفسها بأن من واجبها حماية ابنها، فقررت أن يكون أسلوبها أكثر لينًا..

- ما اسمك يا عزيزتي؟

- "ماريانا".

- اهدئي يا "ماريانا" واطمئني. المسألة ليست بالسوء الذي تتخيلينه. لقد تصرفا بسرعة ورعونة، أتفق معكِ في ذلك، ولكنهما سيغيران رأيهما حين يدركان أنهما على خطأ. لا مشكلة في ذلك، إنهما شابان في مقتبل العمر. إصراركِ على محاربتهما، سيعقد الموضوع.

- إذًا فأنتِ تعتقدين أنه لا بأس بما يفعلانه؟ وتظنين أنني عليّ تقبّل الأمر بمنتهى البساطة؟ اسمعيني.. أنا لا أعرف أسلوبكِ في تنشئة ابنك، لكن "لوث" مختلفة حتمًا عن جميع الفتيات اللواتي عرفهن قبلها.

أحست "مارتا" بأنها لم تعد قادرة على تحمل هذه المرأة السمجة، وصلافة تعليقاتها. خشيت أن تفقد أعصابها وتسبها بألفاظ نابية، فآثرت إنهاء المكالمة. قالت باستياء، وقد نفد صبرها:

- يا إلهي! اسمعي.. افعلي ما يحلو لكِ، أما أنا فلن أتدخل. باي.

فور إغلاقها الخط، اتصلت "مارتا" بابنها في عمله، وقصت عليه ما حدث.

- خذ حذرك يا حبيبي. قد يكون وضع "لـوث" سـيئًا للغايـة. لمَ لا تـؤجلان هـذه الخطـوة قليلًا؟ إنها لا تزال صغيرة.

أحسَّ "راميرو" بغضب شديد. ترى ما الذي قالته تلك الحقيرة لأمه، لجعلها تظن أن عودة "لوث" إلى بيتها أفضل، رغم كل ما أخبرها به عن معاناة الفتاة في منزل أسرتها؟

- أنتِ نفسكِ قلتِ منذ قليـل إنهـا امـرأة لا تطـاق، كيـف تتـوقعين منـي أن أتخـلى عـن "لوث"، وأعيدُها إليها؟

- معك حقٌّ يا "راميرو"، ولكن انتبه يا بنيّ.. لقد أخافتني تلك المرأة.

لازمَ الرعب "مارتا" بقية ساعات النهار، فاتصلت بابنها وقالت إنها سـتزوره في بيتـه. عنـد وصولها، اقترحت عليهما أن يختبئا في بيتها لبضعة أيام، إلى أن تهـدأ العاصـفة. أيـدت "لـوث" الفكرة، فلا يمكن لـ"ماريانا" ـ بفضل طباعها الشرسة مع ابنتها ـ أن تتـصور أن يلجـأ الولـد إلى أمه وبيتها.

قال "راميرو" معترضًا:

- كلا.. أنا أرفض مغادرة شقتي. ولماذا ينبغي لنا الهروب والاختباء؟ بالـلـه عليكِ يـا مامـا! هل تدركين في أي عام نحن؟ لقد تغيرت الأوضاع.

- أفهم ما تعني.. لكن كلامهـا وأسـلوبها، ذكّـراني بمـا عانينـاه في المـاضي. لقـد أخـافتني أم "لوث". المشاعر القديمة نفسها.

ജ്യ

أحسستُ بالفظاعة، حين قالت "مارتا" إن حوارها مع ماما أعاد لها كل الذكريات القديمـة المؤلمة. لم أفهم قصدها تمامًا، رغم أنها حاولت الشرح؛ لكن ما استقرَّ في بالي وفهمته جيدًا هو خوفها من ماما، ذلك أنني أنا أيضًا أخافها جدًّا. خطرت ببالي للتَّوِّ، فكرة أرعبتني.. مـاذا تفعـل ماما حين تواجهها أي مشكلة؟ تتصل بأبويها. ماذا لو تدخل "آلفونسو" بنفسه؟ ماذا لو ذهب جدي ليقابل أم "راميرو" في بيتها؟

- "رامي".. سوف أعودُ إلى بيت أمي. أريد حقًّا أن أعيش معك، ولكن لا يمكنني تدمير حياة كل من حولي.. انظر إلى حال والدتك! كنتُ أرغب في أن نحيا بسعادة، كما تخيلنا وخططنا، ولكن من الأفضل للجميع أن أرجع إلى المنزل.

قال إنه لن يدعني أفعل ذلك. غضب من أمه لأنها تسببت في إثارة فزعي. قلت له إن المسكينة لم تتعمد ذلك. فاعترف بأنها كانت تحاول مساعدتنا، ليس إلا. أضاف:

- ولكنها تبالغ في خوفها! نحن في 1995، ولسنا في 1976!! لقد نقلت إليكِ إحساسها بالرعب والقلق. لن تذهبي إلى أي مكان. لا تخافي يا حبيبتي. لن نتعرض لأي مكروه. سأتولى حمايتكِ.

لكنني كنت قد عقدتُ العزم على الرحيل، لا يمكنني البقاء ليلة أخرى تحت وطأة هذه الأحاسيس. لا أجرؤ على مصارحة "راميرو" بخوفي من "آلفونسو". سأكتب له رسالة قبل مغادرتي الشقة.

༄

اتصلتُ "ماريانا" بـ"آميليا"، ونقلتُ إليها ما قيل حرفيًّا في مكالمتها مع "مارتا". يجب أن تفعل شيئًا لمنع هذه الكارثة، لكنها لا تستطيع اللجوء إلى القضاء، خوفًا من الفضيحة. قالت "آميليا" إنها ستتصل بها بعد قليل، وأن على "ماريانا" ـ في كل الأحوال ـ ألا تتسرع في فعل أي شيء.

أبدى "آلفونسو" استعداده لحل الأزمة. عليهم ألا يطلبوا من "دانييل" التدخل في هذه القصة المحرجة، لأن "لوث" ليست ابنته. سيذهب بنفسه للقاء أم الولد، ويفهمها طبيعة المشكلات التي سيتعرض لها ابنها إن أصرَّ على مواصلة العيش مع ابنتهم. من الأفضل أن يتعامل مع الأم، إنه يعرف الكلام المحدد الذي سيقوله لها، لدفعها لإقناع الابن بالانفصال عن "لوث" ورميها في الشارع. علقت زوجته بأن ذلك سيكون درسًا جيدًا لتلك الفتاة المتمردة.

- بهذه الطريقة، ستتعلم أن الرجال يتصرفون بخسة ونذالة حين نمنحهم كل شيء بلا مقابل.

أضافت "آميليا":

- مسكينة "ماريانا"! هذه البنت تتسبب لها في مشكلات لا حصر لها، لكننا سنؤدبها. هـل تظن يا "آلفونسو" أن الأمر وراثي، ربما؟ أعني أن "لوث" نشأت على التهذيب والاحترام، فلـماذا تقدم على هذه التصرفات المنحلّـة؟ لقـد صـارحتني "ماريانـا" بـأن "لـوث" بـدأت في ممارسـة الجنس، قبل أن تكمل السادسة عشرة. إنها فتاة شريرة.

ꕥ

حين وصلت "مارتا" إلى عيادة زوجها الجرّاح، كانـت مـا تـزال ترتعـد مـن الخـوف. سـألها زوجها باستغراب:

- لماذا وافقتِ، من الأساس، على لقاء "دوفاو"؟ هل جننتِ يا "مارتا"؟

شرحتْ له أنها تريـد حمايـة ابنهـا مـن بطـش هـذا الرجـل، وتعمـدت عـدم إعطائـه أي معلومات تتعلق بـ"راميرو". دفعها خوفها للموافقة على مواجهته بنفسها، وجهًا لوجـه؛ لكنهـا كلما فكرت في الأمر، ازدادت رعبًا. قالت لزوجها برجاء:

- "آنتونيو".. هل يمكنك أن ترافقني؟ الموعد غدًا في الحادية عشرة صباحًا.

طلب منها أن تهـدأ، وأن تحـاول الـسيطرة عـلى اضـطرابها الواضح. إنـه يـتفهم أن اسـم "دوفاو" وحده كفيل بإعادتها لأحداث الماضي وذكرياتـه الأليمـة، لكـن عليهـا أن تتنـاسى كـل ذلك.

- لقد تغيَّرت الأوضاع يا "مارتا"؛ كما أن "راميرو" لم يعد طفلًا. إن كـان "دوفـاو" يرغـب في التفاهم معنا، فعليه أن يتحدث مع "راميرو" نفسه.

عندما تسمع "مارتا" ذلك، يشحب وجهها.. كلا، لن يتعامل ابنها مـع هـذا الـشخص، هـي التي ستذهب للقائه. يعدها زوجها بمـساندتها ومرافقتهـا، لكنـه يرغـب في أن تفكـر في الأمـر جيدًا. يسألها:

- لماذا لم تخبري "راميرو"؟

- "دوفاو" هو الذي طلب مني ذلك.

يقول لها إن طاعتها لأوامره هي مبالغة في الخضوع له ولتهديداته. عليهما أن يهدآ أولًا، ثم يصارحا "راميرو" و"لوث" بحقيقة الوضع. يخبرها بأنه سيساعدها، رغم عدم موافقته على لقائها بذلك المجرم.

يضمها إلى صدره، ويؤكد لها:

- سنجد حلًّا يا حبيبتي، لا تخافي.

ꟷ

تتصل "مارتا" بـ"راميرو"، لتخبره بأنها ستزوره بعد قليل. كان قد فرغ للتوّ من قراءة الخطاب الذي كتبته "لوث".

- لستُ بخير يا ماما. أنا آسف. هل يمكنك تأجيل الزيارة ليوم آخر؟

تناول "آنتونيو" السماعة من يد زوجته:

- أنا آسف يا بنيّ، ولكن علينا أن نراك الليلة. "دوفاو" طلب مقابلة أمك، وبدأت الأمور تخرج عن السيطرة يا "راميرو". علينا أن نناقش التفاصيل كافة. ليس من الإنصاف أن تعرّض والدتك لكل هذه الـ ...

قاطعه "راميرو":

- لا تقلق. "لوث" ليست هنا. لقد تركتني.

ꟷ

قلت لها فور دخولي إنني قد عدت البيت لأبقى، وأنني لست على استعداد لمناقشة أي شيء، ولا أستطيع سماع كلمة واحدة منها.

صاحت:

- لا تظني أن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه، وكأن شيئًا لم يحدث!

- أتوسل إليكِ يا أمي.. هل يمكننا تأجيل الكلام؟ أنا حقًّا متعبة وحزينة جدًا. لا تدفعيني للرحيل مرة أخرى.

لحسن الحظ، استجابت لي وتركتني. أدركتْ أنني جادة. أغلقت على نفسها باب حجرتها، وسمعتها وهي تتحدث إلى "آميليا" بالتليفون. لا بد أنها تخبرها بعودتي للمنزل.

تحسُّ "مارتا" بشيء من الارتياح، لعدم اضطرارها لمقابلة "دوفاو"، بعد عودة "لوث" إلى بيتها؛ لكنها تشعر أيضًا بالأسى حيال ابنها وقلبه المكسور. تقول له مواسية:

- إن "لوث" ما زالت صغيرة يا "راميرو". إن كان حبُّكما صادقًا فعلًا، فسوف تعودان لبعضكما البعض، اطمئن. إنها بحاجة لبعض الوقت لتنضج. في بعض الأحيان، علينا أن نصبر وننتظر، وألا نتعجل الأمور.

۞

كان "راميرو" يخطط لإقامة حفل كبير، بمناسبة عيد ميلادي التاسع عشر. أحببت فكرته بدعوة جميع أصدقائنا للحفل الراقص. احتفالي به الآن هو الأكثر بؤسًا.. سأخرج لتناول العشاء مع ماما و"دانييل". لم أستطع الرفض، لأنها تبذل مجهودًا خارقًا، لتبقي فمها مغلقًا، وتتجنب تأنيبي؛ لكنني طلبت منها عدم دعوة "آميليا" و"آلفونسو". أحست بالغضب، وسألتني باستنكار:

- ولِمَ لا؟ إنهما جدّاكِ.

- لأنني أفضّل عدم وجودهما. هذا كل ما في الأمر يا ماما.

لم تقل شيئًا، لكنها ذرفت بعض الدموع أمامي، ثم انصرفت. إنها مصرة على إشعاري بالذنب؛ لكن أفضل نتيجة حققتها برحيلي عن البيت، هو أنها باتت تسيطر على أعصابها عند التعامل معي. في بعض الأوقات، توشك على البدء في التشاجر معي، لكن نظرة واحدة مني كفيلة بإسكاتها. أظن أنها تخشى أن أكرر الأمر، مرة ثانية. استقلالي بحياتي يسبب لها حرجًا بالغًا.

"راميرو" غاضب مني للغاية. جاء إلى الجامعة مؤخرًا، عقب محاضراتي، وقال لي إن إنهائي لعلاقتنا عن طريق خطاب، دليل على أنني جبانة وأنانية. معه كل الحق. استمعتُ إليه، ثم صارحته بأنني لا أستطيع العودة إليه، حتى لا أفسد حياة الجميع؛ لكن غضبه منعه من استيعاب ما قلت. طلبت منه أن

يتوقف عن لقائي والاتصال بي. غادرني وهو يظنُّ أنني لا أحبُّه. أنا أعشقه، ولكنني لا أقدر على الاستمرار في علاقتنا. ليس الآن.

أحتاج لمعرفة الكثير من الأشياء، أولها المعلومات المتعلقة بـ"آلفونسو"، لكنني لا أملك وسيلة للبحث والمعرفة، فألجأ إلى ماما وأسألها عنه، وعن مدى تورطه في قمع الناس وكبتهم، وعن أفعاله وتصرفاته. بدلًا من أن تجيبني، تقابل استفساراتي بسؤال مستنكر:

- ماذا تقصدين؟ وما هدفك من هذا الكلام؟

- أريد أن أعرف، لأنني أسمع الكثير عن تلك الحقبة ولا أعرف الحقيقة، ولا أدري مدى تورطه في فضائح المعتقلات والتعذيب و...

قاطعتني ماما قائلةً: إن جامعتي هي السبب في بلبلة أفكاري، فلو أنني التحقت بـ"بيلجرانو" لما اضطررت لمخالطة الشيوعيين والتأثر بأفكارهم المناهضة للجيش. قالت:

- الذنب، في الأساس، يقع على ذلك البغيض "آلفونسين".. هو مَن بدأ حملات تشويه الجيش. انظري كيف أصبح حال البلد متردّيًا على يديه! لم نشهد مثل هذا التضخم قط.

اعتادت و"دانييل" على ترديد أن حكومة "آلفونسين" الكارثية، تسير بنا نحو الهاوية. طلبت منها أن تجيب عن أسئلتي.

- حسنًا، في وقت من الأوقات حاول المخربون الاستيلاء على السلطة وإدارة البلد، لكن الجيش قام بالتدخل لإنقاذ الدولة والمواطنين. الحقيقة أننا كنا في حالة حرب. حرب بمعنى الكلمة يا "لوث". بابا كان من أهم من قاتلوا فيها، وأنا فخور به. عليك أنت أيضًا أن تفخري بجدك وإنجازاته العظيمة.

ثم أخذت تنتقد كيف أن الناس هذه الأيام يتناسون ما فعله الجيش من أجلهم، ويتصرفون كأنهم أصيبوا بفقدان ذاكرة. أخذت بعدها تستجوبني لتعرف سبب فضولي المفاجئ. علقت:

- لا شك أنك وقعت ضحية رفاق السوء.

حين تبدأ ماما في ترديد عبارات جوفاء كهذه، فإن السكوت هو الحل الأفضل لعدم مجاراتها في حوارات لا طائل منها. لا أريدها أن تغضب مني، ولا أريد أن أندفع في الكلام معها حتى لا أجد نفسي أتفوَّه بكلام لا أعنيه.. وبخاصة أنني أشعر في داخلي بأنها السبب في انفصالي عن "راميرو".

على أي حال، لا يمكنني العيش مع "راميرو" حاليًا. ظروفي لا تساعدني على الاستمرار معه. لا أدري إن كنت قوية بما يكفي لألتزم بقراري بالابتعاد، لأنني أشعر بشوق جارف إليه. ما جدوى أشواقي إن كانت العلاقة محكوم عليها بالفشل. عليّ أن أنتبه لدروسي وامتحاناتي، وأن أشغل وقتي قدر الإمكان حتى لا أفكر في "راميرو".

تفعل "لوث" كل ما بوسعها.. تذاكر، وتذهب إلى الشاطئ، وتخرج مع أصدقائها.. لكنه عالق ببالها طوال الوقت.

استطاعت "ماريانا" و"لوث" تجنب شجاراتهما المعتادة، لبعض الوقت. التزمت "ماريانا" الحذر في تعاملها مع ابنتها، خشية أن تدفعها للهروب من البيت؛ ولكن عند حلول شهر يناير، وفي أثناء قضائهما للإجازة الصيفية في "بونتا ديل إيستي"، تعالت أصوات صياحهما المتبادل في جدال عنيف.

أرادت "لوث" أن تعود إلى "بوينس آيرس"، لكنها كانت تعلم أن "ماريانا" ستمنعها، ولذلك قررت أن تقبل دعوة "لورا" و"خافيير" لزيارتهما، والتي وجهاها لها في أثناء حديثهما معها على التليفون، في الكريسماس.

بقيت "لورا" على اتصال بـ"لوث"، رغم ندرة اللقاءات. سمحت لها "ماريانا" بزيارتهما مرة واحدة، منذ بضع سنوات، عندما كانت في الثالثة عشرة. حينها، كانت "ماريانا" قد سافرت مع "دانييل"، ولم يكن "آلفونسو" و"أميليا" في "بوينس آيرس" لتقيم لديهما. ما زالت "لوث" تتذكر الأسبوعين السعيدين اللذين أمضتهما في المزرعة.

تعمَّدت "لوث" ألا تُشعِر "ماريانا" أن سبب رغبتها في مغادرة "بونتا ديل إيستي" هو خلافهما الأخير، ولذلك قالت لها إنها ترغب في زيارة عمِّها وزوجته. حين لمحت بوادر الرفض في عيني أمها، أخبرتها بأنها بحاجة لجو هادئ تستذكر فيه دروسها، لقرب امتحاناتها في شهر مارس. نظرت إليها "ماريانا" بريبة:

- تستذكرين دروسك في "إنتري ريوس"؟! ما أسخف الفكرة! الطقس هنـاك حـارٌّ جـدًّا ولا يطاق، في هذا الوقت من السنة؛ كما أن الأجواء هناك مملة وتبعث السأم في النفس. عـلى أي حال، إن كنتِ تكذبين عليّ يا "لوث"، فسوف أكتـشف ذلـك عـاجلًا أم آجـلًا.. لأننـي سأتـصل بـ"خافيير" و"لورا" للتيقن من قصتك.

- لا بأس.. اتصلي بهما الآن إن أحببتِ، لأنني قلت لـ"لورا" أن تنتظـرني الإثنـين، أو الثلاثـاء على أقصى تقدير.

&

عندما عدتُ من ركوب الخيل، كانت "لورا" في المنزل بمفردها. أخبرتني بـأن ماما اتـصلت في أثناء غيابي. نظراتها ـ كالعادة ـ تفضح مشاعرها الكارهة لماما.

الحقيقة أن كلتيهما تكره الأخرى. أعرفُ ذلك، رغم أن أيًّا منهما لم تقل ذلك صراحةً. بـين الحين والآخر، تقول ماما عن "لورا" أحد تعليقاتهـا الـسخيفة، مثـل أن صـوتها مرتفـع لدرجـة تتعب الأعصاب، أو أنها فظَّة وتفتقر إلى اللباقة؛ وعندما تزور "لورا" "بوينس آيـرس"، تـتحجج ماما بأي شيء، كيلا تقابلها.

أسألها:

- ماذا قالت؟ هل طلبت أن أعاود الاتصال بها؟

تنظر إليّ "لورا" بتمعن، قبل أن تقول:

- لقد طلبت مني أن أراقبك، لأنك تمرين بمرحلة حرجة.

تضيف بعد لحظة:

- ما الأمر يا "لوث"؟ هل تودين أن نتحدث في الأمر؟

كنتُ شِبه متيقنة من أن ماما لم تخبر "لورا" بأنني تركت البيت وذهبـت لأعـيش في شـقة "راميرو"، لأنها تجد الأمر بأكمله مخجلًا؛ لكنها في الوقت ذاته تشعر بقلـق بـالغ مـن أن أكـرر الأمر، ولذلك فقد تكون صارحتها بما حدث.

أحسدُ ابنيّ عمي "فاكيندو" و"كلوديا" على علاقتهما بـأبويهما، وربمـا هـذا مـا دفعني في نهاية المطاف لأن أفتح قلبـي لــ"لـورا"، وأحـكي لهـا كـل شيء. أخبرتهـا بحبي لـ"راميرو"، وقلت لها ما كان يجب أن أقوله في حـوار هـادئ مـع مامـا، لـو

كانت علاقتنا طبيعية؛ وصارحتها بأنني تركت البيت لكي أعيش معه. حين رأيت الصدمة على وجه "لورا"، أدركتُ أن أمي لم تخبرها شيئًا، كما توقعت في البداية.

- هل انتقلتِ للسكن في منزله حقًّا؟ لا بد أن أمك كانت في أقصى حالات الغضب.

ابتسمت "لورا" بسعادة. لا بد أنها تخيلت وجه أمي المنزعج.

- نعم، ورفضت أن أعطيها عنوانه أو رقم تليفونه.

- ما الذي حدث إذًا؟ لماذا عدتِ إلى البيت مرة أخرى؟

قصصتُ عليها كل شيء. تأثرت حين رأيت تعاطفها مع "مارتا"، عندما أخبرتها بخوفها الشديد عقب محادثتها مع ماما.

- نعم، بالطبع.. خوفها منطقي.

- لماذا؟

ظهر عدم الارتياح على "لورا"، وتململت في جلستها، ثم شرحت لي باستفاضة ما كان يعيشه الناس من خوف وتعذيب وقتل، تحت حكم الجيش.

ꕥ

- كانت "لورا" هي التي جعلتني أنتبه إلى الجوانب الغامضة في حياتي، قبل حتى أن أرتاب في شيء، وأبدأ رحلة البحث عن جذوري. كنا نناقش مشكلة تتعلق بي، حين تطرقنا إلى ذكر "آلفونسو". قالت لي: إن بابا لم يكن يعرف شيئًا عن تصرفات "دوفاو"، واستمر جهله سنوات طويلة، لكنه حين اكتشف ما يحدث، لم يستطع البقاء صامتًا مكتوف اليدين، وهو ما عجّل بـ ... لم تكمل "لورا" عبارتها، لكنني فهمت أنها تقصد "عجّل بموته"، ما يعني أن وفاته لم تكن طبيعية. أدركت أنها تُخفي عني أمرًا. سألتها عنه، لكنها تهربت من الإجابة. لم تقل شيئًا إلا بعد فترة طويلة جدًّا، بعد أن قطعتُ شوطًا طويلًا في البحث عن هويتي الحقيقية.

ꕥ

قصّت عليّ الكثير من التجاوزات التي حدثت خلال الحكم العسكري الديكتاتوري. قالت إنها شكّت، فترةً طويلة، بتورط "آلفونسو" في هذه القضايا، رغم أنها لم تكن تعرف دوره على وجه التحديد. لم تدرك مدى فظاعة

ما قام به الجيش، إلا حين بدأت الصحف في نشر شهادات الضحايا وذويهم، خلال فترة المحاكمات. قالت لي:

- لم أدرك حتى تلك الفترة، مدى وحشية جدك. أنا آسفة يا "لوث".

- ما الذي فعله؟

أخبرتني عن مراكز الاعتقال، والسجون السرية، وقصص التعذيب. أخرجت لي قصاصات من الصحف التي قامت بتغطية المحاكمات؛ وأعطتني كتابًا يحمل عنوان "لن يتكرر الأمر".. يعرض تقرير اللجنة الوطنية الأرجنتينية عن الاختفاء القسري ومَن تعرضوا له.

لم يصدّق "خافيير" أذنيه حين أخبرته "لورا" أنها أعطت "لوث" قصاصات الصحف المتعلقة بقضايا التعذيب.. صاح بانفعال:

- لماذا فعلتِ ذلك؟ أعلم أنك تكرهين "ماريانا"، ولكن هل نسيتِ أن "لوث" ابنتها؟

- "ابنتها"؟! منذ متى؟! هل نسيتَ أنها ليست ابنة "إدواردو" ولا "ماريانا"؟ عليك ألا تنسى ذلك أبدًا. أبدًا يا "خافيير". من أجل "إدواردو" على الأقل.

ظلت "لورا" مقتنعة، بشكل يقترب من اليقين، بأن وفاة "إدواردو" كانت اغتيالًا، لمحاولته الكشف عن أمر يمكن أن يتسبب في حرج بالغ لـ"دوفاو". لم تصدق قط قصة اقتحام اللصوص للمزرعة.

ارتاب "خافيير" أيضًا في قصة السرقة، لكنه لم يكن متأكدًا من أنها غير صحيحة. حاول أن يتحقق من الأمر، في الفترة التي أعقبت الوفاة، لكنه لم يتوصل لشيء. حاول أن يشرح وجهة نظره لـ"ماريانا"، لكنه أصيب بصدمة بالغة حين لاحظ عدم اهتمامها الواضح. اكتفت بالقول: إن الشرطة تبذل ما في وسعها.. وبعد أشهر قليلة انتقلت إلى "بوينس آيرس". لم يتم العثور على قتلة "إدواردو"، ولم تبالِ "ماريانا" بإبقاء التحقيقات مفتوحة. "خافيير"، في الواقع، لا يصدق أن "آلفونسو" وابنته متورطان في قتل أخيه.

بعد أيام معدودة من الجنازة، كانت "ماريانا" تتحدث إلى "خافيير" و"لورا" ومجموعة من الأصدقاء المشتركين. راحت تخبرهم عن العلاقة القوية التي ربطت بينها وزوجها الراحل، وعن الحب العميق الذي جمعهما للنهاية. ادّعت أيضًا أنه،

قبل وفاته ببضعة أيام فقط، صارحها بأنها زوجة رائعة، وأنه ما كان سيجد أفضل منها قط. ظلت تكيل المديح لنفسها، على لسان زوجها الراحل.

غضبت "لورا" من هذا الكذب الواضح، وفضلت المغادرة؛ لكن "خافيير" برر الأمر بأن "ماريانا" تردد ذلك لتواسي نفسها، من شدة الحزن.

تفتح "لورا" الموضوع مع زوجها، بعد مرور سنوات عديدة، وتستعيد ذلك الموقف تحديدًا:

- إنها كاذبة يا "خافيير".. هذا كل شيء. لقد كان "إدواردو" مصرًّا على الانفصال، في أيامه الأخيرة، فلماذا سيقول لها مثل هذا الكلام؟! كم أكرهها! كل ما يهمها هو كلام الناس..

- لكل إنسان وسيلته الخاصة في التعامل مع أحزانه وآلامه يا "لورا". لا تحكمي عليها بهذه القسوة. ربما كان هناك بعض الخلافات.. ولكنهما كانا يحبان بعضهما بعضًا.

- تظنُّ أنها كانت تحبه؟ لماذا إذًا لم تسعَ لمعرفة الجناة؟ ألم تشك "ماريانا"، ولو لحظة، أن الجريمة مرتبطة بأبيها، بشكل أو بآخر؟

تعمدت "لورا"، منذ أعوام، تجنُّب الحديث عن "إدواردو"، عندما لاحظت الألم النفسي الحاد الذي يعاني منه "خافيير" في كل مرة. يسألها بدهشة:

- لماذا نتناقش في الأمر الآن؟ ما الذي حدث؟

- "لوث". لقد أخبرتني أمورًا عن حياتها، أعادت إليّ إحساسي بالشك. هل تفهمني يا "خافيير"؟

- هل تدركين مدى الضرر الذي ستلحقينه بـ"لوث" إن أخبرتِها بكل ما تفكرين به؟. تذكري أنه جدها.

- إنه حقير، وهو ليس جدها.

- حسنًا، وماذا تنوين أن تفعلي؟ تخبرين "لوث" بأن "ماريانا" و"إدواردو" ليسا أبويها. ماذا ستستفيدين من ذلك؟ حتى أمها الحقيقية اختفت ولم تعد للسؤال عنها.

- صحيح، ولكن ربما قتلوها كما قتلوا "إدواردو".

ꕥ

- حقًّا.. لماذا لم تعد "ميريام" للبحث عنك، مرة أخرى؟

- "ميريام"؟! وماذا عنكَ أنتَ؟ لماذا أقنعت نفسك بتصديق أن مولودك خرج للحياة ميتًا؟ وهأنت تدرك كم كنتَ مخطئًا.. ما زلتُ على قيد الحياة.

لم يقل "كارلوس" شيئًا، بل نظر إليها مستعطفًا. أحست بالندم، فقالت معتذرة:

- أنا آسفة. ما كان يجب أن أقول ذلك، لكنني أحسست بالغضب.

أجابها بلطف بالغ:

- لا عليكِ، أمامنا متسع من الوقت لتخليصكِ من جميع مشاعركِ الغاضبة، ولكن ضعي نفسك مكاني.. الآن وقد بلغت التاسعة والأربعين، أفاجأ بأن لي ابنة كبيرة، ولها طفل.

أضاف ضاحكًا:

- أكتشف أني جدّ!

استعاد صوته رصانته:

- أنتِ تلومينني، وأنا أتفهم غضبك، لكنني أنا أيضًا مجروح ومتألم، وحزين على "ليليانا". حين أخبرتني الآن بكل ما تعرضت له، عاودني إحساسي القديم بالعذاب.

مدت "لوث" يدها وربتت على يده. هي أيضًا حزينة على "ليليانا". شعور غريب أن تحزن على أمك التي لا تعرفها. قالت، بتفهم كامل لأحاسيسه:

- لقد أحببتَها جدًّا.

- نعم، ولا يمكن لأي كلام أن يصف قوة مشاعري تجاهها. وحبنا هو الذي دفعنا لإنجابك. أنت محقة فيما قلتِه في البداية من أن حملها بكِ كان عدم مسؤولية منا ونحن في تلك الظروف، لكن حبنا لبعضنا هو السبب الوحيد في رغبتنا بأن يكون لنا طفل، مهما تكن صعوبة ظروفنا.

- كلامك يسعدني.. جميل أن أعرف أنكما خططتما لوجودي، وأردتما أن أكون جزءًا من حياتكما. لقد عشتُ حياتي مع "ماريانا" و"إدواردو" وأنا مقتنعة بحب بابا الشديد لي وسعادته بي، لكن الوضع لم يكن كذلك مع ماما.. لا أدري.. لعلها أحبتني بطريقتها؛ لم أعرف أبدًا إن كانا حقًّا يحبان بعضهما بعضًا أم لا. على كل حال، تسعدني معرفة أنك و"ليليانا" كنتما مغرمين ببعضكما البعض.

80CS

تقول "لورا" لـ"خافيير":

- لقد تأثرت تأثرًا بالغًا بحواري مع "لوث"، واضطررت إلى أن أقول لها كذبة بيضاء أو اثنتين..

- بخصوص ماذا؟

- سألتني إن كان "إدواردو" و"ماريانا" قد أحبا بعضهما بعضًا، وإن كانا قد خططا لإنجابها.. أم أن "ماريانا" قد حملت بها عن طريق الخطأ. كذبت عليها وأجبتها بأنهما كانا في حالة حب، وكانا ينتظران ولادتها بفارغ الصبر.

- حسنًا، ولكن هذه ليست كذبة. ساءت علاقتهما جدًّا في النهاية، لكنهما أحبا بعضهما بعضًا قبل حدوث ذلك؛ ولكن يسعدني أنك لم تخبريها بتدهور علاقتهما.. ما الفائدة من ذلك على أي حال؟

قالت "لورا" لـ"لوث" إن حبهما بدأ يخفُتُ ويفتر، بسبب اختلاف شخصيتيهما، ووجهات نظرهما السياسية؛ وكراهية "إدواردو" لـ"دوفاو" ونفوره منه.

- لماذا قلتِ لها ذلك؟

يرى "خافيير" أن الأهم هو أن تعرف "لوث" عن تضحيات "إدواردو" من أجلها، وعن شجاعته وتحدّيه لهؤلاء الأوغاد، وعدم استسلامه لهم.

تجيبه "لورا":

- ولكن "لوث" بدت سعيدة جدًّا، حين علمت مني أن "إدواردو" كان رافضًا للحكم العسكري. كان على أحد منا أن يخبرها، من أجل "إدواردو" على

الأقل؛ ولكن لا تقلق، لم أصارحها بأنها ليست ابنة "ماريانا" و"إدواردو"، لأنني أنا نفسي لا أعرف الحقيقة كاملة.

تظنُّ "لورا" أن أبوي "لوث" كانا من المعتقلين الذين اختفوا، ولكنها لم تقل ذلك صراحة لـ"خافيير" قط.

يسألها "خافيير":

- أما زلت تؤمنين بأن "ميريام" تعرضت للقتل؟

تومئ "ميريام" برأسها، وتقول وكأنها تعتذر لها:

- لأنها اختفت بعدها تمامًا، ولم تظهر مرة أخرى.

- لقد حاولت البحث عنها.

تسأله "لورا" بتعجب:

- فعلت ذلك حقًّا؟! لكنك لم تخبرني قط.

- لقد حاولت. فعلت كل ما أستطيع.

قرر "خافيير" أخيرًا أن يصارح زوجته بما قام به منذ سنوات، دون علمها. كان قد ذهب إلى "كورونيل برينجلز"، باحثًا عن "ميريام لوبيز". استطاع أن يحصل على عنوان خالتها، من الناس الموجودين في البار المحلي، الذين يعرفون "ميريام" جيدًا. يقول شارحًا الأمر لـ"لورا":

- بدأت "ميريام" حياتها العملية كملكة جمال، في منطقتها، ثم سافرت إلى "بوينس آيرس" وعملت عارضة أزياء. بعد فترة.. عملت في... مجال آخر. أبناء بلدتها يتحدثون عنها بفخر، وكأنها عارضة أزياء عالمية.

توجه "خافيير" إلى منزل خالتها، وادعى أمامها أنه ممثل لإحدى الشركات الإيطالية الكبرى العاملة في مجال الأزياء، وأنه يبحث عن "ميريام" لتتعاون معهم في عرض تصميماتهم.

سألته "لورا" بمزيج من الدهشة والاعتزاز:

- متى فعلت كل ذلك؟

كان ذلك عقب وفاة "إدواردو" بعامين، وانتقال "ماريانا" و"لوث" إلى "بوينس آيرس". لم يكن يبحث عن الأم الحقيقية للطفلة، بل كان يريد معرفة الحقيقة كاملة..

- كنتُ بحاجة للتأكد أنهم لم يغتالوا شقيقي لإسكاته، وأن المسألة برمتها لا تعدو كونها حادث سرقة ارتكبه لصوص عاديون. أردت أن أرتاح يا "لورا"..

- وماذا اكتشفت؟ هل هي والدة "لوث" أم لا؟

- أظن ذلك. أخبروني أنها تركت عالم الأزياء وتزوجت، وتعيش مع زوجها في الولايات المتحدة. أرجو أن تتفهمي يا "لورا" إخفائي الأمر عنك، طوال هذه السنين.

تحتضنه وتؤكد له تفهمها الكامل.

ꕤ

- أقامت "ميريام" في الولايات المتحدة مع "فرانك"، لكنني أظن أنها لم تنسني يومًا. لقد اضطرت للاستسلام. لم تعد إلى الأرجنتين، لعشرة أعوام كاملة أو ربما أكثر قليلًا. كوّنت لنفسها حياة جديدة هناك. لكنها صارحتني أنها حين عادت إلى الأرجنتين للمرة الأولى، لحضور جنازة حماتها، والدة "فرانك"، كانت تتمنى أن تعثر عليّ. قامت بالاتصال بمنزل "دوفاو"، واستطاعت أن تحصل منهم على رقم تليفون "ماريانا"، لكنها لم تملك الجرأة الكافية لمحادثتي. أعتقد أن زوجها نصحها بذلك.

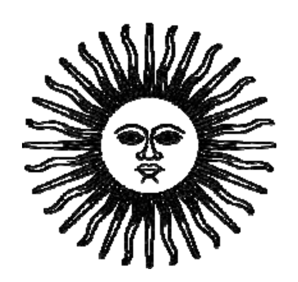
ꕤ

وعدت "لورا" زوجها بأن تلتزم الحذر في كلامها مع "لوث". سوف تكتفي بالإنصات لحكاياتها عن حبيبها..

- إنها بحاجة لشخص تثق به يا "خافيير"، ليستمع إليها بهدوء وتفهم. لا يمكنها فعل ذلك مع "ماريانا". سوف أشجعها على مواصلة لقائه، ما دامت أنها تحبه لهذه الدرجة. تضيف:

- أليست مصادفة غريبة أن تقع "لوث" في حب ابن أحد من تعرضوا للاختفاء القسري، مثل والديها؟

15



أُغلقُ الكتاب، وأخبئه خلف كتب أخرى على الرف في غرفتي. ما زلتُ أرتجف من فرط الانفعال، عقب قراءة الشهادة الأخيرة. أشعر بألم في جسدي، كما لو أنني أنا الحامل التي تتعرض للتعذيب، وتعُد الأيام في انتظار الموت الوشيك. لم أقوَ على استكمال القراءة.. الجندي المكلف بحراستها يقوم باغتصابها وهي في المخاض! ما هذه القسوة التي تملأ العالم؟! تمّ احتجاز ذلك القذر في زنزانة لعشرة أيام عقابًا على جريمته، ثم أطلقوا سراحه.. وكأن شيئًا لم يكن؛ عاود ممارسة عمله بشكل طبيعي، وفقًا لشهادة أحد الناجين. مَن يدري ما مصير ذلك المولود؟ أين أخذوه؟ ومَن الذي تولى تربيته؟ لا أحد يعرف شيئًا عن الأم، والمرجَّح أنها تعرضت للقتل. أن تُقتَل المرأة عقب ولادتها مباشرة، أمر مفزع، ومهين.

يبقى نور غرفتي مضاءً حتى الفجر هذه الأيام. أُمضي ساعات طويلة في قراءة شهادات المعتقلين عن أنفسهم، وعن زملائهم الذين لم تُكتب لهم النجاة. تفتح عيني على عالم المعتقلات والسجون السرية، التي تعرض فيها الرجال والنساء والأطفال والمسنين إلى شتى أنواع التعذيب.. الصدمات الكهربائية، وتعليق الأجساد من مكان مرتفع، والحرق بالولاعات، وتقييد الأطراف.. عانوا جميعًا القذارة الشديدة والتسلخات والقمل. كانوا تحت رحمة القتلة والجلادين.

لم أتخيل يومًا حجم الشر الذي يمكن أن تحتويه النفس الإنسانية.

كان الشر - حتى اللحظة التي بدأت فيها قراءة الكتاب - يحمل بالنسبة لي معنى مختلفًا.. معاملة ماما لي، أو شخصية "دانييل" وأمثاله، أو غدر صديق أو صديقة.. لكن هذا شرٌّ مختلف، لا يصدر إلا عن نفوس مريضة، وقلوب متحجرة..

أتصفح قصاصات الصحف، بأطرافها المصفرة.. تتحول شخصياتها أمامي إلى لحم ودم.. ها هي "بيتريز" تجرّ ساقها المكسورة، وتسير إلى حمام المعتقل. وضع الحراس خطابات أمها لها، مكان المناديل الورقية، لتضطر لاستخدامها في تنظيف نفسها. أتصورها وهي تحاول دسّ الورق داخل ثيابها.. لأنها آخر ما تملكه من أمها التي انتحرت مؤخرًا، بعد إحساسها بالقهر والعجز واليأس لما تتعرض له ابنتها.

هناك الرجل الذي استطاع المحافظة على ثباته، ولم يتعرض للانهيار أو يدلي بأي اعتراف، رغم كل التعذيب الذي تلقاه.. من صدمات كهربائية في اللثة وحلمات الصدر، والضرب بالعصي الخشبية في الأماكن الحساسة، وتشريط قدميه بأمواس الحلاقة.. أراه وهم يجلبون له خرقة مغطاة بالدماء.. "هذا دم ابنتك.. لعلك تنوي أن تتكلم الآن".

طفلته لم تكن تتجاوز الثانية عشرة.

أقرؤها جميعًا، وأشعر بآلامهم وهم يتعرضون لضغوط نفسية قاهرة. تتردد صرخاتهم في زنازينهم الضيقة، وتدوي في أذنيّ. لا أستطيع مواصلة القراءة، لا أتحمل معرفة المزيد.. الوجع ينتشر في كل ذرة في جسدي.

أفكر في "راميرو"، وشعوره عندما قرأ هذه الشهادات، وربط بينها ووالده المسكين.

"آلفونسو" متورط في الحرب القذرة. إنه هو من كان يصدر أوامر التعذيب؛ أما ماما فإنها تجهل كل شيء، بالتأكيد. أنا متيقنة من ذلك. لها سلبياتها وعيوبها، لكنها ليست شريرة. أنا أعلم ذلك. سألت نفسي كثيرًا عن هذا الأمر مؤخرًا، لكن شهادة ضابط صف يدعى "يورايان" حسمت المسألة، إذ قال: إن الأوامر كانت سرية للغاية. هذا يعني أن "آلفونسو" لم يخبر أحدًا بطبيعة وظيفته، ولا حتى "آميليا" على الأغلب، ولا ماما بكل تأكيد.

يخطر ببالي تساؤل عمّا كانت تفعله أثناء محاكمات منتصف الثمانينيات الشهيرة؟ لا أتذكر أن أحدًا في بيتنا قال شيئًا عنها، ولو عرضًا. ترى هل حضرت ماما أيًّا من الجلسات، وبخاصة أنها كانت عامة؟

إنها في حجرتها. سأذهب لأستفسر منها عن الموضوع.

تنظر إليّ، وقد عقدت الدهشة لسانها.. تقول أخيرًا وقد عقدت حاجبيها بغضب:

- ما هذا السؤال يا "لوث"؟ لا بد أنك جننتِ! ما الذي سيدفعني لحضور تلك الجلسات السخيفة، والاستماع إلى حفنة من الأكاذيب التي يرددها مجموعة من الأشخاص منعدمي الوطنية؟

تضيف باستنكار:

- وذلك بدلًا من أن يشكروا من قاموا بإنقاذهم من خطر المخربين، أعداء الوطن!

لم أرَ ماما تتحدث بمثل هذه الحماسة، والاقتناع المطلق، من قبل.

- حسنًا.. ألم تقرئي ما كُتب في الجرائد حينها عن المحاكمات وما قيل فيها؟

صاحت بغيظ:

- محاكمات بلهاء! وأي حق لديهم في محاكمة الجيش أصلًا؟ من يظنون أنفسهم؟!

- لم تكن بلهاء.. كان بها قضاة ومتهمون وشهود ودفاع.. وكل شيء.

- حسنًا.. وما الذي حدث في النهاية؟ لا شيء. حصل الجميع على البراءة، عدا كبار المسؤولين الذين ثبت تورطهم في إصدار الأوامر. الباقون كانوا يطيعونهم فقط.

استطردت "ماريانا":

- على كل حال، لا تظني أنني موافقة على الحكم الذي صدر ضد القيادات العليا؛ على العكس.. هؤلاء الأشخاص كانوا يخوضون حربًا غير تقليدية، واستطاعوا أن يحافظوا على البلد في النهاية.

أحاول أن أحافظ على هدوئي، لأستخلص منها الحقيقة:

- ماذا تعنين بـ"حرب غير تقليدية"؟

أفكـر، في الوقـت ذاتـه: "إنهـا تجهـل تفاصـيل الفظاعـات التـي ارتكبوهـا في حـق هـؤلاء الأبرياء".

تجيبني ماما:

- لم تكن حربًا تقليدية، لأن الخصم لم يكن عدوًّا خارجيًّا، بل من أبناء الـوطن، لهـذا كـان على القوات المسلحة استخدام تكنيك مختلف في التعامل معهـم. ربمـا تجـاوزوا حـدودهم في بعض الأحيان، لكنها حرب على أي حال، وكل شيء مباح في الحروب.

أردت أن أسـألها إن كانـت تعتقـد أن اختطـاف النـاس مـن قبـل أشـخاص ملثمـين، واصـطحابهم إلى جهـات مجهولـة، يُعـدّ جـزءًا مقبـولًا مـن الـصراع؟ أم هـل إن إطـلاق النـار والتعذيب أكثر قبولًا؟ لكنني ألتزمُ الصمت، وأفـضّل الاسـتماع إليهـا، لمعرفـة رأيهـا.. تـستكمل حديثها:

- الحقيقـة أن أفـراد الجـيش قـاموا بحمايتنـا جميعًـا، ومـا الـذي فعلـه ذلـك المعتـوه "آلفونسين" في المقابل؟ شوّه سمعتهم، ودمّر البلد أيـضًا يـا "لـوث". أنـتِ لا تتـذكرين مأسـاة التـضخم التـي عاناهـا الجميـع، ذلـك لأننـا حرصـنا عـلى ألا نحرمـكِ مـن أيّ مـن متطلباتـك واحتياجاتك.

تضيف باستهزاء:

- ولكنك ما دمتِ مهتمة بالفقراء، وتتعاطفين معهم، فعليكِ أن تدركي أنه هـو مـن جعـل الأوضاع أسوأ بالنسبة لهم. كانوا يعانون الأمرّين لتوفير احتياجاتهم الغذائية.

تشعل سيجارة، وتعلق:

- رغم أنهم معتادون صعوبة العيش، بالطبع. معاناتنا نحن، كانت أكـبر. فقـدنا امتيـازات كثيرة، وتأثر أسلوب حياتنا المرفه، وبِتنا مهددين بفقد ممتلكاتنا أيضًا!

- ماما.. أنتِ تحاولين تغيير الموضوع! أجيبي عن سؤالي مـن فـضلك.. هـل قـرأتِ ملخـص تلك الجلسات، في الصحف؟ هل شككتِ يومًا في التبريرات التي ساقها والدك؟

عليّ أن أقول كل ما يدور في خاطري:

- هل أخبركِ بأنهم كانوا يسوقون الناس بالمهاميز المخصصة للماشية؟ هـل ذكـر لـك شـيئًا عن الاستيلاء على مواليد السجينات الحوامل بعد قتلهن؟

تصرخ عليّ بكل قوتها:

- ما هذا الهراء يا "لوث"؟ هذا كذب! كلهم يكذبون! كما حدث في قصة الولـدين التـوأم.. ألا تتذكرينها؟

تحاول السيطرة على انفعالها، وتقول بهدوء:

- ألا تتذكرين حين ظهرًا على شاشة التليفزيون، وقـالا إنهـما يفـضلان العـيش مـع أمهـما، لكنهم يجبرونهما على الإقامة في بيت رجل غريب؟ وادعيا أنه يمنعهما من مواصـلة تعلـيمهما في المدرسة الكاثوليكية؟ ألا تتذكرين تلك الحكاية؟ ما الذي اتضح بعد ذلك؟

لا فائدة. لا أتحمل سماع المزيد من هذا النقاش العقيم.

- كلا يا ماما.. الحقيقة أنني لا أتذكر. لا يهم. أفهم قصدك. سأعود إلى غرفتي.

كانت تقف في مواجهة النافذة، وأضواء الطريق تتساقط على وجهها عبر الستارة الرقيقـة، وتحيطها بأجواء درامية. تستوقفني بندائها:

- "لوث"!

تستطرد، بعد لحظات صمت، كأنها كانت تبحث عن الكلمات المناسبة:

- لماذا وجهت لي كل تلك الأسئلة؟

- لأنك لم تأتِ على ذكر الموضوع، ولو لمرة. جرت هـذه الأحـداث وأنـا صـغيرة، ولا أعـرف عنها شيئًا. علمت مؤخرًا، وكنت أتساءل إن... لا بأس.. الأمر غـير مهـم عـلى الإطـلاق. فلنـنسَ المسألة.

تريحها إجابتي، فتنبسط ملامحها المتوترة. يبدو أن "آلفونسو" لم يصارحها بـشيء، وأنهـا - بدورها ـ لا ترغب في معرفة شيء، بسبب حبها الشديد لأبيها.

أتذكَّرُ ردَّ فعل "راميرو" حين عرف بأنني حفيدة "آلفونسو دوفاو". إنه معذور، وأنا أتفهم مشاعره تمامًا. لو كنت مكانه، لشعرت أنا أيضًا بالتقزز والغثيان ممن يمت بصلة لمن قام بتعذيب أحد أبويّ. عليّ أن أتصل به، لأخبره بذلك.

تستمع "لوث" إلى صوت "راميرو" على آلة الـ"آنسر ماشين"، في المرتين اللتين اتصلت به فيهما. تجد صعوبة في محادثته، رغم تشجيع "لورا" و"جابي" لها بالتواصل معه. تقول لـ"جابي":

- لا أدري إن كان لا يزال يحبني. أظن أنه نسيني، فقد أخبرتني "فاليريا" أنه ارتبط بامرأة تكبره سنًّا.

- وماذا كنتِ تتوقعين أن يفعل؟ يبقى إلى جوار التليفون طوال الوقت في انتظار أن تتكرمي بالاتصال به؟ كيف له أن يعلم أنك ما تزالين مغرمة به؟ صارحيه بمشاعرك، بشكل واضح. وماذا لو ارتبط بامرأة أخرى، فعلًا؟ إن كان يحبكِ حقًّا، فلن يعدم وسيلة للانفصال عنها والعودة إليكِ.

- لعب "راميرو" دورًا أساسيًّا في دفعي للبدء في رحلة البحث عن جذوري. هو مَن فتح عينيّ على ما كان يحدث، وساهم في تشكيل وعيي، وأمدّني مع "لورا" بمواد أقرؤها وأعرف منها الحقائق. كلها أمور مهمة، والأهم منها اشتراكي في المظاهرات التي خرجت بمناسبة الذكرى العشرين للانقلاب. يمكن اعتبار ذلك اليوم نقطة تحول في حياتي.

أضافت بابتسامة عريضة:

- على أكثر من صعيد..

ظلت عبارة "حاربي من أجل حبك"، والتي نصحتها بها "لورا"، ترن في أذنيها طوال الوقت، لكنها كلما استرسلت في قراءة شهادات ضحايا المعتقلات، زاد اقتناعها بأن علاقتها بـ"راميرو" محكوم عليها بالفشل التام، ولا أمل في نجاحها بتاتًا.

كان "راميرو" يتأهب للخروج للقاء "مونيكا" ومجموعة من أصدقائه، في مقهى قريب من "كونجريسو"، لينطلقوا منه إلى المظاهرة، حين رن جرس التليفون. تساءل بشغفٍ إن كان المتصل هو "لوث"؟ انزعج من نفسه لتفكيره الدائم بها. يذكر نفسه بأن الأمر انتهى تمامًا، وأن علاقته بـ"مونيكا" جيدة، رغم افتقاده الشديد لـ"لوث" وحنينه لها.

يعلق "رافاييل":

- "مونيكا" فاتنة للغاية يا "راميرو"، فلماذا ما زلت تفكر في تلك الحيوانة التي هجرتك واختارت الانسحاب من حياتك؟

- لكنني لا أفكر بها.. حسنًا.. قليلًا ربما. لا، بل أكثر مما يجب.

قال "رافاييل" بثقة:

- تفكر بها لأنها هي التي هجرتك، هكذا هو الحال دائمًا؛ لكن الحقيقة أنكما لو بقيتما معًا، لكنت أنت من بادر بتركها، خلال شهر على الأكثر.. دون تردد.

يدرك "راميرو" أن صديقه مخطئ تمامًا. إنه يحب "لوث" جدًا، ويتمنى لها الخير حتى لو بقيت بعيدة عنه. ليتها تبتعد عن عائلتها الملعونة، وتعيش حياتها بشكل أفضل. سوف ينصحها بذلك، حين تهدأ جراحه ويتمكن من محادثتها. هناك لحظات يصبح فيها الألم أكبر من أن يُحتَمَل.. تلك التي تسبق النوم مثلًا، أو حين يرقص مع أحد. مضت عدة أشهر، دون اتصال واحد منها. إنها تعيش تحت رحمة أسرتها وتحكماتهم..

يقول لنفسه إنها حفيدة "دوفاو"، ما يجعل مسألة ارتباطهما مستحيلة.

༄༅

- في ذلك اليوم، وبينما كل واحد منا، أنا و"راميرو"، يسير مع أصدقائه باتجاه ميدان "بلازا دي مايو"، سيطرت علينا الفكرة نفسها.. علاقتنا محكوم عليها بالفشل.

༄༅

الصيحة الموحدة هي "لن يتكرر الأمر"، تمامًا مثل عنوان الكتاب؛ حين تصدح بها آلاف الأصوات في اللحظة نفسها، تولد في نفسي مشاعر جديدة، لم أعرفها مطلقًا.

يرتفع صوتي وأنا أهتف مع أصدقائي وزملائي من الجامعة، ونحـن في طريقنـا للميـدان. أشـعر بالأخوّة نحوهم جميعًا. يتغير الهتاف، ويصبح "لن ننسى الدم".

أتنبه بغتةً إلى أن هذا الدم تحديدًا يغطي يديّ "آلفونسو"، وأنني أعيش مكرهة مـع ابنتـه.. لكنها أمي، لحمي ودمي.. أرفع صوتي معهم قدر استطاعتي، علني أنسى هذا الواقع. أبتعـدُ عـن أصدقائي، شيئًا فشيئًا، وأندس وسـط جمـوع النـاس. أشـعر بـأنني واحـدة مـنهم. أسـير بمحـاذاة مجموعة تطلق على نفسها اسم "إيخوس" أو الأبناء.. إنهم أبناء المعتقلين المختفين. تقفـز صـورة "آلفونسو" في رأسي.. ماذا لو عرف هؤلاء الناس أن أحد أفراد عـائلتي هـو المـسؤول عـن اختفـاء ذويهم؟ يلفني إحساس بالخزي والعار، فأبتعد عنهم بسرعة. أواصل الـسير، دون تحديـد هـدفي. كل ما يشغلني هو الاقتراب من جميع الناس، قدر الإمكان، رغم إحساسي العميق أنه لا يحـق لي أن أكون هنا من الأساس. أنتبهُ من أفكاري على ملامح المرأة التي تعلـق صـور أبنائهـا المختفـين، حول رقبتها. أنظر إلى زميلاتها.. جميعهن مسنات، ويلبـسن "إيـشاربات" بيـضاء عـلى رؤوسـهن. ربما هذه من قرأت عنها.. التي اختفى أولادها الثلاثة تباعًا، دون أن تعرف كيـف ولمـاذا؛ أو ربمـا هي أم الفتاة المراهقـة، ابنـة الخامـسة عـشرة سـنة، التـي أخـذوها عقـب مـشاركتها في حملـة للمطالبة بتخفيض رسوم الاشتراك في الباص المدرسي، ولم تعد أبدًا.

أشعر بغصّة، وأوشك على البكاء. أسير في الاتجاه الآخر، أراقب شخـصًا يهتـف بحماسـة لا يتناسب مع عينيه الضعيفتين ووجهه الحزين، ربمـا كـان الرجـل الـذي شـهد تعـذيب زوجتـه واغتصابها أمامه، يومًا تلو الآخر. لا أريد أن يعرفني أيًّا مـن هـؤلاء النـاس، ولا أن يعرفـوا مـن هي أمي، ومن هو جدي.. فجأة أشعر بيد تقبض على ذراعي، فأشهق من شدة الخـوف.. إنـه "راميرو".. يحدّق بي.. إنه يعرف كل شيء عني.. أشعر بالخجل لوجودي هنا. جدي قتـل أبيـه.. كيف لنا أن نكون لبعضنا يومًا؟ لكنه لا يقول شيئًا، ويواصل التمعن بي، وهو ممسك بذراعي. يبدو مندهشًا. أختلس النظر إلى الشابة التي تقف بجـواره، وأحييهـا بابتـسامة مغتـصبة، ثـم أستدير وأهم بالرحيل.. لكنه يستبقيني:

- سعيدٌ جدًّا لرؤيتك هنا..

أهمس في أذنه:

- أنا أعذرك لإحساسك بالغثيان، وتقززك مني، حين علمتَ أنني...

لا أتمكن من استكمال الجملة، فأمشي بسرعة وأختبئ في الزحام. أردت أن أصارح "راميرو" بأنني أشمئزُّ من نفسي. تتسارع نبضات قلبي. أتوقف لألتقط أنفاسي. أهتف مع الناس: "لن يتكرر الأمر.. لن يتكرر الأمر..".

تلتف يدان حول خصري. ألتفت لصاحبهما في استغراب.. إنه "راميرو". يناديني مرات متوالية:

- "لوث".. "لوث".. "لوث"..

إنه يعرف مَن يكون جدي، لكنه متمسك بي، ويحتضنني. أشعر بأنهم جميعًا يحتضنونني معه، ويؤكدون لي: "لا بأس.. كل شيء على ما يُرام. يحق لكِ أن تكوني معنا..".

يعلو صوتي معهم:

- لن ننسَى الدم..

لقد اتخذت قراري.. بعقلي وقلبي.. أنا منهم، ولن أنسَى الدم، ولن أسامح.

يمضيان ساعات طويلة معًا في الميدان. يستمعان إلى مشاهير المطربين الذين أشعلوا الحماسة بأغانيهم.. "فيتو باييز"، و"تيريزا بارودي"، و"ليون زييكو". يتجهان لاحقًا إلى أحد المقاهي، حيث يتبادلان حوارًا مترددًا، وليس صادقًا تمامًا؛ وينتهي بهما الأمر داخل شقة "راميرو".. حيث يتخلصان من سوء التفاهم الذي فرّق بينهما، ومن ثيابهما أيضًا.. الدفء المنبعث من جسديهما وأيديهما وشفاههما، كان كفيلًا بتقريب وجهات النظر، وإزالة أي عوائق متخيلة. يمارسان الحب بنهمٍ شديد، يعوضان به الأوقات التي ضاعت منهما. حين تقرر "لوث" المغادرة، يتبادلان قبلة طويلة، ويفترقان في صمت، دون أن يقول أحدهما: "سوف أتصل بك"، أو "أراك قريبًا".

ꙮ

لم يطلب مني "راميرو" البقاء، ولم أستفسر منه عن صاحبته الجديدة؛ لكننا استمررنا بعدها في اللقاء يوميًّا، دون أن نحاول تحديد شكل علاقتنا، أو

مصيرها. سمحنا لنفسينا بالتمتع بالسعادة، وتعمدنا ألا نجهد أنفسنا بالتفكير. تحدثنا مطوّلًا الليلة الماضية، فصارحته بالمشاعر التي انتابتني في أثناء المظاهرة.. وكيف أنني أحسستُ بالخجل والعار لأنني حفيدة الرجل الذي أخفى أبناء أولئك العجائز وبناتهنّ. قلت له: إنني قررت مناصرة القضية، وأنني ـ مثلهم جميعًا ـ لن أنسَى أو أسامح. قال:

- ولكنكِ ما تزالين تقيمين معهم!

وافقته على أن بقائي معهم، وقد تغير تفكيري على هذا النحو، يعدّ أمرًا سخيفًا، ويفتقر إلى المنطق؛ وقلت وأنا أغالب خوفي:

- إذًا سأبقى معك هنا.. منذ الليلة إن أحببت.

- حسنًا.. لكنك لم تخبرِي أمك.

حرصت على أن أثبت له أنني لن أتراجع عن موقفي. أرفع سماعة التليفون، وأتصل بماما. أقول لها:

- لن أعود إلى البيت الليلة.

ثم أغلق الخط. يضمُّني "راميرو" بسعادة. أسأله:

- ألا زلتَ تريدني أن أبقى معك؟

- بالطبع!

- أيًّا كان ما ستفعله ماما؟

- نعم.

وهأنا في طريقي للبيت، لأجمع حاجاتي، وأعدّ حقائبي، وأخبر ماما بالأمر. أنا خائفة جدًّا، لكنني أرغب فعلًا في تنفيذ هذا القرار. لا يهمني ما سوف تقوله أو تفعله.. سأعيش مع "راميرو" في بيته. ترتجف يدي وأنا أفتح باب البيت، وأرتعد وأنا أتخيل رد فعلها. سأصعد إلى غرفتي أولًا، وأحزم حقيبتي، ثم سأتوجه إليها لأبلغها قراري. ربما كان من الأفضل أن أترك لها رسالة قبل مغادرتي، بدلًا من مواجهتها، فما جدوى الكلام معها؟ كلا، لا يمكنني ذلك. إنها ليست في غرفة المعيشة. ألمح "كلوديا" الخادمة، تقول لي بنبرات متوترة:

- والدتك في غرفتها. اذهبي إليها بسرعة. إنها في حالة سيئة.

لا بد أنها في أقصى حالات الغضب بسبب مبيتي البارحة خارج البيت. يبدو أنها تضايقت لدرجة أنها ثارت على الخدم، وجه "كلوديا" ـ التي يبدو أنها تغالب الرغبة في البكاء ـ ينبئني بذلك. أسير في الممر المؤدي لحجرة نومها، فيأتيني صوت نحيبها. ما هذا الجنون؟! عدم نومي في البيت لا يستدعي كل هذا! أسمع صوت "دانييل"، في همهمات لا أتبينها. كنتُ أُفضِّلُ عدم وجوده وأنا أخبر ماما بقراري، ولكن ما باليد حيلة. حين أدخل، أفاجأ بمنظرها وانهيارها على فراشها.

يقول "دانييل" باقتضاب:

- لقد تُوفِّيَ جدُّك.

تعتدل ماما في جلستها، وتلقي بذراعيها حولي وهي تبكي بحرقة. إنها لا تقول شيئًا، ولا تعاتبني على ما بدر مني البارحة. تتضارب مشاعري.. أنا سعيدة لأنني أراها متألمة، وهو ما يشعرني بالذنب؛ وفي الوقت ذاته يملؤني إحساس بالمحبة نحوها، وأشعر بأننا متقاربتان للمرة الأولى ربما. أحتضنها بقوة، وتنهمر دموعي..

- كيف ومتى حدث ذلك؟

- جلطة. اتصلت "آميليا" لتخبرنا. مات على الفور.

ꕥ

صندوق النعش مُغطًّى بعلم البلاد. لا أدري من يكون ذلك الأبله الذي يرتدي زيًّا عسكريًّا، والذي راح يردد مآثر جدي. أفضل ألا أستمع إليه. ماما تضغط على يدي بأصابعها. لا أريد أن أفسد علاقتنا بغضبي، وقد تحسنت للمرة الأولى. ماما تحبني، وإلا لما تشبثت بيدي بهذه الطريقة. تتركني، وتقف مع أمها وأختيها عند النعش. أنظر إليهن وأنا أفكر بأنهن ـ على الأقل ـ رأين المُتوفَّى وقمن بتوديعه.. ولكن ماذا عن الآلاف في هذا البلد، الذين لم يروا أحباءهم عند وفاتهم، ولم يستطيعوا توديعهم بالشكل اللائق، بسبب ذلك الملعون الذي يرقد الآن ملتحفًا العلم؟ أنظر إلى الجنود الملتفين حوله باعتزاز وانتباه.. كيف يجرؤون على الظهور بين الناس عقب كل ما فعلوه؟

يُنزِلون الصندوق الخشبي الذي يضم جثمان جـدي في القـبر، باسـتخدام سلاسـل غليظـة. ترى هل احتكت سلاسل قيود السجناء، مصدرة الأصوات نفسها يا "آلفونسو"؟ كم أنا سـعيدة لوفاتك، ولأنني لن أراك مرة أخرى.. أيهـا الخنزيـر الحقـير.. أيهـا المجـرم القاتـل. أفـراد الأسرة يبكون ويمسحون دموعهم الغزيرة، بينما أوجه له سيلًا من السباب في رأسي. أشـعر بالغثيـان. تدنو مني ماما، وتحتضنني. أُذكِّر نفسي بأنها بحاجة لي، وعـليّ أن أسـاعدها لتتجـاوز محنتهـا، بغض النظر عن موقفي من أبيها.

ﷺ

يجد "راميرو" صعوبة بالغة في تفهم موقف "لوث"..

- لم أشعر قط أننا متقاربتـان لهـذه الدرجـة، في حيـاتي؛ فكيـف أسـتطيع الآن تحديـدًا أن أبلغها بأنني سأرحل وأتركها؟ أعلم أنه كان شخصية حقيرة، لكنـه والـدها. أمـا هـي... لا أدري كيف أصفها.. لكنها، وإن كثرت عيوبها، تبقى أمي. للمـرة الأولى، تحتـاجني. أعـرف أنـك تجـد سلوكي غبيًّا ولا معنى له، ولكن عليّ أن أصارحك بأنني سعيدة بخدمتها.. بإحضار فنجان شـاي لها، وبالجلوس إلى جوارها وهي تنظر بشرود عبر النافذة، باحتضاني لها وهي بهذا الضعف..

تستطرد "لوث"، قائلة:

- الأمر لا يتعلق بها وحدها يا "راميرو"، بـل بي أنـا أيـضًا. أنـا مـستمتعة بالـشكل الجديـد لعلاقتي بها.

تضيف برجاء:

- يمكننا الانتظار قليلًا، أليس كذلك يا "راميرو"؟ فترة قصيرة فقط. عنـدما تتحـسن حالتهـا النفسية، بعض الشيء، سأنتقل إلى بيتك على الفور.

ﷺ

تأخرت دورتي الشهرية لأكثر من عشرة أيام. لم أخبر "راميرو" بذلك في البداية، لأنني أعرف أنه غاضب مني قليلًا بسبب إصراري على البقاء مع أمـي. صـارحته بـالأمر الليلـة الماضـية. لم أتوقع رد فعله.. ابتسم بسعادة، ثم راح يقهقه بمرح.

- ما الذي يضحكك؟ هل تدرك معنى ما قلته لك للتو؟

- بلى.. ولكنني سعيد يا "لوث".

يحتضنني بين ذراعيه، فأشعر بالأمان والارتياح..

حين أعود إلى البيت، أدخل الحمام عدة مرات لأتأكد أن الدورة لم تأتِ. لا شيء. سوف أجري اختبار الحمل المنزلي لاحقًا، حين أرجع إلى شقة "راميرو". تناديني ماما لتطلب مني البقاء معها. أخبرها بأنني لن أطيل المكوث، لأن عليّ الذهاب إلى منزل "جابي" لنعمل على مشروعنا الهندسي المشترك. إلى متى سأكذب على أمي؟ أتحسس بطني، بطريقة لا شعورية.

تجيب ماما، بصوت كئيب:

- لا مشكلة.. أردت فقط أن أخبرك عن المواكب التي كان بابا يصطحبنا إليها.. كنا نجلس في سيارته و....

أتعمَّد عدم التركيز فيما تقول. أذكر نفسي بأنها بحاجة للكلام، للتنفيس عن آلامها. من المحزن أن تنتهي هذه العلاقة المتميزة مع ماما، لنعود كما كنا.

ꕥ

تمّ التخطيط لكل شيء بسرعة مذهلة. حين شاهدا الخط المُلوَّن داخل فتحة أنبوب اختبار الحمل المنزلي، الذي أكد لهما حالة الحمل، احتضنا بعضهما بعضًا بفرحة صادقة وحماسة.

كانت "مارتا" أول من عرف بالخبر السعيد.. قال لها "راميرو":

- نعم، الأمر جنوني بعض الشيء، لكننا مبتهجان ونريد هذا الطفل يا ماما.

تتأمل "مارتا" نفسها في المرآة، ثم تعلن ضاحكة:

- الحقيقة أن شكلي يليق بأن أصبح جدة! ألستُ رائعة؟

يضحكون جميعًا. نعم.. الأمر جنوني، ولكن طالما أنهما سعيدان، ويرغبان في إنجاب هذا الطفل، فلمَ لا؟ الواقع أن المسألة مبهجة فعلًا!

ꕥ

- ماما.. أنا حامل.

- تتعمدين فعل ذلك لتجرحي مشاعري، أليس كذلك؟ لماذا لم تفكري بي؟ لماذا تخبرينني بالأمر؟ لماذا لم يذهب ذلك الولد معكِ لتنهيا المسألة في هدوء، دون أن تعلميني؟ إنه كبير بما يكفي لتحمل مسؤولية أفعاله. كم عمره؟ خمسة وعشرون؟

- ماما! ماذا تقولين بالضبط؟ هل تلمحين أنه كان عليّ أن أجهض نفسي دون عِلمك ؟

تسكت "ماريانا"، متجاهلة السؤال.

- أنتِ محقة يا ماما، "راميرو" سيتحمل المسؤولية فعلًا ويتزوجني.

- هل جننتِ؟! لن أسمح بذلك أبدًا.

والآن، حان دور "لوث" للتهديد باللجوء للقضاء، إن واصلت أمها رفض تزويجها. تصارحها أن مسألة الزواج لا تشغلها و"راميرو" على الإطلاق، وأن علاقتهما ستظل بالقوة نفسها بعقد رسميّ أو دونه، لكنهما قررا عقد قرانهما ليحافظا على كرامة "ماريانا"، لا أكثر.

- وكيف يمكنك الزواج ونحن ما زلنا في فترة حداد؟ لم يمضِ على وفاة جدك سوى شهرين فقط.

- وماذا تقترحين؟ أن أؤجل المسألة إلى شهور حملي الأخيرة، وأتزوج ببطن منتفخة؟

بكت "ماريانا" بعصبية واضحة، بصوت مرتفع، وقد استبدَّ بها الغضب والغيظ الشديد.. بعد فترة طويلة من النحيب المتواصل، سألتها:

- متى ستلدين؟

- في شهر يناير.

أعلنت "ماريانا" أن ذلك جيد، فعلى الأقل لن يكون الكثير من معارفهم موجودين في "بوينس آيرس"، بسبب الإجازة الصيفية، التي يقضونها في أماكن أخرى؛ لكن عليهم أن يجدوا سببًا مقنعًا يبررون به للناس سبب تعجل الزواج.. تسألها بجدية:

- ألا يمكنكما الذهاب إلى الولايات المتحدة؟ سأتكفل بالمصروفات كافة. ابقيا هناك لعام أو عامين.. لا تعودا لفترة طويلة جدًّا.. هكذا أفضل، فماذا لو عرف الناس؟ يا إلهي! كيف أتصرف؟

مساء ذلك اليوم، توجه "راميرو" إلى منزل "لوث"، للقاء "دانييل" و"ماريانا" اللذين كررا عرضهما بتسفيره و"لوث" إلى الخارج. أضافت "ماريانا" أن لديها فكرة أخرى أيضًا.. تساءلت "لوث" في سرها:

- كيف استطاعت ماما التفكير في أكثر من خطة، خلال ساعات قليلة؟

لكنها تعاطفت معها حين سمعتها في اليوم التالي، وهي تتحدث إلى صديقاتها عبر التليفون.. الفتى الذي تحبه "لوث" تلقى عرضًا مغريًا، لا يمكن تفويته، للعمل في إحدى الشركات الكبرى بالولايات المتحدة، وهو مصرّ على اصطحابها معه. نعم.. "ماريانا" توافقهن الرأي.. لا داعي للعجلة، يمكنهما الانتظار، لكننا جميعًا نعرف كيف يفكر هذا الجيل، أليس كذلك؟ الشاب ينتمي لأسرة ممتازة، وينتظره مستقبل واعد. تفكر "لوث":

- مسكينة ماما! جميع تصرفاتها تخضع لأحكام الغير وآرائهم.

تعلن "ماريانا" أنهم لن يقيموا حفل زفاف، لأنهم ما زالوا في فترة حداد. تضيف باستعطاف:

- سنكتفي ببعض المشروبات وتبادُل الأنخاب، فقط.

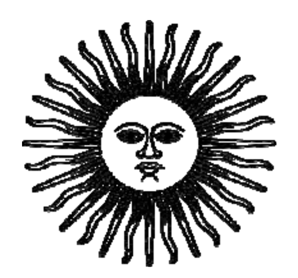
- حسنًا يا ماما، كما تحبين.

ꕥ

تحمد "مارتا" ربها لوفاة "آلفونسو دوفاو"، ما يعني أنها ليست مضطرة هي وزوجها "آنطونيو" لمصافحة ذلك الرجل البغيض.

تحتفل "لوث" و"راميرو" بالمناسبة، بطريقتهما الخاصة.. بالرقص معًا ساعات طويلة.

16



أدفع بكل ما أوتيت من قوة.. مرة تلو أخرى. أشعر به وهو يحاول دفع نفسه للخروج.. إنه قادم.. أستقيم بجسدي قليلًا فألمح رأسه المغطى بدمي. ما زال متصلًا بي بالحبل السري، الذي يهمّ "راميرو" بقصّه بمساعدة الطبيب.

يضعونه على بطني. إنه دافئ. رأسه موجه نحوي. نعم.. أنا أمك. مشاعر طاغية تجتاحني وتعصف بي.. سعادة خالصة، وبهجة غير مسبوقة.

يقبّلني "راميرو". تمتدُّ أيدٍ لا أعرفها، وترفع "خوان" عن بطني. أقول لـ"راميرو" إنني لا أريدهم أن يبعدوه عني. يشرح لي شيئًا، ولكنني لا أفهمه. الممرضة تزيل الخلاص، وتضغط على بطني، وأنا أتألم ألمًا شديدًا، لكنني لا أريد أن يغيب طفلي عن عينَيّ ولو لحظة. أريده أن يظل بداخلي.. أن يبقى جزءًا مني. تغرقني موجة أسى والتياع.. أريد استعادة ابني.

أنادي "راميرو" بلهفة، وأسأله عن صغيري:

- أين "خوان"؟ لماذا أخذوه مني؟

- إنه بخير يا "لوث"، إنهم يُجْرون له بعض الفحوصات الطبية للاطمئنان عليه.

- فليعيدوه لي الآن.

- لا تقلقي.. سنخرج من هنا بعد قليل، ويضعونك في غرفة خاصة بك.

يقبلني مرة أخرى، ويستدير ليغادر الغرفة، فأصيحُ:

- اذهب مع "خوان" يا "راميرو".. لا تدعه بمفرده.

يلقي عليّ نظرة تعجب، لكنه يسارع بالخروج وراء الممرضات. نعم.. هذا أفضل.. لا أريد أن يبقى ولدي بمفرده مع أشخاص أغراب.

أسأل الممرضة التي تدفع سريري ذا العجلات:

- متى ستعيدون لي ابني؟

تجيب ضاحكة:

- بعد قليل.

أستطيع مرافقته وانتظار انتهائهم من فحصه، لكنهم يمنعونني من ذلك.

ꕥ

أمضت "لوث" اليوم الأول وهي تتأرجح بين مشاعر متضاربة.. من السعادة الخالصة إلى الذعر الشديد. حين نامت، جاءت إحدى الممرضات لتأخذ المولود. ما إن أحست "لوث" باقترابها من الطفل، حتى استيقظت بخوف..

- ماذا تفعلين؟ إلى أين تأخذينه؟

أجابت المرأة، بابتسامة، بأنهم سيستكملون الفحوصات، وستقوم بتغيير حفاضته أيضًا.

- ألا يمكنكم فعل ذلك هنا؟

- نعم، أنا آسفة.

نظرت الممرضة برجاء إلى "راميرو"، وكأنها تطلب منه أن يعيد "لوث" إلى صوابها. لكن الأخيرة رفضت الاستماع إليه، وطلبت منه أن يلحق بالممرضة، وألا يدع "خوان" يغيب عن ناظريه.

أطاعها "راميرو" حتى لا يتزايد انفعالها، لكن النظرة المنزعجة التي حدجته بها الممرضة، جعلته يتوقف عن السير وراءها. حين عاد إلى الحجرة، وجد "لوث" تبكي.. إنها لا تقوى على فراق ابنها ولو لحظات. ورغم أنه لا

يفهم مشاعر "لوث" بالضبط، فإنه يسأل الممرضات إن كان بإمكانهن عدم أخذ الولد خارج الغرفة مرة أخرى، لأن الأمر يقلق زوجته بشكل كبير.

أكد له خاله "مارسيلو"، والذي يعمل محللًا نفسيًّا، بأن حالتها طبيعية ومرتبطة باكتئاب ما بعد الولادة، الذي يصيب عددًا كبيرًا من السيدات. لكن "راميرو" لم يجد الأمر طبيعيًّا على الإطلاق، بل مخيفًا ويفتقر إلى المنطق. إنها تشعر بالرعب طوال الوقت، ولا تستجيب لأي محاولة منه لتهدئتها. كل ما يرغب فيه الآن، هو أن يسمح لها الطبيب بمغادرة العيادة، ليصطحبها والمولود إلى البيت.

ﮨ

الأصوات التي يصدرها "خوان" وهو يرضع من صدري، تشعرني بالطمأنينة وبأن كل شيء بخير. ما زلت أشعر بالغضب من ماما، التي اضطررتُ لأن أطلب منها المغادرة منذ قليل. وقفت ترمقني باشمئزاز واضح، وسألتني بتقزز ونفور:

- ماذا تفعلين؟

أعادتني نظراتها وتجهُّم وجهها إلى الأوقات التي كانت تُراقبني فيها وأنا أرقص. لماذا تسألني؟ ألا ترى ما أفعله؟ ألقم ابني ثديي. أحاول جاهدة أن أحتفظ بهدوئي، وأنا أوضح لها أهمية اللبن الذي يفرزه الصدر عقب الولادة، لصحة الصغير، ودوره في تدفق الحليب بعد ذلك.

تسألني باستنكار:

- أتنوين إرضاعه طبيعيًّا؟! لماذا تفعلين ذلك، مع توافر مختلف أنواع المنتجات التي تساعدك على تغذيته، دون اللجوء لهذه الطريقة؟ ألا تدركين بأن الرضاعة الطبيعية ستفسد قوامكِ؟

أطلب منها المغادرة، وأعلن أنني بحاجة للبقاء مع ابني بمفردي. أتمنى أن تظل غاضبة، وأن ترحل عن المستشفى، لا أن تقف بالباب، بانتظار أن أهدأ؛ لكن الممرضة تدخل بعد قليل، وتقول إن أمي تستأذن في الدخول. يتزايد غضبي، وأشعر بغيظ شديد، لكنني أنظر إلى "خوان"، وأقرر بأنني لن أفقد أعصابي ثانيةً. أجيب الممرضة:

- نعم، دعيها تدخل من فضلك.

أحاول ألا أركّز في كلامها، وهي توضح لي أنها اضطرت لأن تكذب على بعض الناس، وتُخفي عن بعضهم الآخر خبر ولادتي. تقول لي إن الأشخاص الوحيدين الذين يعرفون بالأمر، هم أمها وشقيقتاها، وأنها لا تفهم سبب رفضي لزيارتهن لي، رغم سماحي لأقارب "راميرو" بذلك. أقنع نفسي بأن كلامها مجرد ضوضاء مزعجة، لا أكثر، ولا ينبغي الرد عليها. تناولني علبة هدايا. آخذها بسرور، لأنها تعني قرب مغادرتها. حين أفتحها، وأرى ما بداخلها، أبذل مجهودًا مضاعفًا كيلا أقذفها بها. أعلن بوضوح:

- أنوي إرضاعه طبيعيًّا يا ماما.

تجيب، وكأنها لم تسمعني:

- ولكنكِ ستستخدمين زجاجات الرضاعة أيضًا، بكل تأكيد. أحببت أن تكون أولى زجاجاته هدية مني.

تمسك بإصبعي وتجعلني أتحسس الحلمة المطاطية، لتريني جودتها الفائقة. يفزعني ملمسها، فأسحب يدي بسرعة فائقة.

يستيقظ "راميرو" على صوت زجاج يتكسر، إما على الأرض وإما على الجدار، يتبعه صوت نحيب "لوث". ينظر حوله، فيجد الصغير مستغرقًا في النوم، داخل مهده. يكتشف أن زوجته حطمت زجاجة الرضاعة التي أهدتها إياها أمها.

- أنا لا أفهم! ألم نتناقش في الأمر، ونتوصل إلى أنه لا يوجد سبب يستدعي كل هذا الغضب تجاه والدتك؟ ألم تكوني سعيدة حين ذهبتِ للنوم؟ ما الذي حدث؟ ما سبب هذه التصرفات العجيبة في منتصف الليل إذًا؟

لقد لمست أصابعها الحلمة البلاستيكية، مصادفةً، وهي نائمة، فاستيقظت فزعة ومتألمة:

- كما لو أنني لامست عنكبوتًا أو عقربًا. لا علاقة لماما بالأمر في الحقيقة.. لا أدري.. أكره الرضاعة الصناعية، ولن أعتمد عليها أبدًا في تغذية "خوان".

ظَلَّ "راميرو" حائرًا، دون أن يفهم حقيقة الموضوع، لكنه استلقى بجانبها وأحاطها بذراعيه، محاولًا بث الهدوء في نفسها. إنها ليست خائفة، بل هي حزينة جدًّا.. أسى عميق لا قرار له. بودّه مساعدتها، لكنه يشعر بالعجز

والضياع.. ما الذي يزعجها لهذه الدرجة وقد رُزقت مؤخرًا بمولود جميل؟ وما مصدر كل هذه التعاسة؟

"لوث" نفسها لا تعرف.. ربما كان الأمر مرتبطًا بأمها.

ᘓᘐ

تشرح لـ"كارلوس":

- الأمر مرتبط بأمي فعلًا.. أعني والدتي الحقيقية، وليس الإنسانة التي ناديتها "ماما" طوال عمري.

ᘓᘐ

تقول لـ"راميرو":

- لم أرضع وأنا طفلة من صدر أمي، فقد مرّت ماما بظروف صحية بالغة الصعوبة في ذلك الوقت. ربما تعرضتُ لموقف مزعج وأنا صغيرة جدًّا له علاقة بالرضاعة الصناعية.. لا أعرف! أنا لا أفهم سبب اضطرابي..

تركها زوجها تحكي وتستفيض في استعادة ذكرياتها وتحليلها لشتى المواقف، لكن لم يكن لأي منها معنى أو قيمة تساعده في استيعاب مشاعرها المرتبكة.

بعد مرور وقت طويل، يقترح عليها أن تخلد للنوم، ويقول إن بإمكانهما مواصلة الحديث في بيتهما غدًا، إذ سمح لها الطبيب بالمغادرة في اليوم التالي. يضيف معتذرًا أنه متعب جدًّا، وبحاجة لبعض الراحة.

صباحًا، توقظه "لوث" بقبلة.. يسألها بإجهاد ودهشة:

- هل حان موعد المغادرة؟ كم الساعة الآن؟

تخبره أنها أمضت وقتًا طويلًا وهي تتأمل "خوان" وتفكر بعمق.

كانت تتحدث ببطء، وبصوت يقترب من الهمس، وكأنها تخشى أن يستمع إليهما أحد. تقول له إن هناك تفسيرًا واحدًا لأحاسيسها المتضاربة، وأنها بحاجة للتحدث إليه حالًا، فالأمر لا يحتمل التأجيل.

ينظر "راميرو" إلى ساعته. إنها السادسة صباحًا. يلتفت نحوها ثانيةً، فيفزعه توقد عينيها ويتساءل في نفسه: "ما الذي تفكر فيه هذه المرة يا ترى؟".

يحتضنها، محاولًا تهدئتها والسيطرة على انفعالاتها، لكنها تتملص من بين ذراعيه، لأنها تريده أن ينظر إليها ويستوعب ما سوف تقوله له.

- "راميرو"، لقد ولدت في منتصف شهر نوفمبر من العام 1976. هل تدرك معنى ذلك؟

تنظر إليه بترقُّبٍ، وتكرر:

- 1976.

- كلا، ما معنى ذلك؟

- إنه ليس كأي عام. أنت تعرف ذلك. اختفى والدك في تلك السنة، مع العديد من الأشخاص غيره، بمن في ذلك نساء حوامل. لقد قرأتُ عن الأمر، وأعرف تفاصيل ما حدث.

يعتدل "راميرو" جالسًا. عليه أن يسكتها قبل أن تتمادى في تحليل المسألة بطريقة غير منطقية، لكنه يدرك في الوقت ذاته حاجتها الملحة للكلام.. فيكتفي بالإصغاء إليها. تسأله بحماسة إن كان يتذكر قصة الولدين التوأم..

- هل نسيتهما؟ كان ذلك قبل أن ألتقي بك.

- لا أدري إن كنتَ تعرف هذه القصة يا "كارلوس".. إنهما توأمان عاشا في بيت ضابط يُدعى "ميارا"، كان قد قام بتعذيب أمهما الحقيقية بنفسه. مرت عدة أعوام، قبل أن يصدر حكم المحكمة بإعادتهما إلى عائلتهما الأصلية، ذلك أن القاضي كان متواطئًا مع الضابط واستمر في وضع العراقيل أمام أسرتهما. المهم، بعد عودتهما اشتكى الولدان من شوقهما الدائم إلى "أمهما".. أي زوجة ذلك المجرم القاتل.

- نعم، تابعت بعض فصولها.. كنت في زيارة لـ"بوينس آيرس" في ذلك الوقت. شاهدت أحدهما في لقاء تليفزيوني، ورأيت كيف عمدت وسائل الإعلام إلى التلاعب

بعقول الناس ومشاعرهم؛ وسمعت الناس الذين يجهلون ما كان يحدث، يتكلمون عن القصة ويناقشونها دون وعي حقيقي. كانت تلك آخر زيارة لي للأرجنتين.

- تابعت "ماريانا" القضية وأحداثها، وكأنها مسلسل تليفزيوني طويل. غضبتْ من الناس الذين رأوا أنه يجب إعادة التوأمين إلى أهلهما الحقيقيين، وعلقتُ أنا بأنني أتفق معهم في الرأي، رغم عدم إلمامي بالتفاصيل كافة. لن أنسى، ما حييت، غضبها العارم وصراخها. الحقيقة أنني لم أهتم حينها، واعتبرت المسألة جزءًا من خلافاتنا المتكررة. لكنني بعد ولادة طفلي، وتفكيري العميق في الكثير من الأمور والمواقف، كان هذا الموضوع أول ما استعادته ذاكرتي. قمت بربطه بأمور أخرى، وتوصلت إلى الحلقة المفقودة في أحداث حياتي.

ꕤ

تستعرض "لوث" أمام "راميرو" أهم أحداث حياتها.. ما أخبرتها به "ناتاليا" عن قانون "الطاعة الواجبة"، وتلك المرأة التي كانت تنتظرها أمام بوابة المدرسة، والإحساس الدائم بأنها متبناة وخصوصًا عقب كل شجار مع "ماريانا"، وخوف أمها الدائم من انخراطها في نشاطات زملائها الشيوعيين في الجامعة. ربطت بعض الأمور ببعض، بطريقة محكمة ومرتبة، دفعت "راميرو" لسؤالها:

- تظنين إذًا أنك ابنة معتقلين تعرضا للاختفاء؟ هل لديكِ أسباب لهذا الظن؟

- نعم.. ماما لم تتمكن من الإنجاب مرة أخرى... أعني.. ربما حملت مرة واحدة مثلًا، ثم فقدت جنينها، وكنت أنا البديل..

أضافت، وقد تهدَّجت أنفاسها:

- ربما جلب لها "آلفونسو" رضيعًا آخر يعوضها به فقدان مولودها. ألن يحضره لها من مكان معين يسهل عليه التعامل معه؟ ربما كنت أنا هذا الطفل الجديد..

- أظن أنكِ تبالغين في الاستسلام لخيالاتكِ. ربما كان الأمر بأكمله مجرد أوهام يا "لوث". أنتِ لا تملكين دليلًا واحدًا على ما تقولين.

تجيبه بعصبية وضيق:

- هل تظنُّ ذلك حقًّا؟ لماذا إذًا تتعمد ماما ذكر مسألة الجينات والوراثة، كلما أرادت انتقاد تصرفاتي؟ لقد ظننتُ، طوال عمري، أنها تقصد بابا وعائلته.. لكنني أظنُّ الآن أنها تقصد أشخاصًا آخرين.

- أنصتي إليّ يا "لوث".. أنا أتفهم أسباب غضبكِ من أمك، لكنني أؤكد لكِ أنها تحبك بطريقتها الخاصة.

ردتّ بحسم:

- كلا. إنها لم تحبني قط.

في تلك اللحظة، ارتفع صوت "خوان" بالبكاء، فنجح في إيقاف سيل الهذيان الذي فشل "راميرو" في التصدي له. حملت "لوث" صغيرها، وجلست على السرير ثم فتحت أزرار ثوبها وبدأت في إرضاعه. بدت هادئة ومبتسمة، وقد استعادت توازنها. نظر إليهما "راميرو" بحنان. ربما كان من الأفضل لو بدأت "لوث" في تلقي جلسات علاج نفسي. سوف يقترح عليها ذلك، لاحقًا؛ لا يريد أن يفسد السكينة التي تحيط بها وبالطفل. يتأملهما، محاولًا تناسي ما سمعه منها منذ لحظات، لكنه يتذكر فجأة أنه قد فكَّر في أول تعارفهما ـ حين اشتكت له "لوث" من قسوة تصرفات أمها معها ـ بأن هذه الأفعال لا يمكن أن تصدر عن أم مرت بمعاناة الحمل والولادة. في تلك الأيام، ظن أن تصرفاتها وسلوكها ناجمين عن شخصيتها الكريهة، المتعجرفة، وعن مواقفها السياسية المتطرفة.

عقب زواجه بابنتها، اتسمت تصرفات "ماريانا" بالعقلانية، وتعمدت عدم التدخل في حياتهما؛ كما اختارت أن تبقى في "بوينس آيرس" عند اقتراب موعد ولادة "لوث"، وقررت عدم السفر كما اعتادت كل عام.. وهي تضحية تحسب لها في الحقيقة، حتى أن ابنتها أصيبت بالدهشة عندما عرفت بقرارها.

كان "راميرو" موجودًا، حين طردت "لوث" أمها من الحجرة. خرجت "ماريانا" كسيرة الخاطر، وقد آلمها تصرف ابنتها. إحساسها الهائل بالخيبة، أكد لـ"راميرو" بأنها تحب ابنتها جدًّا، ولذلك أقنعها بعدم مغادرة العيادة، وأخبرها بنبرات هادئة أن "لوث" ليست غاضبة منها، وإنما تُفضِّل الانفراد بالمولود عند إرضاعه، وأن الأمر لا يعدو كونه سوء تفاهم غير متعمد.

اضطرَّ بعدها للتحدث مطولًا مع "لوث" لإقناعها بعدم إفساد هذا الوقت المتميز من حياتهما، بالغضب المُتبادَل مع أمها. طلب منها ألا تسمح لأي شيء بالتأثير سلبًا في بيتهما وأسرتهما الصغيرة.

ﮔﮕ

أردتُ مواصلة النقاش مع "راميرو"، لكن بكاء "خوان" المتواصل أغلب ساعات اليوم، لم يُتِحْ لي الفرصة لذلك. ظللتُ أحملُه، وأرضعُه، وأغير حفاضاته، وأضعه في مهده، طوال اليوم. خشيت و"راميرو" أن يكون مريضًا، لكن "مارتا" قالت بثقة:

- هكذا يكون الوضع دائمًا. ستعتادانه، وسيزول خوفكما تدريجيًّا.

تدخلت أمي في الحوار:

- لقد كنتِ تبكين بطريقة أقرب للصراخ، حين كنتِ في عمره يا "لوث".. يا إلهي! كان ذلك محطمًا للأعصاب! كنتِ دائمة الصراخ في طفولتك.

أردتها أن تستفيض في الحديث عن أيامي الأولى، رغم أنها أخبرتني من قبل بأنها لم ترني إلا في نهاية الشهر الأول من حياتي. أسألها:

- مَن الذي كان يهتم بي في تلك الفترة؟

- العيادة، في بادئ الأمر؛ ثم توليت أنا الأمر عندما استعدت صحتي. أخبريني.. من أين اشتريتما هذا المهد اللطيف؟

حين ابتعدت قليلًا، أسأل "راميرو" على عجالة:

- ألا تظن أنها كانت تحاول تغيير الموضوع؟ يبدو أنها لا تريد التحدث عن أيامي الأولى.

- لم ألاحظ شيئًا.. على كل حال، أرجو منكِ ألا تقولي لها شيئًا مما أخبرتني به صباح اليوم في العيادة. عديني بذلك.

وعدته بألا أفعل. لم نستطع مواصلة حوارنا، بسبب بكاء "خوان" من جديد.

ﮔﮕ

بعد أن ينام "راميرو" و"خوان"، تظل "لوث" مستيقظة تفكر فيما قالته "ماريانا".. ماذا تعني بأنني كنت دائمة الصراخ؟

تتصل بأمها، رغم تجاوز الساعة الحادية عشرة والنصف..

- نعم يا ماما.. أنا بخير وكل شيء على ما يرام. كنت أفكر منذ قليل فيما قلته اليوم من أنني كنت دائمة الصراخ.. متى تحديدًا كنت أفعل ذلك؟

أشعر ببعض التوتر في صوتها، وأشعر أيضًا بأنها تحاول جاهدة ألا تفقد أعصابها وهي تحدثني. تجيبني أن الأمر كان مرتبطًا بالكوابيس التي تأتيني وأنا نائمة. أسألها بعدم اقتناع:

- كوابيس وأنا طفلة رضيعة؟!

- نعم، هذا ما أكده طبيب الأطفال حينها.

تضيف بضجر:

- كنتِ كذلك دائمًا، في الواقع.. اطمئني.. لن يدوم الأمر مع "خوان" أيضًا، وسينتهي كما انتهى لديكِ.

- "خوان" بخير؛ لقد شعرت بالفضول فقط.. هذا كل شيء. أظن أننا، كوننا أمهات، نرغب في معرفة تفاصيل طفولتنا الأولى لنقارنها بطفولة صغارنا.

تصمت أمي، ولا تعلق. معها حق، لقد كانت في غيبوبة في أيامي الأولى، ولا تعرف شيئًا مما حدث. أنهي المكالمة:

- حسنًا يا ماما، سأذهب لأنام.

عليّ أن أتوقف عن التفكير في نقطة الكوابيس، فلا أهمية لها، وأن أنام قليلًا قبل أن يستيقظ "خوان".

❧

تنزعج "لوث" بشدة حين علق "راميرو" بأنها غير سعيدة.. تسأله باستنكار:

- كيف تقول ذلك؟ إنها المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بكل هذا الرضا وهذا الاكتمال.. أنا أحبك وأحب طريقتك في معاملة "خوان" وحرصك

على تحميمه وحمله على كتفك إلى أن ينام. يمكنني أن أخبرك بكل ما يدور بداخلي، دون خوف أو حرج. لم أعرف السعادة الحقيقية، إلا مؤخرًا.

- أرى ابتسامتكِ الصادقة، وبريق عينيكِ، وجسدك الذي أصبح أكثر استدارة وأنوثة، ووجهك الذي صار أكثر إشراقًا وبهاء، فأدرك أنك سعيدة.. لكنني أرى أيضًا قلقًا وإصرارًا على التفتيش عن تفاصيل أمر، هو على الأغلب، في خيالكِ فقط.

أضاف:

- مثل إصراركِ على تحليل الطريقة التي تنهد بها "خافيير"، على سبيل المثال!

❧

حين زارنا "خافيير"، قررتُ أن أسأله في تفاصيل طفولتي المبكرة، عليّ أحظى منه بجواب يؤكد شكوكي؛ وعندما لاحظت شعوره بالتوتر وعدم الارتياح، تزايد إحساسي بالريبة وواصلت استفساراتي.

بدأتُ الموضوع بذكر جدّي. أخبرته بأن ماما ما تزال حزينة على وفاة "آلفونسو"، عقب مرور كل هذه الفترة. مطّ شفتيه قليلًا، ببعض الاستياء. كان عليّ أن أتأكد. كررتُ عبارتي، بصيغة أخرى:

- حزنها عميق جدًّا على "دوفاو".. أكثر مما تتصور.

هذه المرة، التوت قسمات وجهه في اشمئزاز، لم ينجح في إخفائه.

أسألُه بشكل مباشر:

- لم تكن تحبه، أليس كذلك؟

يهزُّ كتفيه في استسلام، دون أن ينطق.

- لا عليك. لقد صارحتني "لورا" بذلك. لا تخفِي الأمر عني، لأنني أنا أيضًا أكرهه، وأشعر بحرج بالغ لكوني حفيدته، لكنني لم أجرؤ على قول ذلك لماما ولا مرة.

يظهر شبح ابتسامة على شفتيّ "خافيير". يبدو سعيدًا باعترافي، لكنه يواصل سكوته.

- الحقيقة أنه لم يعاملني بطريقة سيئة قط. كان جَدًّا عاديًّا.. بل مُحبًّا في الواقع؛ لكنني كرهته حين عرفت بتورطه في عمليات التعذيب البشعة، وجميع الفظاعات التي ارتكبها الجيش في تلك الفترة.

أسأله:

- هل كنت تعلم بهذا الموضوع، في تلك الأيام؟

يردّ بالإيجاب، باقتضاب شديد. أسأله على الفور:

- وهل كان بابا يعرف؟ هل كان بابا يكرهه؟

- ما الذي تريدين معرفته يا "لوث"؟ لماذا تفكرين في هذه الأمور الكريهة؟ فكري بأشياء مبهجة، مثل زواجك من هذا الشاب الرائع.. وإنجابكِ لطفل جميل.

- قل لي.. أرجوك..

يخبرني أن بابا لم يكن يحب "آلفونسو"، لكنه نادرًا ما تحدث عنه أصلًا. يصمت "خافيير" لبعض الوقت، وكأنه يحاول ترتيب ذكرياته، ثم يقول:

- أتذكر أنه حين تمت ولادتك...

يسكت، ثم يطلق تنهيدة طويلة..

- أعني.. حين ذهبت للاطمئنان عليه في العيادة.. كانت أمك في العناية المركزة، وكان هو في أقصى حالات التوتر، واشتكى لي من أن "آلفونسو" و"آميليا" يدفعانه للجنون بتصرفاتهما المستفزة.

- لقد قلت "حين تمت ولادتك".. ثم تنهدت بعمق وقلت "حين ذهبت للعيادة"... أريد أن أعرف معنى تلك التنهيدة.

ظهر الاضطراب على "خافيير"، وقال بارتباك واضح:

- لكنني لم أتنهد.. حسنًا.. ربما أكون فعلتُ ذلك دون أن أقصد.

نظر إلى ساعته بسرعة، وأعلن استغرابه من تأخر "لورا". قال باستياء:

- كلما جئنا إلى "بوينس آيرس"، تذهب مع الأولاد إلى...

أقاطعه بشغفٍ:

- لماذا كان بابا متوترًا، حين رأيته في العيادة؟

- لأن أمك كانت في حالة صحية حرجة للغاية، وكان جدّاكِ يتدخلان في كل كبيرة وصغيرة، ويضايقانه بكلامهما وتصرفاتهما.. كنت هناك، ورأيت كل شيء بنفسي.

- هل رأيتني حينها في العيادة؟

لستُ متأكدة من معنى إجابته، إذ أصدر صوتًا مبهمًا، لم أفهم منه إن كان "نعم" أم "لا". في تلك اللحظة، رن جرس الباب. كانت "لورا". قام "خافيير" ليفتح الباب. استيقظ "خوان" باكيًا، فقمت بإرضاعه. شغلني الحديث مع "لورا" عن الولادة، وأيام طفلي الأولى، عن مواصلة التفكير في تلك التنهيدة العميقة.

مساءً، وأنا أقصُّ على "راميرو" تفاصيل الزيارة، استعدت تلك التنهيدة، وظَلَّ صوتها يعلو داخل رأسي.. حتى استحالت إلى دليل على أنني لم أولد في العيادة، وأن "خافيير" يعرف ذلك، لكنه لا يريدني أن أعرف.. ثم إنه يمقت "آلفونسو" مقتًا شديدًا.. إنها سلسلة من التفاصيل، التي تتصل حلقاتها بعضها ببعض بإحكام شديد.

يسألها "راميرو" بضيق:

- ما سبب إصرارك على إثبات أنكِ ولدت في المعتقل؟ أنا لا أفهمكِ أحيانًا يا "لوث".. حياتنا سعيدة ومستقرة، فلمَ نفسدها بهذه المسألة؟

- أتفَّهم شعورك يا "راميرو".. لكنني أؤكد لك أن إصراري على البحث عن جذوري لا ينبع من إحساس بالحزن أو الخوف، وإنما من سعادة خالصة. لو لم أكن سعيدة، لما امتلكتُ القوة على استكشاف هذه الجوانب المظلمة. حبُّك يدعمني يا "راميرو".. معاملتك لي كوني حبيبة وصديقة معًا، وتقبُّلك لي كما أنا، وطريقتك في ضمي إلى صدرك، وأسلوبك في ممارسة الجنس معي.. كل شيء معك رائع يا "راميرو". أنا أبحث عن الحقيقة لأنني سعيدة وقوية ومحبوبة..

ﮐﮐ

لم يفهمها "راميرو" تمامًا، لكنه أدرك أنها صادقة في سعادتها، ولـذلك كـان هـو مـن اقـترح عليها التواصل مع منظمة "جدّات ميدان مايو". عَرَضَ عليها أن يبقى مـع "خـوان" في المنـزل، إلى أن تعود.

وصلت "مارتا" في الوقت الذي كانت "لوث" تستعد فيه للخروج. ابتهج "راميرو" لقدومها، لحاجته إلى مناقشة الأمر مع أحد، ومعرفة مـا إذا كانـت "لـوث" مُحقَّـة في شـكوكها وسـعيها للوصول إلى الحقيقة، أم لا.. بات يشعر بأنه يشجع فكرتها المجنونة، دون أن يتعمد ذلك.

يخبر "راميرو" والدته بأنه بحاجة إلى نصحها وإرشادها في موضوع يُؤرِّق زوجته.

- ما الأمر؟ قل لي يا عزيزي.

يحكي لها ابنها كل شيء، وينهي كلامه بالقول:

- إنها تظنُّ أن "ماريانا" وزوجها الراحل ليسا والديها؛ وأن أبويها الأصليين كانـا مـن ضـمن المعتقلين الذين تعرضوا للاختفاء.

كان أول رد فعل من "مارتا" هو مزيج من الحماسة والبهجـة، رغـم فظاعـة الفكـرة. إنهـا تحب "لوث"، ولطالما تساءلتْ عن كيفية انتمائها لتلك العائلـة البغيـضة. تقـرر في النهايـة أن تتناول الموضوع بقدر كبير من الحيطة والحذر..

- لماذا خطرت لها هذه الفكرة من الأساس؟ وهل تؤمن بها حقًّا أم أنها تعجبها فقط؟

أجاب بأنه لا يدري.. لكنه أكّد لها أن شخصية "لوث" ازدادت نضجًا في الفترة الأخيرة، كـما أنها بدأت تلاحظ أمورًا داخل عائلتها، لم تكن قد انتبهت لها في السابق.

- حين كانت حاملًا، بدأت تسألني عن أبي، ثم قالت إن لجـدّها يـدًا في موضـوع اختفائـه دون شك. أخبرتها أن الأمر غير صحيح على الأغلب، لأن مَن قام باختطافه أفرادٌ مـن البحريـة. لقد قلتُ ذلك من أجلها يا أمي، لم أرغب في إيلامها.

علقت "مارتا" بإعجاب:

- إنهـا فتـاة رائعـة يـا "رامـيرو"، ويعجبنـي أسـلوبك في التعامـل معهـا.. لم تتهمهـا مـثلًا بالجنون.. أو تقول لها إن الحمل هو سبب أفكارها الغريبة.

أضافت بعد لحظة تفكير:

- يجب على "لوث" أن تتوصل أولًا، وقبل كل شيء، إلى الدافع الذي جعلها تؤمن بهذه الفكرة. في كل الأحوال، عليك أن تساندها بكل السبل الممكنة.

كان عليه ألا يصارح أمه بهذا الأمر، وبخاصة بعد أن وعد "لوث" أن تبقى المسألة سِرًّا بينهما.. لكنه لم يستطع تحمُّل العبء، وأراد أن يشاركه أحد فيه.

تسأله "مارتا":

- ألم تتحدث "لوث" إلى "ماريانا"، بهذا الشأن؟

- كلا، طلبت منها ألا تفعل ذلك.. فلو اتضح أن المسألة غير حقيقية، فسوف يسبب هذا الاتهام شرخًا عميقًا في علاقتهما.. لكنني أظن أن "لوث" ستواجهها عمّا قريب، رغم نصائحي؛ فقد أرادت "لوث" مؤخرًا معرفة اسم العيادة التي وُلِدت فيها، لكن "ماريانا" قالت إنها لا تتذكر. تشاجرت معها "لوث"، ثم أخبرتني لاحقًا أن أمها تتعمد إخفاء أي معلومات تتعلق بولادتها، حتى تمنعها من البحث في أصل الموضوع.

استطرد قائلًا:

- اقترحت عليها أن تذهب إلى منظمة "جدات ميدان مايو"، حتى لا تضطر إلى توجيه الأسئلة لـ"ماريانا"، وتتكرر الصدامات بينهما. هل أخطأت يا ترى؟

- لا يا بني، لقد فعلتَ ما يتوجب على كل زوج أن يقوم به. إنك تقدم لها ما تحتاجه من دعم ومؤازرة.

৪০৫

لم يسر الأمر بسهولة وسلاسة، كما توقعت. أشعرتني "ديليا"، وهي السيدة التي قابلتني، أنني مجنونة ومختلة عقليًّا. سألتها في البداية إن كان يمكن لشخص وُلِدَ في العام 1976 أن يتأكد أن أبويه كانا معتقلين. أرادت أن تعرف سبب سؤالي. طلبتُ منها أن تجيبني، لأنني لا أملك متسعًا من الوقت. شرحت لي مسألة قاعدة البيانات وعينات الدم، ففهمت أن الأمر يتلخص في عينة دم يأخذونها مني؛ لكنني اكتشفتُ أن المسألة أكبر من ذلك بكثير.. وجهت لي أسئلة كثيرة جدًّا، لم أرغب في الإجابة عن أيّ منها.

ஐ௸

يسألها "كارلوس" حائرًا:

- لماذا لم يأخذوا منكِ عينة دم؟

- لأنهم لم يصدقوني. في الحقيقة، تفوهت بعبارات غبية وغير منطقية.. جعلتهم يرتابون في سلامة قواي العقلية.

ஐ௸

قلتُ للسيدة إنني أرغب في إجراء اختبار الدم، لكنني لم أصارحها بأنني حفيدة "دوفاو". حين أصرت على أن أزوّدها بسبب مقنع، قلتُ لها إن أمي لم تحبني قط، وأننا نتشاجر كثيراً، وأظنُّ بأنني متبناة. راحت تلقي عليّ محاضرة عن الجدل الدائم بين الأمهات من جهة، وبناتهن المراهقات من جهة أخرى، وقالت إن الوضع طبيعي، ولا ينبغي لي تحميل الأمر أكثر مما يحتمل.

أستمعُ إليها دون انتباه، وأتساءلُ بداخلي إن كان عليّ إخبارها عن الحلمة المطاطية التي تفزعني، وعن تنهيدة "خافيير" العميقة، وعن انتقاد أمي الدائم لجميع تصرفاتي ووصفها بأنها ناتجة عن جيناتي الوراثية؟ لكنني أُقرِّرُ ألا أقول شيئًا من ذلك، حتى لا أبدو تافهة وسخيفة أمامها. أخبرها أن شكوكي في كونها ليست أمي الحقيقية، ازدادت عقب ولادتي لابني منذ نحو شهر ونصف. أنظر إلى ساعتي، وأعلن أن عليّ المغادرة الآن. تصطحبني إلى الباب، فأسألها إن كان بإمكاني العودة في وقت آخر، وإن كان لديهم سجّلات بالمواليد الذين اختفوا في منتصف نوفمبر 1976؟ أصارحها أنني لستُ متأكدة من تاريخ ميلادي، لكن هذا ما أخبروني به.

تضع "ديليا" يدها على كتفي، وتخاطبني بلطف بالغ، وتقترح عليّ أن أناقش الأمر مع والدتي أولًا. أسألها بصبر نافد:

- كيف يمكنني مناقشتها؟ هل تتوقعين أن تعترف بجريمتها، إن كانت قد استولت عليّ بالفعل؟!

أضيفُ بعصبية، وقد ارتفع صوتي بعض الشيء:

- هل ستسمحين لي بالاطلاع على الوثائق والسجلات أم لا؟

- نعم، بالطبع.. ولكننا لا نستطيع أخذ عينة من دمك. عودي لزيارتي إن احتجتِ للتحدث في الأمر.

ﮩﮩ

حين يخبر "راميرو" أمه بتفاصيل زيارة "لوث" للمنظمة، تنصحه بألا يتدخل في الأمر..

- إنها بحاجة للتحدث إلى شخص غريب، ومكاشفته بما يعتمل داخلها من شكوك ومشاعر. دَعْهَا تتردَّدْ على المنظمة، إلى أن تستجمع شجاعتها وتتمكن من مصارحتهم بمن يكون جدها، وإخبارهم بالمشكلات الصحية التي عانت منها "ماريانا" خلال فترة الولادة.

اقترح "راميرو" على زوجته أن يذهب بنفسه إلى المنظمة، ويصارح السيدات هناك بمن يكون جدّها، وبالوقائع الغريبة التي أحاطت بمولدها، ليسمحوا لها بإجراء اختبار الدم؛ لكنها تتوسل إليه ألا يفعل..

- سوف يكرهنني، بسبب جدي، ولن يظهرن أي نوع من التعاون. دعني أذهب بمفردي.

ﮩﮩ

منذ بضعة أيام، كنتُ في قسم الأرشيف، أدوّن ما يهمني من معلومات. تمعنت فيّ "ديليا" طويلًا، دون أن تقول شيئًا. حين هممت بالمغادرة، سألتني إن كنتُ قد تحدثت مع والدتي كما طلبت مني. سددت إليها نظرة غاضبة، دون أن أجيبها؛ ولذلك دهشت اليوم عندما وجدتها تبتسم لي. اقتربت مني وهي تناغي "خوان"، الذي اصطحبته معي لأتمكن من البقاء وقتًا أطول. تعلق بمودّة:

- يا له من طفل ظريف!

أبتسمُ لها. تقول إنها ترغب في أن أخبرها المزيد عن حياتي. أجيبها على الفور أنني لا أملك شيئًا أقوله. لا أعرف سببًا لوقاحتي المتكررة معها، رغم إعجابي الشديد بنشاطها ومجهوداتها الدؤوبة، هي وزميلاتها، في المنظمة؛ ربما

أنا خائفة من أن يعرفن أنني حفيدة "دوفاو". إن اتضح أنني ابنة "ماريانا" حقًّا، وحفيدة الكولونيل، فلن يترددن في إلقائي خارج أبواب المنظمة.

أواصل الكتابة، وكأنني لا أراها. تقول أخيرًا:

- حسنًا يا "لوث".. طالما أنكِ عنيدة لهذه الدرجة، فإنني لا أملك إلا الاستسلام! سنجري لكِ اختبارات الدم.

ﮔ

- حدثَ شيء ساهَمَ في تغيير "ديليا" لرأيها، كما أخبرتني لاحقًا، بعد أن أصبحنا صديقتين.. الحقيقة أنني أتعامل معها كجدّة لي، أكثر منها صديقة. أخبرت زميلاتها بأنها قابلتني، وحكت لهن ما دار بيننا في اللقاء. حين ذكرت اسمي، تذكرت إحدى الجدات أن "سوزانا كولادو"...

- والدة "دولوريس".. أليس كذلك؟

- بلى، كانت السيدة "كولادو" قد ذكرت لهن بأن ابنة "دوفاو" تربي طفلة صغيرة، ليست ابنتها في الواقع؛ ولذلك سمحن لي بتقديم عينة من دمي، رغم أنني لم أصارح "ديليا" بمن أكون.

ﮔ

يفاجئني قرارها، فلا أعرف بمَ أجيب. في تلك اللحظة، يبكي "خوان" فأضعه على صدري لأرضعه. أتأثر بشدة حين ألاحظ أنها تتابعنا بعينين دامعتين. تقول:

- تبدين مثل ابنتي، حين رأيتها لآخر مرة. اختفى حفيدي "مارتين" وهو في شهره الثاني.

تغادر مقعدها، في مواجهتي، وتربت عليّ بحنان وأسى قبل أن تغادر الغرفة.

عندما أمر عليها في مكتبها، بعد قليل، تكون قد استعادت هدوءها. أسألها عن المكان الذي سأجري فيه اختبار الدم.

ﮔ

- لكن المسألة كانت عديمة الجدوى.. فلم يكن هناك عينات دم أخرى من أفراد عائلتي الأصلية، ليقارنوها بدمي. قلت لنفسي إنني كنت مخطئة في تفكيري على هذا النحو، وأن الأمر في أساسه مجرد محاولة مني لتفسير خلافاتي المتكررة مع ماما، ورغبة عميقة في عدم الانتماء لجدّي.. الطاغية الساديّ.

تضيف:

- لكنني استعدت حماستي للبحث في القضية مرة أخرى، بعد بضعة أشهر، حين أمضيت إجازة قصيرة في ضيافة "خافيير" و"لورا". تعمدت أن أسبق "راميرو" إلى هناك، بعدة أيام، حتى أتمكن من مواصلة بحثي.

8003

تسأل "لورا" زوجها، محاولة الفهم:

- لماذا لا تخبر "لوث" بالحقيقة؟

سوف تلتزم بوعدها له، بعدم إطلاع "لوث" على الحقيقة، كما طلب منها.. لكنها ـ في الوقت نفسه ـ ترى أن موقفه مجحف، ويفتقر إلى الإنصاف. كانت قد ذهبت مع "لوث" إلى العيادة التي يفترض أن تكون وُلِدت فيها.. وبذلت جهدًا خارقًا كيلا تقول شيئًا، وهي تتابع حيرة الفتاة وإصرارها على معرفة كل المعلومات المتعلقة بسجلات مواليد وموظفي العيادة في تلك الفترة.

- لِمَ لا توفر عليها الوقت والمجهود، وتصارحها بالحقيقة؟ المسكينة تسعى الآن للبحث عن ابنة أحد عمّال المزرعة التي أنجبت طفلتها وهي في السادسة عشرة، ثم عرضتها للتبني.. وأنت وأنا نعلم جيدًا أنه لا وجود لهذه الشخصية من الأساس! عليك أن تقول لها ذلك...

يقاطعها:

- ماذا أقول لها تحديدًا؟ إن أمها فتاة ليل؟ وأنها لم تعد لرؤيتها وللاطمئنان عليها ثانيةً؟

- لكننا لسنا متيقنين من مدى صحة هذه القصة أصلًا! إلى متى سنواصل إحاطة أنفسنا بالأسرار؟ ألا يكفينا رحيل "إدواردو" بتلك الطريقة الغامضة؟

ജ്ഞ

كانت "لوث" قد استفسرت عن الظروف المحيطة بوفاة والدها، فصارحتها "لـورا" بأنهـا لا تصدق شيئًا مما قيل.

تواصل إلحاحها على "خافيير":

- عليك أن تتحدث معها. إنها متأكدة من أنك تُخفي عنها شيئًا.

ജ്ഞ

عندما يصل "راميرو"، تخبره "لوث" بالكثير جدًّا مـن الحكايـات والمواقـف.. وعـن زيارتهـا للعيادة ووصولها إلى الموظفة التي كانت تعمل هناك قديمًا، وعمَّا أخبرتها بـه المـرأة عـن ابنـة المزارع المراهقة، وعن لقائها بالدكتور "موراي".

- أرأيت يا "راميرو"؟ أنا لستُ مجنونة، و"ماريانا" ليست أمي. هل تعرف ما أكـد لي أنننـي على صواب؟ حين قلت ذلك لـ"لورا" لم يبدُ عليها الاستغراب. أنا متيقنة من أن "خافيير" يعلـم من تكون أمي الحقيقية، لكنه يرفض مصارحتي، ويمنع زوجتـه مـن أن تخـبرني. لقـد انتظـرتُ وصولك، حتى تكون معي وأنا أواجه "خافيير" وأطالبه بإعلان الحقيقة.

لو استمع إليها شخص غريب، لاندهش مـن سـعادتها باكتـشاف أن "ماريانـا" و"إدواردو" ليسا والديها؛ لكن "راميرو" تفهم مشاعرها، وأدرك أنها تشعر بالارتياح لإحساسها بأنها محقـة، وأنها تسير في الطريق السليم.

- معنى كلامكِ يا "لوث" أن أبويك لم يكونا معتقلين..

لكنها غير مقتنعة بهذه النقطة تحديدًا، وتعتقد بشكل جازم أنها وُلِدَت في الأسر وأن أمهـا كانت من ضحايا المعتقل. لا يمكنها تفسير هذا الإحساس. يبلغها زوجها بقراره..

- دعيني أنا أتحدث مع "خافيير". لماذا ننتظر، ما دمتِ متأكدة أنه يعرف كل شيء؟

- كلا.. لقد وعدتني "لورا" بأنها ستحاول إقناعه. إنها تعرف الوقت المناسب لجعله يتكلم.

يحضر ابني "خافيير" و"لـورا"، ويتنـاول الجميـع عـشاءهم معًـا. بعـد أن يغـادرا، يجلـس الأربعة في غرفة المعيشة لتناول بعض المـشروبات. يبـادر "خـافيير" بـالكلام، ويبـدو جليًّـا أنـه يواجه صعوبة في ذلك. تتأرجح مشاعره بين الخجل والحزن.

ليس هناك ابنة مزارع مراهقة. سوف يخبرها بكل ما يعرفـه عـن الظـروف التـي دفعـت شقيقه الراحل لتسجيلها باسمه، تحت ضغط شديد من والديّ زوجته. أحـسّ "إدواردو" أيـضًا بأن الطفلة قد تكون ابنة إحدى سجينات المعتقل، بسبب السنة التي وُلِـدت فيهـا والأحـداث التي صاحبت تلك الفترة. حاول "خافيير" بنفسه التـيقن مـن المـسألة، ولكـن اتـضح أنهـا غـير حقيقية. اسم الأم في شهادة الميلاد هو "ميريام لوبيز". لقـد اطلـع عليهـا بنفـسه. هـل تتـذكر "لوث" المرأة التي حاولت أن تأخذها من أمام بوابة المدرسـة؟ لقـد حـاول "إدواردو" أن يعـثر عليها بعد ذلك، وقابلها مرة واحدة، ثم اختفت تمامًا. بعدها بمدة قصيرة، توفي "إدواردو".

تتوهج عينا "لوث" وتسأله بحماسة:

- كيف تعرف أن الأمر غير حقيقي؟ ربما كانت سجينة فعلًا، لكنها تمكنت من الفرار.. ربما ما تزال أمي على قيد الحياة.

يغالب "خافيير" إحساسه بالحرج والخجل الشديد، ويقول:

- أنا متأكد أنكِ لم تولدي داخل المعتقل. لقد ذهبت بنفسي للبحث عـن "ميريـام لـوبيز"، وعرفت... بضعة أمور عنها..

- هل رأيتها؟ هل تعرفها؟ هل أشبهها؟

تقاطعهما "لورا" وتقول إنها هي أيضًا كانـت تظـنُّ أن "لـوث" مـن مواليـد المعتقلات، لكن ما عرفوه بعدها عن "ميريام"، محا الفكرة بالكامل. تلتفت إلى "خافيير"، فتدرك على الفور نـه لم يعـد قـادرًا عـلى مواصـلة الحـديث في هـذا الموضوع، فتتولى زمام المسألة. تخبرهما عن "ميريام" و"دولـوريس"، وتتجاهَـلُ ذكر التفاصيل التي قد تجرح مشاعر "لـوث". تـصارحها بـأن "ماريانـا" تعـرف

الحقيقة.. لكنها لا تخبرها عن تعليقاتها السمجة بخصوص بشرة الطفلة البيضاء، ووعيها الجنسي المبكر الظاهر في حركاتها الراقصة.

علقت "لوث" بأنها فهمت أخيرًا، سرّ علاقة "ماريانا" المضطربة بها.

يجلس "خافيير" على الأريكة بظهرٍ مُنحنٍ، وملامح متعبة. تذهب إليه "لوث"، وتحتضنه شاكرة:

- لا تندم على ما أخبرتني به. لقد أسديتَ إليّ معروفًا. لقد كنتُ أعلم، على نحو ما، منذ زمن بعيد. لكنني الآن، وقد تأكدت، أشعر بارتياح عظيم.. كما أنني سعيدة لأنني أسير على الطريق الصحيح.

تلثم "لوث" خده، وتعلن أنها ستذهب لتنام.

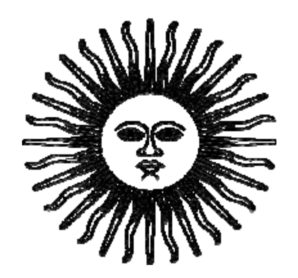
بعد مغادرتها، ينهار "خافيير"، ويبكي شقيقه بحرقة، كما لو كان قد مات للتوّ. يسأل زوجته إن كان محقًّا في كشف جوانب القصة لـ"لوث".. تردّ بأن الواجب حتّم عليه فعل ذلك، وأن "إدواردو" لو كان حيًّا لبحث عن الحقيقة وأعلنها منذ زمن طويل، لكنهم قتلوه ليتخلصوا منه.

بعد أشهر، يتلقى خطابًا من "لوث"، يبعث الطمأنينة في نفسه، ويشعره بأن "إدواردو" يتمتع بالسلام أخيرًا؛ كتبت فيه:

"أسامحكما أنت وبابا، وأحبُّكما جدًّا".



17



يخبرني "راميرو" أنه غير مقتنع بإصراري على أنني ولدت داخل المعتقل، وخاصَّـةً بعـد مـا سمعه من "خافيير" و"لورا". يقول إن هناك عدة أشياء لا تتناسب مع نظريتي.. منها ما عرفـه "خافيير" عن "ميريام"، إضافة إلى إصدار المستشفى شهادة ميلاد لي، تحمل الاسـم الأول لأمـي ولقب عائلتها.

رأيي أنا أن مـا سـمعه "خـافيير" عـن "ميريـام" في "كورونيـل برينجلـز" غـير صـحيح عـلى الأرجح.. ربما ادّعوا أنها عارضة أزياء، حتى لا يكشفوا لزائر غريب حقيقة أنها ناشطة سياسية. كان الكثير من الناس يخشون الحديث في هذه النقطة. لو اختفى أحد أقاربك، فإنك لن تعاني فقط الحزن والألم، ولكنك ستصبح منبوذًا أيضًا.

لو كانت "ميريام" ممن تعرضوا للاختفاء القسري.. فكيف ظهرت بعدها بسبع سـنوات في "إنتري ريوس"؟

مـن الغريـب أن تـصدر المستـشفى شـهادة مـيلاد لي، فكـما علمـت مـن "ديليـا" وبقيـة الجدات فإن الولادات لم تكن توثق؛ والأغـرب أن يكتبـوا فيهـا اسـم الأم فقـط، دون تـسجيل عنوانها أو رقم بطاقتها الشخصية. لا بد أن هناك تفسيرًا للمسألة، وأنا مصممة عـلى الحـصول عليه.

أقصرُ الطُّرق هـو التحـدث إلى ماما.. أعنـي "ماريانـا".. والاستفـسار منهـا عـن كـل هـذه النقاط؛ لكنني لا أستطيع.. ليس الآن على الأقل. اتصلت بي اليوم لتخبرني أنها قادمـة لزيـارتي، لكنني قلت لها إنني سآخذ "خوان" إلى الطبيب.

أحتاج لأن أتكلم مع "ديليا"، حالًا.

ࡷ

- أصبحنا صديقتين مقربتين، في تلك الفترة. في البداية، شعرت ببعض الحـرج في التعامـل معها، وبخاصة بعد أن فشلوا في العثور على عينات دم تُماثِلُ عينتي.. ولكـن حـين صـارحتني بأنها تعرف من يكون جدي، أحسستُ بارتياح كبير، إذ لم أعد أخافُ أن يكتشفوا مـن أكـون، أو أن يواصلوا التعامل معي على أنني مختلة العقل. واصلت زيارة المنظمة، لا لإجراء المزيـد من البحث، وإنما لتبادُل الحديث مع "ديليا"، التي تابعت "خوان" وهو يكبر يومًا بعد يـوم. أحبَّها ابني جدًّا، وكان يخصها بأجمل ابتساماته.

أضافت "لوث":

- قصّت عليّ الكثير من حكايات المعتقلين وذويهم، وكلهـا حزينـة ومؤلمـة. منهـا حكايـة "سوزانا"، والدة "دولوريس"، التي لم تتوقف عن البحث عن حفيدها. لجأت إلى كل الأماكن والشخصيات التي يمكـن أن تعينهـا في العثـور عليـه.. محـاكم الأحـداث، والقـساوسة، ودور الأيتام، وضباط الجيش، والسياسيين.. خاطبـت كـل مـن تعـرف، وامـتلأت نفـسها بالأمـل في بعض الأيام، وباليأس في أيام أخرى.

- وهل عثرت عليه؟

- كلا. ماتت، دون الوصول إلى خيط يقودها إليه. في مرحلة ما، خاضت صراعًا رهيبًا مـع شخص ظنَّت أنه سارقُ حفيدها. حاربته بكل مـا أوتيـت مـن قـوة، وتـرددت عـلى المحـاكم لإنهاء الخلاف وحسم القضية، وعانت عدم تعاون القضاة وتعنتهم، واتضح بعد كل ذلك أنه ليس حفيدها؛ لكنها وجدت السلوى في أنها استطاعت، على الأقل، أن تثبت أن الفتـى لـيس ابن الرجل، وأن الأخير قد استولى عليه من مكانٍ ما. في كل الأحوال، واصـل الفتـى حياتـه في بيت خاطفه، إذ لم يكن هناك مَن يبحث عنه.

ࡷ

سوف تندهش "ديليا" حين أخبرها بما عرفته مؤخرًا، وهـو أن "دولـوريس" ابنـة "سـوزانا" كانت صديقة لأبي.. كلا.. لم يكن أبي في الحقيقة... بل.. هو أيضًا أبي.

أتصل بها وأسألها إن كان بإمكانها مقابلتي و"خوان" في الميدان.. حين أشعر بترددها، أقول ضاحكة:

- اليوم جميل، والطقس مشمس، والأشجار بـدأت في اسـتعادة لونهـا الأخـضر.. و"خـوان" أصبح أكثر ظرفًا من السابق، وهو مشتاق إليكِ، وافتقدكِ جدًّا حين كنا في "إنتري ريـوس".. مـا رأيكِ؟ هل أمرُّ عليكِ بعد قليل؟

عندما تراني، تقول على الفور:

- تبدين سعيدة!

- لن تصدقي ما سوف أقوله لك!

أسرد عليها ما حدث عند زيارتي للعيـادة.. ثـم أتطـرق إلى الأكاذيـب التـي رددوهـا عـليّ، واكتشافي لاحقًا بعد الاطلاع على سجلات العيادة أن "ماريانا" وضعت طفلًا ذكرًا، ميتًا.

يشرق وجه "ديليا" بابتسامة عريضة:

- الأمر مؤكد إذًا! لديك دليل قوي الآن.

أقصُّ عليها بقية تفاصيل بحثي عن الحقيقة، ووصـولي إلى الطبيـب في عنوانـه الجديـد في "روزاريو" ـ الذي حصلت عليه عن طريق أحد أقربائه ـ وذهابي إليه هناك.

نصل إلى حديقة الميدان، ألاعب "خوان" قليلًا ثم أتركه يلهو بمفرده، وأجلـس عـلى مقربـة منه، أنا و"ديليا". أواصل حديثي معها، وأقـصُّ عليهـا كـل مـا عرفتـه في الأيـام الماضـية. تتغـيّر تعبيرات وجهها، وهي تنصت إليّ.. تقول بشيء من خيبة الأمل:

- أنتِ لستِ من كنتِ تظنين إذًا يا "لوث"، و...

أقاطعها:

- لستُ متأكدة، حتى الآن، ولا يمكنني الجزم بأي شيء. لقد بحثتُ في القوائم، لا يوجد اسم "ميريام لوبيز" فيها. لعلك تستطيعين مساعدتي على هذا الأمر؟

ومثل "راميرو"، لا تقتنع "ديليا" بنظريتي عن أنني وُلِدْتُ داخل المعتقل. لكن شيئًا ما بداخلي يؤكد لي صدق حدسي، وتدعم ذلك وظيفة جدي.. أو من يفترض أن يكون جدي..

أقول لـ"ديليا" ببهجة:

- أهمُّ ما في الأمر أن ذلك الملعون ليس جدي!

تبتسم "ديليا" وتجيبني:

- هذا ما كنت أقوله لبقية الجدات.. لا يعقل أن تكون فتاة بهذا الجمال وهذه الطيبة، من عائلة ذلك المجرم.

- لا علاقة للجمال بالمسألة.. لأن ماما.. أقصد "ماريانا".. جميلة جدًّا، لكنها أبعد ما تكون عن الطيبة في الحقيقة!

تنظر إليّ بقلق وإشفاق، وتسألني:

- هل ناقشتِ الموضوع معها؟

- كلا. لا أدري ماذا أفعل، أو ماذا أقول. اكتشفت أنها كانت تجهل المسألة، إلى أن بلغتُ أنا السابعة من عمري. عندها فقط، صارحها بابا بالأمر. من جانبه، حاول جاهدًا البحث عن تفاصيل الحكاية، وأراد التوصُّل إلى من يكون أبويّ الحقيقيين.

أضافت "لوث":

- في بعض الأحيان، أفكر بأن حادثة قتله لم تكن بسبب السرقة كما أشاعوا.. بل بسبب هذا الموضوع تحديدًا.

- لا تبالغي يا عزيزتي.

- أنتِ تحذرينني دائمًا يا "ديليا"، ولكن يتضح في النهاية أنني على حَقٍ في شكوكي.

تعلق "ديليا" بأن كثرة القصص التي قرأتها وسمعتها من خلال المنظمة، جعلتني أتأثر وأتصور نفسي مكان أصحابها. تقول إنها تتفهم ذلك تمامًا.. لأن الجدات أنفسهن يتوحدن مع حكايات بعضهن البعض، ويعتبرن أنفسهن عائلة

واحدة كبيرة العدد.. إن فرحت واحدة أو حققت انتصارًا، أو عثرت على حفيدٍ لها، تفرح الباقيات ويحتفلن بانتصارها.. "بولا" و"بيتو" و"تمارا"، وغيرهنَّ ممن تم التوصل إليهنَّ، هم أحفاد الجميع؛ وحين عثرت "ساشا" على "كارليتا" بعد جهود مضنية.. عمت السعادة كل عضوات المنظمة.

- لا تتأثري بهذه الحكايات أكثر مما يجب يا "لوث"، كنوع من الدعم لأنشطتنا، فهذا تصرف خاطئ يا عزيزتي.

يُخيفني كلامها، وعدم اقتناعها بما أعرف أنا أنه صحيح تمامًا. أمسك بيدها وأطلب منها ألا تتخلى عني الآن، بعد أن قطعت شوطًا كبيرًا في رحلتي. تتساقط دموعها، فأسألها:

- لماذا تبكين يا "ديليا"؟

- خطر ببالي فجأة أن حفيدي "مارتين" قد يكون يبحث عني، في مكان ما، الآن. تمنيتُ أن يكون لديه قوتك وتصميمكِ.. فذلك يعني أنه سيجدني.

إنها المرة الأولى التي أرى فيها دموعها. أحيط كتفيها بذراعي، محاولةً التخفيف عنها.

- هل تعلمين يا "ديليا" أنني تمنيت العكس؟ لو أن لي جدة تبحث عني، مثلكِ، لهانت المسألة، ولعثرنا على بعضنا البعض منذ زمن.

ﮏﮐ

- لم يكن لديها أي معلومة عن مكان حفيدها. لقد اختفى في أثناء إلقاء القبض على والديه في بيتهما. ظنت ابنتها أن صغيرها لدى أحدٍ من جيرانها، لكن ذلك لم يكن صحيحًا. شهد أكثر من شخص بأنهم رأوا الجنود يضعون الطفل في سيارتهم. في كل مرة يهاجم الجنود فيها بيتًا، يختفي الصغار بعدها، ويدعي المسؤولون أن المنزل كان يخلو من الأطفال أساسًا. على كل حال، تم قتل ابنة "ديليا" وزوجها بعد أشهر قليلة من اعتقالهما.

ﮏﮐ

أحمل "خوان" وأنا أقاوم دموعي الوشيكة. أقول لـ"ديليا":

- اخترت أن تكوني جدتي.. ما رأيك؟

أضع "خوان" على ركبتيها:

- وهذا الحبوب هو ابن حفيدتك.

أتكلمُ بصوت طفولي، وأقولُ على لسان "خوان":

- ياه يا جدتي! أنتِ عجوزٌ جدًّا جدًّا!

تضحك من قلبها، فيبتسم لها "خوان" بسعادة.

تعدني بأن تدعمني، وبألا تقول شيئًا سلبيًّا، إلى أن أنجح في الوصول إلى دليل ملموس يثبت صحة نظريتي وحدسي.

أقرر الذهاب إلى "كورونيل برينجلز" بأسرع ما يمكن، على أن يلحق بي "راميرو" في نهاية الأسبوع. عليّ أن أصل إلى "ميريام لوبيز"، بأي طريقة.

ﮋﮊ

كان ذلك أول ما خطر ببالي، حين سمعت التشخيص النهائي. كلا، ليس بالضبط. أول ما فكرت به في تلك اللحظة هو أنني أوشك على الموت، ثم استعدتُ منظر "ليليانا" وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة في الميدان، وأنّبت نفسي لعدم تنفيذ وصيتها حتى الآن.

علق "فرانك":

- ماذا تقصدين يا "ميريام"؟ لقد بذلتِ كل ما في وسعك، ولم يكن بإمكانكِ فعل المزيد.

منذ ثلاثة أعوام، حين كنا في زيارة لـ"بوينس آيرس"، قررت أن أبحث عن "ليلي" من جديد.

ﮋﮊ

- ذهبت "ميريام" مع "فرانك" إلى "بوينس آيرس"، لحضور جنازة والدته، قبل ثلاث سنوات. اتصلت بمنزل "دوفاو" وقررت أن تتحدث بلكنة أمريكية، وتطلب رقم "ماريانا". لكنها لم تضطر لفعل ذلك، إذ كانت الخادمة هي من ردّت عليها. أخبرتها بأن أفراد الأسرة خارج "بوينس آيرس" في الوقت الحالي، وأعطتها رقم "ماريانا". لكن "ميريام" لم تعرف ماذا تفعل بالرقم.. ما الذي ستقوله لـ"ماريانا" أو "ليلي"؟

استطردت "لوث" قائلة:

- لكن مرضها الشديد، بعد ثلاث سنوات، دفعها لأن تفي بالوعد الذي قطعته منذ عشرين عامًا.

ﮋﮊ

أردتُ أن أتصل بـ"ليلي".. ولكن ماذا أقول لها؟ وماذا لو تذكَّرني أحد وعرف أنني المرأة التي أرادت خطفها في "إنتري ريوس"؟ هل سيقتلونني أنا أيضًا؟ ينتابني الخوف، ويفتح جروحي التي التأمت خلال السنوات التي أمضيتها مع "فرانك".

عِشتُ الكثير من العذاب والخوف في هذه المدينة. "ليليانا" ورفاقها عانوا الكثير أيضًا، لكنهم كانوا أكثر قوة وصلابة مني، ولديهم مبادئ يتحملون من أجلها كل شيء. أنا مجرد إنسانة تافهة. ليس بإمكاني إنقاذ "ليلي" الآن. على كل حال، كلما حاولت تحقيق خطوة في هذا الطريق، يتم قتل أحد.. في البدء كانت "ليليانا"، ثم "إدواردو" بعد ذلك. لقد أفلتا من مصيريهما بأعجوبة.

في أعوامي الأولى في الولايات المتحدة، كنت أفكر في "ليلي" كثيرًا، وفي كل مرة أشعر بالذعر. لكن خوفي تضاءل مع الوقت، وتباعدت مرات تفكيري في الطفلة. لم تعد طفلة، لقد أصبحت مراهقة الآن.

ﮋﮊ

- أقنعها "فرانك" بأنه لا معنى لمصارحتي بالحقيقة، بعد أن كبرت وودعت مرحلة الطفولة.

- رأي غير صائب على الإطلاق. يجب أن يعرف الإنسان جذوره، أيًّا كان عمره.

- أتفق معك تمامًا يا "كارلوس"، وهذا ما جعلني أواصل البحث عن هويتي الحقيقية؛ لكن "فرانك" رأى أنه لا جدوى من معرفة الحقيقة، بعد أن تربيت وسط تلك الأسرة، وأصبحوا أهلي.

ﮋﮊ

لكنني أعاني مرض السرطان الآن.. ماذا لو لم تُتَحْ لي الفرصة بإخبارها، قبل رحيلي؟ هل سيُدفن السِّرُّ معي؟ تخيفني الفكرة. أقرر أن أكتب لها خطابًا. أمزق الأوراق أكثر من مرة، وأعيد صياغة عباراتي من جديد.

هل ستصدقني "ليلي"؟ لا أدري. سأخضع لعملية جراحية في الغد، ولا أدري إن كنت سأخرج منها على قيد الحياة.

أضع رسالتي داخل ظرف، أكتب عليه "لوث إيتورب". أقرر بأن أكتب العنوان، بالمرة، ليسهل عليهم إرسال الخطاب عقب وفاتي.

ഈന്ദ

- قبل يوم من دخولها المستشفى، لإجراء الجراحة، تتصل "ميريام" بمنزل "ماريانا" وتستفسر عن العنوان، بحجة أو بأخرى، لكنهم يرفضون إعطاءها إياه.

ഈന്ദ

أتساءل لاحقًا إن كان امتناعهم عن تزويدي بالعنوان، يعود لأسباب أمنية؟ هل تخشى انتقام عائلات الأشخاص الذين قتلهم أبوها دون وجه حَق؟ كيف يمشي هؤلاء الطغاة وأفراد أسرهم بين الناس، ويجلسون على المقاهي وسطهم؟ ألا يخافونهم؟ لقد شاهدت مؤخرًا برنامجًا تليفزيونيًّا، ظهر فيه الضابط البحري الذي يُدعى "شيلينجو"، وذكر أنهم كانوا يعمدون لإعطاء ضحاياهم إبرًا تفقدهم الوعي، وبعدها يقذفونهم في عرض البحر. لم أكن أعرف ذلك. جرائمهم تفوق الخيال.

شاهدت البرنامج في منزل "سالي"، وكان معنا صديقتنا الثالثة "بيرينيس". فوجئتُ بما رأيته وسمعته، فانهمرت دموعي في ألم، وسرعان ما رحت أبكي بحرارة. أخبرتهما عن "ليليانا" وما مرت به هي وزملاؤها في المعتقلات.

سألتني "سالي" بحيرة عن عدم انتقام الناس من أولئك الأشرار الفاسدين.. لم أعرف بمَ أُجيبها.. أنا مثلهم.. سعدتُ بحياتي الجديدة، وتناسيتُ تلك الطفلة المسكينة، بدلًا من إنقاذها.

أنا جبانة وخائنة. يجب أن تصل هذه الرسالة إلى يد "ليلي"، لتعرف من يكون أبويها ومن قتلهما ولماذا. تقفز إلى ذهني صورة "ليليانا" وهي ترضع ابنتها، وقد

ارتسمت ابتسامة جميلة على شفتيها، ثم أراها وهي ملقاة وسط الميدان، وقد اخترق الرصاص جسدها الضعيف. لا يمكن أن تظل "ليلي" جاهلة بما حدث لأمها.

ماذا لو اتصلت ثانيةً، وطلبت التحدث إلى "لوث"؟ سأخبرها بكذبة ما، لأحصل منها على العنوان، ثم أرسل لها خطابي. في تلك اللحظة، يرنُّ جرس الباب. إنها "بيرينيس". ممتاز!

ꕥ

- حضرت لزيارتها صديقة برازيلية لها، وطلبت منها "ميريام" أن تتحدث على التليفون، وتقول إنها تريد التحدث معي. كانت "ميريام" بحاجة إلى صوت آخر، يختلف عن صوتها، ولهجة مغايرة للهجتها، حتى لا يرتاب فيها أحد، وبخاصة أنه لم تمضِ أكثر من ساعة ونصف على اتصالها بهم.

ꕥ

الإسبانية التي تتحدث بها "بيرينيس" سيئة للغاية، رغم أنها لا تدرك ذلك، وتظنُّ العكس؛ وتحاول إضفاء لكنة أرجنيتينية عليها، لتبدو عصرية ومرحة.

ꕥ

- تلخصت خطة "ميريام" في أن تتناول السماعة من صديقتها، وتتحدث هي معي، فور أن آتي للرد على المكالمة. لكنهم أخبروها أنني لم أعد أعيش في البيت.

ꕥ

لقد تركتْ البيت. هل قررت الهروب منهم؟ حبيبتي "ليلي".. هل ورثت شجاعة أمك وأبيك؟

- هل تمانعين في إعطائي رقمها الجديد من فضلك؟

- مَن المتحدث؟

لا شك أنها "ماريانا". ذلك الصوت العميق والأسلوب البارد، المتعجرف، لا يصدر إلا من شخص مثلها. لا أستبعدُ أن تكون هي من أصدرت أوامرها بقتل "إدواردو"، حتى لا يورط والدها في فضيحة. كان عليّ أن أبلغ عن "دوفاو".

࿇

يقول "كارلوس":

- ما زال بإمكانها أن تبلغ عن "آنيمال"، هنا في مدريد؛ وبإمكاننا طبعًا أن نقدم بلاغًا ضد "دوفاو" في الأرجنتين. وفاته لا تشكل عائقًا.

࿇

تكرر "ماريانا" سؤالها:

- مَن المتحدث؟

- أنا "بيرينيس"، لقد تقابلنا في أثناء السفر.

- آه.. خلال رحلة "لوث" إلى أوروبا؟

تبدأ "بيرنيس" في سرد عدد من الأكاذيب على "ماريانا"، بإسبانيتها الركيكة، وتنجح في النهاية في الحصول على رقم تليفون "ليلي".

أتصل بها، فيجيبني صوت رجل.. هل هو حبيبها يا ترى؟

࿇

- لكنني لم أكن في البيت.

࿇

- هل يمكنك إعطائي العنوان؟ أرغب في أن أرسل لها دعوة لمناسبة خاصة. أنا صديقتها منذ أيام الطفولة..

أتساءل إن كان سيصدقني؟ صوتي صوت امرأة ناضجة، لا يمكن أن أكون في عمر "لوث". لحسن الحظ، لا يعلق، ويكتفي بذكر العنوان. أخبره بأن اسمي "سيلفيا".

أعود إلى خطابي، وأكتب في نهايته:

ملاحظة: أنا "سيلفيا" التي اتصلت بك مؤخرًا.

أضع الظرف داخل آخر أكبر منه حجمًا، وأكتب عليه: "يُفتَح بعد وفاتي".

يلمحه "فرانك"، فيحمله ويقول:

- لن تموتي يا "ميريام".. سيجرون لكِ عملية جراحية، وستنجح. صدقيني.

أخشى أن يفتح الظرف، فأصيح به بصوت مرتفع للغاية:

- إياك أن تفتحه!

يُصابُ بالصدمة في البداية، لكنه يتمالك أعصابه بعد قليل، ويسألني محاولًا الابتسام:

- ما هذا أصلًا؟ وصيتكِ؟

- كلا.. خطاب كتبته لـ"ليلي". عدني يا حبيبي أن ترسله لها.

ༀ

- لم أقرأه قط، لأن "ميريام" لم تمت خلال الجراحة كما كانت تتوقع.

ༀ

أين أسأل عن "ميريام"؟

يقترح "خافيير" أن أبدأ ببار قريب من منزل خالتها. يصف لي مكانه بالضبط، ويُعقِّب:

- لا أتذكر اسمه.. لقد مضت أعوامٌ كثيرة.

حين نصل، نكتشف وجود أكثر من بار. ندخل أولها. أقترح على "راميرو" أن يطلب شيئًا. البارمان لا يزال في مقتبل الشباب، نسأله:

- هل تعرف "ميريام لوبيز"؟ هل سمعت عنها؟

لا يظهر أي استجابة، وكأنه لم يسمعنا، نقول:

- كانت ملكة جمال هنا، منذ بضعة أعوام.

يجيب باقتضاب، بوجه متجهم:

- لا.

ༀ

الرجل في البار المواجه له أكبر عمرًا، لكنه لا يعرف "ميريام لوبيز". أقول لـ"راميرو":

- لا تذكر شيئًا عن كونها ملكة جمال.. يبدو أنها كذبة بلهاء ترددها خالتها.

لكن "راميرو" يتذكر بأن "خافيير" قال إنه سمع المعلومة في البار، وليس من الخالـة. أضـم "خوان" إليّ، إنه يبدو منزعجًا ومتـوترًا.. يبـدو أن تـوتري انتقـل إليـه. أتـصلُ بــ"خـافيير" مـن تليفون عمومي، يخبرني بأن اسم المرأة هو "نونـسيا"، وأنـه لا يتـذكر شـيئًا آخـر.. أشـعر بأنـه متضايق من استفساراتي الكثيرة، فأنهي المكالمة بشكل ودود:

- حسنًا.. شكرًا يا "خافيير".. سأعاود الاتصال بك فور أن أتوصل لشيء.

"خوان" يبكي بصوت مرتفع جدًّا، أدفع عربته باتجاه الميدان وأشير إلى الأشجار.. إنه يحب النباتات وتستهويه أوراقها. حين يهدأ، أقول لـ"راميرو":

- ربما علينا أن نسأل كبار السن..

أتلفَّت حولي، فألمح سيدتين مسنتين على مقعد خشبي عريض، في حديقة الميـدان. أقـترب منهما..

- أنا أبحثُ عن امرأة تُدعى "ميريام"، كانت تعمل في مجال عرض الأزياء.. هل تعرفانها؟

تنظران إليّ بوجل.. فأدرك أنه يتوجب عليّ تقديم تفسير ما. أقول:

- أنا أكتب مقالًا عن عارضـات الأزيـاء الأرجنتينيـات، وعلمـت أن "ميريـام" هـذه تنحـدر أصولها من "كورونيل برينجلز"، ولكنني لا أملك عنوانها.

- لعلك تقصدين "أليخاندرا"؟ إنها عارضة أزياء أيضًا.. أنا أعرف والدتها..

- كلا.. لا بأس.. سأواصل البحث عنها.

يرتفع صوت "خوان" بالبكاء، من جديد. إنه متعب. أحمله بين ذراعيّ.. وأقترح أن نركـب السيارة، ونتحرك بها قليلًا، ليهدأ. أجلسُ بجواره في الخلف، بينما يطوف "رامـيرو" بالـسيارة في الطرقات نفسها، عدة مرات. أغني لـ"خوان"، إلى أن يهـدأ تمامًـا، ويستـسلم للنـوم. أجلـس في الأمام وأطلب من "راميرو" أن نواصل البحث.

نلمح صيدلية قديمة، فنفكر أن أصحابها قد يعرفون شيئًا عن "ميريام" وخالتها. يعود منها "راميرو" سريعًا. إنهم لا يعرفونهما. يتكرر الأمر في السوبرماركت، ومحل الخرداوات. يقول محاولًا طمأنتي:

- أنا متأكد أن أصحاب تلك البقالة الصغيرة، يعرفونهما.

إنه ليس حبيبي فقط، بل صديقي المخلص أيضًا.

يمضي وقتًا طويلًا داخل محل البقالة، ثم يخرج مبتسمًا بانتصار. يقول عند ركوبه السيارة:

- لقد تُوفيت السيدة "نونسيا" منذ عامين. لا تجزعي! لقد قمت ببعض التحريات.. زوجك أمهر من ضباط المباحث!

يضيف:

- قالت المرأة بالداخل أنها نسيت اسم "ميريام"، لكنها وصفتها بأنها جميلة ورائعة. قالت أيضًا إنها سافرت إلى الخارج، ولم تعد تعيش في الأرجنتين. أخبرتني بأن للسيدة "نونسيا" ابنة تُدعى "نايومي"، وأعطتني اسم زوجها بالكامل.

احتضنه بفرحة، وأقول:

- أنت عبقري!

- لكنها ليست متيقنة مما إذا كانا لا يزالان هنا في "كورونيل برينجلز"، أم أنهما غادرا المنطقة إلى "بوينس آيرس". اقترحت عليّ أن أتصل بدليل التليفون، لأحصل منه على عنوان بيتهما. ربما كانا لا يزالان هناك.

نتصل بالدليل، ثم نتوجه إلى العنوان الذي أعطونا إياه. نعبر الحديقة الصغيرة في مدخل العمارة، ثم نصعد بضعة طوابق. نضرب الجرس عدة مرات. تفتح إحدى الجارات بابها، وتقول بطيبة:

- ليسوا هنا. إنهم لا يقضون أيام السبت في بيتهم. يغيبون طوال نهاية الأسبوع، في بعض الأحيان.

- نريد أن نسأل عن عائلة "فينوليتو"..

- آه! هؤلاء! كلا.. لقد غادروا منذ زمن.

- هل لديك رقم تليفونهم الجديد؟

- كلا.. فأنا و"نايومي" لم نكن على وفاق.

أشعر بأن لديها ما تقوله، ولكنني لستُ على استعداد لسماع ثرثرتها، فأستدير لأنزل السلم. في اللحظة نفسها، أسمع "راميرو" وهو يقول لها:

- تلك الـ"نايومي" شرسة جدًّا، أليست كذلك؟

تومئ الجارة برأسها، موافقة. أنزل السُلَّم بسرعة قبل أن تفلت مني ضحكة، لكنني أسمعه بوضوح:

- هل تعرفين أنها تشاجرت مع أمي؟

- صحيح؟!

يمضي "راميرو" وقتًا طويلًا في الثرثرة مع الجارة. ألمحه أخيرًا وهو يسلم عليها بحرارة، مودعًا. يركب السيارة، وقد أضاءت وجهه ابتسامة سعيدة، يقول ممازحًا:

- أفكر في ترك الإعلانات، والعمل في مجال التحريات.

يضيف قائلًا:

- حسنًا.. "ميريام" هاجرت إلى الولايات المتحدة. أخبرتني المرأة بأنها رائعة الجمال، وأن "نايومي" تغار منها جدًّا وتكرهها. أصحاب الشقة الجدد يملكون رقم "نايومي" الحالي.

سوف نتصل بهم، ونطلب منهم الرقم. أزاح "راميرو" عني – كعادته - عبئًا ثقيلًا. سوف يساندني ويدعمني إلى أن نتوصل معًا إلى الحقيقة.

༄༅

تمت العملية الجراحية بنجاح. مرحلة العلاج، احترازية فقط. أسأل الأطباء:

- كيف أتأكد من أن المرض لن يهاجمني مجددًا؟

يخاطبونني بصدق ووضوح.. هذا ما يعجبني في أولئك الأمريكيين، رغم برودهم الشديد. إجاباتهم محددة، وتعتمد على النسب والأرقام:

- يعود المرض في 46% من الحالات، ويختفي بالعلاج في 54% من الحالات.

لا بأس.. نسبتا الحياة والموت متقاربتان. مرت بحياتي أيام موجعة، ولحظات حلوة. الفترة القصيرة التي أمضيتها مع "ليليانا" و"ليلي" كانت هي الأسعد في حياتي بأكملها. لو متُّ الآن، فسوف يرسل أحدهم خطابي إلى "ليلي"، وهذا أكثر ما يهمني.

ﮋﮊ

أصحاب الشقة الجُدُد يعطونني رقم "نايومي"، دون أي مشكلة. أتصل عدة مرات، ولا مجيب. في الخامسة، يرد عليّ شخص يطلب مني معاودة الاتصال بعد التاسعة والنصف. كيف ستمرُّ هذه الساعات الطويلة؟

لا أدري أي حجة أقولها لماما، حتى لا أقابلها. ليس لديَّ الرغبة في لقائها. سأفعل ذلك بعد لقائي بـ"ميريام". هل "ميريام" هي أمي الحقيقية؟ أحاول تذكر شكل المرأة التي عرضت عليّ أن تشتري لي بعض الآيس كريم.. لكنني أفشل. يتردد صدى صوت "ماريانا":

- تلك المرأة المجنونة التي قالت بأنني لستُ أمك!

أي طاقة لديها لتظل تردد هذه العبارة لسنوات طويلة؟ حين اتصلت بي ظهيرة اليوم، قلتُ لها إنني أفضّل ألا تأتي لزيارتي لأنني سأذاكر دروسي، فلديَّ امتحانان في شهر ديسمبر. لكن إلى متى سأواصل اختراع الحجج؟ عليّ أن أواجهها يومًا ما.. ربما بعد لقائي بـ"ميريام" ومعرفتي للحقيقة كاملة. عيد ميلادي الأسبوع القادم، وسوف تحرص ماما على الحضور لتهنئتي. هل تاريخ ميلادي دقيق يا ترى؟ هل حقًّا ولدت في الخامس عشر من نوفمبر؟ أم أنه زائف، ككل شيء آخر مدون في الشهادة؟

سألتني "ديليا" عن المستشفى الذي أصدر شهادة الميلاد. سألت "خافيير"، لكنه لا يتذكر. وفقًا لـ"ديليا"، فإن إدارة المعتقلات كانت تصطحب بعض السجينات ليلدن في المستشفيات، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاءً غير مقصودة عند محاولة إخفاء الأمر.. كأن يزيلوا اسم الأم والمولود من الشهادة، ولكنه يظلُّ باقيًا في السجلات. قالت:

- ولذلك استطعنا تتبُّع بعض الحالات، وتوصلنا إلى أصحابها.

قالت لي، عبر التليفون، إنها لا تملك عنوان "ميريام"، وأنهما لم تتقابلا منذ أعوام. لكنني واصلت الإلحاح عليها لتوافق على لقائي. لا بد أنها تعرف الكثير عنها، فهي ابنة خالتها في نهاية الأمر.

ꕥ

- قلتُ لها إنني أعدّ بحثًا لصالح إحدى المجلات، وأنه سيتحول لاحقًا إلى كتاب. وعدتها أنها إن زوّدتني بمعلومات عن "ميريام"، فسوف نضع اسمها في الكتاب، كما أن أحد مصوري المجلة سيذهب لالتقاط صور لها. أعجبها ذلك وأثار حماستها كما يبدو، إذ أعلنت على الفور موافقتها للقائي في اليوم التالي. اصطحبت معي الكاميرا الخاصة بي. علمتني حكايات "ديليا" وتجاربها، هي والجدات، أنه يجب على الإنسان بذل كل ما بوسعه لاستخلاص الحقيقة. فهمت منها أن العلاقة بينهما انقطعت تمامًا، عقب وفاة "نونسيا". طلبت منها أن تقصَّ عليّ ما تعرفه عن طفولتها وسنوات مراهقتها.

ꕥ

تلك المدعوة "نايومي".. حيوانة بمعنى الكلمة! حرصتْ - بداية - على عدم إعطائي عنوان "ميريام"؛ ثم تحدثت عنها بشكل مسيء. حاولت في الدقائق الأولى أن تبدو لطيفة للغاية، لكنها سرعان ما عادت لطبيعتها الحقيقية، ولم تهتم بإخفاء كراهيتها لابنة خالتها. ربما تمتد غيرتها سنوات بعيدة. قلتُ، كاذبة، إن لديّ صور رائعة لـ"ميريام"، فهل لديها المزيد من أيام طفولتها؟

كنتُ أرتجفُ من فرط الانفعال.. هل سأجد شبهًا واضحًا بيني وبينها في تلك المرحلة العمرية؟

ꕥ

- أخبرني "راميرو" أن "مارتا" اصطحبته وهو في الخامسة عشرة، لمشاهدة معرض عن الأطفال الذين اختفوا، أو وُلِدوا في المعتقلات. كان هناك صور للآباء والأمهات والأطفال، الذين اختفوا دون أثر؛ وشهادات ميلاد، وخطابات.. لكن أكثر ما أثر فيه هو الصور المصنوعة بطريقة الـ"سيلويت"، بالظلال السوداء، لوجوه أطفال دون ملامح، وبجانب كل منها علامة استفهام.

سألت الجدات إن كان لديهن صور فوتوغرافية لذلك المعرض. أمضيت ساعات طويلة وأنا أتأمل الصور بحثًا عن شبه محتمل بيني وأي من تلك الفتيات الشابات.. وفي كل مرة يجبن على تساؤلاتي بصبر شديد.. "كلا. لا يمكن أن تكون أمك يا عزيزتي.. لقد اختفت في عام 1978".. أو "لا.. ليست هذه، فقد أنجبت صبيًّا".

୨୧

تقول "نايومي"، وقد التوت قسماتها في غيظ:

- يجب أن تعرفي أن "ميريام" لم تكن جميلة على الإطلاق.. كل ما في الأمر أن وجهها "فوتوجينيك" كما يقولون.

قالت إنها لا تمتلك أي صور لابنة خالتها، لكنني لم أيأس، واصلت طرح الأسئلة، علني أحظى منها بمعلومة مفيدة تقودني إلى "ميريام". أخبرتني أن الأخيرة غادرت "كورونيل برينجلز"، عقب زواجها هي بقليل، وأنها شاهدتها على شاشة التليفزيون بضع مرات في بعض عروض الأزياء. قالت بأن "نونسيا" كانت تحب ابنة شقيقتها، رغم أنها لا تستحق تلك المشاعر بتاتًا.

- حقًّا؟ ولِمَ لا؟

وقفت وقد استبدَّ بها الغيظ والانزعاج، وقالت:

- لماذا لا تبحثين عن شخصية أخرى تكتبين عنها؟ إنها ليست لطيفة، كما يتبادر لكِ، بل شخصية أنانية ومنافقة. أنا أعرفها جيدًا، فقد نشأنا معًا. ربّتنا ماما كأختين، فقد تخلت خالتي عن ابنتها وهجرتها. كانت مستهترة ومنحلة، مثل ابنتها بالضبط.

- هل تقصدين أنها كانت عاهرة؟

- لا أعرف بالضبط. لكنها تورطت في بعض المسائل الأخلاقية، عقب مغادرتها لنا. أنا متيقنة من ذلك.

୨୧

- تخبرني بتفاصيل تحطيم بيتها وبيت أمها، على يد رجال، هم من سلك الشرطة على الأغلب، كما تقول. كانوا يبحثون عن "ميريام".

ﮧﮨ

تتسارع نبضات قلبي.. كلا، لم يكونوا من الشرطة. إنهم تابعين للقوات المسلحة، كما يبدو.

تواصل "نايومي" كلامها:

- لقد أفلتت منهم. ربما كانت المسألة متعلقة بتجارة المخدرات.. لكن ماما المسكينة كانت مقتنعة أنها غادرت لأنها أحبت شخصًا أمريكيًا.

- ألم يكن ذلك صحيحًا؟

تهز كتفيها بامتعاض..

- بلى.. لقد أرسلت "ميريام" تذكرة سفر إلى ماما ودعتها إلى زيارتها في الولايات المتحدة. أقامت ماما معهما، لبضعة أيام.

أشعر بالغيظ، وأتمالك أعصابي حتى لا أصفعها! كيف لا تملك عنوان المكان الذي أقامت فيه أمها؟! أسألها بهدوء، فتجيب بأنها أضاعته، وأنها لا تتذكر حتى اسم الولاية التي تقيم فيها "ميريام". أذكر لها عددًا منها، لعلها تتذكر.. "كليفلاند"؟ يبدو الاسم مألوفًا. "شيكاجو"؟ ربما.. الاسم أيضًا مألوف، لكنها ليست متأكدة إن كان ذلك بسبب الأفلام!

تقول بحقد فشلت في إخفائه:

- على كل حال، لديها وزوجها أموال طائلة..

تضيف:

- قالا لماما إن مصدرها هو الفندق الذي يمتلكه الزوج، لكن ماما ساذجة جدًا وطيبة، ويسهل الكذب عليها. أنا متأكدة من أن مصدرها الوحيد هو تهريب المخدرات.. أو شيء من ذلك القبيل. على فكرة، لم تعد "ميريام" إلى الأرجنتين منذ أن سافرت. هناك سببٌ يمنعها من ذلك، ولا شك.

قبيل مغادرتي، تسألني عن الصور التي وعدتها بنشرها لها. أخرج الكاميرا، وألتقط لها عددًا منها. أقول، محاولةً الضغط عليها لاستخلاص معلومات أكثر:

- إن فشلتُ في الوصول إلى "ميريام"، فلن يُنشَر المقال على الأرجح، للأسف الشديد.

أودعها، وأناولها رقم تليفوني:

- اتصلي بي لو تذكرتِ شيئًا.

ꕥ

أنا في مكتب "ديليا"، التي تتساءل مفكرةً:

- والآن.. ما الخطوة التالية؟

أقترحُ عليها أن أتواصل مع "دولوريس"، وأستأذنها في أن تعطيني عنوانها. تقول إنها هي التي ستكتب لها أولًا، وتشرح لها الوضع، ثم ستبلغني بردّها.

ꕥ

- مرَّت عدّة أشهر على لقائي بـ"نايومي"، التي لم تتصل بي. أدركت أن هذا الطريق مسدود، وأن عليّ البحث عن غيره. وافقتني "ديليا" وزميلتها "جوليا" على أن الهجوم على منزل خالة "ميريام" وابنتها، وتفتيشهما، دليل على أنها كانت مُلاحقَة من قبل السلطات؛ ولكن لمَّا كان ذلك في 1977، أي بعد ولادتي، فإنهما تجدان صعوبة في تفسير المسألة. حاولنا الاستعانة بالأرشيف، لكننا لم نتوصل لنتيجة. كنا كمن يحاول تركيب صورة كبيرة في لعبة "بازل"، بقطع عديدة، متناثرة، متناهية الصغر. سألتني "ديليا" إن كنت قد تحدثت إلى ماما، فأخبرتها أنني أحاول تأجيل الموضوع قدر الإمكان.

تشيح "لوث" بوجهها، وكأنها تتألم من تلك الذكرى، وتواصل حديثها إلى "كارلوس":

- في نهاية المطاف، حدثت المواجهة مصادفة، دون تخطيط مسبق. كان ذلك في اليوم الذي بدأ فيه "خوان" المشي..

ꕥ

أفتح ذراعيّ، وأمدهما نحوه مشجعة. يسير خطوتين أو ثلاثًا، باتجاهي، وهو يضحك، ثم يسقط. نعيد الكرّة مرة أخرى. أرفعه من على الأرض،

وأساعده على الوقوف، وأحثُّه على المشي. يضحك طويلًا، فأضحك معه بسعادة. أسـمع جـرس المنزل، فأسرع نحو الباب. كانت "ديليا" قد أخبرتني بأنها ستزورني إن أسعفها الوقت.

تصيح ماما، بمرح، فور أن أفتح الباب:

- مفاجأة!

تقول إنها قطعت إجازتها في "بونتا ديل إيستي"، وعادت إلى "بوينس آيرس" بـضعة أيـام، لتبقى مع "دانييل" الذي يستقبل بعـض الـضيوف الأمـريكيين؛ وأنهـا انتهـزت الفرصـة لزيـارة ابنتها وحفيدها.

يضايقني حـضورها، وأنـزعج مـن وجودهـا ومـن إصرارهـا عـلى الإشـارة إلينـا بــ"الابنـة" والـ"حفيد"، وكأن الأمر حقيقي. ترى هـل باتـت تـصدق هـذه الكذبـة، بعـد مـرور كـل تلـك السنين؟

أقول لها:

- لقد بدأ حفيدك المشي، وأنت ما زلتِ لا تعرفينه جيدًا..

أدرك أنني أحاول افتعـال أي جـدل، حتـى لا أضـطر لمواجهتهـا بمـا أعرفـه. لا أملـك سـببًا للومها، فأنا التي طلبت منها تأجيل زياراتها، أكثر من مرة.

أنا خائفة، في الواقع.

تتجاهل عتابي، وتقول لـ"خوان":

- أرِ "ماريانا" خطواتك الحلوة.. هيا يا حبيبي..

أسألها بغضب مكتوم:

- لمَ تريدينه أن يناديكِ "ماريانا"، وليس "جدتي"؟

فور أن أقول ذلك، أشعر بالغباء، فأنا نفسي أنـادي "آميليـا" باسـمها. يتزايـد غـضبي حـين أسمع إجابتها المؤنبة:

- الكلمة سوقية ومبتذلة يا "لوث".

- وكأنكِ لستِ جدته!

أندفعُ في الكلام، دون أن أقصد:

- ولكن هذا هو الواقع، أليس كذلك؟ أنتِ لستِ جدته فعلًا.

تنظر إليّ بخوف:

- ماذا تقصدين؟

تتوالى اتهاماتي لها.. لقد خدعتني طوال حياتي، وتعمدت إخفاء الأمر عني. تظهر الصدمة بوضوح على وجهها. تتابعني بعينين تملؤهما الدهشة، دون أن تقول شيئًا. أضع "خوان" في غرفته، وسط ألعابه، وأعود إليها.

تستعيد تماسكها، وتقول ببرود:

- أنا لا أؤمن بالأطباء النفسيين، ولكن ربما يجب عليك الذهاب إلى أحدهم. أنتِ تعانين خللًا ما، سببه على الأغلب هو عدم توازن هرموناتكِ بعد الولادة.

أصيحُ بها:

- ما هذه القدرة العجيبة على مواصلة الكذب يا ماما؟! لقد رأيت شهادة الميلاد، بنفسي. لقد أنجبتِ صبيًّا ميتًا.

يتهاوى القناع المتماسك الذي تضعه على وجهها، وتتغضن ملامحها كما لو أنها شاخت بغتةً؛ أشعر حيالها ببعض الشفقة، وأُذكِّر نفسي بأنها كانت تجهل الأمر في البداية.

- لقد قاموا بخداعكِ أنتِ أيضًا، أليس كذلك؟ لكنك عرفت الحقيقة، بعد ذلك.

تصيح بغضب عارم:

- مَن الذي أخبرك؟ من الشرير، القاسي، الذي أخبرك؟ لا شك أنها تلك الكريهة.. "لورا"!

نتبادل الصياح، ولا تسمع إحدانا الأخرى.. تطالبني بمصارحتها بمن أخبرني، وأطالبها أن تقول لي ما تعرفه عن أمي الحقيقية. يرتفع صوت "خوان" بالبكاء. أهرع إليه، وأحتضنه لإسكاته. ألتفت إليها، فأجدها منهارة على الأريكة، وهي تبكي بمرارة. لا أريد أن أستسلم لمشاعر الشفقة. أخاطبها بصوت منخفض:

- اهدئي. علينا أن نهدأ، حتى لا نخيف الصغير.

- ما الذي تريدينه بالضبط؟ أنتِ تحقدين عليّ، وتشعرين بالضغينة نحوي، رغم كل ما فعلته من أجلك. أعطيتكِ كل شيء، وتحملت منكِ الكثير.. تجهمكِ الدائم، وتمردك وعدم طاعتك لي، وسلوكياتكِ الغريبة.. والآن.. بعد كل ذلك، تعاملينني بجحود بدلًا من أن توجهي لي الشكر.

- كان عليكِ أن تصارحيني بالحقيقة. هذا كل شيء.

تقف وتتناول حقيبة يدها، وتهم بالخروج. أخاطبها بلهجة آمرة:

- انتظري! سأحضر كوبًا من الماء لـ"خوان". سأعود على الفور.

تعلنُ أنها تُفضِّل أن ترحل في التوّ، حتى لا تتفوَّه بشيء بشع قد تندم عليه لاحقًا. يستفزني أسلوبها، فأسألها باستياء:

- مثل ماذا؟ بأنكم قمتم بانتزاعي بالقوة من امرأة مسكينة؟ تكلمي!

تمرُّ بجانبي في طريقها إلى الباب. أمسك بطرف فستانها. تعيدني تلك الحركة التلقائية إلى أيام طفولتي، حين كنتُ أتشبَّثُ بملابسها. أطرد الصورة من رأسي، ويرتفع صوتي من جديد:

- لا شك أن والدك قام بالاستيلاء عليّ..

ꕥ

- لم تناقش هذه النقطة، تحديدًا، معي. لا أدري إن كانت حقًّا لا تعرف دور والدها في القضية، أم أنها فضلت تجاهل ذلك.

ꕥ

تقول مُحذرةً:

- إياكِ أن تتحدثي عن أبي بهذه الطريقة! كان يحبُّك جدًّا. يجب أن تشعري بالعرفان له، فبفضله وجدتِ أمًّا وأسرة.

أسألها باستنكار:

- حقًّا؟! ومن الذي طلب منه ذلك؟ هل فعل ذلك من أجلي، أم قام به حتى لا تعاني ابنته المدللة الحزن؟

تتجه إلى الباب، ثم تلتفت نحوي وهي تفتحه، وتقول:

- أنا أشفق عليكِ يا "لوث". أنتِ إنسانة مريضة، ولستِ طبيعية على الإطلاق. اتصلي بي، حين تستعيدين عقلك وصوابك.

ꕥ

- نعم، اتصلتُ بها. سألتها عن أمي الحقيقية. أجابتني بأنها لا تعرفها، وأنها متأكدة من أنها لم تكن تريدني، كما هو واضح.

- ألم تسأليها عن "ميريام"؟

- بلى. ذهبت لزيارتها مرة، ومعي "خوان". جَفَلتُ حين ذكرتُ اسمها، لكنها أنكرت معرفتها. لم أعد أراها، فقد أصبح كلامها أكثر قسوة مما كان عليه. مشاعري نحوها مرتبكة ومتضاربة.. في بعض الأحيان أشعر بالأسى حيالها. هي - من جانبها - تؤكد أنها تشعر نحوي بالشفقة. الحقيقة أنني أفتقدُها في بعض الأحيان.

تضيف "لوث" بصوت شبه هامس، وكأنها تتحدث إلى نفسها:

- أتساءل أحيانًا إن كانت تشتاق إليّ؟

ꕥ

بعد أن تخرج، وتغلق الباب خلفها، أظل واقفة في مكاني دون حراك. بعد فترة طويلة، أذهب إلى "خوان" وأواصل تشجيعه على المشي:

- هيا يا بطل.. ليرى بابا خطواتنا الجميلة حين يعود.. أحبُّك جدًّا..

ꕥ

عليّ أن أخضع لعدة جلسات من العلاج. لماذا أحتاجها؟ ألم يؤكد الأطباء أنني قد تخطيتُ مرحلة الخطر، وأنني أتماثَلُ للشفاء؟ أواجه الموت بالخوف القديم نفسه. ماذا لو لم تصدق "ليلي" ما كتبته لها في رسالتي؟ يجب أن أراها، لأخبرها بنفسي بما كانت "ليليانا" ترغب في أن تقوله لها. صِحَّتي تحسنت بعض الشيء، ويمكنني السفر. مَن يدري ماذا سيحدث مستقبلًا؟ قد تتدهور حالتي بسرعة.

كم عمرها الآن يا ترى؟ واحد وعشرون، تقريبًا.

يقول "فرانك":

- وما جدوى معرفتها الآن؟ لقد تُوفيَ والداها الحقيقيان، كما مات ذلك الملعون الذي اختطفها.. لم يعد بالإمكان محاكمته أو سجنه.

- كيف عرفت بموته؟

- لقد قرأتُ الخبر منذ نحو عام، لكنني لم أشأ أن أبلغك به، حتى لا تستعيدي الذكريات السيئة القديمة.

- أخشى أن تسوء حالتي الصحية مستقبلًا، فلا أستطيع رؤيتها والتحدث إليها. يمكنني تأجيل جلسات العلاج عشرة أيام. لقد تحدثت مع الطبيب، وأبدى موافقته.

يخبرني "فرانك" أنني أبالغ في مشاعري، ويوضح لي أن العلاج احترازي فقط، ولا يعدو كونه أسلوبًا وقائيًّا، لا أكثر.

"فرانك" لا يصدق أنني سأموت قريبًا، لكنني أدركُ ذلك؛ ولا أريد أن أرحل عن عالمنا دون رؤية "ليلي".

- افهمني، أرجوك، أرغب في لقائها حقًّا. لن أخبرها بالحقيقة، إلا أن وجدت الظروف تحتم عليّ ذلك.

إنه لا يفهمني، ولا يوافق على ما قلته.

80C3

أستذكرُ دروسي، لامتحاني شهر ديسمبر. سأنقطع عن الدراسة بعدها، ثم أعاود الانتظام في الجامعة، ابتداءً من شهر أبريل. عرضت عليّ "مارتا" رعاية "خوان" يوميًّا، عند عودتي للدراسة. تلقيت عرضًا مماثلًا من "ديليا" والجدات الأخريات في المنظمة. الجميع يشجعني ويؤازرني، لنيل درجتي العلمية. أشعر بأنهم ـ جميعًا ـ أكثر ارتياحًا، لانشغالي بدروسي، عن ملاحقة أشباح الماضي؛ لكنني ما زلت أواصل البحث، دون استسلام. يجب أن أعرف من أكون. ما زال لديّ أملٌ واحد. "دولوريس" قادمة إلى "بوينس آيرس" خلال أيام معدودة.. ربما أمكنني معرفة بعض المعلومات المفيدة منها.

∞

أصمِّمُ على السفر. "فرانك" غير غاضب، بل يودعني بابتسامة:

- لن تتغيري أبدًا، أليس كذلك؟ اعتني بنفسك يا مجنونة، واتصلي بي فور وصولك.

وعدته بالعودة عقب أسبوع. عليّ أن أبدأ جلسات العلاج قريبًا.

أفكر في الطريقة التي سأقابلها بها. عنوانها لديّ، ولكن ماذا أقول لها؟ سأخبرها بأنني صديقة قديمة لوالدها.. نعم.. هذا هو الحل الأفضل. كلا.. ربما عليّ أن أتصل بها تليفونيًّا، قبل ذلك. ماذا لو أخبرتْ "ماريانا"؟ إنها تعرف أن "ميريام لوبيز" هي التي حاولت اختطاف الطفلة من أمام المدرسة.. حسنًا.. سأخبرها أن اسمي هو "ميريام هاريسون". هل ستصدق ما سأخبرها به عن أمِّها؟ هل لديَّ الجرأة لأن أقصَّ عليها التفاصيل كافة؟

∞

عليّ أن أستذكر دروسي بجدية أكبر، فامتحاني غدًا.. لكنني أشعر بتوتر بالغ. أنا بحاجة لنيل شهادتي الجامعية، وعليّ الاعتناء بابني وزوجي وبيتنا.. ولم يعد لديّ متسع من الوقت لمواصلة البحث عن أمي وأبي. ماذا أفعل؟ أشعر بأنني قاربت الاستسلام لظروفي، رغم أنني لا أريد ذلك.

ما الذي أبحث عنه أصلًا؟ لعل "ديليا" و"راميرو" محقان.. ربما أنا أبحثُ في الاتجاه الخاطئ، وأمي لم تكن سوى فتاة حملت بي عن طريق الخطأ واضطرت للتخلي عني. هذا كل ما في الأمر. أشعر بالحزن. لماذا لا تبحث عني، إن كانت ما تزال على قيد الحياة؟ ما الذي حدث لها إن كانت قد ماتت؟ هل تم قتلها؟

أتصل بـ"ديليا" وأسألها:

- كيف أحزن لوفاة إنسانة لا أعرفها؟

- انتبهي لدروسك، واصبري، فقد تحدث مفاجأة غير متوقعة، في أية لحظة.

- ماذا عن "دولوريس"؟

- ادرسي يا "لوث"، كما قلت لك، واهتمي بـ"خوان". هذا كل ما يمكنك فعله الآن.

"خوان" يسير نحوي بخطواته المُترنِّحة، فأضحك، وأشعر بتحسن على الفور. يرنُّ الجرس، فأصطحبه معي لنفتح الباب.

امرأة خمرية جذابة، ترتدي ثيابًا أنيقة. تنظر إلينا وتبتسم في خجل. تسألني بتردد:

- "لوث"؟ "لوث إيتورب"؟

أومئ برأسي. تتأمل "خوان" وتسألني:

- وهل هذا...؟

- ابني.. "خوان".

تقول بصوتٍ أقرب للهمس:

- أنتِ لا تعرفينني.. أنا.. أعني أنني كنت.. صديقة لوالدك.

لا بد أنها "دولوريس". أفتحُ الباب على اتساعه، وأدعوها للدخول. هذه إذًا المفاجأة التي حاولت "ديليا" أن تلمح إليها!

- مَن أعطاكِ العنوان؟ "ديليا"؟

- كلا.. زوجك.

- لم أكن أعرف ذلك.

ربما تعمَّد "راميرو" عدم إخباري، حتى لا أصاب بالإحباط إن لم يحدث ما أتوقع. تقول:

- لقد اتصلت بكِ منذ عدة أشهر.

- هل أنتِ "دولوريس كولادو"؟

- كلا.. أنا السيدة "هاريسون". كنتُ أعيش في "بوينس آيرس"، ثم غادرتها عقب وفاة والدك مباشرة.

ꕤ

- قالت بضع عبارات غير مترابطة، وأخبرتني أنها قابلته في اليوم نفسه الذي قُتِل فيه. أطلقت تنهيدة طويلة، ذكرتني بتنهيدة "خوان".. قالت إنهما تحدثا طويلًا، وأنه أخبرها بالعديد من الأشياء.

لم أهتم كثيرًا بكلامها غير المفهوم، ولم يحمل اسمها أي دلالة لي. سكتت قليلًا، وربتت على رأس "خوان". تعثَّر بعد ذلك، وأخذ يبكي عقب سقوطه. قمت بحمله وتقبيله، لكنه استمرَّ في البكاء. تناولته مني، وأخذت تدندن له بأغاني أطفال قديمة، يؤثر صوتها فيّ بطريقة لا أعرف كيف أفسرها. ينظر إليها "خوان" بهدوء، وقد توقف عن البكاء.

ﷻ

- ثم بدأت تتحدث.. علقت في البداية بأن لـ"خوان" عينين جميلتين، تشبهان عيني و"ليليانا". قصت عليّ بعدها كل شيء، دون توقف..

ﷻ

تسألني "ليلي"، وقد ظهرت على وجهها ملامح صدمة شديدة:

- تشبهان عيني مَن؟!

أشعر بالخوف. عليّ أن أتمهل في كشف المعلومات وتوضيحها لها. تُكرِّر سؤالها بإلحاح. يدفعني ارتباكي للكذب:

- آه.. إنها صديقة عزيزة. عيناها لامعتان ومليئتان بالحيوية، مثلكِ بالضبط.

تنظر إليّ بحدّة. تسألني بصوت يُشبِهُ صوت أمِّها:

- مَن أنتِ أساسًا؟ تقولين إنكِ صديقة لأبي.. هل تقصدين "إدواردو ايتورب"؟

- نعم، بالطبع.

- ما اسمك الأول؟

إن أجبتُها بصراحة، فسوف تعرف أنني المرأة التي كانت تنوي اختطافها. سيزعجها ذلك حتمًا. أطأطئُ رأسي، ولا أعرف بمَ أجيب.

- هل تنوين الإجابة عن سؤالي، أم لا؟

- أنا "ميريام هاريسون".

تقول "ليلي" بصوت سمعته بصعوبة:

- "ميريام"؟!

تسألني:

- أأنتِ "ميريام" فعلًا؟!

تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثم تجلس أمامي وتحدّق إليّ بعدم تصديق.. وتصيح:

- "ميريام لوبيز"؟

أومئ برأسي، وأطلب منها أن تصغي إليّ. أخبرها أنني أنا المرأة التي كانت تنتظرها أمام المدرسة، وأن لديّ سببًا دفعني لمحاولة اختطافها حينذاك. يزداد بريق عينيها، وهي تجلس على الأرض أمام قدميّ.. وتسألني بشغفٍ:

- أأنتِ أمي؟

ꕥ

تنفجر "ميريام" في البكاء. أشعرُ بتعاطُفٍ غريب مع هذه المرأة. الأمر مختلف عما ظننتُه، كما يبدو. ربما تخلت عني برغبتها، ولم تدفعها ظروف قاهرة لذلك، ولذلك تشعر الآن بحرجٍ شديد. تنهمر دموعي بغزارة، وأقول لها بصدق:

- لا بأس.. لا شيء يهم، ما دمتِ قد جئت تبحثين عني. لا تشعري بالذنب. أنا سعيدة جدًّا لرؤيتك. أخبريني.. هل أنتِ حقًّا أمي؟

- كلا. لستُ أمَّك. والدتك تُدعى "ليليانا".. لكنني لا أعرف بقية اسمها. والدك هو "كارلوس إيسكويرو". لقد تعرضا للقتل، لأنهما كانا يسعيان لتحقيق العدالة الاجتماعية.

ꕥ

- منذ ذلك اليوم، وأنا أقرأ كل شهادة سجلتها المحاكم، علّ أيًّا منها يذكر اسم "كارلوس" أو "ليليانا". مشيتُ خلف أدلة غير صحيحة، عدة مرات، أوصلتني في النهاية إلى طرق مسدودة. اتصلت بكل شخص يحمل اسم "إيسكويرو" أو "سكويرو" في دليل التليفونات، إلى أن وصلت إلى شخص يمتُّ لك بصلة قرابة، وهو الذي أكّد لي أنك انتقلتَ إلى إسبانيا منذ أعوام.

تضيف "لوث" بابتسامة منتصرة:

- وهأنا معك الآن!

الـخـاتـمـة

1998



في الثالث من أغسطس 1998، دخلت "نـورا مينـديلزارو دي أورتيـز"، بخطـوات مـترددة، مكتب منظمة الجدات. لم تعرف من أين تبدأ. أسعدها الكلام الـذي سـمعته مـن "كـارلوس"، لكنه غريب جدًّا لدرجة أنها تخشى ألا يكون حقيقيًّا. لا ترغب في أن تتحطم آمالها من جديد. تلمحها "ديليا"، فتدعوها للدخول.

قالت إنها تلقَّتْ اتصالًا تليفونيًّا غريبًا بعض الشيء..

- لقد اختفت ابنتي في أثناء فترة الحكم الديكتاتوري. كانت حاملًا، وقتها. وُلِدَ ابنها ميتًـا.. ثم...

سكتت قليلًا، وأضافت بحيرة:

- زوجها، الذي يعـيش الآن في إسـبانيا، أخـبرني أن هنـاك فتـاة شـابة زارتـه هنـاك.. وأنهـا تقول..

فهمت "ديليا" على الفور مَن تكون السيدة. أشرق وجهها بسعادة، وقاطعتها:

- ما اسمه؟

- "كارلوس سكويرو".

أحست "نورا" بدهشة بالغة من رد فعل المرأة، التـي نظـرت إليهـا بعينـين دامعتـين، ثـم احتضنتها بين ذراعيها بحماسةٍ..

- لا بدّ أنكِ والدة "ليليانا" إذًا.. يا للروعة!

- هل تعرفين مَن تكون ابنتي؟

- لا أعرف اسمها الكامل، ولكننا نبحث عن أي معلومات تتعلق بها منذ مدة طويلة.

- اسمها "ليليانا أورتيز".

"نورا"، التي كانت خائفة من ألا تستطيع إفهام سيدات المنظمة القصة التي سمعتها من "كارلوس"، اكتشفت أنهن يعرفن تفاصيلها، أكثر منها. شرحت لها "ديليا" أنها تعرف "لوث" جيدًا، وأنها فتاة رائعة بمعنى الكلمة. قصَّت عليها ما تعرفه، واستمعت إليها "نورا" بصمت.

حين انتهت، ولاحظت سكوت ضيفتها، قالت "ديليا":

- أنا آسفة جدًا. لا بد أنكِ الآن في حالة صدمة. علينا الآن أن نأخذ عينة دم منكِ، لنقارنها ببيانات "لوث" المسجلة في المختبر.

فتشت "ديليا" في درج مكتبها قليلًا، إلى أن عثرت على صورة فوتوغرافية، ناولتها للزائرة:

- هذه "لوث" مع ابنها "خوان". الأمر مذهل، أليس كذلك؟ أنتِ أصغر من أن يكون لكِ حفيدة متزوجة ولها ابن.. كم عمرك، إن كنتِ تسمحين لي بالسؤال؟

- أنا في الخامسة والستين.

- لديّ الكثير من الاستفسارات في الحقيقة، ولكن من الأفضل أن تجري اختبار الدم أولًا.

تمعنت "نورا" في الصورة طويلًا.. وأخيرًا قالت بصوت هامس:

- كلا.

أضافت بصوت أكثر وضوحًا:

- لستُ بحاجة لإجراء اختبار الدم.

مرت بسبابتها على وجه "لوث" في الصورة، وقالت بحنان:

- هاتان عينا "ليليانا". إنها هي.. طريقة الوقوف نفسها أيضًا.

تركت الصورة، وقالت لـ"ديليا":

- لا يمكنني التعبير عن سعادتي بهذا الخبر المفاجئ. لا أحتاج لدليل. هذه حفيدتي. أنا متيقنة من ذلك. لكن إن كان الأمر يهمها ويهمكم، فسوف أجري اختبار الدم بكل سرور.

- هل يمكنني أن أحتضنكِ ثانيةً؟ لقد انحصر عملنا في البحث عن الأحفاد والحفيدات.. ولكنها المرة الأولى التي نعثر فيها على جدّة!



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
2. اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
3. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4. بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5. مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
6. لأننا كنا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
7. قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
8. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
9. الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
10. تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
11. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
12. موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
13. الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
14. احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
15. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
16. السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
17. جالفايس	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
18. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
19. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
20. فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
21. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
22. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
23. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
24. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
25. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
26. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
27. توباز	هاكان جنيد	تركيا
28. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
29. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
30. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا

31.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34.	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
35.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36.	الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
37.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43.	الكنائس السبع	ميلوس أوربان	التشيك
44.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50.	فيل في الحديقة	ميرال قريشي	سويسرا
51.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52.	بين الجبل والبحيرة	جوو دا شين	الصين
53.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56.	رئيس القبيلة الأخير	يي مِاي	الصين
57.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
58.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
59.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
60.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
61.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
62.	خرابيشكو	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا

63. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
64. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
65. دكان الساري	روبا باجوا	الهند
66. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
67. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
68. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

69. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
70. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
71. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
72. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
73. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
74. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
75. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
76. ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
77. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
78. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
79. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
80. لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
81. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
82. الجري	ثور جوتاس	النرويج
83. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
84. اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

85. النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
86. وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
87. أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
88. القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
89. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا

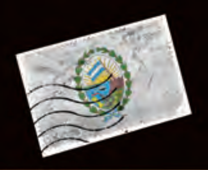
.90	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
.91	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
.92	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.93	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.94	التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
.95	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.96	هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

.97	بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.98	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا

#كتب_مختلفة #الأرجنتين



"لوث" امرأة متزوجة تنطلق من الأرجنتين في رحلة بحث عن هويتها في ماضيها الذي يتعلق بأكثر المراحل التاريخية ظلامًا في تاريخ الأرجنيتن، الماضي الذي ظلت لسنوات طويلة من عمرها لا تعرف عنه شيئًا، لكنها تكتشفه فجأة ودون سابق إنذار.

هذه الرواية تكشف الغطاء عمّا حدث في الأرجنتين في حقبة من أظلم حقائبها في التاريخ. من ناحية قمع الحريات والقوى المعارضة للجيش والحكم، والطرق المتوحشة التي اتخذتها السلطات الأرجنتينة في قمع وإسكات كل معارض لها، أبسطها: "الاختفاء القسري".

الرواية مكتوبة بطريقة مختلفة. تبدأ من الحاضر وتعود للماضي، وتكتشف العديد من الشخصيات والعلاقات مع مفاجآت غير متوقعة طوال الطريق. في قلب عملها الأدبي ذلك، نجد استكشافًا للحقائق في تاريخ الأرجنتين المعاصر.

إلسا أوسوريو



وُلدت في بوينس أيريس عام ١٩٥٢. وعاشت في مدريد لأربع عشرة سنة. عادت إلى الأرجنتين عام ٢٠٠٦. درست الأدب في جامعة بالأرجنتين لكي تصبح معلمة. "أوسوريو" روائية وكاتبة سيناريو للسينما والتليفزيون. تدير مدرسة للكتابة الإبداعية. فازت أعمالها بالجائزة الوطنية في الأرجنتين، وجائزة "الأرجنتوريز" لأفضل سيناريو كوميدي، و"الجائزة الفكاهية الصحفية"، وجائزة "منظمة العفو الدولية"، كما وصلت إلى نهائيات جائزة "فيمينا" الفرنسية.

تُرجمت روايتها هذه، "اسمي نور"، إلى أكثر من عشرين لغة. وهي الرواية الفائزة بجائزة "منظمة العفو الدولية" والتي تعد أول جائزة لـ"أوسوريو".

كتبت صحيفة "فرانكفورتر" الألمانية تقول إن المؤلفة نجحت في "إقناع القارئ بأدوات فن رواية القصص، حيث نجحت في جرنا إلى الواقع في رواياتها الخيالية، ونجحت في وصل خيالنا بالواقع أثناء القراءة".

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



